مكتبة فلسطين للكتب المصورة

تاريخ أوروبا الحديث

الجزء الأول

دكتورة / زينب عصمت راشد

دار الفكر العربي

تاريخ أوروبا الحديث

من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر

تأليف

دكتورة / زينب عصمت راشد

أستاذ فى قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس

و

عميدة كلية البنات الإسلامية سابقا بجامعة الأزهر

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

١١ شارع جواد حسنى - القاهرة

ص.ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

إهــداء :

إلى ذكرى أستاذى الراحل ، محمد شفيق غربال ،
فإليه يرجع الفضل فى توجيهى إلى التخصص فى تاريخ
أوروبا الحديث . طيب الله ثراه . وجزاه عنى خيراً .

مقدمة

يسعدنى أن أضع بين يدى القارىء العربى هذا الوجيز فى تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر ، راجية أن يجد فيه بسطا لأهم أحداث ذلك العهد .

وأشهد أننى أجهدت نفسى فى تجنب سرد الكثير من تفاصيل الوقائع والأحداث التى يزدحم بها تاريخ أوروبا فى ذلك العهد حتى لا يتعب القارىء حين يتحير بين ما فى مفاجآت العهد من أضواء قد تجهر بصره ، فلا يرى أو لا يحسن الرؤية . وليس يضيرنى – إن فعلت – أن أقدم للقارىء جهد المقل .

والواقع أن ذلك العهد من عهود التاريخ فى أوروبا يتميز بأحداثه الجليلة ، وانطلاقاته الفكرية الرائعة الوضاءة التى بهرت الدنيا ، وأيقظت العقول ، ثم دفعتها تبحث عن مصادر الخير وما يمكن أن تستخلص منها من أخلاط السعادة التى ينبغى أن يستمتع بها البشر فى هذه الحياة .

وليس من شك مطلقا فى أن جهود الأجيال الأوروبية فى ذلك العهد قد كشفت عن كنوز التراث الإنسانى الخالد ، وأضافت إليه ألوانا من المعارف والفنون مما تزخر به دور النفائس فى شرق الدنيا وغربها . بحسب نهضة الفكر فى مطلع هذا العهد أن يعرف الإنسان قيمة الحرية ؛ فيدين بها ويعشقها ويسعى إلى طلبها أيا كان ثمنها ، وكيفما كانت السبيل إليها ، فهذه شعوب أوروبا تسعى إلى تحرير قوميتها وتجعل لها قيمة حيوية تحرص عليها ، وهذه عقول الباحثين وجهودهم تظهر الشعوب على حرية العقيدة الدينية بعد ما بينت لهم ما فى سيرة رجال الدين وسلوكهم من خداع وتضليل وما فى سلطانهم من ظلم وطغيان . وبين رجال التحرير الدينى كل ذلك فى

كتب نشروها على الناس بلغاتهم القوميـــة ، ووجهوها إلى رجال الدين ، وعلى رأسهم البابوات . وتبلورت جهود الأحرار والصادقين من رجال الدين فى مذهب دينى جديد عرف بالبروتستنتية ، ولم يلبث أن أذيع فى مختلف البقاع الأوروبية والعالم الجديد برغم طغيان البابا وأعوانه . وكثر أتباعه من المستنيرين .

وفى ذلك العهد تكشف جهود الأوروبيين عن عالم جديد ، فتتجه إليه القلوب والأبصار ، وتهتز له أركان أوروبا ، وتترتب عليه نتائج خطيرة ، يتبلور أمرها أخيراً فى بناء دولة تصبح اليوم فى مقدمة الدول الكبرى وأبرزها فى عالم الثقافة والصناعة والاقتصاد والسياسة والمجد الحربى .

هذه إشارات قصيرة إلى جهود العالم الأوروبى خلال تلك القرون الثلاثة ، وما كان لها من نتاج رائع فى سبيل الحرية ، وتنوير العقول وما أفادت الإنسانية من كسب مادى ومعنوى . ولكن طبيعة الحياة تأبى أن تجرى أمورها بين يدى البشر فى سهولة ويسر ، بل تأبى أن يتذوق أبناؤها من حلوها شيئاً دون أن يتجرعوا من كؤوس المر فيها ما يزهق الأرواح ، ويفعم النفوس شقاء وهماً ، فنور الحياة المشرق لا يدركه أهلها وينعمون به إلا بعد أن يغمرهم ظلام الليل الدامس . فتاريخ أوروبا فى هذه القرون الثلاثة ملىء — رغم مكاسبها التى أشرنا إليها — بالحروب التى أوقدت نارها مطامع الملوك والحكام ، والمنافسات الشديدة بين الأسر الحاكمة فى مختلف أقطارها ، وإذا كانت الذريعة إلى تلك الحروب أحياناً قد بدأت فى رداء دينى ، فإنها لم تلبث أن أزاحت عنها ذلك الرداء الأطماع المادية التى كانت قلوب الملوك والحكام والزعماء تنطوى على نيرانها المتأججة . ولا مجال هنا للإشارة إلى أسبابها ونتائجها وإنما يكفى أن نذكر منها على سبيل المثال حرب الثلاثين عاما التى أحاط جحيمها بألمانيا ، فأهلك الحرث والنسل ، وأخر شعبها عن السير فى ركب التقدم إلى الأخذ بما كان ينبغى لمثله من حظ فى الكسب الحضارى والمادى ، كما أخرها عن تحقيق قوميتها قرنين من الزمان .

وبين يدى القارىء فى هذا الوجيز شىء من توضيح العلاقات بين دول أوروبا خلال القرن الثامن عشر ؛ وهو قرن لا يحتـــل فى تاريخ أوروبا نفس المكانة التى يحتلها كل من القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، فالأول هو مطلع تاريخها الحديث ويشير نهضتها فى عالم الحرية والثقافة والفنون ، وتلك ميزة انفرد بها بين ما تلاه

من عصور ، وأما ثانيهما : فإنى عازمة — إن مد الله لى فى أسباب الحياة وحقق أملى — على أن أفرد له وجيزا خاصا ، فهو جدير بذلك ، لأنه عهد الثورة الفرنسية ، وما ترتب عليها من نتائج ظلت أوروبا متأثرة بها دهرا طويلا . وليس يفوتنى أن أشير إلى أثر القرن الثامن عشر فى تاريخ القرن الذى يليه .

تلك آمال فى محاولة متواضعة أسأل الله أن يعيننى على المضى فى استكمالها والاستعانة فى ذلك بما أفدت من اطلاعى على كثير من الوثائق .

وعلى الله قصد السبيل . « المؤلفة »

الباب الأول

أوروبا في القرن السادس عشر

الفصل الأول

أوروبا الجديدة وأهم مميزاتها

لكل عصر من العصور التاريخية فى العالم مميزاته الخاصة . ولما كانت هذه المميزات مرتبطة فى تكوينها بمجهود الإنسان فأصبح من الطبيعى أن تكون بطيئة فى تكوينها وتحديد معالمها وأدى ذلك كله إلى أن تتخلل كل العصور التاريخية المختلفة مراحل انتقال ، تتبلور أثناءها هذه المميزات وتلك السمات .

ولا يختلف عن ذلك تاريخ أوروبا الحديث الذى يبدأ فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بعد فترة انتقال استمرت زهاء قرنين من الزمان ، لمعت أثناءها بعض الشخصيات أمثال « دانتى اليجيرى » (١٢٦٥–١٣٢١) مؤلف الكوميديا الإلهية ، وقد اشتهر بعرضه لطائفة من صور الحياة فى العصور الوسطى ، والشاعر « بترارك » (١٣٠٤ – ١٣٧٤) ، ويعرف بأب الحركة الإنسانية وقد خلد الحروب البونية بملحمته « افريقيا » المكتوبة باللاتينية ، كما نظم بالإيطالية « كتاب الأغانى » الذى يتضمن مقطوعاته الغنائية الرائعة التى استوحاها من صديقته « لورا » . وكان بترارك يعـتز بمؤلفاته اللاتينية ، ولا يفخر بمعرفته للإيطالية . والروائى الشاعر « بوكاشيو » (١٣١٣ – ١٣٧٥) ، اشتهر بمؤلفه الخالد « الديكامرون » وهو من المؤلفات العالمية المشهورة ، ويعتبر من أبرع الكتاب فى سرد القصة وتحليلها . ويعد « دانتى وبترارك وبوكاشيو » أئمة للأدب الإيطالى الحديث .

وتتنوع هذه المميزات بين فكرية وسياسية ودينية واقتصادية واجتماعية(١) .

المميزات الفكرية :

مما لا شك فيه أن التحرر الفكرى فى أوروبا كان من أهم مميزات العصر وكان ثورة على الجمود الذى ساد الحياة الأوروبية خلال العصور الوسطى ، لذلك كانت أهم ميزة

(١) انظر الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال القرن السادس عشر ص ص ٢٩ – ٤٣ .

لهذا العهد أن الفرد قد أصبح حراً فى أن يختار من العلوم وألوان الثقافة ما يلائم طبيعته وتفكيره غير مقيد بتقاليد الكنيسة وتعاليم رجال الدين الجافة ، وهم الذين كانوا يسيطرون على العقول والاتجاهات الفكرية فى العصور الوسطى . وكان لهم تأثيرهم الواضح على الأذهان عندئذ ، لأنهم كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة إلى جانب أقلية من الأرستقراطية فى المجتمع .

وهكذا أصبح التفكير حراً يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة ، ويعمل على توفير كل اسباب السعادة والحياة التى توفر الراحة للفرد ، ولم يعد التفكير فيما بعد الموت وأداء الواجبات الدينية هو وحده الذى يشغل الخواطر الإنسانية ، ومن ثم ظهرت الحركة الواسعة النطاق الشاملة التى عرفت بالحركة الإنسانية .

هذه الحركة تزعمها جماعة يعرفون بالإنسانيين ومن تلك التسمية نتبين أن الإنسان كان موضع البحث والاهتمام . فلم تعد هناك حقائق خفية لا يجب التعرض لها كما كان يوحى بذلك رجال الدين من قبل، وأصبحت المعرفة فى حد ذاتها معرفة كل شيء، التأكد من حقيقتها هو الاتجاه الجديد ، وقد ترتب على ذلك أن هذه الحركة الإنسانية اهتمت بالبحث عن تلك الحقائق فى كنوز المعرفة القديمة الرومانية والإغريقية بصفة خاصة ، فاكتشفت المعلومات الحديثة التى كان يجهلها الغربيون من قبل .

وقد تأثر الأوروبيون باتصالهم بالعرب فى الشرق أيام الحرب الصليبية . وفى الغرب أيام حكم العرب فى الأندلس ، تأثروا بما اطلعوا عليه من معلومات مختارة فى الطب والجغرافيا والرياضة والجبر وما لمسوه من تقدم فى بعض الصناعات مثل صناعة الورق والحرير والسكر، كل هذه الاتصالات جعلتهم يؤمنون بضرورة جمع المخطوطات القديمة ودراستها ونقلها والتعليق عليها .

ولما كانت هذه المخطوطات مكتوبة باللغتين الإغريقية أو اللاتينية فقد عكف بعض الإنسانيين على إتقان هاتين اللغتين . وكانت اللاتينية معروفة لدى الفئات المتعلمة فكانت هى اللغة التى تكتب بها الأبحاث العلمية والأدبية . فازداد عدد المقبلين على تعلمها إلى جانب إقبالهم على تعلم اللغة الإغريقية حتى يستطيعوا تفسير ما جاء فى الوثائق المكتوبة بهما . وعندما تم لهم ذلك أظهروا اهتماما بالغاً بلغاتهم القومية كالإيطالية والإنجليزية والفرنسية وغيرها .

وهكذا أصبحت اللغات القومية غير قاصرة على التخاطب والتفاهم بل عدت ذلك إلى البحث والتأليف ، ومن ثم كانت النهضة بهذه اللغات واستخدامها على النحو الذى قدمنا سبيلا ميسرة إلى توصيل المعلومات المتنوعة إلى مختلف الشعوب الأوروبية .

وكان لهذه الناحية أهميتها العظمى لأن حركة الترجمة من اللغات القديمة إلى اللغات الحديثة أدت إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية فأصبح من السهل على المسيحى المخلص أن يطلع بنفسه على المعلومات الدينية الأصلية وأن يعرف ما أدخل عليها من إضافات تتعارض مع أسس الدين ، وقد كان رجال الدين يحتفظون بسرية هذه المعلومات ويحرصون على عدم تسربها إلى فئات الشعب حتى يكتسبوا مكانة ومهابة فى نفوس المسيحيين ، وحتى يستغلوا هذه المعلومات لخدمة مصالحهم المادية المختلفة . ومن ثم كانت صيحة الإصلاح الدينى التى نادى بها « مارتن لوثر » فى ألمانيا وجون كالفن فى فرنسا وسويسرا وغيرهما من المصلحين الدينيين .

وكان لهذه الصيحات المطالبة بالإصلاح الدينى أثرها العميق فى توجيه الأذهان والنفوس إلى إصلاح الكنيسة بشتى الطرق والوسائل ؛ فكانت بذلك حركة الإصلاح الدينى الواسعة النطاق والتى شملت بعض الدول الأوروبية وترتب عليها اعتناق بعض شعوب أوروبا العقيدة البروتستنتية .

وترتب على الحركة الفكرية الجديدة اكتشاف بعض الحقائق التى كانت خافية على المجتمع الأوروبى منذ العصور الوسطى مثل كروية الأرض وحركتها حول نفسها، كما كان لتقدم فن الملاحة وتطوير بعض الأجهزة مثل البوصلة ، والاسطرلاب أثره البالغ فى نجاح بعض المغامرين الغربيين فى تحقيق أهدافهم الكشفية والاستعمارية ، فخطوا خطوات واسعة فى هذين المجالين ، واستطاعوا أن يكتشفوا عالما كبيراً فيما وراء البحار كما اكتشفوا الأمريكتين وجزر الهند الغربية ، واكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح إلى الشرق الأقصى . فكان لهذه الكشوف آثارها البعيدة فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وكان من نتيجة ذلك ظهور طبقة وسطى قوية ثرية ، الأمر الذى أوجد تغيرا جذريا فى المجتمع الأوروبى الذى كان يحيا فى العصور الوسطى حياة تتسم بالتخلف والجمود ؛ فهى لا تعدو الزراعة والفروسية . ولكن هذا المفهوم تغير منذ ذلك الحين كما سنرى فيما بعد .

ومما تميز به الفكر الحديث ظهور عدد كبير من المؤلفات الحديثة فى ميادين العلم والأدب والفنون المختلفة ، وكان من حسن حظ هذه الحركة - أعنى الحركة الإنسانية - أن ظهرت الطباعة فى أثناء نموها ويضاف إلى هذا ظهور طائفة من العلماء الباحثين المدققين المتحمسين للبحث عن كل ما هو قديم . ظهرت الطباعة فى ألمانيا حوالى منتصف القرن الخامس عشر وانتقلت منها إلى أنحاء أوروبا فساعدت على ظهور هذه المؤلفات والأبحاث التى قام بها الإنسانيون فى كل الميادين، مما سهل انتشارها ورواجها، فشاهدت العصور الحديثة إنتاجا علميا وأدبيا وفنيا لم تشاهده أوروبا من قبل منذ نهضة الإغريق فى عصر بركليس فى القرن الخامس قبل الميلاد .

المميزات السياسية للعصور الحديثة :

وإلى جانب المميزات الفكرية أخرى سياسية ، إذ كان أول ظهور الدول القومية الحديثة عند مطلع التاريخ الحديث فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر. وواضح أن ذلك قد كان نتيجة الفكر الإنسانى وانطلاقه نحو الاهتمام بسائر الدراسات والبحوث المتعلقة بحياة الفرد من جميع النواحى . مما جعل الأوروبيين يهدفون إلى المجتمع الذى يكفل لهم الطمأنينة والاستقرار . وباتوا لا يرون ضرورة للاحتفاظ بعالم مسيحى موحد من الناحيتين السياسية والدينية .

ومن ثم رأت كل جماعة – تسكن إقليما له حدوده الجغرافية الواضحة وترجع فى أصلها إلى جنس واحد بصفة عامة أو أجناس متقاربة ، ثم يتفق أبناؤها فى اللغة التى يتفاهمون بها ، كما يتفقون فى المصالح والأهداف القومية – أن تخلق لنفسها وحدة قومية مستقلة خاصة بها .

كل هذه الأمور دعت إلى قيام الدول القومية الحديثة ؛ إذ رأت هذه الجماعة أنها فى حاجة إلى حكم جديد يعنى فيه بكل مصالحها المعيشية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلاقاتها السياسية كافة . وكانت فكرة الامبراطورية أو الدولة الواسعة هى الفكرة السائدة أثناء العصور الوسطى ، كانت هناك امبراطورية عظيمة الاتساع كما كان هناك البابا وهو الزعيم الدينى الكاثوليكى لغرب أوربا .

واشتهرت العصور الوسطى بمراحل الصراع المرير بين هاتين القوتين : قوة

الامبراطورية وقوة البابوية ، فلم تقنع البابوية بتلك السلطة الدينية الواسعة على رعاياها المسيحيين الأوروبيين بل أخذت تنافس الامبراطورية فى سلطاتها الزمنية ، ذلك النظام السياسى لم يكن بطبيعته يخدم مصالح الشعوب الغربية المتفرقة العديدة المتباينة فى أجناسها ولغاتها ومصالحها القومية ، ولذلك نجد انه عنـــد مطلع العصور الحديثة نمت الاتجاهات القومية ونجحت بالتالى بعض هذ الجماعات فى تكوين وحدتها القومية National State .

وكانت انجلترا وفرنسا وأسبانيا أسبق هذه الوحدات السياسية ، وكان إتمام الوحدة القومية لهذه الدول الثلاث يرجع إلى أسباب خاصة متعلقة بكل منها ، بينما تأخرت شعوب وأقوام أخرى فى تحقيق هذه الوحدة ؛ منها على سبيل المثال ألمانيا وإيطاليا ؛ إذ لم تسمح ظروف كل منهما بتحقيق هـــذا الهدف السياسى إلا فى القرن التاسع عشر .

ومما لا شك فيه أن موقع هذه الدول الثلاث فى غرب وشمال أوروبا كان له أثر بعيد فى مساعدة ملوك هذه الدول فى تحقيق وحداتها القومية . ثم إن الظروف الداخلية لكل منها قد ساعدت على تحقيق هذا الهدف السامى . وإلى القارىء تفصيل ذلك باختصار .

فرنسا :

فى خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر كان أكثر من نصف مساحتها الجغرافية تابعا لانجلترا على حين كان يتنازع حكم ما تبقى منها أسر عريقة قديمة كانت تحكم هذه البقاع منذ أجيال بعيدة من أيام الاقطاع .

وحين وقعت حرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا ثم انتهت حوالى منتصف القرن الخامس عشر (سنة ١٤٥٣) بنجاح فرنسا فى طرد الانجليز من أراضيها خاسرة ثغر كاليه فى الشمال ، استطاعت فرنسا أن تحقق كيانها السياسى المتكامل ، وتجعل لها حدوداً جغرافية واضحة من شمال غرب أوروبا إلى جنوبها . وبذلت أسرة الفالوا مجهودات كبيرة فى هذا السبيل . وكان على هذه الأسرة التى عاصرت أحداث حرب المائة عام أن تقضى على القوى المناوئة لسلطاتها فى الداخل بغية جمع السلطة فى يدها. وكان دوق برجنديا يمثل قوة كبيرة ، طالما تفوقت على قوة الملك الفرنسى ، ويكفى أن نذكر أن الأراضى المنخفضة كانت يومئذ تابعة لدوق برجنديا .

ولذلك رأى لويس الحادى عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣) (١) أن يبدأ بالقضاء على سلطان هذا الدوق وهو وقتئذ شارل الجسور ، وقد تم له ذلك فانتصر عليه وفاز بملكه بعد مصرعه سنة ١٤٧٧ .

واستطاع ملك فرنسا لويس الحادى عشر أن يضع يده على أملاك شارل الجسور داخل فرنسا ومنها فرانش كومتيه Franche-Comté وأرتوا Artois وبيكارديا Picardie ولكن الأراضى المنخفضة أبت أن تستسلم للويس وظلت وفية لابنة شارل الجسور (مارى البرجندية) ، ولهذه الحقيقة أهمية سنذكرها فى حينها عندما نتحدث عن أملاك الهابسبورج فى أوروبا .

كانت أسرة أنجو فى فرنسا كذلك من الأسر المناوئة لملوك الفالوا فى حكمهم لفرنسا . لذلك بادر لويس الحادى عشر بمحاربة دوق أنجو فانتصر عليه وآلت إليه أملاكه ومن أهمها إمارة أنجو Anjou نفسها وإقليم بروفانس Provence ومين Maine. واستطاع بذلك أن يخطو خطوات هامة نحو تركيز السلطة فى أيدى أسرة الفالوا فى فرنسا ؛ فكان ذلك إيذانا ببداية تكوين وحدتها القومية .

واستأنف شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨) أعمال سلفه من الفالوا ونجح فى إتمامها ثم بدأ فى تنظيم فرنسا فى الداخل والعمل بكل الوسائل على تركيز السلطة فى يده حتى لا تخرج عن سلطانه الولايات الفرنسية التى ضمت حديثا إلى ملك أسرة الفالوا . وقد استطاع أن يجعل منها مملكة متكاملة الأرجاء لا ينقصها إلا إضافات بسيطة ضمت إليها خلال القرنين ١٧ ، ١٨ حتى أبلغها حجمها الحالى .

ولم يكتف شارل الثامن أول الأمر بإعادة تنظيم فرنسا فى الداخل وتركيز السلطة فى يده ، بل بدأ يطمع فى مد نفوذ فرنسا إلى خارج حدودها . وكانت إيطاليا القريبة من حدود فرنسا الجنوبية — والمقسمة سياسيا من إمارات مختلفة — هدفه الأول فكان أول من بدأ بالحروب الشهيرة عند مطلع العصور الحديثة والتى عرفت

(١) لويس الحادى عشر من أسرة الفالوا وفالوا Valois مقاطعة فى شمال فرنسا . منحها فيليب الثالث ولده الأصغر شارل ، وكان لشارل هذا ابن يدعى فيليب أصبح ملكا على فرنسا فى عام ١٣٢٨م، وعرف بين ملوك فرنسا باسم فيليب السادس ، وحكمت أسرة الفالوا فرنسا من عام ١٣٢٨ إلى عام ١٥٨٩ عند ما آل حق عرش فرنسا إلى فرع البوربون .

« بالحروب الإيطالية » . بدأت بزحفه على إيطاليا عام ١٤٩٤ واستمرت هذه الحرب حتى معاهدة «كاتو كمبرسيس » Cateau Cambresis ١٥٥٩ ، واستطاع الرجل فى بداية هذه الحرب إحراز انتصارات باهرة ، فاخترق شبه جزيرة إيطاليا بجيوشه من الشمال حتى نابولى فى الجنوب . وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت تتمتع بثمار حركة النهضة ، فكانت المركز الفنى والثقافى لأوروبا . كما كانت إيطاليا متقدمة حضارياً وفنياً إلا أنها كانت متأخرة جداً من الناحيتين السياسية والقومية ؛ لم يكن لها جيش موحد أو إدارة موحدة تدير دفة هذه الحرب وتنقذها من أطماع الدول الأوربية .

ولكن الدول الأخرى ، مثل أسبانيا وإمبراطورية (الهابسبرج) (١) ، أسرعت بالتدخل فى هذه الحرب خشية أن تسيطر فرنسا على إيطاليا . ومن ثم بدأ وعى جديد بين الدول الحديثة القائمة فى أوروبا يتعلق بعملها على المحافظة على ما يعرف بالتوازن الدولى Balance of Power. وكان لهذا المبدأ الخطير أثره فى أن معاهدة «كاتوكمبرسيس » التى أنهت هذه الحرب لم تحقق لفرنسا أطماعها فى إيطاليا وإنما تفوقت عليها فى هذا الميدان أسبانيا . وستتمكن فرنسا فى خلال القرن السابع عشر بفضل جهود وزرائها العظام ريشيليو ومازران من بعده ثم ملكها لويس الرابع عشر أن تبلغ مكاناً مؤثراً فى السياسة الأوروبية ، الأمر الذى جعلها تتفوق على سائر الدول الأخرى مما أدى إلى تكاتف دول أوروبا لمقاومة هذه السيطرة .

---

(١) الهابسبورج Hapsburg, Habsburg أو « هابيتشبورج » Habichtsburg الأسرة التى خرج منها البيت الإمبراطورى فى النمسا . اشتق اسم هابسبورج من قلعة هابسبورج (قلعة الصقر) فى سويسرا فى مكان شاهق الارتفاع قرب « شينتزناج » Schintznach التى بناها فى عام ١٠٢٠ « فيرنر » werner أسقف ستراسبورج وأخو زوجته كونت « رادبوت » Radbot فى « آرجو » AARGAU السويسرية التى تقع على نهر « آر » AAR وكان ابن رادبوت ، وهو « فيرنر الأول » الذى توفى عام ١٠٩٦ ، يحمل لقب كونت هابسبورج ، وكان هو جد « ألبرت الثالث » الذى توفى عام ١٢٠٠ ، وكان كونت زيوريخ أمير الالزاس العليا . وقد استولى « رودولف الثانى » الهابسبورجى الذى توفى عام ١٢٣٢ على « لا وفنبرج » Laufenburg « وفالتشنيت » waldsatte ولكن بعد وفاته اقتسم ولداه « ألبرت الرابع » و « رودولف الثالث » الميراث فيما بينهما ، ولم يلبث رودولف أن أصبح كبير دوقات النمسا ثم غدا إمبراطورا لألمانيا عام ١٢٧٣ .

انجلترا :

وأفادت انجلترا من نتائج حرب المائة عام(١) التى خاضتها ضد فرنسا ، وعلى الرغم من أنها قد فقدت أملاكها الواسعة فى فرنسا باستثناء ثغر كالية فى الشمال ، فقد أفادت من هذه الحرب لأنها أصبحت تركز جهودها على النهوض بنفسها ، وأفادت كذلك من الحرب الأهلية التى قامت فيها بعد حرب المائة عام . ففى سنة ١٤٥٥ بدأت الحرب الأهلية المشهورة باسم « حرب الوردتين »(٢) التى استمرت ثلاثين عاما (حتى ١٤٨٥) . والسبب فى تسميتها هذه أنها وقعت بين أسرتين عريقتين من أعرق الأسر الحاكمة فى انجلترا وهى أسرة « يورك » وكان شعارها الوردة البيضاء وأسرة « لنكستر » وشعارها الوردة الحمراء ؛ وكانت قاصرة على الطبقة الارستقراطية وكان الهدف منها هو الوصول إلى منصب ملك انجلترا . وفى هذا أكبر دليل على مدى ما وصلت إليه الطبقة الأرستقراطية من سلطان فى ذلك الوقت فى انجلترا . فقد كان كل نبيل من هؤلاء النبلاء صاحب عصبية وقوة ونفوذ فى إمارته ، وكان ذلك من العوامل التى عوقت تحقيق الوحدة القومية لانجلترا بعض الوقت .

وانتهت حرب الوردتين بانتصار أسرة لنكستر فى موقعة « بوزورث » **Bosworth** فى عام ١٤٨٥ . واستطاع هنرى السابع مؤسس أسرة التيودور أن يبدأ حكم هذه الأسرة فى انجلترا عام ١٤٨٥ . وقد تمتع هذا الملك بسلطان مطلق أيام حكمه الذى استمر حتى سنة ١٥٠٩ ، وكان من نتائج حرب الوردتين أن محيت أسر كاملة من طبقة الاستقراطية ذات الأملاك الواسعة فى انجلترا وآلت جميعاً إلى الملك الذى أصبح أغنى ملوك أوروبا جميعاً .

---

(١) حرب المائة عام من أشهر الحروب المعروفة فى التاريخ الحديث وأطولها مدى : وقعت بين عامى ١٣٣٧ : ١٤٥٣ بين انجلترا وفرنسا ، وكان السبب الرئيسى لها أن ملوك انجلترا — الذين كانوا بوصفهم دوقات مقاطعة « جويين » الفرنسية أتباعا لملوك فرنسا — عارضوا سياسة العرش الفرنسى فى جنوحها إلى تركيز السلطة . وأبدى ملوك انجلترا امتعاضاً لتقديم ولائهم لفرنسا وخضوعهم لصاحب التاج الفرنسى بالنسبة لممتلكاتهم فى قارة أوروبا . وشهدت حرب المائة عام تحول الأساليب الحربية من الطرق الإقطاعية إلى النظام الحديث (استخدام المدفعية) ومن النظام الإقطاعى إلى اليقظة الأولى للأمم فى وعيها القومى .

(٢) حرب الوردتين (١٤٥٥ — ١٤٨٥) تعريف النزاع على عرش انجلترا الذى وقع بين أسرتى لنكستر ويورك . وقد انهت هذه الحرب الإقطاع فى انجلترا لأنها أضعفت النبلاء إلى حد عجزوا عنده عن الحيلولة دون نهضة الملكية فى ظل أسرة التيودور .

ومن حسن حظ هذا الملك أن شعبه كان قد أرهق خلال حربين عنيفتين : إحداهما حرب المائة عام ، والثانية حرب الوردتين . وأتيح له أن يحكم فى سهولة ويسر وذلك أمر طبيعى ؛ فالشعب قد أحس حاجته إلى الراحة والاستقرار ، وذلك لايتأتى إلا بين يدى ملك قوى ، يحقق له مصالحه القومية . ويصف كثير من المؤرخين حكم هذا الملك بأنه كان قائماً على الاستبداد . تراهم يعنون بذلك أنه سلك طريق شارل الثامن ولويس الحادى عشر فى فرنسا ، وقد كان حكمهما لا يستند إلى رأى الشعب ممثلا فى البرلمان ؟ كلا ! إن الرجل قد استطاع أن يحكم مع وجود البرلمان حكماً يكاد يكون مطلقاً . وآية ذلك أن البرلمان لم يدع إلى الاجتماع سوى سبع مرات خلال حكمه الذى استغرق حوالى ربع قرن . ومن ذلك نرى أن الملك كان محظوظاً مجدوداً لأن الأيام قد مهدت له ، كما قدمنا ، بحاجة الشعب إلى الراحة بعد حربين كبيرتين وإلى الاستقرار بعد قلق طال أمده . ومضى البرلمان مطمئناً فى مسيرته وواثقاً من حكم من تلا هذا الملك من أفراد أسرته . وبهذا السلوك الذى اتخذه البرلمان استطاع الملوك أن يقوموا بحركة الإصلاح الدينى فى انجلترا . ولعل ذلك أيضاً بسبب بعد انجلترا عن روما . ومن العجيب ألا تتم المسيرة فى طريق الإصلاح الدينى فى اتجاه واحد ؛ فهذا هنرى الثامن (١٥٠٩ – ١٥٤٧) ثانى ملوك الأسرة يقطع الصلة بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما . وتجىء من بعده مارى تيودور (١٥٥٣ – ١٥٥٨) فتعيد هذه الصلة وفى عهد اليزابيث ابنته وآخر ملوك هذه الأسرة (١٥٥٨ – ١٦٠٣) تنقطع الصلة بروما مرة أخرى . وكانت الأمور قد استقرت فى الكنيسة الأنجليكانية ، فتم بذلك حركة الإصلاح بين يدى هذه الملكة سنة ١٥٥٩ فى سهولة ويسر ، وهى كنيسة خاصة بانجلترا ، وينتهى حكم هذه الأسرة عند مطلع القرن السابع عشر .

واستطاعت أسرة التيودور أن تضع النواة العظمى فى حياة بريطانيا البحرية ؛ إذ اهتم مؤسسها ببناء الأسطول وإنشاء مدرسة للبحرية ، كما نجحت فى معالجة المسألة الدينية دون اللجوء إلى العنف وخوض غمار حروب أهلية على نحو ما حدث فى ألمانيا وفرنسا .

أسبانيـــا :

كانت أسبانيا كذلك من الدول التى حققت وحدتها القومية فى وقت مبكر عند مطلع العصور الحديثة ؛ ويرجع ذلك إلى عدة عوامل داخلية وخارجية وأهمها تلك

المصاهرة التى تمت بين أكبر مقاطعتين أسبانيتين وهى قشتاله وأراجون ؛ فكان على عرش الأولى إيزابيلا وكان يحكم الثانية الأمير فرديناند . وتم هذا الاتحاد عن طريق الزواج بين العاهلين عام ١٤٦٩ . وكانت أراجون تضم أملاكاً هامة داخل أسبانيا وخارجها فلها كتالونيا وفالنسيا وجزر البليار فى حوض البحر المتوسط . وإلى جانب هذه الأملاك كانت تملك صقلية وتطالب بنابولى . وبقدر ما أفادت قشتاله من انضمام أراجون فاستكملت أسبانيا الوحدة وبفضل المصاهرة السابقة الذكر استطاعت أيضاً أن تبلغ أمجاداً حربية بسبب امتداد نفوذ مقاطعة أراجون إلى حوض البحر المتوسط ، إلا أن أطماع أراجون التى ورثتها عنها مملكة أسبانيا فى إيطاليا ونابولى بصفة خاصة اضطرت أسبانيا إلى خوض غمار حروب أوروبية انتصرت فى بعضها كما حدث فى الحروب الإيطالية ، ولكنها انهزمت فى الأخرى ، ومن ذلك يتضح لنا أن تلك الصلة لم تخل من خسارة .

ومن العوامل التى أدت إلى وحدة أسبانيا كذلك فى نهاية ذلك القرن ، نجاح حكامها فى طرد البقية من العرب عن جنوبها . وانتهى بذلك آخر عهد العرب فيها . ومما لاشك فيه أن هذا الحدث قد ساعد أسبانيا على تحقيق وحدتها القومية والسياسية ، لكنه أضر بمصالحها الاقتصادية فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ؛ فقد كان العرب يمتازون بتفوقهم العظيم فى هذه الميادين . وهكذا انتهى ذلك الصراع الذى دام أكثر من سبعة قـرون .

وقد قام القشتاليون بدورهم فى هذا الصراع خير قيام مدفوعين بحماستهم الدينية وقوتهم العسكرية . واعترف بابوات روما للبيت المالك فى أسبانيا بجهوده فى هذا المضمار وأطلقوا على ملوكهم لقب الملك الكاثوليكى .

أما العامل الثالث الذى ساعد على تحقيق الوحدة القومية لأسبانيا فكان عاملا خارجياً يتعلق باكتشاف كولمبس فى عام ١٤٩٢ للعالم الجديد ، فقد كان هذا العالم نقطة تحول هامة فى تاريخ أسبانيا ؛ إذ استطاعت أن تجنى ثمار هذا الكشف الجغرافى العظيم عندما تمكن بعض المغامرين الأسبان من استعمار بعض مناطق العالم الجديد مثل المكسيك

وبيرو ومعظم جزر الهند الغربية(١) . وقد جلبوا لأسبانيا من هذه البقاع الذهب والفضة ، فساعدها ذلك على إعداد أقوى جيوش أوروبا فى ذلك الوقت فتمكنت من الانتصار على فرنسا فى الحروب الإيطالية .

أسبانيا تحت حكم الهابسبورج :

آلت أسبانيا عند مطلع القرن السادس عشر إلى سلطان أسرة الهابسبورج Hapsbur التى كان مقرها فى النمسا ، وكانت تحكم الامبراطورية الرومانية المقدسة التى أخذت أملاكها تنكمش حتى أصبحت قاصرة على ألمانيا وسويسرا والأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا) . وكذلك حكمت بعض الشعوب المجرية والسلافية فى شرق الإمبراطورية .

أما كيف آل أو انتقل الحكم من إيزابيلا وفرديناند إلى أسرة الهابسبورج فذلك مرجعه إلى سياسة المصاهرة الأسرية التى ساعدت أسرة الهابسبورج على توسيع أملاكها ونفوذها فى أوروبا . بدأت هذه السياسة عندما تزوج الإمبراطور مكسميليان(٢) من مارى البرجندية ابنة شارل الجسور فى عام ١٤٧٧ ؛ أى قبل أن يصل إلى منصب الإمبراطور الذى ظل محتفظاً به حتى عام ١٥١٩ ، وتزوج ابنهما فيليب بعدئذ من جوانا الأسبانية ابنة إيزابيلا ، ولم يكن يومئذ واضحاً أن جوانا سترث عن أبويها ذلك الملك العريض ؛ إذ كان لها أخ يدعى جون وكان هو الوريث الشرعى لأسبانيا وأملاكها ، ولكن لحسن حظ أسرة الهابسبورج أن يموت ذلك الوريث فتنحصر وراثة الملك الإسبانى فى جوانا ، فورثها ابنها شارل الأول الذى أصبح ملكاً على أسبانيا سنة ١٥١٦ ، ثم امبراطوراً باسم شارل الخامس (١٥١٩ — ١٥٥٤) . وبذلك آلت إليه أملاك الهابسبورج الأصلية فى النمسا والأراضى المنخفضة البرجاندية مضافاً إليها ملك أبويه فى أسبانيا وما يتبع ذلك من أملاك فى إيطاليا ، وكذلك الإمبراطورية الاستعمارية فى المكسيك وبيرو وغيرهما(٣) .

---

(١) انظر الكشوف الجغرافية الأسبانية والمستعمرات الأسبانية ص ٥٦ ، ٦٢ .

(٢) الإمبراطور مكسمليان : — حكم من ١٤٩٣ — ١٥١٩ وهو من أسرة الهابسبورج التى حكمت الإمبراطورية الرومانية المقدسة من ١٤٣٨ — ١٨٠٦ .

(٣) انظر الاستعمار الأسبانى فى المكسيك وبيرو ص ٦٢ — ٦٣ .

الأمبراطور شارل الخامس : امتد حكم هذا الإمبراطور من عام ١٥١٩–١٥٥٤ فاستطاع بسلوكه الحميد أن يتخطى كثيراً من العقبات وأن يترك أثراً واضحاً فى مجال السياسة الأوروبية ، وعرف بتسامحه الديني وتوفيقه فى اختيار الصالحين الذين عاونوه فى مهام الحكم المختلفة ؛ ولا أدل على توفيقه من أن يتخطى العقبات التى اعترضت سبيله فى حكم أسبانيا ولم يكن يومئذ قد تخطى السابعة عشرة من عمره عندما آل إليه حكمها عام ١٥١٦ ، تخطاها برغم جهله بسائر أمورها ؛ فهو قد كان يجهل اللغة الأسبانية إذ أنه قد ولد وتربى بعيداً عنها فى مدينة «جنت» بالأراضى المنخفضة . كما واجهته المشكلة الدينية فى ألمانيا ، وهو حاكمها وسلطانها فوق كونه إمبراطورا فعالجها عن طريق محاولة التوفيق بين الكاثوليك والبروتستنت ودعوة المجالس الكنسية ، فظل فى محاولته هذه نحو ثلاثين عاماً(١) .

ولم تقف العقبات فى سبيله عند حد ما ذكرنا ، بل تعدتها إلى ثورة الأراضى المنخفضة(٢) . ومن مشاكل أيام حكمه اضطراره إلى استئناف الصراع بين الهابسبورج والفالوا فيما يعرف بالحروب الإيطالية(٣) . فوق هذه المشاكل العديدة كان عليه كذلك أن يواجه خطراً كبيراً تعرضت له أوروبا فى القرن السادس عشر وهو الخطر العثمانى .

ظهور مبدأ التوازن الدولى :

ومن مميزات ذلك العصر السياسية ظهور مبدأ (التوازن الدولى) ؛ وقد ذكرنا أنه ظهر لأول مرة أثناء الحروب الإيطالية ، ولكن هذه الظاهرة استمرت حتى زمننا هذا ؛ ففى القرن السابع عشر استطاعت فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر أن تسيطر على السياسة الأوروبية ، وأن تمتد نفوذها إلى جهات مختلفة مما دعا انجلترا وغيرها من الدول إلى عقد التحالف لاستعادة التوازن الدولى وقد نجحت الدول الأوروبية إلى حد ما فى تحقيق ذلك الهدف ، إلا أن هذا التوازن لم يطل بقاؤه ؛ ذلك لأنه عندما انتزعت انجلترا أملاك فرنسا الأمريكية (كندا) وعندما أصبحت فى القرن ١٨ تسيطر على مدخل البحر المتوسط — باستيلائها على مضيق جبل طارق وجزيرة مينورقة —

(١) انظر تفاصيل هذه السياسة فيما يلى : حركة الاصلاح الدينى فى ألمانيا ص ص ١١٠ — ١٢٠ .
(٢) انظر ثورة الأراضى المنخفضة ص ص ١٤١ — ١٥٣ .
(٣) انظر الحروب الإيطالية ص ص ٩٩ — ١٠٦ .

رأت أسبانيا أن تضع يدها فى يد فرنسا لمقاومة نفوذ انجلترا والحد من سلطانها ؛ منتهزتين قيام ثورة المستعمرات الانجليزية فى العالم الجديد . وكان لمعاونة أسبانيا وفرنسا القائد الأمريكى جورج واشنطون ، قائد الثورة الأمريكية ، أثر كبير فى انتصاره على انجلترا ولم يكن نجاحه بغير هذه المعاونة محققاً لأن ثواره على الرغم من حماستهم لم يكونوا وحدهم على استعداد قوى لمقاومة دولة عظمى مثل انجلترا .

ومما ساعد على القضاء على سيطرة انجلترا يومئذ تكوين ما يعرف بعصبة الحياد المسلح التى تزعمتها الروسيا وانضمت إليها بروسيا والدنمرك ؛ فكانت هذه القوى من العقبات التى واجهت انجلترا وعوقت سيطرتها البحرية عندئذ . وفى القرن التاسع عشر تقوم فرنسا بمحاولة جديدة فى عهد ثورتها المعروفة وفى أيام نابليون لفرض سلطانها على القارة الأوروبية ، وكان نابليون يحلم بالقضاء على سلطان انجلترا البحرى وتحققت هذه السيطرة مما ترتب عليه الإخلال بالتوازن الدولى فى أوروبا ، فأخذت انجلترا تتحالف مع الدول الأخرى للقضاء عليه حتى تم لها ذلك بسقوطه فى معركة « ووترلو » ١٨١٥ .

ثم كانت محاولة هتلر النازية فى المانيا فى القرن العشرين ؛ وذلك عندما غزا أوروبا كلها وبسط سيطرته عليها ؛ فأخذت أوروبا تتحالف كلها لإعادة مبدأ التوازن الدولى إلى ماكان عليه . .

المميزات الدينية :

تجتاح الثورة الدينية أوروبا عند مطلع العصور الحديثة . وكان لها نتائجها الهامة فى تقرير مصير أوروبا الدينى . كان غرب أوروبا فى القرن الخامس عشر يسوده الدين الكاثوليكى ، وعلى أثر وقوع حركة الثورة الدينية وما ترتب عليها من حروب داخلية انقسمت أوروبا إلى دول كاثوليكية وأخرى بروتستنتية ، كما ظهرت أنواع جديدة من المذاهب البروتستنتية مثل الكنيسة الانجليكانية فى انجلترا والبرسبتارية فى اسكتلنده بينما بقيت الدول العظمى مثل فرنسا وأسبانيا والنمسا وإيطاليا على كاثوليكيتها . ولم تكن الثورة الدينية عندئذ أول بوادر الخروج على الكنيسة الكاثوليكية ، فقد وقعت قبل ذلك هبات ضد الكنيسة الكاثوليكية ولكن هذه الحركات لم تتعرض للعقيدة نفسها ولم تهاجم البابوية ورجال الدين مثل ذلك الهجوم الذى حدث عند مطلع العصور الحديثة .

فهناك حركة جون ويكلف "John Wycliff" فى انجلترا فى القرن الرابع عشر، التى قضى عليها بسرعة ، ولم يبق من أنصارها إلا أقلية صغيرة فى لندن تعرف بجماعة اللولارديين(١) ثم ظهرت حركة هس "Hess" فى بوهيميا ؛ فأخفق وأحرق علناً باعتباره خارجاً على الكنيسة ، ثم ظهرت كذلك عدة مجالس كنسية أرادت أن تصلح من شأن الكنيسة الكاثوليكية ولكنها حوربت من جانب البابوية وقضى عليها دون أن تصل إلى نتائج.

أثر العوامل السياسية فى حركة الاصلاح الدينى :

وفى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ظهرت ثورة دينية قادها زعماء دينيون أمثال لوثر فى ألمانيا وجون كلفن فى سويسرا وفرنسا . قام هؤلاء المصلحون بانتقاد الكنيسة ومهاجمتها فى مبادئها وتقاليدها القديمة . وقد لاقت هذه الحركة نجاحاً كبيراً بسبب الظروف السياسية التى عاصرتها ؛ فقد استطاعت هذه الحركة أن تنجح فى ألمانيا . ثم انتقلت إلى بقاع أخرى من أوروبا والعالم الجديد بفضل السياسة السلمية التى اتبعها الامبراطور شارل الخامس زمناً امتد نحو ثلاثين عاماً (١٥١٧ — ١٥٤٧) فى مواجهة هذه المشكلة ومحاولات هذا الامبراطور العديدة لحلها دون أن يخوض غمار حرب . وأهم من ذلك كله النزاع الأسرى بين امبراطورية الهابسبورج فى النمسا وملكية الفالوا فى فرنسا . فقد كانت المطامع السياسية لدى هاتين الأسرتين أقوى من الاتجاهات الدينية ، ولا أدل على ذلك من أن فرانسوا الأول ملك فرنسا الكاثوليكى ومن بعده ابنه هنرى الثانى يتحالفان مع الدولة العثمانية غير المسيحية ضد الامبراطور شارل الخامس الذى كان يظاهر الكاثوليكية ويدافع عنها . وقد أدى ذلك الأمر إلى أضعاف الكاثوليك أمام الثورة الدينية مما أتاح للبروتستنتينية أن تستقر فى شمال ألمانيا . كما كان للعوامل السياسية أثرها فى انفصال كنيسة انجلترا عن كنيسة روما

---

(١) اللولارديون Lollards :

يظن بعضهم أن اللفظ مشتق من الفعل الألمانى Lollen بمعنى الترنم ، ويرى آخرون أن اشتقاقها يرجع إلى الفعل الانجليزى Loll أو Lounge بمعنى يسترخى . وقد أطلق هذا الاسم على أوائل المصلحين لمذهب الكاثوليك من أتباع ويكلف فى انجلترا . ويقال كذلك أن أول من أسس هذا المذهب فى عام ١٣١٥ ، هو « والتر لولارد » الذى اتهم بالانحراف عن العقيدة الكاثوليكية فاحرق فى كولونيا عام ١٣٢٢ . وكان أول الشهداء من أصحاب هذا المذهب فى انجلترا « وليم سوترى » William Sawtree. وقد عمل قسيساً فى « سانت أوزيس » St. Osith بلندن فى ١٢ فبراير ١٤٠١ ، عندما حرم البرلمان اللولارديين من حماية القانون. فأعدم عدد كبير منهم بالحرق .

على الرغم من أن الحركة الدينية فى انجلترا قد بدأت مختلفة عنها فى ألمانيا ؛ إذ لم يكن المنادى بها مصلحاً دينياً مثل لوثر أو كلفن ، إنما دعت إليها ظروف شخصية تتعلق بعاهل انجلترا عندئذ وهو هنرى الثامن ثانى ملوك أسرة التيودور ؛ فقد أراد أن يطلق زوجته كاترين الأرغونية ، فطلب من البابا كلمنت السابع أن يسمح له بذلك حتى يتزوج من « آن بولين » ، ولكن البابا لم يكن ليستطيع أن يجيز له هذا الطلاق لوقوعه يومئذ تحت سيطرة الامبراطور شارل الخامس ؛ وذلك بسبب الحروب الإيطالية التى أثارت المنافسة السياسية الشديدة بين الفالوا والهابسبورج ، ولأن الامبراطور شارل الخامس كانت تربطه بكاترين الأرغونية صلة قرابة ؛ فمنع البابا من الاستجابة لرغبة هنرى الثامن ، ولو قد فعل لاستمرت انجلترا على عقيدتها الكاثوليكية ، ولكن تسويف البابا فى الموافقة على هذا الطلاق قد دعا هنرى الثامن إلى اتخاذ إجراءات حاسمة فى هذا الموقف عندما استعان بالبرلمان الإنجليزى وقطع الصلة بكنيسة روما . وكان هنرى الثامن من قبل من المعارضين للحركة البروتستنتية عندما بدأت فى المانيا بقيادة الزعيم الدينى مارتن لوثر ، وبعث إلى البابا فى ذلك الوقت برسالة مستفيضة قوية يستنكر فيها موقفه ويتهمه بالخروج على الكنيسة مما جعل البابا يمنحه لقب حامى الكنيسة الكاثوليكية ومن هنا اتضح أن هنرى الثامن لم يكن صادقاً فى تحويل الكنيسة الانجليزية من الكاثولكية إلى البروتستنتية ، مع أنه قطع الصلة بين كنيسة انجلترا وروما .

ولما كان الإبقاء على التعاليم الكاثوليكية فى الكنيسة الإنجليزية مما يسهل على ذوى الأغراض من الساسة فى انجلترا أن يعيدوا الصلة مع كنيسة روما فقد رؤى إدخال بعض التعديلات على العقيدة الكاثوليكية القائمة فى انجلترا ، ولذلك يمكن أن يقال أن الكنيسة الانجليكانية فى انجلترا لم تكن بروتستنتية فى كل تفاصيلها كما كان الحال بالنسبة للكنيسة البرسبتارية فى اسكتلندا واللوثرية فى ألمانيا وإنما كانت خليطاً من العقيدتين الكاثوليكية والكالفينية . ومن هنا أطلق عليها العقيدة الانجليكانية .

وهكذا مكنت المنافسة الأسرية بين الفالوا والهابسبورج فى منتصف القرن السادس عشر للبروتستنت فى المانيا ، وساعدت على حركة انفصال كنيسة انجلترا عن كنيسة روما ، وكان لنجاح دعوة مارتن لوثر فى المانيا أثره فى انتشار البروتستنتية فى أنحاء أوروبا فوصلت اسكنديناوة وسويسرا وأثرت على الأراضى المنخفضة ، بل إن البروتستنتية بدأت تدخل إيطاليا نفسها وفرنسا ولا أدل على ذلك مما ذكره دوق اللورين

حين أشار إلى أن ما يقرب من ثلثى سكان فرنسا فى عهد هنرى الثانى فى منتصف القرن السادس عشر (١٥٤٥ — ١٥٥٩) قد تأثروا بالعقيدة الجديدة .

ولكن فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، عندما تبين لهنرى الثانى ملك فرنسا أن نزاعه مع الهابسبرج فى إيطاليا لم يكن فى صالح فرنسا وأن كفة الهابسبرج هى الراجحة بدأ يفكر فى الإسراع بعقد الصلح لإنهاء الحروب الإيطالية حتى يفرغ للمشكلة الدينية داخل فرنسا . وقد راعه انتشار عدوى هذه المعتقدات الجديدة أى مبادىء الكنيسة الكلفينية فى فرنسا . ومن ثم بادر بعقد صلح كاتوكمبرسيس سنة ١٥٥٩ وفى العام التالى ١٥٦٠ بدأت الحروب الدينية فى فرنسا واستمرت حتى صدور مرسوم نانت سنة ١٥٩٨ ؛ وقد حاول ملوك فرنسا أثناء هذه الحرب القضاء على حركة البروتستانت ، وانتهت آخر الأمر بأن ظلت فرنسا تعتنق العقيدة الكاثوليكية بصفة رسمية مع السماح للهيجونوت(١) بممارسة عقيدتهم داخل فرنسا . وقد منحهم هذا المرسوم إلى جانب الحرية الدينية حقوقاً أخرى مدنية منها الاجتماعية والسياسية ؛ بل سمح لهم بإقامة القلاع فى بعض مدن فرنسا . وكانت الامتيازات السياسية الواسعة الممنوحة للهيجونوت من الأسباب التى دفعت ريشيليو فى بداية القرن السابع عشر إلى أن يعمل على الحد منها .

وفى أوائل القرن السابع عشر اندلعت حرب الثلاثين عاماً فى ألمانيا بين الكاثوليك والبروتستانت . وإذا كانت هذه الحرب قد أحدثت كثيراً من الخراب والدمار فى ألمانيا إلا أن فرنسا قد خرجت من حروبها الدينية غير ممزقة بين العقيدتين ، وإنما أصبحت عقيدتها الرسمية هى الكاثوليكية واستطاع ملكها الجديد هنرى نافار — مؤسس أسرة البربون فى فرنسا ، والذى عرف بهنرى الرابع (١٥٩٤ — ١٦١٠) — أن يهىء لفرنسا

---

(١) الهيوجونوت :

أطلق هذا الاسم حوالى منتصف القرن السادس عشر على البروتستنت فى فرنسا . ويرجع بعض المؤرخين أصل هذا الاسم إلى تجمعات البروتستنت فى « تور » Tours ، وكانت تعقد فى الليل فى قلعة يقال أنه كانت تسكنها روح الملك « هوجو » Hugo .

ويبدو أن كلمة هيوجونونت » قد اشتقت ببساطة من كلمة « ايجنوز » Aignos المأخوذة من كلمة Eidgenossen الألمانية (أى جماعة ترتبط فيما بينها بقسم معين) وكانت تطلق فيما بين ١٥٢٠ — ١٥٢٤ على الوطنيين المعادين للدوق سافوى فى جنيف .

مستقبلا مجيداً قائماً على قواعد اجتماعية وسياسية واقتصادية وطيدة . ولا ننسى جهوده العظيمة فى تاريخ فرنسا . ويعتبر عصره بداية عهد عظمتها فى القرن السابع عشر .

أما بالنسبة للحركة الدينية فى ألمانيا فإن العقيدة البروتستنتية لم تستقر فيها إلا بعد حرب طويلة فى النصف الأول من القرن السابع عشر وهى حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ١٦٤٨) ؛ وهى التى انتهت بمعاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨(١) . وكانت هذه الحرب قد أنزلت بألمانيا خسائر جمة وأثرت فى سكانها تأثيراً واضحاً وأخرت الشعب الألمانى عن السير فى موكب الحضارة حوالى قرنين من الزمان . فكان لها من الآثار الضارة بالنسبة للشعب الألمانى ما لم يكن لمثلها فى فرنسا وكان ذلك من العوامل التى أخرت اتحاد ألمانيا بعد ذلك حتى القرن التاسع عشر ، كما أنها أصبحت فريسة سهلة لجيوش نابليون عندما اجتاحتها فى بداية القرن التاسع عشر .

وإذا حاولنا أن نتتبع الصراع الدينى فى أوروبا نجد أن الدول العظمى مثل فرنسا والنمسا وأسبانيا وهى الدول الكاثوليكية الكبرى قد ظلت على عقيدتها الكاثوليكية وسط هذا الصراع الطويل ؛ وفى هذا دليل على أنه لو اتحد الجميع لمواجهة الحركة الدينية الجديدة لاستطاعوا القضاء عليها أو الحد من انتشارها على الأقل .

ومما ساعد على انتشار العقيدة الجديدة ما أصاب أصحابها من تشديد واضطهاد ، وكانت إيطاليا وأسبانيا من ألد أعداء هذه الحركة ، واستمرت الأوضاع السياسية فى النصف الأول من القرن السادس عشر تساعد على انتشار هذه الحركة وكان للأطماع السياسية أثرها فى خروج البروتستانت ظافرين فى النهاية ، إذ أن فرنسا الدولة الكاثوليكية الكبرى — بحكم عدائها لامبراطورية الهابسبرج — قد ساعدت الولايات البروتستنتية فى ألمانيا فى حربها ضد الكاثوليك . فهذا ريشيليو الكاردينال الكاثوليكى رئيس وزراء فرنسا كان يريد أن يحقق لفرنسا السيطرة على أوروبا إذ ذاك ، فقد اشترك فى حرب الثلاثين عاماً إلى جانب البروتستنت ليحد من سلطان أسرة الهبسبورج وجعل أسرة البربون فى فرنسا أقوى أسرة حاكمة فى أوروبا(٢) . كان ريشيليو يحارب الهيجونوت

---

(١) انظر صلح وستفاليا ص ١٨٤ — ١٨٨ .

(٢) انظر سياسة ريشيليو الخارجية ص ص ١٧٧ — ١٨٠

داخل فرنسا فانتزع منهم حصنهم المنيع غرب فرنسا وهو حصن لاروشيل وحرمهم من الامتيازات السياسية التي أعطيت لهم بمقتضى مرسوم نانت (١٥٩٨) (١) بينما هو فى الخارج يساعد البروتستنت فى ألمانيا ضد الكاثوليك بطريق غير مباشر حتى عام ١٦٣٥ ، ثم بطريقة صريحة بعد ذلك التاريخ حتى انتهاء حرب الثلاثين عاماً ١٦٤٨ وتفسير هذه السياسة واضح ؛ فهو يريد أن يمكن لأسرة البربون فى أوروبا عن طريق القضاء على خصومها داخل فرنسا حتى يركز جميع السلطات فى يد الملكية (البربون) فى داخل فرنسا ، وهو فى الوقت نفسه يعمل على مد سيطرتها على أوروبا ؛ فهو يقف ضدا لهابسبورج فى ألمانيا فى حرب الثلاثين وذلك بصرف النظر عن المذهب الكاثوليكى الذى يجمع بين الدولتين ؛ لذلك كثيراً ما يقال أن نجاح البروتستنتية فى ألمانيا وانتشارها فيها كان يرجع إلى سياسة كاردينال كاثوليكى (أى ريشيليو) .

وللعوامل السياسية كذلك أثرها فى الحروب الدينية فى فرنسا ؛ ففى أثنائها قامت أسبانيا بدور هام عندما تزعمت الحلف الكاثوليكى بفرنسا ولم يكن ذلك دفاعاً عن الكاثوليكية بقدر ماكان طمعاً فى تحقيق مآرب سياسية داخل فرنسا نفسها (٢) .

أما بالنسبة لانجلترا فقد استطاعت كما بينا أن تكون الكنيسة الإنجليكانية أى البروتستنتية فى عهد اليزابث ، وقد تم ذلك دون إراقة دماء ؛ وإذا كان القرن السابع عشر فى انجلترا قد كان عهد حروب وثورات فى الداخل ، فإنه من الواضح أن هذه الحروب لم يكن الدافع الأساسى لها هو العقيدة الدينية وإنما كان الغرض منها الدفاع عن حقوق البرلمان وامتيازاته أى الحريات البرلمانية والطقوس الانجليكانية .

---

(١) انظر سياسة ريشيليو الداخلية ص ١٧٢ — ١٧٧ .

(٢) انظر أطماع فيليب الثانى ملك أسبانيا فى التاج الفرنسى وكيف استطاع هنرى نافار أن يخلص فرنسا منها ص ١٥٩ — ١٦٥ .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى خلال القرن السادس عشر

المجتمع الريفى فى أوروبا عام ١٥٠٠ :

فى عام ١٥٠٠ كانت الأغلبية العظمى من الأوروبيين لاتزال تعيش فى الريف إما فى بيوت الأجداد والآباء أو فى القرى الصغيرة أو مدن الريف الصغيرة شأنهم فى ذلك شأن أجدادهم أثناء العصور الوسطى ، مع بعض الاختلاف ، ذلك أن الفلاحين قد تحرروا بعض الشيء فأصبح فى استطاعتهم أن يتصرفوا فى أملاكهم إذا أرادوا ، وأن يتركوا قراهم الأصلية ، فكان بعضهم يجمعون المحاصيل والأصواف أو الكتان وزيت الزيتون والنبيذ وكان البعض الآخر يغزلون الصوف ، وينسجون الأقمشة ، ويصنعون المسامير ليس لاحتياجاتهم الشخصية فحسب وإنما للاتجار بها فى الأسواق المحلية والخارجية .

ظل مجتمع القرية التقليدى فى أوروبا على حالته الأصلية فلا زال النبلاء يمارسون كثيراً من حقوقهم التقليدية على فلاحيهم بالإضافة إلى ما يحصلونه منهم من إيجار على الأرض ، إلى جانب بعض الخدمات الشخصية والالتزامات التى يؤدونها لمالك الأرض . ولم يكن فى استطاعة الحكومات أن تتدخل بين المالك وفلاحيه لتحدد من نفوذه عليهم .

هذه الحال المليئة بالمتناقضات بين التقاليد والتطلع إلى التغيير لم يكن من الممكن أن تظل على حالها . ولكن إلى عام ١٥٠٠ لم يستطع المعاصرون أن يتنبأوا بالعوامل الجديدة القوية التى لن تلبث أن تؤثر فى الاقتصاد الأوروبى خلال القرن السادس عشر .

ارتفاع الأسعار :

عندما اكتشف المؤرخون ظاهرة التضخم فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر أطلقوا عليها تسمية مبالغ فيها : وهى ثورة الأسعار ، وقارنوها بانخفاض الأسعار خلال عهد طويل فى العصور الوسطى المتأخرة على أن الأفراد الذين عاشوا خلال القرن السادس عشر لم يلحظوا هذه الثورة .

من الواضح أن الأسعار وخاصة أسعار المواد الغذائية تقلبت وتغيرت ؛ فى خلال القرن تراوحت الزيادة بين ٢ ، ٣٪ ولكن النسبة ارتفعت فى منتصف القرن فظهرت الزيادة فى الأسعار فى كل أنحاء أوروبا من بالرمو إلى استوكهولم .Stockholm ومن لندن إلى نفجورد Novgorod فى شمال غرب روسيا فوصلت أسعار الحبوب فى انجلترا فى بداية القرن السابع عشر فى المتوسط إلى خمسة أمثال أسعارها خلال الربع الأخير من القرن الخامس عشر . بينما زادت فى فرنسا إلى أكثر من سبعة أمثال أسعارها بل أنها ارتفعت عن ذلك فى جنوب أسبانيا .

وقد اتجهت الشبهات بادىء الأمر نحو التجار ، فأخذ رجال الدين والوعاظ فى كل مكان ينادون بأعلى أصواتهم متوعدين ناصحين بالتراجع عن هذا الجشع وعلت أصوات الدايت الألمانى باللوم على شركة الفوجرز Fuggers وغيرها من الشركات التجارية ، وقد عد فرسان الإمبراطور عدم مؤازرة الإمبراطور لهم . فيما اعتزموا القيام به من التنكيل بالتجار الجشعين وقطع أيدى مصاصى الدماء إذا لم يمتثلوا لدفع فدية أو تعويضاً لهم . أمراً مجحفاً للغاية .

وترتب على ارتفاع الأسعار أن اشتدت الكراهية نحو تجار الغلال ؛ فنزلت بمنازلهم ومخازنهم الهجمات الأولى أثناء احداث الشغب التى عمت ذلك القرن بسبب ارتفاع أثمان الخبز وقد كان للاتهامات التى وجهت إلى هؤلاء التجار بعض الصحة . وظهرت طائفة من المحتكرين الذين رفعوا أسعار بعض السلع التى كانوا يسيطرون عليها . كما رفع أصحاب الأراضى أسعار إيجار أراضيهم مما ترتب عليه ارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية . وإذا كان تجار الغلال — متبعين ماكان سائداً فى العصور الوسطى من الاهتمام بمصالح المستهلك — قد نجحوا فى امداد المدن النامية والكبيرة بالحبوب التى استوردوها من أنحاء أوروبا قد استغلوا ندرة الغلال فى تلك المواقع أسوأ استغلال مما جعل الحكومة تضع تشريعات متنوعة ضد هذا الاستغلال خشية أن تواجه بالفتن والشغب — ولكن كما كان يحدث غالباً خلال القرن السادس عشر كانت السلطة التنفيذية تقف عاجزة أمام تطبيق هذه التشريعات ؛ إذ كانت الحكومة فى حاجة إلى التجار للحصول على القروض اللازمة لها مما جعلها تتجاهل تلك المخالفات كما كان عمال الحكومة فى غالب الأحيان مرتشين .

كانت أسعار السلع تتفاوت من مكان لآخر فى البلاد التى يندر فيها وجود العملة (النقود) تنخفض أسعار السلع بل أجور الأيدى العاملة كذلك عنها فى البلاد التى تكثر فيها . وهكذا نجد فى فرنسا حيث العملة أقل منها فى أسبانيا أن أسعار الخبز والخمور وأجور الأيدى العاملة أقل منها بكثير عنها فى أسبانيا – كما أنه فى أسبانيا نفسها عندما تقل النقود تنخفض هذه الأسعار جميعاً بينما ارتفعت ارتفاعاً ملحوظاً فيها بعد الكشوف الجغرافية فى العالم الجديد لكثرة وجود الذهب والفضة بها ، ذلك لأن وفرة هذين المعدنيين فيها بخس من قيمة العملة بها .

وقد توصل بعض علماء ذلك العصر إلى هذه القاعدة وهى : أن استيراد الذهب والفضة من أمريكا تسبب فى رفع أسعار السلع فى أوروبا : The import of Americnn gold and silver was responsiale for raising prices in Europe وقد أيدت هذه النظرية أبحاث مؤرخى الاقتصاد الحديث ، فتأثرت العملة بطريقة واضحة بذلك خلال القرن السادس عشر . على أنه من الواضح أن معظم الفضة التى كانت تصل إلى أشبيلية بأسبانيا كانت تصدر منها على وجه السرعة لتسد احتياجات أسبانيا من الواردات ولتمد جند أسبانيا فى الخارج بالمال والعتاد ولكى تسدد الأموال التى اقترضتها أسبانيا من بنوك المانيا وجنوة . وهكذا كانت حكومة أسبانيا تفتقر إلى الذهب والفضة اللذين كانا يصلانها بكميات وفيرة ولم تتأثر إيطاليا كثيراً بالفضة التى كانت تصلها فلم ترتفع بها الأسعار بدرجة كبيرة ويستثنى من ذلك المحاصيل الزراعية وخاصة الحبوب والصوف .

ازدياد عدد السكان :

لم توجد احصائيات للسكان أو تقديرات يعتمد عليها فى هذا الصدد قبل حلول القرن الثامن عشر . ولكن عثر على عدد لاحصر له من المعلومات عن عدد سكان بعض المدن ، وبعض الأحياء بل والمقاطعات وصلت هذه المعلومات فى شكل إحصائيات عن المنازل . ومن المرجح أن هذه السجلات قد أعدت لخدمة مصلحة الضرائب والخدمة العسكرية بالإضافة إلى بعض سجلات المواليد والوفيات والزواج على أن هذه المعلومات كانت فى غالبيتها تقريبية ولا توصل إلى الأمر الواقع ذلك لأن الطبقات ذات الامتيازات كانت تطالب بالإعفاء من الإحصاء الرسمى كما كلف

كل من تأدية الضريبة والانخراط فى السلك العسكرى كرهاً للجميع ؛ ومع ذلك كانت الزيادة فى عدد السكان أمراً ملحوظاً ، وهناك معلومات واضحة فى هذا الشأن بالنسبة للمدن : ففى عام ١٥٠٠ كانت هناك مدن عملاقة يسكنها ١٠٠,٠٠٠ مواطن فأكثر ، وكانت القسطنطينية أكبرها جميعاً ؛ فكانت فى حاجة إلى ثمانى سفن مملوءة بالغلال لتشبع حاجة سكانها لمدة يوم واحد . كما كان عدد سكان كل من نابلى ؛ والبندقية ، وميلان يبلغ مائة ألف كذلك . وكانت باريس المدينة الوحيدة الواقعة فيما وراء الألب التى يسكنها مثل ذلك العدد بل أكثر ، وهنا نذكر أن كلا من القاهرة وحلب كان عدد سكانها يفوق عدد سكان أى مدينة أخرى أوروبية . وقد تضاعف عدد سكان نابلى خلال القرن السادس عشر ، فأصبحت مزدحمة بالسكان وازداد عدد سكان البندقية فأصبح ١٦٨,٠٠٠ نسمة فى عام ١٥٦٣ ، ولكن لم تلبث هذه الأعداد أن انخفضت فى عام ١٥٧٥ بسبب انتشار الطاعون . وقد بلغ عدد سكان ميلان ١٨٠,٠٠٠ نسمة وباريس قاربت من ٢٠٠,٠٠٠ نسمة فى نهاية القرن ١٦ ؛ وفى عام ١٦٠٠ بلغت ثمانى مدن أخرى حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة فتضاعف سكان كل من بالرمو وروما ، ووصل إلى ١١٠,٠٠٠ نسمة ، وبلغ عدد سكان مرسيليا بين ٨٠,٠٠٠ ، ١٠٠,٠٠٠ نسمة وازداد عدد سكان لندن إلى ١٠٠,٠٠٠ ، وأنتورب إلى أكثر من ٩٠,٠٠٠ فى أعوام ١٥٦٠ وبلغ عدد سكان موسكو فى عام ١٥٧١ ٢٠٠,٠٠٠ نسمة .

هذا التزايد الواضح فى عدد سكان المدن يبرهن على مدى النمو السكانى خلال القرن السادس عشر .

اقبال السكان المتزايد على الأراضى :

ومهما كانت الأسباب التى أدت إلى تزايد عدد سكان غرب أوروبا وجنوبها فقد نتج عنها ذلك التنافس الشديد على البقاع الزراعية المحدودة وباستثناء إيطاليا والأراضى المنخفضة كانت هنالك مساحات واسعة غير مزروعة ولكن هذه الأراضى لم تكن كلها صالحة للزراعة أو من السهل الوصول إليها .

ارتفع عدد سكان انجلترا خلال القرن ١٦ من ٣½ مليون نسمة إلى خمسة ملايين نسمة والإمبراطورية من عشرة ملايين إلى عشرين مليون نسمة ومهما يكن هنالك

من عدم دقة فى هذا التعداد فإن الاتجاه نحو ازدياد عدد السكان كان جلياً فى أوروبا خلال القرن السادس عشر . واقتضى ذلك زيادة الحاجة إلى الخبز واللحوم والصوف والكتان ، وإلى مواد البناء والوقود . ولمواجهة هذه الحاجة الملحة اقتضى الأمر العمل على تحسين بعض طرق فلاحة الأرض عن طريق الاتجاه نحو تخصيص البقاع الزراعية لأنواع معينة من المحاصيل التى تناسبها فانتشرت زراعة الأرز والذرة فى وادى نهر « البو » وانتشرت فى الأراضى المنخفضة وفرنسا وكنت Kent (بانجلترا) أسواق الفاكهة وأنواع عديدة من الخضر كالقرنبيط والجزر والبسلة على أن ما استحدثته الأراضى المنخفضة من استخدام اللفت والبرسيم علفاً للماشية ، وممارسة نظام الدورات الزراعية الجديدة لم ينتشر خارجها حتى القرن السابع عشر . وكانت المشكلة أكثر أبعاداً من ذلك فالغالبية العظمى من فلاحى أوروبا كانوا لايستطيعون قراءة الكتب الزراعية الجديدة ، وإذا تيسر لهم ذلك فإنهم كانوا يفتقرون إلى رأس المال اللازم لإدخال هذه التحسينات . وهكذا ازدادت الاحتياجات بسرعة إلى الموارد ، وارتفعت نفقات الإيجارات مع انتشار الزراعة فى الأراضى غير الخصبة وارتفاع الأجور .

ارتفاع أسعار الأصواف وازدياد الاهتمام بالمراعى :

كان لازدياد الطلب الناتج عن ازدياد السكان فى أوروبا أثره فى ارتفاع أسعار المواد الغذائية والمواد الخام الزراعية والصوف وكان لهذا الأمر أهميته بالنسبة لانجلترا أو أسبانيا لأنهما كانتا الوحيدتين اللتين تنتجان الصوف للأسواق الخارجية . وقد ارتفعت أسعاره فى كليهما حتى منتصف القرن «١٦» ففاقت الزيادة فى أسعار الحبوب مما ترتب عليه فى انجلترا تحويل بعض الأراضى الزراعية إلى مراع وإخلاء بعض القرى من السكان لإفساح المكان لقطعان الأغنام مما دعا «ولسى» Wo sey (١) إلى تكوين بعض اللجان للتحقيق فى هذا الأمر الذى أدى إلى أزمة فى المواد الغذائية .

وقد حدث المثل فى أسبانيا ، إذا أن ازدياد الطلب على صوف « المرينو » المشهور وارتفاع أسعاره بالتالى جعل الاهتمام يتجه نحو الاحتفاظ بمراعى واسعة وقد استمر ارتفاع أسعار الحبوب نتيجة لذلك فى كل من انجلترا وأسبانيا .

---

(١) انظر ولسى Wolsey .

وعند مطلع القرن السابع عشر أخذت الزيادة فى عدد السكان فى التناقص بل أنها قد توقفت تماماً فى بعض الجهات بسبب ارتفاع نسبة الوفيات كما أن عدداً كبيراً من مدن أوروبا لم تعد تجد محلياً ما يكفى بحاجة السكان من الغلال فكانت الأراضى المنخفضة تستورد ما يتراوح بين ١٣ ، ١٤٪ من احتياجاتها من الغلال . كما أصبحت مدن إيطاليا الكبرى وخاصة البندقية وروما تعتمد على الغلال التى تستوردها من منطقة شرق حوض البحر المتوسط وصقلية حيث كانت تنافسها كل من نابلى وأسبانيا فى الحاجة المتزايدة إلى الغلال . وفى عام ١٥٩٠ — ١٥٩٦ وقعت المجاعة فى إيطاليا وأسبانيا وبعض جهات فرنسا ومنذ ذلك التاريخ أصبح لزاماً على بلاد غرب أوروبا أن تعتمد على استيراد احتياجاتها من الغلال من الخارج . وكثيراً ما كان البنادقة يستوردون الغلال من مصر ومن سهول تساليا ولكن احتياجات تركيا والأسطول العثمانى المتزايدة من الغلال كانت تحد من حصول غرب أوروبا على ما يلزمه من الغلال من هذه الأسواق وكانت المنطقة الوحيدة التى يمكن لممالك غرب حوض البحر المتوسط وبحر الشمال أن تتزود منها باحتياجاتها المختلفة هى منطقة البلطيق .

وقد استفاد الدانيون (سكان الدنمارك) من مرور السفن بمضيق السوند Sound ففرضوا عليها المكوس . وإن القوائم المسجلة لهذه العملية لتوضح ازدياد مرور السفن الهولندية والألمانية المحملة بويسكى الجاودار البروسى والبولندى والبوميرانى القادمة من دانزج Danzig وثغور البلطيق الصغيرة فى طريقها إلى لندن وروان وأمستردام وبعد عام ١٥٩٠ تغير طريقها فأصبحت هذه السفن تمر عن طريق مضايق جبل طارق . وغدت لجهورن Loghorn (ليفورنو Livorno) الثغر المنشىء حديثاً فى تسكانيا مركزاً لتوزيع غلال الشمال فى إيطاليا ، ولتوزيع السلع المعدنية والمنسوجات الانجليزية والهولندية . وقد نمت تجارة لجهورن نمواً يدعو إلى الدهشة . ففى عام ١٥٩٢ — ١٥٩٣ رست حوالى مائتى سفينة بالميناء ، وفى عام ١٦٠٩ — ١٦١٠ ارتفع العدد إلى حوالى ٢٥٠٠ سفينة ولم يلبث أهالى لندن وأمستردام أن نافسوا التجار الإيطاليين فى نقل تجارة حوض البحر المتوسط . على أن الغلبة كانت فى النهاية لتجار الشمال بفضل ما اتصف به بحارتهم من نشاط وخبرة ، وبسبب اعتدال أسعار استئجار سفنهم . وانخفاض أسعار حمولتها مما أتاح لهم فرصة التغلب على منافسيهم من التجار الإيطاليين . وإذا كان البنادقة قد تفوقوا على منافسيهم البرتغاليين فى تجارة التوابل فإنهم لم ينجحوا فى التغلب على منافسيهم من الانجليز والهولنديين فى حوض

البحر المتوسط والمحيط الهندى . وهكذا فقد البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين سيطرتهم على التجارة فى أوروبا .

الصناعة :

بينما عجزت الزراعة عن تلبية احتياجات السكان المتزايد ، نجحت الصناعة فى هذا المضمار فازداد إنتاج المنسوجات ، وبناء المنازل نتيجة لازدياد الأيدى العاملة ، وقد فرضت المناطق الصناعية المتقدمة فى أوروبا فى انجلترا والفلندرز وجنوب غرب ألمانيا وإيطاليا نظاماً خاصاً لبعض الصناعات الهامة وخاصة المنسوجات ، فتم تنظيم أسعار منتجاتها والرقابة على نوعيتها وتحديد عدد القائمين عليها وموزعيها مما ضيق الخناق على بعض أصحاب رءوس الأموال الراغبين فى استخدام أعداد كبيرة من العمال ، أو المتطلعين إلى تعديل أسعار بعض هذه المنتجات للحصول على مكاسب أكبر وتوفير أسواق أوسع فترتب على ذلك انتقال هذه الطائفة من الممولين إلى مدن القرى حيث رحب بهم أهل الريف لما أتاحوه لهم من فرص للعمل على زيادة دخولهم عن طريق الغزل والنسيج فى منازلهم ، وأطلق على هذه الطريقة « النظام المنزلى » Domestic System فانتشرت فى انجلترا وخاصة فى أنجليا الشرقية وفى يوركشير York-Shire ، كما انتشرت كذلك بين طائفة الوالون فى الفلندرز جنوبى الأراضى المنخفضة Walloon Flanders حيث نشأت سلسلة من القرى التى تنتج أرخص الملابس الجيدة التى غزت أسواق أوروبا الشرقية ، واتبع الممولون النظام النقابى وكان سائداً فى فلورنسا أثناء العصور الوسطى ، فانتشر بسرعة خلال القرن السادس عشر .

وانتشر النظام النقابى فى الوقت الذى اشتد هجوم أصحاب رءوس الأموال عليه ومحاولاتهم التنصل منه . وفى انجلترا وفرنسا وأسبانيا حيث لم يكن للنقابات الصناعية تلك التقاليد الثورية التى تميزت بها النقابات الفلمنكية اتجهت تلك النقابات نحو الدولة لتحميها من الثورات الاجتماعية التى تصاحب عادة انتشار الأنظمة الرأسمالية فى الصناعة . ولم يكن من العسير على الحكومات المركزية أو مندوبيها المحليين أن ينظموا هذه النقابات وأن يراقبوها . وأصبحت الوظائف النقابية فى فرنسا تباع وتشترى أى مورد كسب مادى للدولة . مما دفع الملك إلى استصدار المراسيم فى عامى ١٥٨١ ، ١٥٩٧ لدعوة الصناع إلى الانضمام إلى النقابة ليصبحوا أعضاء بها . على أن النظام النقابى

قد أثبت أنه نظام معوق لكل نمو صناعي فى أي دولة . ولم ينقذ انجلترا من أزمة اقتصادية فادحة نتيجة لهذا النظام إلا حكوماتها الضعيفة خلال القرن السابع عشر عندما فشلت فى تدعيم هذه النقابات لمواجهة النمو المتزايد لنوى المصالح المضادة .

الاجور والاسعار :

كان للبطالة لفترة طويلة دورها فى الوقوف حجر عثرة فى سبيل ارتفاع الأجور لتوائم ارتفاع الأسعار وعندما تم ذلك فى النهاية فى بعض البقاع لم تستطع هذه الأجور أن تجارى ارتفاع الأسعار بعد ذلك . وأن التنافس الواضح بين الأجور وأسعار المواد الغذائية خلال القرن السادس عشر لظاهرة تدعو إلى الدهشة ، فمثلا فى جنوب انجلترا تضاعفت أجور عمال البناء خلال قرن فأصبحت ثمانية بنسات للعامل بعد أن كانت أربعة ، وشلناً للحرفى بعد أن كانت ستة بنسات ، أى أن الأجور قد ارتفعت إلى الضعف بينما ارتفعت أسعار المواد الغذائية إلى أربعة بل خمسة أمثال معدلاتها فى كل من أسبانيا وفرنسا وألمانيا واسكنديناوة .

ولم يكن ارتفاع أسعار الملابس ليقارن بارتفاع أثمان المواد الغذائية أما أجور الأيدى العاملة فى أوروبا فقد ساءت للغاية خلال القرن السادس عشر ومنذ عام ١٥٣٠ أصبح التفاوت بين الأسعار والأجور واضحاً للغاية مما أدى إلى استياء الطبقات العاملة فى غربى أوروبا ووسطها وانفجار الثورة فى بعض جهات ألمانيا — فى عام ١٥٣٤ بسبب انخفاض الأجور وانتشار البطالة . ولم تلبث أن استجابت هذه الروح الثورية للحركة الدينية . فقامت الثورات فى ألمانيا حيث أجبرت مجالس المدن فى كثير من جهاتها بقبول اللوثرية ، كما وقعت الاضطرابات فى الأراضى المنخفضة على إثر شتاء الجوع فى عام ١٥٦٥ — ١٥٦٦ . وفى باريس حيث سادت ديكتاتورية العصبة المقدسة فى عام ١٥٨٩ — ١٥٩٠ أثناء المرحلة الأخيرة من الحروب الدينية فى فرنسا . ومما يدعو إلى العجب حقاً أنه على الرغم من انخفاض الأجور وارتفاع أسعار السلع الغذائية لم تقع هيات كبيرة . ويمكن تفسير ذلك إلى أن المأجورين كانوا فى غالبيتهم يعيشون فى القرى أو فى المدن الصغيرة حيث كان كل منهم يملك قطعة صغيرة من الأرض أو حديقة لا يكفى إيرادها على القيام بأود العيش ولكنها كانت تقدم للأجير ما يحتاجه من طعام يغنيه عن شراء الخبز واللحم المرتفعي الأسعار وقتئذ

وفى بعض الأحيان كان هذا الأجير يؤجر هذه القطعة لتقدم له ما يحتاجه من زاد ضرورى دون تحمل أعباء كثيرة . وكان التباين بين الأجور وأسعار السلع واضحاً فى أنتورب Antwerp فى بداية عام ١٥٣٠ . ولكن بعد ذلك التاريخ بدأت الأجور فى الارتفاع على أن عمال النسيج لم يحصلوا على زيادة مماثلة قبل عام ١٥٧٤ . وقد عزا مؤرخو بلجيكا ذلك إلى اشتراك عمال النسيج فى ثورة الأراضى المنخفضة .

ويلاحظ اتجاه الفنانين الفلمنكيين والهولنديين والألمان منذ منتصف القرن السادس عشر نحو انتاج نوع جديد من الرسوم تمثل احتفالات الفلاحين بمناسبات عديدة منها حفلات الزواج وغيرها .

النتائج الاجتماعية لارتفاع الأسعار :

على الرغم من الأبحاث المحلية العديدة التى أجريت لم يتوصل بعد إلى تكوين صورة واضحة عن النتائج الاجتماعية لثورة الأسعار فى المجتمعات الزراعية فى أوروبا .

ففى انجلترا استرد أصحاب الأراضى أراضيهم من الملتزمين ليقوموا على زراعتها لحسابهم الخاص أحياناً أو ليضموا أجزاءها إلى بعض فيؤجرونها لمدد أقصر .

وفى عام ١٦٨٨ وجد « جريجورى كنج » Gregory King — وهو احصائى يعتد بإحصائياته — أن عدد ملاك الأرض والملتزمين لايزال يفوق عدد المستأجرين من المزارعين . وقد اختفت طبقة صغار الفلاحين وكانوا يكونون طبقة مهمة من ملاك الأراضى ، إذ ارتفعت مرتباتهم فى المجتمع فأصبحوا ينتمون إلى الطبقة الارستقراطية التى تمتلك أراضى متوسطة المساحة ، وقد استفاد مستغلوها فى غالبيتهم بارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية ، واتضح ذلك عندما أقبلوا على شراء ضياع الأديرة التى عرضت للبيع فى عهد الملك هنرى الثامن .

تميزت انجلترا عن سائر أنحاء أوروبا بهذا التغيير الاجتماعى ، إذ أهتم أهلها خلال القرن السادس عشر بالحصول على المال عن طريق التجارة ثم استثماره فى المشاريع الزراعية ليحصلوا أو يحصل أبناءهم وأحفادهم على مكانة أعلى فى المجتمع ، أى ليصبحوا من النبلاء وقد جعلت هذه الظاهرة الجديدة فى حياة انجلترا الاجتماعية والاقتصادية يجعلها تتفوق فى نموها التجارى والصناعى على سائر أنحاء القارة الأوروبية .

النتائج الاجتماعية لارتفاع الأسعار فى أوروبا :

وهنا نفتقر كذلك إلى المعلومات الدقيقة عن هذه النتائج ، وإن كان يبدو فى Henavlt هنولت بالأراضى المنخفضة حيث وجدت بعض القوائم الموضحة لدخول بعض أراضيها أن ملاك الأراضى المتوسطة المساحة قد استفادوا من ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية فأصبحوا أحسن حالا من أصحاب الملكيات الصغيرة ويمكننا أن نذكر أن سائر الولايات الوالونية بالأراضى المنخفضة المجاورة للمدن الصناعية بالفلندرز Flanders كانت أحوا لها ميسرة لأنها كانت تجد أسواقاً رائجة لحاصلاتها .

أما فى فرنسا وإيطاليا فلم يكن فى استطاعة صغار النبلاء أن يتجاوبوا مع ارتفاع الأسعار التى كانت تفوق دخولهم . ولعل تفسير ذلك يتضح فى اهتمام هؤلاء النبلاء بالتدخل فى الحروب الخارجية والأهلية خلال القرن السادس عشر مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية . وقد شغلت دور القضاء فى الملكيات بالقارة الأوروبية بانتهاك النبلاء للأوضاع القائمة ومغالاتهم فى فرض الضرائب على أتباعهم ومستأجرى أراضيهم، وكانوا فى اعتداءاتهم على حقوق الآخرين يحتمون بما كانوا يتمتعون به من امتيازات ؛ ولحماية مصالحهم أقنعوا حكومة فرنسا فى عام ١٥٦٠ أن تستحدث قانوناً من شأنه أن يحرم كل نبيل من امتيازاته إذا اشتغل بالتجارة خاصة بتجارة التجزئة وبالحرف . وقد عمل بهذا المبدأ وان لم يشرع له فى كثير من مدن إيطاليا الشمالية وبعض جهات فرنسا .

وكان الغرض من هذا التشريع هو أن يحول دون استخدام رأس المال الناتج عن الزراعة فى التجارة أو الصناعة باستثناء بعض الشركات التجارية الكبيرة .

أما بالنسبة لدول أوروبا الغربية والجنوبية فقد عالج النبلاء بها وخاصة كبارهم هذه المشكلة ونجحوا إلى حد بعيد فى ذلك ؛ استخدموا طرقاً عديدة منها أن النبلاء فى إيطاليا حولوا الأرض الزراعية إلى أراضى للمراعى فاستطاعوا أن يمدوا أسواق إيطاليا باللحوم والجبن كما استحدثت أسبانيا حداً أقصى لأسعار الحبوب على أن هذه الأسعار طبقت على الفلاحين بينما سمح للنبلاء أن يتجاوزوا عن هذه التسعيرة . وأهم من هذه الحيل جميعاً اقبال السكان الشديد على الأرض ذلك الأمر الذى أتاح الفرص لملاك الأراضى أن يرفعوا من قيمة إيجارها مما جعل الدخل يتجاوب مع الأسعار .

على أن الفلاحين الذين اعتبروا أحراراً فى سائر أنحاء غرب أوروبا وجنوبها كانوا لايزالون يرزحون تحت عبء التزامات اقطاعية ثقيلة منها احتكار النبلاء لبعض حقوقهم من طحن الغلال ، وعصر العنب لصناعة النبيذ ، واستخراج الزيوت . وقد ذكر أن فلاحى البرتغال فى الإقطاعات الواسعة كانوا لايفترقون عن العبيد السود إلا قليلاً بينما استطاعت حكومة قشتالة القوية أن تحمى الفلاحين من مبالغة النبلاء فى استعبادهم لهم ولكنها لم تنجح فى الحد من استغلال النبلاء لهم اقتصادياً . أما فى أرجونه وكتالونيا فلم يكن للحكومة السلطة التى تكفل لها حماية الفلاحين بل كان النبلاء فى كل من المقاطعتين يتباهون بأنهم ملوك فى أراضيهم . . ولم يكن فلاحو صقلية ونابلى بأحسن حالا من هؤلاء .

وإذا كان كبار النبلاء قد نجحوا فى الاحتفاظ بامتيازاتهم والسيطرة على الفلاحين فى سائر أنحاء أوروبا فقد تم ذلك بمساندة الملوك لهم لأن هؤلاء كانوا فى حاجة إلى خدمات أعضاء هذه الطبقة فى شغل المناصب الإدارية والعسكرية العليا فى الدولة .

التجارة الدولية :

ظلت التجارة الأوروبية الدولية فى عام ١٥٠٠ على ماكانت عليه خلال القرنين السابقين فظلت الفلندرز وشمال إيطاليا أكثر بلاد أوروبا تقدماً فى الصناعة فكانت تصنع فى كل منها أحسن أنواع الأقمشة الصوفية فى أوروبا كما تخصصت إيطاليا فضلا عن هذا فى صناعة الحرير والفلندرز فى الأقمشة الكتانية والدانتلا والنسيج المزدان بالصور المستخدم فى كسوة بعض الأثاث . كما تقدمت فى كليهما صناعة بناء السفن والمطبوعات المعدنية . واحتكرت البندقية تجارة التوابل القادمة من الشرق وغيرها من سلع الترف التى كان تجار البندقية وألمانيا يوزعونها على أوروبا .

وكان الاتصال بين إيطاليا والفلندرز ميسراً براً وبحراً . كما توفرت الخطوط الجانبية لهذا المحور « إيطاليا — الفلندرز » فى الاتجاه الغربى والجنوبى نحو فرنسا وأسبانيا والاتجاه الشرقى والشمالى نحو ألمانيا والبلطيق ويلاحظ أن اتصال هذا المحور ممتد نحو الشمال الغربى أى إلى انجلترا التى لم تعد المورد للصوف الخام الذى أثرى صناع الأقمشة فى جنت وفلورنسا — وإن كانت لاتزال تصدر إلى الفلندرز وبربان Flanders, Brabant الأقمشة نصف المصنعة Semi-Finished لتقوم على إتمام تصنيعها . وقد احتلت أسبانيا

مكانة انجلترا ؛ فأصبحت المورد الرئيسى الدولى لأحسن أنواع الصوف الخام .

على أن التجارة الخارجية لم تقتصر على المنسوجات والتوابل ، فالأخشاب والحبوب والفراء كانت تصدر من النرويج والبلطيق فى مقابل الملح والنبيذ من فرنسا والبرتغال . كما كانت الأسماك والجبن والزبد والنبيذ والبيرة وكل أنواع الأسلحة تصدر إلى جهات بعيدة . ولم تكن تجارة الرقيق أقل أهمية من كل ذلك ؛ فلم تتوقف فى فى جنوب أوروبا على الإطلاق ؛ فخلال القرن السادس عشر أصبح تجنيد العبيد المجدفين فى السفن الشراعية الكبيرة من مختلف الجنسيات للخدمة فى السفن الحربية بحوض البحر المتوسط يتم بطريقة وحشية . لم يهاجمها إلا أرزم والإنسانيون المنتمون إليه .

وكانت السلع المنقولة براً تشحن على ظهور البغال والأحصنة فى طرق غير بعيدة . بينما كان البعض ممن تسمح ظروفهم يفضلون نقلها بحراً عن طريق البحار أو الأنهار ، نظراً لأن هذه الوسيلة كانت أقل نفقات وأسرع كما كانت أسلم فى كثير من الأحيان . وكانت الرحلة من البندقية إلى بروكسل تستغرق عشرة أيام وإلى باريس اثنتا عشرة يوماً . وإلى لندن أربعة وعشرين يوماً وإلى القسطنطينية ما يتجاوز الشهر . على أنه قد استغرقت أقصر رحلة بين البندقية وباريس سبعة أيام ، وإلى القسطنطينية خمس عشرة يوماً . ولكنها فى الأغلب الأعم كانت تستغرق أكثر من ذلك بكثير .

أهم نتائج الكشوف الحديثة :-

يرجع التغيير الواضح فى مسار التجارة الأوروبية إلى الكشوف البرتغالية(١) وخاصة حول سواحل أفريقيا وكذلك إلى اكتشاف أسبانيا لأمريكا(٢) .

لم تكن تجارة أوروبا قبل ذلك تتعدى ثغور حوض البحر المتوسط إلا نادراً فكانوا يشترون الرقيق والذهب من ثغور الساحل الغربى الأفريقى ، ويحصلون على

---

(١) انظر ص ص ٥٢–٥٦ . (٢) انظر ص ص ٥٦–٥٨ .

الفلفل الهندى والعاج والحرير الصينى من التجار العرب وبفضل تلك الكشوف أصبح تجار أوروبا على اتصال مباشر مع منتجى هذه الكماليات . فأنشأوا فى العالم الجديد أسواقاً جديدة للسلع الأوروبية حيث كانت أثمانها تسدد ذهباً أو فضة مما يساعد على اتساع هذه التجارة مع الشرق . وأصيبت البندقية نتيجة لذلك بضربة حادة وسريعة فى مركزها التجارى إذ فقدت احتكارها لتجارة التوابل ابتداء من عام ١٥٠١ . ولكن البنادقة صارعوا فى منتصف القرن السادس عشر فى سبيل استعادة مكانتهم التجارية القيادية فى إمداد السوق الأوروبية باحتياجاتها وظلوا حتى نهاية ذلك القرن ينافسون البرتغال فى هذا الميدان . فاستطاعوا بمعاونة بعض التجار العرب الممولين لهذه السوق أن يستفيدوا من الطرق المارة بالبحر الأحمر وخليج فارس وقد شغلت البرتغال بحروب بحرية لانهاية لها فى المحيط الهندى مع العرب . وكانت الغلبة فى النهاية للهولنديين والانجليز فى خلال القرن السابع عشر إذ أثبت هؤلاء تفوقهم البحرى على كل من العرب والبرتغاليين والبنادقة كذلك . ولم يقدر الاتجار مع العالم الجديد بادىء الأمر حق قدره فاكتفى الأسبان فى البداية بإرسال شحنات الذهب إلى أسبانيا وبينما اقتصر نشاط البرتغاليين فى أفريقيا وآسيا على انشاء محطات للتجارة تحميها الحصون ، ثم اهتم الأسبان بغزو مساحات واسعة داخل أمريكا وجزر الهند الغربية والاستقرار فيها ؛ وأصبح هؤلاء المستعمرون فى حاجة إلى الطعام واللباس والخيل والأسلحة كما احتاجوا بعد ذلك بقليل إلى الأيدى العاملة من العبيد فبلغ عدد السفن التجارية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر أى حتى عام ١٥٥٠ بين أشبيلية والعالم الجديد مائتى سفينة بينما بلغت حمولتها ٣٠,٠٠٠ طن بما فى ذلك التنقلات الداخلية . ومنذ بداية الستينات من القرن السادس عشر (١٥٦٠) بدأت التجارة تزداد بعد انخفاض معدلاتها مدة عشرة السنوات السابقة فأصبحت السفن المبحرة شرقاً وغرباً عددها مائتا سفينة بينما ارتفعت حمولتها إلى ٥٠,٠٠٠ طن .

لم تكن الصناعة فى أسبانيا لتستطيع أن تمد المستعمرات بكل احتياجاتها بل كانت غالبيتها ترد إليها من الأراضى المنخفضة وشمال إيطاليا ثم لم يلبث الألمان وسكان جنوة أن استأثروا بمعظم التجارة مع هذه المستعمرات .

وكان لتجارة التهريب التى اتبعها البحارة والقراصنة الانجليز دور هام فى هذه التجارة التى عادت عليهم بالخير الوفير وتسببت فى سوء العلاقة بين أسبانيا وانجلترا وهكذا

كانت الفضة التى تصل إلى أسبانيا تدفع معظمها لتسديد قيمة السلع التى يستوردها المستعمرون أو تدفع أجوراً للجند الأسبان سواء فى إيطاليا أم فى الأراضى المنخفضة .

كان سوق أنتوارب Antwerp هو حلقة الاتصال فى التجارة بين أوروبا وجزر الهند الشرقية – عند مطلع القرن السادس عشر . وكان للتحالف التجارى بين تجار البرتغال وتجار جنوب ألمانيا أثره العظيم فى ازدهار أنتورب ؛ فتبادل فيها الطرفان منافعهما ؛ فبينما قدم البرتغاليون الألمان التوابل ، حصلوا منهم على النحاس والسلع المعدنية ، والأقمشة وأهم من ذلك كله الفضة من مناجم وسط أوروبا ؛ وبدأ الألمان فى نشر عمليات تعدين النحاس فى المجر وتمويل الرحلات البرتغالية إلى جزر الهند الشرقية . وقد كان للمعاهدة التجارية بين الألمان والانجليز الأهمية نفسها وإن كانت قد تمت بطريقة غير مباشرة ، فقد جعلت شركة مغامرى التجار الانجليز من أنتورب مركزاً رئيسياً لاستيراد الأقمشة الانجليزية البيضاء التى كانت تتم صناعتها بها قبل أن يوزعها التجار الألمان على أسواق وسط أوروبا . فازدادت الأقمشة المستوردة من انجلترا من ٥٠,٠٠٠ ثوب من القماش فى عام ١٥٠٠ إلى حوالى ١٠٠,٠٠٠ فى الأربعينات من القرن السادس عشر (١٥٤٠) أى تضاعفت .

هذا التوسع والتركيز فى التجارة الدولية فى التوابل والمعادن والمنسوجات قد زاد من أهمية أنتورب التى كانت كذلك تستقبل غلال البلطيق لاستهلاك بعضها بالأراضى المنخفضة وتصدير الباقى إلى البرتغال وأسبانيا . كما كانت ترد إلى أنتورب سلع أخرى عديدة منها السكر من جزر الكنارى والحرير الإيطالى والخمور الفرنسية والجبن من جودا والبيرة من هارلم والسمك من زيلندا وغيرها من السلع التى تشحن بعد ذلك إلى جهات شتى من أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا ، وكثير منها كان يستخدم فى بعض الصناعات بأنتورب كذلك الخاصة بإنهاء صناعة الأقمشة وصبغها وفى صناعة الأثاث والزجاج والورق والأجهزة العلمية والأدوات الموسيقية وفى نشر الكتب . فكانت شركة بلانتان Plantin للنشر والطباعة تملك اثنتين وعشرين مطبعة وتستخدم ١٦٠ عاملا فيها . فكانت من أهم الصناعات فى أنتورب إلى جانب التعدين والبناء وتشييد السفن .

على الرغم من هذه التجارة الواسعة التى كانت تتم داخل أنتورب فإنها لم تكن تحصل على نقود سائلة فى هذه العمليات ذلك لأن التجار رأوا أن التعامل عن طريق

البنك طريقة أسلم . وقد كان أغنياء التجار منهم يقومون بأعمال البنوك وقد راجت هذه العملية بمرور الوقت نظراً لما كانت تتعرض له التجارة في عرض البحار من خسائر طبيعية أو عمليات سطو . وهكذا أصبحت بورصة أنتورب أهم مركز مالي في أوروبا كلها يليها بمرحلة كبيرة ليون .

وبلغت أنتورب قمة المجد والشهرة في منتصف القرن السادس عشر فوجدت لأول مرة في التاريخ سوق أوروبية وعالمية فأصبحت اقتصاديات مختلف دول أوروبا مرتبطة بسوق أنتوارب ليس فيما بينها وحسب بل بينها وبين أنحاء العالم .

وهكذا فاقت أنتورب سائر مدن أوروبا في هذا المركز الممتاز . ولكن ذلك لم يستمر فقد سحبت البرتغال في عام ١٥٤٩ احتكار التوابل من أنتورب . إذ وجدت أن الحصول على الفضة من الأساطيل الأسبانية أسهل ، فنقل سائر موزعي التوابل ومنهم الألمان مراكزهم من أنتورب إلى لشبونة والبندقية .

وهناك ظاهرة هامة تبعت النمو الاقتصادي كما ذكرنا تتعلق بنمو البنوك المطرد فأصبحت أجسبرج Augsburg في بفاريا مركزاً رئيسياً لذلك ، وأصبح لشركة الفوجرز Fuggers من النفوذ والسلطان ما لم تتمتع به أي شركة من قبل . وكما أصبح لها دورها المؤثر في السياسة الأوروبية ؛ إذ لم يكن في وسع الدول القيام بأي حرب دون مساعدة هذه الشركة . فظلت أجسبرج في بفاريا تمد الامبراطور بالمال لتساعده على تحقيق مشاريعه المختلفة — كما كانت مشروعات فرنسا في إيطاليا تعتمد على تمويل بنك ستروتزي « Strozzi في فلورنسا وفروعه في ليون والبندقية وروما ».

ويتبين لنا مما تقدم أن التغييرات الاجتماعية والاقتصادية خلال القرن السادس عشر تتلخص في ازدياد سريع في تعداد سكان المدن وتطور أحوال المدن مع ملاحظة استمرار ارتباط غالبية السكان بالأرض .

---

(١) انظر تطور ازدياد عدد السكان في العالم بين عامي ١٧٥٠ ، ١٩٠٠ في الصفحة التالية .

إزدياد عدد السكان فى العالم من عامى ١٧٥٠ ، ١٩٠٠

(بالمليون نسمة من السكان)

أوروبا	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
	١٤٠	١٨٧	٢٦٦	٤٢٠
فرنسا	٢٣	٢٧,٣	٣٥,٧	٣٨,٩
بريطانيا العظمى	٧,٤	١٥	٢٢,٩	٣٨
(انجلترا ـ اسكتلندا بلاد السنغال)	٣,١	٥,١	٦,٦	٤,٤
بلجيكا والأراضى المنخفضة	٤,٢ ؟	٥	٧,٤	١١,٨
سويسرا	١,٤	١,٧	٢,٣	٣,٣
إيطاليا	١٣,٦	١٨,١	٢٤	٣٢,٤
ألمانيا	١٧ ؟	٢٣	٣٥,٩	٥٦,٣
النمسا والمجر	١٠ ؟	٢٨	٣٥	٤٩
الممالك الابكنديناية	٣,٤	٤,٢	٦,٣	٩,٩
روسيا الجزء الأوروبى	١٤,٥	٣٦	٥٧	١٠٣
أسبانيا	٨,٦	١٠,٥	١٥	١٨,٦
البرتغال	٢,٨	٢,٩	٣,٤	٥,٦
آسيا	٤٣٧	٥٠٠	٦٧٢	٨٥٠
الصين	١٨٠ (؟)	٢١٠ (؟)	٢٥٠ (؟)	٣٥٠ (؟)
اليابان	٢٦ (؟)	٢٦ (؟)	٢٨ (؟)	٤٤,٨
الهند	(؟)	١٢٠ (؟)	١٧٥ (؟)	٢٨٥
أفريقيا	(؟)	١٠٠ (؟)	١١٠ (؟)	١٤٠
أمريكا الشمالية والوسطى	٣ (؟)	١٢	٤٠	١٠٣
كندا	٠,١	٠,٣	٣	٥,٤
الولايات المتحدة	١,٥ (؟)	٥,٣	٢٣,١	٧٦
أمريكا الجنوبية	(؟)	١٥	٢٠ (؟)	٦٣

الفصل الثانى

الكشوف الجغرافية وحركة الاستعمار

كان من أهم مميزات تاريخ أوروبا الحديث حركة الكشوف وما تلاها من حركات استعمارية واسعة النطاق ؛ فحركة الكشف الجغرافى قد ظهرت مبكرة منذ بداية القرن الخامس عشر ، واستمرت خلال ذلك القرن ، ولم تظهر نتائجها الحاسمة إلا فى نهايته وبداية القرن الذى يليه ، وتلتها كذلك حركة استعمارية واسعة النطاق تميزت بها قلة من الدول الأوروبية ، ثم لم تلبث أن انضمت إليها دول أخرى محاولة أن تحقق نصيبها من هذا الكسب المادى العظيم وترتبت على ذلك حروب بين هذه الدول ، لم يقتصر ميدانها على بقاع ومواطن هذه المستعمرات وإنما عداها إلى الأراضى الأوروبية نفسها .

وقد كان لظهور نزعة الكشف الجغرافى والاستعمار واشتدادها فى العصر الحديث بين الدول الأوروبية أسباب متعددة منها :

١ — نمو الروح القومية :

من أقوى الأسباب فى بعض دول أوروبا الغربية فى مطلع العصر الحديث وما اقتضاه ذلك من اشتداد رغبة هذه الدول فى السيطرة على بقاع جديدة ترى فى شعوبها من الضعف والتخلف ما يعينها على تحقيق ما تريد . ولم تلبث هذه الدول أن وجدت فى العالم الجديد وعلى سواحل أفريقيا وجنوبى آسيا مجالا واسعاً لتحقيق هذه الأطماع . وعلى صدى المحاولات التى قامت بها فى هذا المجال أذن مؤذن الحرب فاندلعت نيرانها فى أنحاء أوروبا وغيرها ثم انتهت إلى قيام الامبراطوريات الاستعمارية : وكان أعظم تلك الدول وأنشطها فى هذا الميدان إسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا

وانجلترا ؛ وهى دول كانت تحركها النزعة القومية ، وكان لكل منها ظروف خاصة مهدت لتحقيق وحدتها القومية فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال أيام القرن السادس عشر . وإذا كانت ألمانيا وإيطاليا لم تظهرا على مسرح تلك الحوادث فما كان ذلك إلا لأنهما لم تكونا قد استكملتا وحدتهما القوميتين . فلما تم ذلك فى أيام الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهر اهتمامهما بالاستعمار واضحاً وجلياً . فأما النمسا التى لم تحركها النزعة القومية فقد تخلفت عن موكب الظهور فى هذا الميدان البغيض ؛ ومن ثم لم يكن لها فى أسلاب الاستعمار نصيب .

ومن هنا نستطيع أن ندرك كيف أن الدول التى حققت وحدتها القومية حديثاً اشتدت رغبتها الملحة فى التوسع لنشر نفوذها ومبادئها حتى باتت تؤمن بأن بقاءها رهين ببقاء مستعمراتها أياً كانت مظاهر الاستعمار فيها ، ولا أدل على ذلك مما جاء فى أقوال اللورد «كرزون» Curzon أحد مشاهير الساسة الإنجليز بشأن الهند حيث قال :

«هى محور عظمتنا ومقياس نجاحنا أو إخفاقنا ، ولئن فقدنا الهند فليكونن هذا إيذاناً بغروب شمس حياتنا» .

كما يقول أحد الكتاب الفرنسيين :

«إن فرنسا لابد لها من إمبراطورية أفريقية عظيمة ، وإلا غدت دولة أوروبية من الدرجة الثالثة ، وغدا شأنها فى ذلك شأن اليونان ورومانيا» .

تلك أقوال معناها فى رأى الإنسانية الصادقة الرشيدة ضرب من الوهم السخيف إذ لاينبغى لدولة عاقلة تؤمن بكيانها الإنسانى أن تعتمد فى بقائها وتثبيت عظمتها على المستعمرات ، وإنما العظمة فى حكم العقل الرشيد تتمثل فى جهود كل دولة فى سبيل استغلال مواردها الخاصة ، وفى المشاركة فى تحقيق السلام والخير للإنسانية كافة . وقد كانت ألمانيا القيصرية قبل محنتها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من أعظم دول العالم وأقواها ؛ ومع ذلك لم يكن لها من المستعمرات كما كان لغيرها من دول أوروبا . وكذلك كانت الحال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ثم فى إيطاليا وخاصة قبل ظهور روح الجشع والأوهام الباطلة التى بثها فيها موسولينى بغروره المسرحى ، إذ كانت من دول العالم المعدودة دون أن يكون لها مستعمرات . وهناك دول صغيرة لها من المستعمرات نصيب موفور ، وليس لها مع ذلك فى ميزان القوى كفة راجحة ومن ذلك هولندا وبلجيكا والبرتغال .

٢ — الكسب المادى والجشع الاقتصادى :

ومن الدوافع إلى الاستعمار والتسلط بوجه عام أولا وأخيراً الرغبة الشديدة فى الكسب المادى والجشع الاقتصادى . هذا اللون من الاستعمار يطلق عليه الاستعمار الاقتصادى أى التسلط على بقاع الأرض واتخاذها أسواقاً للكسب المادى العريض . وذلك عن طريق تكوين الشركات الرأسمالية . وقد أسهم فى هذا النوع من الاستعمار رجال من أصحاب النشاط المادى المرموق فى بلادهم ، أنشأوا فى هذه المستعمرات مشروعات متعددة الأغراض ، منها ما هو تجارى لتصريف البضائع والسلع ، ومنها ما هو زراعى يقوم على إنشاء المزارع الواسعة لتوفير محصولات المناطق الحارة مثل المطاط والقطن ، ومنها مشروعات البحث والتنقيب عن معادن الأرض وجواهرها .

وكان هذا الغرض واضحاً فى سائر مراحل الاستعمار . فكانت دول أوروبا تعتمد فى الحصول على كماليات حياتها على ما يأتيها من التوابل والمعادن والسكر والعاج ، يأتيها من الهند وبعض بلاد الشرق الأقصى ، يبلغها بين أيدى قوافل تصل إليها بطيئة وئيدة عن طريق سواحل البحر الأسود وحوض البحر المتوسط ، وذلك حتى نهاية القرن الخامس عشر . ولم يكن للتجار الأوروبيين يومئذ اتصال مباشر بمصادر تلك الكماليات . وكانت ضئيلة الكم باهظة الثمن ، كما كان الطريق الذى تسلكه القوافل فضلا عن طوله غير مأمون ؛ لذلك كانت الرغبة فى الاتصال المباشر بمصادر هذه التجارة ، والتمكن من السيطرة على الكميات المستوردة منها وعلى أثمانها وتأمين طريقها عاملا أساسياً دفع إلى ظهور حركات الكشف وتأسيس المحطات التجارية الهامة على طول الطريق البحرى من غرب أوروبا وغرب أفريقيا وشرقها فسواحل المحيط الهندى إلى منطقة جزر الهند الشرقية الغنية بالتوابل .

وكان التجار المسلمون يحتكرون التجارة فى التوابل ، ويجنون من ورائها أرباحاً طائلة ، كما كانوا يتحكمون فى الأثمان والمقادير فى تعاملهم مع المدن التجارية فى شمال إيطاليا مثل جنوه والبندقية وفلورنسا .

فأفادت جمهوريات إيطاليا الشمالية المذكورة كما أفاد المسلمون فى الشام ومصر من هذه التجارة . وكانت مصدراً من مصادر قوة هذه البلاد وعزتها .

وقد تبين للبرتغال عندئذ أنه يجب — لإضعاف العالم الإسلامى والقضاء على قوته

قضاء مبرماً — أن تنتزع تجارة التوابل من أيدى تجاره ليحرموا من أرباحها وتحصيل ما ينبغى عليها من ضرائب ، ولم يكن من الحكمة تحقيق ذلك ما دام الطريق التجارى بين الشرق والغرب يمر بأراضيهم ، ومن ثم ظهرت الرغبة فى اكتشاف طريق جديد للوصول إلى الهند والشرق الأقصى مباشرة دون المرور ببلاد المسلمين المطلة على حوض البحر المتوسط .

وحققت كشوف البرتغال حول أفريقيا أحلام أوروبا التى ظلت تراودها قرابة مائتى عام . كما كللت محاولاتها ومجهوداتها التى اتصلت واستمرت نحو خمس وسبعين سنة بالنجاح .

وفى القرن التاسع عشر بعد ازدهار حركة الانقلاب الصناعى وانتقالها من انجلترا إلى سائر جهات أوروبا والعالم الجديد ، أدركت هذه الدول جميعاً شدة حاجتها الضرورية إلى مواطن المواد الخام والأسواق الخارجية ، فوجدتها فى قارة أفريقيا البكر الواسعة الغنية بمواردها المختلفة ، ومن ثم كان التسابق على اختطاف أجزاء منها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

٣ — نشر حضارة الدول المستعمرة :

وثالث دوافع الاستعمار قد كان رغبة فى نشر المعتقدات الدينية والمبادىء السياسية التى كانت تدين بها دول الاستعمار أو بتعبير آخر رغبة الدول فى نشر حضارتها بمظاهرها المختلفة بين شعوب هذه البلاد . وقد اتجهت هذه الرغبة اتجاهاً دينياً أول الأمر ، وكانت الحماسة الدينية عند البرتغاليين والأسبان من مواريث الصليبيين ، فكانت حياة الأسبان تدبيراً مستمراً وسعياً متصلا فى سبيل طرد العرب من بلادهم بعد أن ظل العرب بها ما يزيد على سبعة قرون ونصف قرن . وقد تحقق ذلك على يد ملك أسبانيا فرديناند فى نهاية القرن الخامس عشر ، وكافأه البابا على نجاحه هذا بمنحه لقب « الملك الكاثوليكى » وهو لقب انفرد يومئذ به بين ملوك أوروبا .

وكانت ايزابيلا ملكة أسبانيا حين اقتنعت بوجوب المساهمة فى مشروع كريستوف كولمب متأثرة فى ذلك بعاملين ، هما الحصول على ثروة جزر الهند الغربية ، ونشر الثقافة المسيحية . وكان هذان الغرضان من الدوافع الأساسية التى دفعت بالأسبان إلى القيام بحركتهم الكشفية لسواحل أفريقيا مدفوعين كذلك بقصد نشر المسيحية

فكانوا يأملون العثور على ما أطلقوا عليه « امبراطوزية القديس يوحنا » بقصد معاونته فى نشر المسيحية ، وأكبر الظن أنهم كانوا يقصدون إلى الحبشة .

وكانت فرنسا كذلك فى حركتها الاستعمارية بحوض سنت لورنس مدفوعة إلى جانب غرضها الاقتصادى بدافع دينى ، فأسهم جماعة الجزويت بنصيب لايقل عن نصيب المغامرين والتجار فى استعمار منطقة البحيرات العظمى ووادى نهر المسيسبى . أما فى حركة الاستعمار الانجليزى فلم يظهر ذلك بوضوح إلا فى القرن التاسع عشر .

والمنادون بهذا المبدأ يرون أن الدولة صاحبة الشأن لها رسالة عالمية مقدسة . ولا بد لها أن تنشرها وتبثها بين الشعوب ، ألا وهى رسالة المدنية والحضارة ؛ رسالة تقتضيها البذل والتضحية فى سبيل رفع مستوى الشعوب ، والأمم المختلفة والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة . وأن الفتح عن طريق الغزو ليس غاية بل وسيلة إلى تحقيق ذلك . ويزعم أصحاب تلك المبادىء الاستعمارية أن كل أولئك أعباء يحملها الجنس الأبيض . ويصفونها بأنها أعباء ضخمة مرهقة ولكنها محببة إلى نفوسهم .

أما نحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين ونلمس آثارها السيئة ، ونشقى بنتائجها فى كل بقاع المعمورة ، فنسخر من هذه الأقوال ونراها غير صحيحة وإنما هى ذرائع الاستعمار وأغراضه المادية .

وإذا كانت الدول الاستعمارية تزعم أنها ترعى مصالح الشعوب فى مناطق الاستعمار من حيث الرعاية الصحية والهداية الدينية ؛ فإن الغرض الأساسى من الاستعمار لم يخف عن إدراك المدركين ووعى الواعين .

٤ — العثور على أوطان جديدة :

ورابع أهداف الاستعمار العثور على أوطان جديدة لمن ضاقت بهم بلاد المستعمرين ولم يتضح ذلك الهدف قبل القرن التاسع عشر ، بل كان هناك راشدون من الساسة البريطانيين فى مطلع حركة الاستعمار ؛ يرون فى ذلك خطراً على مصلحة الوطن . يتمثل فى حرمانه من جهود المهاجرين من أبنائه الأكفاء .

هذا الأسلوب من أساليب الاستعمار كله شر ؛ إذ معناه الاغتصاب والسطو على

بلاد آمنة مطمئنة . آهلة بالسكان ، الذين نشأوا فيها وعمروها بعد أسلافهم ، يحتلها المستعمرون لينزلوا بها من يدعون أنهم زادوا حتى ضاقت بهم أوطانهم ؛ ومعنى ذلك أنهم يجيئون بهم ليشركوا المواطنين فى أرزاقهم بعد أن كانت خالصة لهم من دون الناس . ولا يلبث أولئك النزلاء حتى يندسوا فى كيان هذه الشعوب ، يمتصون دماءهم ويحرمونهم نعمة الحياة . وقد كانت سياسة إيطاليا الفاشية تستند إلى هذا اللون من ألوان الاستعمار فالمناطق الافريقية فى نظر الإيطاليين لم تكن غير مجال يتسع للجاليات الإيطالية ؛ وذلك صدى لنغمة رومانية ألفها التاريخ منذ القدم ؛ فالإيطاليون هم سلالة الرومان الذين أنشأوا الامبراطورية الرومانية وجعلوا من رحاب الدنيا مجالا لأهلها ، ومن محاصيلها موارد لأرزاقهم ، ومن بحارها مرافق لحياتهم ، وحسبهم أن يكون البحر المتوسط فى رأيهم حتى أيام موسولينى بحيرة رومانية .

ونحن نرى أن المطالبة بمستعمرات لإيواء من ضاقت بهم أوطانهم لم تكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من الزيف السياسى وذريعة لتحقيق المطامع المادية .

٥ — الدافع العسكرى (الاستراتيجى) :

وخامس الدوافع إلى الاستعمار عسكرى استراتيجى يحرك أصحابه إلى اغتصاب بعض البقاع والسيطرة عليها بحجة ظاهرها الحرص على السلام وباطنها الحرص على أملاكهم ومصالحهم ، كما حدث عندما احتلت انجلترا قناة السويس ومصر لتؤمن السبيل إلى مستعمراتها بالهند ، الأمر الذى كان يحتم عليها كما ادعت أن تسيطر على خط المواصلات إلى امبراطوريتها بالهند ابتداء من جبل طارق ماراً بمالطة وقناة السويس ، ثم عدن وسنغافورة وأمثلة ذلك كثيرة قد لايتسع المجال لذكرها وتفاصيلها .

٦ — الرغبة فى زيادة المعلومات الجغرافية :

سيطرت على الأوروبيين فى عصر النهضة رغبة قوية لزيادة معلوماتهم الجغرافية ، وكان الباعث على هذه الرغبة ظهور روح البحث العلمى والتنقيب وتقدم علم الفلك والاهتداء إلى آلات لاغنى عنها للقيام برحلات بحرية طويلة ؛ فقد عرف الأوروبيون الأسطرلاب والبوصلة والدفة المتحركة لعبور البحار مما شجع الملاحين على توسيع نطاق الملاحة ، وبناء السفن القوية الكبيرة الحجم .

ومع ذلك فقد كانت هنالك عوامل شخصية تدفع الأفراد إلى الاستكشاف والاستعمار منها روح المغامرة والكشف والرغبة فى الكسب المادى والثراء السريع ، نذكر منها مستعمرة ولاية فرجينيا Virginia وكندا ، والبرازيل ، وبيرو ، والمكسيك وغيرها . كما غدت الأراضى المكتشفة حديثاً ملجأ للعناصر غير المرغوب فيها ؛ مثل المسجونين السياسيين ، والمحكوم عليهم بالإعدام . فسافر منهم عدد كبير فى بادىء الأمر ليعملوا فى خدمة الحركة الاستعمارية ، ثم أطلق سراحهم فيما بعد ليندمجوا مع سكان المستعمرات . ولما فقدت انجلترا مستعمراتها الثلاث عشرة الممتدة على طول الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية أخذت فى استعمار استراليا لتجد ملجأ وملاذاً لهذا النوع من الانجليز ممن لاترضى عن إقامتهم بانجلترا نفسها . لذلك شرعت فى استعمار استراليا عام ١٧٨٩ أى ست سنوات بعد حصول الولايات المتحدة الأمريكية على استقلالها .

وعندما وقعت المنازعات الدينية فى أوروبا ، هاجر عدد كبير من الأوروبيين المضطهدين إلى المستعمرات ليمارسوا دينهم بكل حرية . فهاجر عدد كبير من البيوريتان من انجلترا . فكانوا النواة التى قامت بتأسيس مستعمرات نيوإنجلند . كما هاجر بعض الهيجونوت من فرنسا ، والمورافيين من النمسا وهاجر المضطهدون من إقليم البلاتين ، وأهالى سالزبرج فى المانيا . وكان أمراً طبيعياً أن تفر هذه العناصر المضطهدة إلى العالم الجديد لتمارس عقائدها بمطلق الحرية دون ملاقاة أى معارضة .

أما عن حركات الكشف والاستعمار البرتغالى والأسبانى فقد اختلفت كل منها عن الأخرى ؛ فبينما اتجهت كشوف البرتغال نحو غرب أفريقيا وجنوبها ثم شرقاً حتى منطقة جزر الهند الشرقية ، اتجهت كشوف الأسبان غرباً لتصل إلى نفس الهدف أو الغاية التى سعت إليها البرتغال ، ولتثبت حقيقة جغرافية كانت خافية على الأذهان وهى كروية الأرض . كما اختلفت طريقة استعمار كل من البرتغال وأسبانيا . أما طريقة البرتغاليين فكانت تشبه طريقة الفينيقيين والقرطاجنيين من حيث أنهم كانوا يحتلون مراكز معينة على السواحل فقط غير عابئين بالتوغل داخل الأراضى لاستعمارها على الطريقة الاستعمارية الحديثة (ويستثنى من ذلك استعمارهم للبرازيل) ؛ وذلك لقلة عدد سكان البرتغال نظراً لصغر مساحتها مما جعلها غير قادرة على الاستغناء عن عدد من سكانها ، ومن ثم كانت إمبراطوريتهم تتكون من محطات بحرية ، ومراكز تجارية فحسب ،

فى هذه المراكز كانوا يقتنعون بتحميل المراكب المختلفة القاصدة لشبونة بمختلف السلع وكانوا فى العادة يمضون بها من ثلاث إلى أربع سنوات حتى يتمكنوا من جمع بعض المال ثم يعودون أدراجهم إلى بلادهم . هكذا كان شأن الاستعمار البرتغالى ، أما الأسبان فقد استعمروا استعماراً حقيقياً فى جزر الهند الغربية والمكسيك وبيرو .

الكشوف الجغرافية البرتغالية :

من أهم الكشوف الجغرافية البرتغالية كشف طريق رأس الرجاء الصالح :

كشف طريق رأس الرجاء الصالح :

عبر الملاحون البرتغاليون خط الاستواء عام ١٤٧١ وتأكدوا أن القارة الأفريقية تمتد جنوب هذا الخط ، وأن الملاحة فى هذه المناطق ليست عملية مستحيلة كما كان يعتقد الكثيرون ، كان ملك البرتغال جون الثانى (١٤٨١–١٤٩٥) من المولعين بالكشوف والأسفار بغية الكشف ، وحققت الكشوف الجغرافية فى عهده نصراً عظيماً عندما اصطدم « برثلميودياز » Barthélémy Diaz بساحل أفريقيا الجنوبى وكشف الطرف الجنوبى للقارة ١٤٨٧ الذى أطلق عليه رأس العواصف ، وقد عدل الملك هذا الاسم فجعله « رأس الرجاء الصالح » (١٤٨٨) تفاؤلا وتيمنا بالموقع الجديد .

وبعد فترة ركود استأنف البرتغاليون جهودهم فى مواصلة الكشوف الجغرافية ابتغاء الاهتداء إلى طريق بحرى متصل إلى الهند حول أفريقيا . وكانت الهند بمحصولاتها الثمينة وتوابلها الشهية وتجارتها الرابحة الوفيرة هى الهدف الأول للبرتغاليين ، ومحط آمالهم فى مشروعات الكشف الجغرافى . وفى يولية ١٤٩٧ أوفد الرحالة « فاسكودى جاما » Vasco de Gama فى رحلة مكونة من ثلاث سفن ، فاستطاع أن يمر برأس الرجاء الصالح ثم سارت سفنه شرقاً بمحاذاة الساحل الشرقى لأفريقيا فمرت بموزمبيق ١٤٩٨ ، و« ممبسة » Mombassa و« مالندى » Malindet (ثغر يتبع حالياً كينيا) . وكانت هذه الثغور غاصة بالتجارة وتخضع لسيطرة سلاطين وأمراء المسلمين ، وكان نفوذهم أحياناً كثيرة يمتد إلى ما بعد الساحل . وقد وجد البرتغاليون الحياة الاجتماعية ، والسلطة السياسية على الساحل الشرقى أكثر رقياً من التى وجدوها على الساحل الغربى . كما أنهم اصطدموا بسلطة المسلمين ونفوذهم على الساحل الشرقى مباشرة .

وفى ثغر «مالندى» أقام فاسكودى جاما بضعة أسابيع واستطاع أن يضطر حاكمها إلى تزويده ببحار ماهر ، عليم بطبيعة الملاحة فى المحيط الهندى وهو البحار الربان «ابن ماجد» (لقبه شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى النجدى). وقد ترك للتراث العربى الملاحى ثروة قيمة من المؤلفات العلمية فى فنون الملاحة والبحرية . أفاد فاسكودى جاما من خبرة ابن ماجد وما أطلعه عليه من خرائط عربية ممتازة توضح معالم الرحلة ، فجعله قائداً لسفينة القيادة التى كان عليها فاسكودى جاما ، والتى بارحت مالندى قاصدة الهند فوصلت ثغر «كاليكوت» Calicut على الشاطىء الغربى للهند المسمى ساحل «مليبار» وأقام فيها قرابة ثلاثة أشهر عاد بعدها إلى البرتغال فبلغها فى سبتمبر ١٤٩٩ ، فاستقبل استقبالا حافلا فى لشبونة ، فكان بذلك أول من استخدم طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهند .

وقد ظل الحظ حليفاً لهم ؛ إذ أنهم بطريق الصدفة اكتشفوا البرازيل عام ١٥٠٠ فقد أوفد ملك البرتغال عمانويل (١٤٦٥ — ١٥٢٠) رحلة بحرية على رأسها «ألفارز كبرال» Alvarez Cabral قاصـــدة إلى شرق أفريقيا والمحيط الهندى ، وأراد قائدها أن يتجنب خليج غانة فضل الطريق وانحرف نحو الجنوب الغربى ، ومن ثم اصطدم بساحل البرازيل . ولم يلبث هذا الملك أن اختار رحالة آخر يدعى «أمريجو فسبوتشى» Amerigo Vespucci ؛ قام بعدة رحلات وأطلق اسمه على الأمريكتين.

عندما تم للبرتغاليين العثور على الطريق إلى الهند ، حاولوا تدعيم مركزهم فى احتكار التجارة فى المحيط الهندى ، فاستخدموا وسائل العنف والقوة ، ونجحوا بهذه الطريقة فى استبعاد منافسيهم . فقد قابل «فاسكودى جاما» أسطولا تجارياً عربياً تجاه «قاليقوت» Calicut عام ١٥٠٢ ، فاعتدى عليه وأنزل ببحارته ألواناً متعددة من القسوة منها تقطيع الأنوف والآذان .

ولما كان احتكار البرتغاليين لهذا الطريق يتعارض مع مصالح كل من سلطان مصر والبنادقة ، فقد تعاقدا على مقاومة النفوذ البرتغالى الجديد ، وأعدت بالتالى حملة فى البحر الأحمر . وإذا كانت هذه الحملة قد نجحت بادىء الأمر فى تحقيق بعض الانتصارات إلا أنها لم تلبث أن هزمت على يد الأسطول البرتغالى بقيادة «الميدا» Almeida فى موقعة «ديو» البحرية عام ١٥٠٩ . وقد استطاع القائد «ألبوكوك» Albuquerque أن يقضى على البقية الباقية من نفوذ البنادقة ، وذلك عندما دعم

مركز البرتغال على طول الطريق البحرى إلى الهند، بالاستيلاء على عدن عند مدخل حوض البحر الأحمر الجنوبى وجزيرة « سوقطرة » Sokatra عند مدخل هذا البحر (١٥١٣) و « هرمز » Ormuz عند مدخل الخليج العربى (١٥١٥) ؛ أى أنه نجح فى سد الطريقين الوحيدين إلى الشرق فى وجه البنادقة . ولذلك يعتبر « البوكرك » المؤسس الحقيقى للامبراطورية البرتغالية . فى الهند استولى على « جوا » Goa عام ١٥١٠ لتصبح عاصمة لهذه الامبراطورية الاستعمارية الشاسعة . وفى عام ١٥١١ يضع يده على « ملقا » Malacca على الطريق التجارى بين الهند والصين (جنوبى الهند الصينية وشمال غربى سنغافورة فى شبه جزيرة الملايو) . ويسيطر على بعض جزر التوابل ، بل وصلت جهود البرتغاليين ونفوذهم حتى كانتون « Canton » على حدود الصين عام ١٥١٧ . وقد أنشئت سفارة برتغالية لأول مرة فى بيكين عام ١٥٢٠ .

ويمكننا أن نجمل مظاهر الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا فيما يلى : —

١ — توقف البرتغاليون عند السواحل الإفريقية سواء كانت الغربية أم الشرقية ولم يتوغلوا داخل القارة .

٢ — اختاروا مناطق صالحة لرسو السفن ولبناء القلاع على طول الساحل الغربى والشرقى ، وأقاموا فيها مراكزهم التجارية ومحطاتهم البحرية ، وهذه المراكز تتكون من قلعة حربية وكنيسة ومساكن لإقامة الجند والتجار والأفريقيين الذين يعتنقون المسيحية .

٣ — تحطيم قوة التجار المسلمين حيثما وجدوهم ، وخاصة فى شرق أفريقيا وهدم مدنهم ، والمحاولة المستمرة لاحتكار التجارة والاستيلاء على أرباحها بدلا منهم .

٤ — بدأ البرتغاليون التعامل فى تجارة الرقيق وبدأت لشبونه تصبح مركزاً مهماً فى هذه التجارة ، كما أصبحت مركزاً هاماً لتجارة التوابل ، وسوقاً للجملة تحصل منها أوروبا على كل ما تحتاجه من سلع الشرق الأقصى .

٥ — احتكرت البرتغال التجارة مع الأفريقيين .

وعلى الرغم من هذه المظاهر فقد ظلت أفريقيا فى المرتبة الأخيرة بالنسبة للاستعمار البرتغالى الذى كان مشغولا بالتجارة مع الشرق الأقصى وتوابل الهند والشرق وما يفيد

منها من أرباح. ولم يكن احتلال أفريقيا فى حسبانه أكثر من محطات على طول الطريق لنشر المسيحية وقطع الطريق على التجار المسلمين .

انهيار الإمبراطورية الاستعمارية للبرتغال فى الشرق وأسبابه :

وهكذا تكونت أول امبراطورية استعمارية فى العالم الأوروبى الحديث . كانت ممتلكاتها تمتد فى مساحة تزيد على خمسة آلاف فرسخ (٥٠٠٠ فرسخ) من السواحل ابتداء من رأس « بوجادور » فى الأطلنطى حتى « مولوكاس » Moluccas فى الباسفيكى ، كما كانت تتضمن جزءاً من أمريكا الجنوبية (البرازيل) .

على أن البرتغال لم تستطع الاحتفاظ بهذه الامبراطورية زمناً طويلا ، إذ لم تلبث أن سقطت أمام غزو أسبانيا فى عام ١٥٨٠ ، وظلت هى ومستعمراتها تابعة لأسبانيا حتى عام ١٦٤٠ وذلك لعدة عوامل من أهمها : —

١ — لم يستطع البرتغاليون أن يقلدوا البنادقة فى إيجاد طبقة من التجار الصغار للعمل فى ميدان التجارة، وإنما تركوا هذه المهمة للهولنديين الذين نافسوا البرتغاليين وكانوا خاضعين لحكم الأسبان، فأتاح لهم ذلك فرصة توزيع تجارة البرتغال فى أوروبا وأصبحت لشبونه تموج بالتجار الهولنديين ، الذين كانوا يقومون بدور الوسيط بين البرتغال وباقى أوروبا ، وغدت كل من امستردام وانتورب مركزين رئيسين لتوزيع سلع الشرق الأقصى وأفريقيا وعندما استولت أسبانيا على البرتغال عام ١٥٨٠ وكان الهولنديون فى ثورة على الحكم الأسبانى ، أغلق فيليب ملك أسبانيا موانى البرتغال فى وجوههم ، مما دعا الهولنديين إلى إرسال سفنهم إلى غرب أفريقيا ليتعاملوا مباشرة مع مراكز التجارة الأصلية فى أفريقيا والشرق . واستطاعت هولندا أن تنتزع من البرتغاليين محطاتهم التجارية ، وأن تأخذ سفنهم المشحونة بالسلع والبضائع غصباً ، وأن تقوض صرح الامبراطورية البرتغالية فى الشرق الأقصى ، حيث مكنت هولندا لسلطانها وظلت آثارها الاستعمارية فى جزر الهند الشرقية باقية ماثلة إلى عهد قريب .

٢ — ومن العوامل التى سهلت عملية اغتصاب الهولنديين للمراكز التجارية البرتغالية أن البرتغال لم تستطع لقلة عدد سكانها بسبب صغر مساحتها أن تقدم عدداً كافياً من الرجال للدفاع عن مثل هذه الامبراطورية العظيمة . ولذلك لم يتمتع

البرتغاليون بهذا الملك العريض وتلك الامبراطورية الشامخة أكثر من ٧٥ عاما ، عندما حل محلهم الهولنديون منذ نهاية القرن السادس عشر ثم الانجليز والفرنسيون.

الكشوف الأسبانية :

بينما كان البرتغاليون منهمكين فى البحث عن الطريق إلى الهند جنوباً بالدوران حول أفريقيا ، كان هناك إيطالى يعمل لحساب أسبانيا وهو «كريستوف كولمب» Christopher Columbus يتجه غرباً ويكشف عن غير قصد قارة جديدة هى قارة أمريكا .

من الصعب أن نتتبع حياة هذا المكتشف العظيم بسبب ما أحاط بها من أساطير مختلفة ، ولد فى جنوه عام ١٤٥١ . ويظهر أنه قد اقتبس فكرة البحث عن الطريق إلى الهند بالسير غرباً من العالم الفلكى الفلورنسى « توسكانيللى » Toscanelli Barthelemy وقد بدأ يظهر اهتمام كولمب بالشئون البحرية منذ عام (١٤٨٠) بعد زواجه من ابنة برتغالى معروف بمقدرته الملاحية . وهكذا نجده يحاول أن يحقق مشروعه فى الوصول إلى الهند غرباً . وقد سيطرت عليه فكرة كروية الأرض التى عرفها وأعلنها العلماء الأقدمون من اغريق ورومان . وقد ساعد كولمب على المضى فى مشروعه ما اتصف به من صلابة فى الرأى وتشبث به ، فلم يكن من السهل أن ينتابه يأس فيقلع عن مشروعه . بدأ بالتفكير فى عرض مشروعه على بلده حتى يكسبها فخر نجاح محاولاته ولكنه فشل عندما رفض السناتو فى جنوه مساندته فى مشروعه ، فالتجأ إلى البرتغال وطنه الثانى . فأحسن الملك جون الثانى استقباله . وأرسل مشروعه لفحصه إلى Diégo Otris وهو أسقف « سبته » وإلى طبيبين يهوديين عالمين فى الوقت نفسه بشئون الملاحة ولكنهم بدافع عامل الغيرة والحقد على كولمب أعلنوا خطورة الإقدام على المشروع وعدم احتمال نجاحه .

وقد اشتد غضب كولمب ، فغادر البرتغال ، وقصد أسبانيا فى نهاية عام ١٤٨٤ كما أنه أرسل أخاه Barthélemy إلى الأمير هنرى فى انجلترا وهو الذى سيصبح بعد قليل الملك هنرى السابع مؤسس أسرة التيودور فيها . وبينما كان أخوه يعرض الأمر على هذا الأمير ، كان هو نفسه يعرض المشروع على فرديناند وإيزابللا . وكانا مشغولين بالحرب ضد العرب فى أسبانيا ومع ذلك فقد رحبا به وعهدا إلى

« تلاڤيرا » Talavera رجل الدين المقرب من الملكة ، والذى تملق إليه باعترافاتها ، لفحصه . وبعد بحث طويل ، وضياع خمس سنوات لم يصل إلى كولمب أى موافقة على مشروعه بل أن ملكى أسبانيا صرحا له بأنهما لن يقدما على أى عمل جديد قبل الانتهاء من الحروب ضد العرب .

وقد زاد من حزن «كولمب» وآلامه أنه لم يتلق أى رد من أخيه « بارتليمى» وقد أسره القراصنة فظل فى حوزتهم عدة سنوات . عندئذ صمم أن يسافر بنفسه لعرض الأمر على ملك انجلترا ولكن جوان بيريز Juan Perés وهو رجل من رجال الدين فى إحدى الأديرة — وقد درس مشروع كولمب واقتنع بصحته — نبه الملك إلى أهمية هذا المشروع . وقد دهشت الملكة لتوضيحاته ، فاستدعت كولمب للمثول أمامها فى القصر ، وبعد أن كاد كولمب أن يقنع الملكة بصلاحية مشروعه . ظهرت الملكة نفوراً من المشروع بسبب تأثير فرديناند زوجها عليها .

وعندما نجحت إيزابللا وفرديناند فى طرد البقية الباقية من العرب من غرناطة توسط وزيران لمشروع كولمب فوافقت الملكة عليه ، ولما كانت حالة البلاد المالية سيئة ، فقد تبرعت بجواهرها لكى تغطى نفقات رحلة كولمب ، ثم عقدت معه معاهدة فى « سانت فيه » Santa-Fé — حيث كان الملكان يقيمان — بتاريخ ١٧ ابريل ١٤٩٢ ونص الاتفاق على « أن فرديناند وايزابللا بوصفهما ملكى المحيط قد أنعما على كولمب برتبة أدميرال أعظم على كافة البحار ، والجزر والقارات التى يكتشفها ، على أن تؤول كل هذه الممتلكات لأولاده من بعده » . وقد عين كذلك نائباً عن الملك فى كافة الأراضى التى يكتشفها ، وله عشر المكاسب التى تجنيها أسبانيا من العمليات التجارية الناتجة عن الكشوف الجديدة .

وقد زوده بالمال اللازم للرحلة علاوة على حلى الملكة الأخوة « بنزن » Pinzon وكانت عدته من ثلاث سفن قاد إحداها وهى Sainte-Marie بينما قاد السفينتين الاخريين الأخوة الثلاثة Pinzon . وقد أظهروا جميعاً استعدادهم لكل تضحية فى سبيل الإسهام فى نجاح مشروع كريستوف كولمب .

رحلت السفن الثلاث من ثغر « بالوس » Palos فى ٣ أغسطس ١٤٩٢ وتوقفت الرحلة فى جزر الكنارى . ولكنها لم تلبث أن استأنفت الرحلة من جديد فى ٩ سبتمبر ،

وقد اشتد قلق البحارة إبان الثلاثة والثلاثين يوماً التالية ، فظنوا أنهم لن يتمكنوا من العودة إلى أسبانيا . ولكنهم لم يقوموا بالعصيان كما أشاع بعض المعارضين ؛ وفى ليلة ١١ — ١٢ أكتوبر ظهرت لهم بعض معالم الأرض . وقد كانت تلك التى اقترب منها كولمب هى إحدى جزر « لوكايس » Lucayes بالقرب من أمريكا الشمالية وعند مدخل مضيق فلوريدا Florida ؛ فأطلق عليها «سان سلفادور» San Salvador فظن كولمب بأنه قد اقترب من سواحل آسيا . وفعلا أخذ يبحث عن مملكة « كاتى » (الصين) Cathay ليقدم لملوكها الخطابات التى زودها به ملكا أسبانيا ولكن دون جدوى . هناك سارع بالعودة ليعلن نتيجة اكتشافاته فى أسبانيا ، فوصل ثغر « بالوس » Palos فى ١٥ مارس (١٤٩٣) أى بعد سبعة أشهر من مغادرته إياه . وهناك استقبل استقبال الظافر . وقد اكتشف خلال هذه الرحلة جزر كوبا وهاييتى وغيرها .

ولم يلبث أن قام كولمب برحلات ثلاث أخرى (١٤٩٣ — ١٤٩٨ — ١٥٠٢) وفيها تم الكشف عن جزر الهند الغربية . وفى رحلته الثالثة سار بمحاذاة الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية عند مصب نهر أورينكو . وفى رحلته الرابعة سار بمحاذاة بعض سواحل أمريكا الوسطى ، ووصل فعلا مضيق بنما . ومات عام ١٥٠٦ بعد وصوله إلى أسبانيا بقليل .

فقد كولمب حظوته عند الشعب الأسبانى ابتداء من رحلته الثانية وذلك لأن رحلاته لم تحقق ما وعد به كولمب ، كما أنها لم تحقق المطامع التى تاقوا إليها من الذهب والفضة .

مات كولمب فى أسبانيا عام ١٥٠٦ وهو يعتقد أنه قد وصل إلى آسيا وأن الجزر التى اكتشفها إنما هى تلك التى توجد بالقرب من الهند؛ ومن هنا ترجع تسميتها إلى جزر الهند الغربية ، وكذلك تسمية سكانها الأصليين بالهنود . ولم تلبث الأذهان أن أخذت تشك فى أن هذه الأراضى التى وصل إليها كولمب هى آسيا ، ولا سيما بعد تلك الرسالة التى نشرها « أمريجو فسبوتشى » Amerigo Vespucci الفلورنسى ؛ فأشار إلى هذه الأراضى المكتشفة حديثاً بالعالم الجديد . وقد قام برحلته لحساب البرتغال فى إتمام كشف البرازيل فاقترح عالم من اللورين إطلاق اسم أمريكا على هذه الأراضى المكتشفة عام ١٥٠٧ . وقد تأكد هذا الاعتقاد عندما عبر « بالبوا » Balboa الجبال التى

يتكون منها المضيق (مضيق بنما) ووجد نفسه تجاه محيط عظيم واسع الأرجاء فى عام ١٥١٣ .

وقد انقطع الشك فأصبح يقيناً بعد رحلات « ماجلان» حول الأرض ، « ماجلان » Magellan (١٥١٩–١٥٢٢) . حدث ذلك فى عهد ملك أسبانيا شارل الأول الذى تولى عرشها عام ١٥١٦ (وتوج امبراطوراً باسم شارل الخامس عام ١٥١٩) . فى عهده بلغت البعوث الكشفية الأسبانية الذروة . وماجلان برتغالى كان يعمل تحت قيادة « الميدا » Almeda فى الهند ، آمن بفكرة الوصول إلى الشرق عن طريق السير غربا حول الطرف الجنوبى لأمريكا . ولما كان مغضوباً عليه من ملك البرتغال فقد قدم مشروعه للملك أسبانيا فرحب به . وكان يتلخص فى أن الطريق إلى جزر التوابل من الغرب أقصر إليها من الشرق ، وأن هذه الجزر تقع فى المنطقة المخصصة لأسبانيا حسب الاتفاق المعقود بينها وبين البرتغال .

أعدت الحملة من خمس سفن أبحرت فى أغسطس ١٥١٩ من ميناء « سان لوكار » San Lucar واتجهت فى المحيط الأطلسى جنوباً فسارت حتى « ريودى جانيرو» فى البرازيل ثم إلى مصب نهر « ريودى لابلاتا » وسارت بمحاذاة الشاطىء الشرقى لأمريكا الجنوبية واكتشف رجالها فى أكتوبر ١٥٢٠ ممراً مائياً عميقاً جداً محصوراً بين جبال شاهقة تغطيها الثلوج . وكان هذا الممر عند الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ويفصل هذه القارة عن جزيرة أرض النار . وقد أطلق على هذا الممر إسم مضيق ماجلان ؛ وطافت السفن حول الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية عبر هذا المضيق ثم دخلت فى ٢٠ نوفمبر إلى المحيط الهادى ؛ وسماه ماجلان بهذا الإسم لأنه وجده قليل الأعاصير بالقياس إلى ماعاناه فى المحيط الأطلسى ، وأبحرت السفن شمالا إتجاه الغرب وقطعت آلاف الأميال البحرية فى المحيط الهادى ومرت بجزر « ماريانا » ثم وصلت إلى جزر الفيلبين . وأطلق عليها هذا الاسم تكريماً لفيليب ابن شارل الخامس والذى سيعتلى عرش أسبانيا باسم فيليب الثانى (١٥٥٦ — ١٥٩٨) .

أعتقد ماجلان أنه وصل إلى جزر التوابل ولكنه كان قد أخطأ فى تقدير درجات العرض ، وابتعد عشر درجات شمالا عن الطريق المؤدى إلى جزر التوابل . ونتج عن ذلك أن أصبحت هذه الجزر تابعة لأسبانيا وقد لقى ماجلان حتفه فى نزاع مع سكان إحدى هذه الجزر فى أبريل عام ١٥٢١ ، فتولى القيادة من بعده أحد رجال

الحملة وهو « جون سباستيان ديلكانو » John Cebastian Del Cano ، وغادرت الحملة الفلبين بعد أن نقص عدد رجالها نقصاناً خطيراً . وفى نوفبر ١٥٢١ وصلت إلى إحدى جزر التوابل وهى « تيدور » Tidor وكان الوصول إليها من الأمور التى راودت خاطر ماجلان .

وفى فبراير ١٥٢٢ غادرت الحملة جزر التوابل فى طريق عودتها إلى أسبانيا ، فعبرت المحيط الهندى ومرت برأس الرجاء الصالح فى ٦ مايو ١٥٢٢ ، ودلفت إلى المحيط الأطلسى بعد أن أمضت فى رحلتها ثلاث سنوات ، وكان عدد بحارتها فى أول الرحلة أكثر من مائتين . مات وقتل معظمهم حتى هبط عددهم إلى ثمانية عشرة رجلا ، وكان معظمهم من المرضى ، وبعد أن كانت الحملة مكونة من خمس سفن عادت الحملة بسفينة واحدة ولكن عندما وصلت هذه الحملة إلى « ملوكاس » Moluccas جزر التوابل الواقعة فى الشمال الغربى من استراليا — وقد عرفها العرب منذ أيام القرن العاشر ، ولكنها وقعت فى يد هولندا عام ١٦٠٥ ، ثم استقلت وأصبحت جزءاً من جمهورية أندونيسيا — استطاعت أن تحصل على شحنة من التوابل وجد عند العودة أنها كفيلة بتغطية جميع نفقات هذه الرحلة الطويلة الأولى من نوعها فى العالم .

كان لهذه الرحلة نتائج على جانب عظيم من الأهمية ، فهى قد أثبتت أن السير فى إتجاه واحد سواء أكان ذلك من الشرق أم من الغرب يؤدى إلى المكان الذى بدأ منه الإنسان رحلته . وبذلك استقرت فى الأذهان الحقيقة الجغرافية ؛ وهى كروية الأرض وصححت مواقع الأراضى المستكشفة ، وأيقن رجال البحث أن هناك قارتين عظيمتى الاتساع هما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تقعان بين أوروبا وآسيا ، فضلا عن محيط مترامى الأطراف كان مجهولا وهو المحيط الهادى . فتحت رحلة ماجلان الشرق الأقصى أمام أوروبا بطريق ملاحى متصل ، وربطت بين العالم الجديد الذى يضم الأمريكتين ، وبين الشرق الأقصى باكتشاف الممر الذى يعرف باسم ماجلان فى أقصى الطرف الجنوبى من أمريكا الجنوبية موصلا بين المحيطين الهادى والأطلسى . ولم يبق غائباً عن مجال المعرفة سوى استراليا والأقاليم القطبية .

أما دور انجلترا فى ميدان الكشف فيعد صغيراً للغاية إذا قورن بالدور العظيم الذى قامت به كل من أسبانيا والبرتغال . ويرجع الفضل فيه إلى إيطالى كذلك ، من البندقية ويدعى « جون كابوت » John Cabot ، نزح إلى انجلترا وأقام فى بريستول

فى عهد هنرى السابع مؤسس أسرة التيودور . وكان مولعاً بالسير وركوب البحر وعلى علم بأحوال الشرق إذ سبق له السفر إليه عن طريق القوافل فى وسط آسيا إلى الصين ، وقد سمح له هنرى السابع فى عام ١٤٩٦ بالقيام على رأس بعثة لاكتشاف الأقاليم التى يحيا عليها « الكفرة غير المسيحيين » ؛ فأبحر « كابوت » من ميناء بريستول ١٤٩٧ فى سفينة إنجليزية ، وعبر المحيط الأطلسى حتى وصل ساحل أمريكا الشمالية عند « نيوفوند لاند » New Found Land وهى أقدم الممتلكات الانجليزية .

وأبحر كابوت مرة ثانية عام ١٤٩٨ فى خمس سفن وارتاد الشاطىء الشرقى لأمريكا الشمالية حتى فلوريدا . وقد أدى ذلك إلى استعمار انجلترا للأقاليم المعروفة الآن باسم الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن السابع عشر .

أما فرنسا فكانت كشوفها قليلة ومتأخرة عن البرتغال وأسبانيا وانجلترا ؛ نلخصها فيما يلى :

١ — اتجهت نحو أمريكا الشمالية فاكتشفت كندا . وكان الملاح الفرنسى « جاك كارتييه » (١٤٩١ — ١٥٥٧) Jack Cartier فى طليعة الرواد الفرنسيين الذين كشفوا هذا الإقليم . عهد إليه الملك فرانسوا الأول فى عام ١٥٣٤ بالقيام . برحلات كشفية يعبر فيها المحيط الأطلسى فى إتجاه الغرب نحو العالم الجديد . وقد وصل إلى شاطىء جزيرة نيوفوند لاند المواجهة لكندا ، ثم بلغ شاطىء كندا . وكان « جون كابوت » قد سبقه إلى هذا الشاطىء عام ١٤٩٧ ، ولكن الملاح الفرنسى تميز عنه بكشف مصب نهر سنت لورنس وبتوغله داخل الأراضى الأمريكية . وقام « جاك كارتييه » بأربع رحلات فى هذه المنطقة .

٢ — أدت الاضطهادات الدينية فى فرنسا إلى هجرة عدد كبير من الهيوجونوت إلى العالم الجديد . وكان لتجارة الفراء أثرها فى تنشيط حركة الكشف . فقد أقبل عليها الفرنسيون إقبالا عظيماً واستعانوا بالهنود الأصليين على الحصول على الفراء من الغابات .

٣ — وركز الفرنسيون جهودهم فى حوض سانت لورنس طوال القرن السابع عشر . فتكونت الشركات التجارية لاكتشاف المناطق وبناء المستعمرات . وكانت أكبر الجهود فى هذا المجال بفضل «صمويل شمبلان» Samuel de Champlain إذ أسس

أول مستعمرة فرنسية فى شبه جزيرة شرق كندا أطلق عليها « أكاديا » Acadia ثم عرفت « بنوفاسكوشيا » Nova Scotia . وفى عام ١٦٠٨ أسس مدينة « كويبك » Quebec على نهر سانت لورانس . وأطلق اسم « شامبلان » على بحيرة تقع بين الولايات المتحدة وجنوبى كندا تخليداً لذكرى المكتشف العظيم .

وفى ١٦٨٢ نجح « لاسال » La Salle (١٦٤٠ — ١٦٨٧) فى اكتشاف نهر المسيسبى ، ونشأت فيه مستعمرة لويزيانا نسبة إلى لويس ١٤ . وانتهى الأمر بالفرنسيين إلى تكوين مستعمرتى كندا ولويزيانا . وقد أدى الاحتكاك بين مستعمرات انجلترا وفرنسا إلى صدام حربى بينهما عام ١٧٥٤ . وهكذا أسهمت فرنسا فى مجال الكشوف الجغرافية بعمل رائع فى أمريكا الشمالية يفوق عمل انجلترا بها .

تكوين الإمبراطورية الاسبانية :

احتل الأسبان بادىء الأمر جزر الهند الغربية ولكنهم لم يجدوا بها غير قدر ضئيل من الذهب وكانوا يطمعون فى العثور على كميات كبيرة منه ولكن أحاديث السكان الأصليين دلتهم على أن الذهب وغيره من المعادن الثمينة توجد بكثرة فى قلب القارة الجديدة . وهنا فكر الأسبان فى غزو هذه القارة ، وكان ذلك بعد أربعة عشرة عام من وفاة « كولمب » .

استعمار المكسيك :

كان يسكن القارة الأمريكية شأن جزر الهند الغربية أقوام متوحشون . ولكن فى بعض المناطق كالمكسيك وبيرو وجد الأسبان ممالك حقيقية ؛ وصلت إلى درجة متقدمة من الحضارة ، ومن الاكتشافات الحديثة يظهر أن حضارة هذه الأقاليم إنما ترجع إلى عهد بعيد .

عند وصول الأسبان إلى المكسيك وجدوها محتلة بجماعة من « الآستك» Azteques وهى جماعة نزحت جنوباً وكانت حديثة العهد بالسلطة فى هذا الإقليم . ومن المظاهر الحضارية لهذه الجماعة ، أنها كانت تشتغل بالزراعة ، وتطرد من حظيرتها كل من يرفض أن يزرع ويستقر أو يتزوج ؛ كما احتوت على طائفة من المعدنين المهرة ؛ يصنعون النحاس والزنك والفضة والذهب ، ومنهم أيضاً النساجون أى صانعو الأقمشة

من القطن والكتان وفراء الأرانب ، وريش العصافير . وقد برعوا فى تلوينها بألوان زاهية ، كما كانت كتاباتهم تشبه الكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين وقد شيدوا المدن العظيمة التى أعجب بها الأسبان أشد الإعجاب .

ومع ذلك فإن عادات وتقاليد شعب الآستك كانت خليطاً بين الحضارة والمدنية من ناحية ، والوحشية من ناحية أخرى . فقد كانت ديانتهم همجية بدائية تتطلب آلهتهم فيها ضحايا بشرية كثيرة ، قد تبلغ المئات بل والآلاف فى بعض الأحيان ؛ فكانت الضحية تلقى على حجر يحمله أربعة من الكهنة ، ثم يشق صدرها بسكين لاستخراج القلب الذى يقدم للآلهة قرباناً . ومن ثم كان سكان المكسيك فى حرب دائمة مع جيرانهم ليحصلوا على تلك الضحايا البشرية اللازمة لآلهتهم .

تم غزو المكسيك ، ومساحتها تبلغ أربعة أمثال مساحة فرنسا خلال أربع سنوات (١٥١٩ — ١٥٢٢) . وقد أنجز هذا الغزو أسبانى يدعو « فرناندكورتيز » Fernand Cortez دفعه حبه للمخاطرة ورغبته الملحة فى الإثراء إلى المخاطرة فى هذا العالم المجهول. وإذا أخذنا فى الاعتبار ضآلة الموارد وقلة الأعداد التى استخدمت فى هذا الغزو ، ثم عظم مساحة المكسيك لاشتد عجبنا لسرعة هذا الغزو ، إذ أن عدد رجال «كورتيز» لم يكن ليتجاوز بعض المئات . ولكن الظروف كانت مواتية فقد كانت إمبراطورية الآستك على اتساعها ضعيفة ، تعوزها الإدارة الحازمة ، والسلطة المركزة ، كما أنها كانت مكونة من شعوب متباينة خضعت بعد نضال طويل شاق . فاستعان كورتيز بالرعايا الناقمين على هذا الحكم الجديد « حكم جماعة الآستك » فأمدوه بالرجال والعدد ؛ أمدوه فى هجومه الأول بحوالى سبعة آلاف رجل .

استعمار بيرو :

بعد مضى عشرة أعوام من غزو المكسيك قام مخاطرون أسبانيون آخرون بغزو بيرو فوجدوا فيها شعباً آخر متمديناً وهو شعب « الكويكواس » Quiechnas وامبراطورية منظمة هى امبراطورية « الإنكا » Incas وكان الذهب والفضة يوجدان بها بكثرة . وقد سمع الأسبان المقيمون فى بنما بهذا الثراء العظيم وتلك الكنوز من الذهب والفضة . فحول إثنان من محبى المخاطرة والمغامرة وهما « فرانسوا بيزارو »

« Francois Pizarro » و « ألمجرو » Almagro على محاولة غزو هذا البلد الغنى ألا وهو بيرو .

وفعلا قاد الحملة « بيزارو » Pizarro فوصل إلى بيرو عام ١٥٣٢ ، وهو على رأس ١٧٠ رجلا ومعهم ٧٠ حصاناً ، وقد استعان بنفس الظروف التى استعان بها Cortez في المكسيك من قبل . إذ كان ببيرو حزبان يتنازعان السلطة ، وفى عام ١٥٣٥ أصبحت بيرو تابعة لبيزارو Pizarro الذى أنشأ لها عاصمة جديدة فى « ليما » Lima على أن النزاع ما لبث أن نشب بين الشريكين وترتب عليه إعدام « ألمجرو » Almagro فى ١٥٣٨ ، فانتقم له رجاله وجنده بالقضاء على غريمه « بيزارو » Pizarro » عام ١٥٤١ ، ولم تتوقف المنازعات بين مؤيدى الفريقين إلا عندما تدخل شارل الخامس الإمبراطور فأرسل من قبله حاكماً لبيرو يخضع له مباشرة عام ١٥٤٧ .

احتكار الأسبان لتجارة المستعمرات :

وقد وضع ملوك أسبانيا لمستعمراتهم نظاماً موحداً ، كان الغرض منه إخضاع هذه المستعمرات لأسبانيا إخضاعاً تاماً . فكانت أسبانيا تبعث إلى كل من مستعمراتها حكاماً يعينهم موظفون . وفى أسبانيا نفسها كان « للمجلس الأعلى للهند » Conseil Supréme des Indes السلطة العليا فى كل ما يتعلق بحكم هذه المستعمرات المدنى والحربى والدينى والقضائى . وعلى غرار ما فعلته البرتغال — ذلك المثل الذى حذت حذوه سائر الأمم الاستعمارية — احتفظ الأسبان بحق احتكار الاتجار مع مستعمراتهم ، وقد كانت هذه التجارة منظمة نظاماً دقيقاً فكانت اشبيليه هى الثغر الوحيد فى أسبانيا الذى تغادره السفن مرة كل عام إلى المستعمرات أو التى تؤمه من المستعمرات .

منافسة الدول :

وفى عام ١٥٨٠ ضم فيليب الثانى البرتغال وامبراطوريتها الاستعمارية لأسبانيا مما جعل هذه الممتلكات مطمح أنظار الدول الأوروبية الأخرى ولاسيما تلك التى تطل على المحيط الأطلسى فنازع أسبانيا سلطتها كل من الانجليز والفرنسيين والهولنديين ، وذلك لأن كيان كل منها بل وديانة اثنين منها كانت مهددة بالنمو المضطرد فى سلطة أسبانيا فى أوروبا . ومنذ منتصف القرن ١٦ بدأت هذه الشعوب الثلاثة تحاول أن تحد

من نفوذ أسبانيا ، وأن تغير على موارد ثروتها وعظمتها التي جعلتها خطراً ماثلا عليهم جميعاً ، ولكن هذه المحاولة كانت — في غالبيتها ولمدة طويلة — نتيجة لمجهودات الأفراد والمتطوعين لا الحكومات والقوات النظامية .

لم يلبث أن تزعزع موقف أسبانيا ، وأن هددت في احتكارها لتجارة البحار عندما هزمت انجلترا الارمادا العظيمة التي لاتقهر «L'invincible Armada» في بحر المانش عام ١٥٨٨ هزيمة فادحة(١) ؛ تلك الهزيمة التي بدأ بها أفول نجم أسبانيا ، كما أنها لم تفتح الطريق التجارى أمام الانجليز فحسب بل أمام ملاحى العالم كافة ؛ وذلك لأن انجلترا — عقب انتصارها العظيم — نادت بحرية التجارة وأصبحت خلال القرون الثلاثة التالية حامية لها . وحتى عام ١٥٨٨ لم تكن هنالك قوة تجرؤ على المطالبة بالحق المطلق للتجول في أى بحر من بحار العالم المفتوحة ، بينما كانت أسبانيا والبرتغال وحدهما تتمتعان بهذا الحق ؛ فكان لهما حق ارتياد كل من المحيط الأطلسى الجنوبى ، والمحيط الهادى ، والهندى .

أهم النتائج التي ترتبت على حركة الكشوف الجغرافية العظيمة :

من أهمها النتائج الاقتصادية : وتتلخص في انتقال مركز التجارة من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى ؛ فانتقلت الأهمية التجارية من دول حوض البحر المتوسط إلى دول غرب أوروبا . ويعرف هذا بالثورة التجارية التي كان من أهم عواملها اتساع نطاق التجارة وتدفق معدنى الذهب والفضة إلى أوروبا وكانا نادرى الوجود بها في نهاية القرن الخامس عشر . فقد حصل البرتغاليون منذ البداية على كميات كبيرة من الذهب من الساحل الغربى لأفريقيا . وازداد تدفق الذهب إلى أوروبا نتيجة لاستيلاء الأسبان على المكسيك (بين عامى ١٥١٩ — ١٥٢٢) وعلى بيرو بين عامى (١٥٣٢ — ١٥٤١) . وفى عام ١٥٤٥ اكتشفت جبال بأكملها من الفضة يصل ارتفاعها إلى سبعمائة متر في « بوتسوى» Potsoi بمرتفعات بيرو . وقد أمسى غنى بيرو بعد ذلك مضرب الأمثال . وترتب على ذلك أنه منذ منتصف القرن السادس عشر أصبح في أوروبا من القطع الفضية والذهبية ما يعادل اثنى عشرة مرة ماكان بها قبل ستين

(١) انظر تفاصيل هذه الموقعة وأهم نتائجها ص ص ١٣٦ — ١٣٨ .

عاماً ، إذ اتسعت عمليات تصدير الذهب والفضة وغيرهما من المعادن النفيسة إلى أوروبا ، وأخذت السفن الأسبانية منذ أواسط القرن السادس عشر تعود إلى أسبانيا وهى محملة بالفضة من المستعمرات الأسبانية فى أمريكا الجنوبية بعامة وفى بيرو بخاصة ، وغدت أسبانيا مركز الفضة وسوقها الرئيسية فى أوروبا . وأخذت تصدر سبائك الفضة إلى سائر البلاد الأوروبية ، وبدأ فى عهد فيليب الثانى ملك أسبانيا (١٥٥٦ — ١٥٩٨) ما يسمى بعصر الفضة فى أوروبا . وتوفر نتيجة لذلك النقد المتداول . فزادت الأجور وقفزت أسعار السلع والحاجيات وارتفع بالتالى مستوى المعيشة بين أفراد الطبقة الوسطى ، فازدادت قوة ، وتدعم مركزها السياسى .

حاولت أسبانيا بما سنته من قوانين ونظم تجارية أن تحتفظ باحتكار هذه الثروات الطائلة التى كانت ترد إليها من العالم الجديد ، ولكنها لم تستطع أن تحقق ذلك تمام التحقيق لأنها كانت لاتستطيع أن تزود مستعمراتها فى العالم الجديد بما يلزمها من مصنوعات مختلفة ؛ لذلك قام الأجانب غير الأسبان بهذا الدور من دول أوروبا البحرية فى الجزء الشمالى الغربى منها وهى هولندا وانجلترا وفرنسا ؛ مما ترتب عليه انتشار المعدنين النفيسين فى هذه البقاع المختلفة فى القرن السادس عشر . وقد تأثرت فرنسا تأثراً بالغاً بهذا المعدن فقد كانت تمد أسبانيا بكثير من مصنوعاتها وصناعها كذلك ، فأثرت طبقة الماليين فيها ورجال المصارف مما شجع الكثيرين من التجار على ترك أعمالهم التجارية للاشتغال بالمعاملات المالية .

ولم يقتصر الأمر على أسبانيا وفرنسا بل أصاب الغلاء سائر الدول التى وصل إليها هذا المعدن ؛ ففى فرنسا نجد ارتفاع فى أثمان الغلال والمصنوعات والأراضى . وصلت هذه الأثمان فى نهاية القرن السادس عشر إلى ثلاثة أمثال بل أربعة أمثال ما كانت عليه فى بدايته .

نتج عن ذلك أيضاً ازدياد النشاط التجارى الاقتصادى ، وقد ظهر ذلك فى إنشاء الصناعات الجديدة مما أدى إلى زيادة فى رؤوس الأموال ، ووجه الأنظار نحو العمل على ضمان حرية التجارة ؛ ومن هنا ظهرت كذلك الحاجة إلى الحصول على مستعمرات لتصريف مصنوعات الدولة ، والحصول على المعادن والمواد الأولية اللازمة للصناعة . ومن ثم بدأ التقدم والنمو الاقتصادى للدول البحرية ولاسيما الواقعة غربى أوروبا وشمالها الغربى ، ولم تلعب فرنسا فى هذا المضمار إلا دوراً ثانوياً ، ومع ذلك فقد نمت تجارتها

مع الخارج وخاصة مع أسبانيا التى كانت فى حاجة إلى منتجاتها ، ومع انجلترا التى كانت تبحث عن منتجات فرنسا الزراعية .

كما اهتمت فرنسا بالاتجار مع الشرق ، وقد عقد ملكها فرانسوا الأول معاهدة الامتيازات مع سلطان المماليك فى مصر ثم مع السلطان العثمانى (سليمان القانونى) ١٥٣٦ واعترفت هذه المعاهدات بحماية فرانسوا الأول الشعوب الكاثوليكية فى أملاك الإمبراطورية العثمانية . وهكذا أصبحت فرنسا فى حوض البحر المتوسط تتمتع بمركز قوى لاتنافسها فيه إلا البندقية . كما كانت فى أمريكا الجنوبية تقوم بتجارة التهريب ، ونشأ من أجل ذلك ميناء « هافر » Havre فى عهد فرانسوا الأول ، كما ازدهرت كل من « نانت» Nantes ، و « بوردو » Bordeaux فى القرن ١٦ .

ومع ذلك فقد ظهرت قوة هولندا البحرية فتفوقت على فرنسا فى هذا الميدان خلال ذلك القرن ، كما ساهمت انجلترا فى النصف الثانى منه فى التجارة البحرية . فشجعت أسرة التيودور هذه الحركة وبدأت تصنع لنفسها سياسة بحرية فى عهد إليزابث (١٥٥٨ : ١٦٠٣) وقد اصطدمت انجلترا بأسبانيا فى هذا الميدان واستطاع « دريك » Drake بين عامى ١٥٧٧ ، ١٥٨٠ أن ينزل بالمستعمرات الأسبانية خسائر فادحة .

نتج عن النشاط التجارى الاقتصادى المتزايد إنشاء البرصات المالية على نطاق عالمى ، كما فى بورصة « أنفرس »Anversوفى بورصة « ليون » «Lyon» ومن ثم انتقلت الأهمية من الأسواق إلى البورصة التى ساعدت على تركيز العمليات التجارية والمالية وأصبحت مفتوحة أمام بضائع كل الأمم ، كما تشير العبارة الموجودة على بورصة «Anvers» التى أنشئت عام ١٥٣١ .

وازداد نشاط المصارف ، وعددها زيادة عظيمة ، وأحرز عمالها ومؤسسوها ثروات ضخمة مما جعلهم يشترون ضياعاً واسعة ، ويصبحون من كبار الأغنياء ، وكان يحميهم عواهل أوروبا ومنهم الامبراطور شارل الخامس (١٥١٩ — ١٥٥٥) ،

أما النتائج السياسية :

استطاعت أسبانيا أن تغتنى بسرعة عن طريق الكنوز المتدفقة إليها من العالم الجديد ، وأن تجذب نحوها الحلفاء من كل أنحاء أوروبا ، كما عاونتها هذه الأموال على تكوين

الحملات وخوض الحروب المختلفة ، فكانت هذه الثروة من العوامل الأساسية التى بنت عليها أسبانيا سيطرتها السياسية التى تمتعت بها حتى منتصف القرن ١٧ . فى أسبانيا كان الامبراطور شارل الخامس يستمد معظم دخله ، فكانت ديونه ونفقات جيوشه تدفع من الذهب الأسبانى . وهكذا أصبحت أملاك هذا الامبراطور محط الأنظار ، ومطمعاً للدول الأوروبية .

ومن ثم ازدادت حدة التنافس الاستعمارى بين الدول الأوروبية ، وكان ميدانها الأقاليم التى كشفت فيما وراء البحار ، فقد حرصت كل دولة كبيرة — بعد النصر العظيم الذى حققته كل من البرتغال وأسبانيا — على أن تنال أكبر قسط ممكن من حقوق التجارة ، والتوسع على حساب الشعوب المستضعفة ، فأدت هذه الأطماع إلى كثير من الحروب بين دول أوروبا . وازداد اهتمام هذه الدول ببناء الأساطيل باعتبارها الوسيلة الأولى للاحتفاظ بأقطار فيما وراء البحار ، وبالاستيلاء على مزيد من الأراضى الجديدة أو الجزر التى اتخذتها بحرية وقواعد عسكرية ، تؤمن لها سبل الاتصال بأملاكها البعيدة .

أما النتائج الاجتماعية فكانت خطيرة للغاية :

فإلى جانب إثراء الطبقة الوسطى وتدعيم مركزها فى ميدان السياسة نجد أن هذه الحركات الاستعمارية قد أصبحت تنادى بسيطرة الرجل الأبيض ، وتقر التفرقة العنصرية ، وتبيح تملك الأرض التى تسكنها شعوب غير أوروبية وغير مسيحية ، وتبيح استغلال هذه الشعوب ، وجعل إرادتها وجهودها وحياتها مسخرة لإرادة الشعب المالك وللسياسة التى يريد إنتهاجها .

وإنه ليؤسفنا حقاً أن ينخدع العالم بوجود مفكرين راشدين بين من زعموا أنهم ثاروا لدعوة الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة ، وفيهم من استحل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان لالشىء سوى سواد بشرته ، فهذا « منتسكيو» أحد أعلام المفكرين فى الثورة الفرنسية وإمام من أئمة التشريع فيها ، وصاحب كتاب « روح القوانين » يقول فى تبرير استرقاق البيض للسود كلاماً يقتضينا أحياناً أن نفكر فى إلغاء عقولنا لنصدق أنه صدر عن مثل هذا المشرع المفكر ، وإنى لأقرأ عليكم ترجمة بعض عباراته .:

« لوطلب منى تبرير حقنا المكتسب فى استرقاق السود لقلت أن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بدا من استرقاق السود فى أفريقيا لتسخيرهم فى استغلال تلك البقاع الواسعة . ولولا ذلك ولولا استغلالهم فى زراعة هذه الأرض للحصول على السكر لارتفع ثمنه »(١) . هذا بعض ما يراه صاحب كتاب روح القوانين وهو رأى تافه ما فى ذلك شك ، ثم هو لايقف عند هذا الحد من التفاهة ، بل هو يمعن فى السخف ويزداد فى إسفافه فى القول حين يقول — مبرراً جرائم الاستعمار الأوروبى — ماياتى : « إن أولئك الذين سخروا فى هذا العمل ليسوا غير أقوام من السود ، فطس الأنوف لايستحقون شيئاً من رحمة أورثاء »(٢) .

وينحدر المفكر العظيم بعقله النير فيهوى إلى الدرك الأسفل من السخف حين يقول : « إنه لايتصور مطلقاً أن الله بحكمته السامية قد وضع فى تلك الكائنات السود أرواحاً يمكن أن تكون طيبة » . ثم يستمر فى سخفه قائلا : « ومن المستحيل أن نفرض أن هذه المخلوقات بشر ، ولو فعلنا لجاز لنا أن نشك فى أننا مسيحيون » .

النتائج الثقافية :

كان لهذه الكشوف نتائجها الثقافية العظيمة . إذ عملت على إنماء المعرفة نمواً عظيماً بل وعلى تصحيح بعض المعلومات الجغرافية : فنلاحظ وقوع انقلاب جذرى فى المبادىء الأساسية التى يقوم عليها علم الجغرافيا ، وقضى على الأفكار التى كانت سائدة عندئذ عن الأرض وحجمها و شكلها وقاراتها ومحيطاتها ، وفى علم الفلك ظهرت لعلماء الفلك مجموعات من النجوم لم يكن فى الاستطاعة رصد حركاتها إلا من النصف

---

(١) "Si j'avis a soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves voici ce que je dirais :

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont du mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir a défricher tant de terres.

Le sucre serait trop cher. si I'on ne faisait travailler la plante qui le produit pur des esclaves ,Montesquieu, Pages Choisies, esprit des lois, Livre p. 51.

(٢) المرجع نفسه : ص ٥١ . (٣) المرجع نفسه : ص ٥١ .

الجنوبى للكرة الأرضية . واتسع مجال البحوث التاريخية فلم تعد قاصرة على العالم القديم المعروف بل امتدت بحيث أصبحت تشمل البلاد التى كشفت ، كما أضيفت معلومات جديدة على علوم النبات والحيوان والبحار والجيولوجيا ، وعرفت أوروبا محاصيل جديدة مثل البطاطس والكاكاو والتبغ والذرة ، وقد غدت من الضروريات ، وأمست بالتالى عنصراً هاماً فى القطاع التجارى .

اقتضى الأمر إلى عبور المحيطات ، والقيام برحلات بحرية طويلة المدى إدخال تحسينات متتالية فى صناعة بناء السفن التجارية من حيث حجمها وزيادة حمولتها وسرعتها ومتانتها .

استطاع الأسبانيون والبرتغاليون أن يبذلوا عن طريق دعاتهم ورجالهم الدينيين جهوداً كبيرة فى سبيل نشر العقيدة الكاثوليكية ، ونجحوا فعلا فى تحويل عدد كبير من سكان مستعمراتهم الجديدة ولا سيما فى العالم الجديد إلى العقيدة الكاثوليكية ، فكسبوا بذلك بعض الرعايا الجدد فى هذا الميدان مما عوضهم بعض الشيء عن الأعداد الكثيرة التى فقدوها فى أوروبا نتيجة لحركة انتشار البروتستنتية .

ومن النتائج المباشرة للغزو الأسبانى ، وسلطان أصحابه فى منطقة جزر الهند الغربية والعالم الجديد ، اختفاء بعض معالم الحضارات الوطنية القديمة لبعض هذه الشعوب المتحضرة كما حدث فى المكسيك وبيرو ، كما أن سوء معاملة أهل المستعمرات فى بعض الجهات أدى إلى القضاء على عدد كبير من السكان الأصليين ، ونأخذ على سبيل المثال جزيرة «سان دومنيك» Saint Dominique عندما اكتشفها «كولمب» Columbus (١٤٩٢) كان عدد سكانها يبلغ حوالى مليون نسمة ، وبعد مضى خمس سنوات من ذلك التاريخ أمسوا ١٣,٠٠٠ ، على أن ذلك لم يحدث فى الجهات الأخرى فلا زالت غالبية السكان فى كل من المكسيك وبيرو من السكان الأصليين . وإنا نذكر هذه النتيجة المؤسفة كما أوردها لنا أحد كتاب الغرب وهو من رجال الدين ويدعى «لاس كازاس» Las Casas، الذى قضى شطراً من حياته مبشراً فى بعض المستعمرات الأسبانية (هسبنيولا وبيرو) ؛ كتب يستنكر القسوة على الهنود الحمر، ثم وصف أثرها السيء على حياتهم ؛ إذ هلك منهم الكثيرون ، وهو ينذر بسوء العاقبة إن لم تكف أسبانيا عن استرقاق هؤلاء الناس ، وتسخيرهم فى أشق الأعمال وأكثرها إرهاقاً للأبدان والأنفس . على أن صرخة هذا المبشر لم تحرك قلوب الأسبان إلا بمقدار ، ولعلها لم تكن

الرحمة التى هزت قلوبهم ، وإنما كان خوفاً من اللوم وتخوفاً على مصالحهم وأرباحهم من أن يصيبها النقص ؛ فصدرت قوانين ١٥٤٢ لتحسين حالة الهنود تحسيناً طفيفاً .

تلك صورة بشعة من صور الاستعمار الأسبانى فى القرن السادس عشر رسمها واحد منهم ، وكان من المفروض أن يكون لها من الأثر الفعال ما يعظ النفوس ويردها عن الشر والضر ، ولكنها كانت صرخة فى الهواء ذهبت بها ريح الجشع والظلم إلى واد سحيق . فهؤلاء مستعمرو القرن التاسع عشر من البريطانيين والفرنسيين وغيرهم يفعلون مثل ذلك فى أفريقيا ، ويعيرون الأمريكيين بسلوكهم إزاء الهنود الحمر ، ويبررون سلوكهم مع السود بأنهم قوم لم تكن لهم حضارة فحضروهم ، وكان الظلام يغمر حياتهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ذلك باطل من القول وزور من الاتهام ، وكلا الفريقين مضلل كذاب ، فالمستعمرون من الأمريكان والأوروبيين فى مخاصمة العدل والرحمة والعدوان على الحق والافتراء عليه سواء ؛ فلم تكن الشعوب التى استعمروها من الحمر والسود تحيا بغير حضارة ، وإنما كانت لها حضارات عدا عليها العادون من أهل الغرب الذين لفظتهم أوطانهم وضاقت بهم شعوبهم .

* * *

الفصل الثالث

عصر النهضة RENAISSANCE

وصف يطلق على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون القديمة التى امتازت بها إيطاليا منذ القرن الرابع عشر والدول الأخرى فيما بعد ، وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك دراسة للقديم فى العصور الوسطى ، وإنما أساء العلماء حينئذ فهم العالم القديم اليونانى والرومانى ، كما أساءوا معرفته بما نبذوه جانباً من مبادىء هذه الحضارة ومظاهرها ، وخاصة ماكان منها فى نظرهم يتعارض مع تعاليم رجال الدين وتقاليد الكنيسة . بل ويتعارض كذلك فى نظرهم مع أصول الدين .

ولكن هذه الحركة تميزت بأن القائمين عليها من العلماء والأدباء والفنانين قد أولوها عنايتهم التامة ، وبذلوا فى سبيلها كل ما يملكون من جهد ، فدرسوا كل ما هو قديم من آثار الأقدمين الإغريق والرومان من مؤلفات علمية وأدبية ومخلفات فنية فذة فى عوالم النحت والرسم والنقش والمعمار . فاستطاعوا فى هذه الحركة الواسعة العملاقة أن يبعثوا التفكير القديم من مرقده، التفكير القديم فى كل اتجاهاته المختلفة غير مكترثين بتعاليم رجال الدين ولا تقاليد الكنيسة . كما أنهم أضفوا على القديم من شخصياتهم وأحاسيسهم ما جعل لهذه الحركة طابعها الخاص المميز ، يضاف إلى ذلك طبيعة البيئات المختلفة التى عاشوا فيها . وكان من نتائج ذلك كله ظهور حضارة منقطعة النظير ، لها طابعها الخاص فى كل من الدول المختلفة التى ظهرت فيها .

ووسط حماسة العلماء والفنانين العظيمة فى إيطاليا نجدهم يحتقرون كل ما ظهر قبلهم من حضارات أو تقدم فنى أو أدبى أثناء العصور الوسطى ويعتقدون أن الحضارة الحقيقية التى اختفت بسقوط الامبراطورية الرومانية إنما أحييت بفضل جهودهم ، ومن ذلك اطلقوا عليها اسم « الرونسانس Renaissance » أى الأحياء .

على أن هذه التسمية تعسفية إلى حد بعيد فإن صفة الإحياء لايجب أن تطلق على الحضارة ، لأن هذه الأخيرة لم تمت فى القرون السابقة وإنما يكفى أن نطلق على هذه الحركة حركة بعث القديم أو بمعنى أوسع حركة انبثاق الحضارة الحديثة .

للنهضة وانتشارها فى بقاع أوروبا المختلفة عوامل متعددة من أهمها :

١ — الاتصال الحضارى بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية وكانت هذه المراكز هى :

أولا — بلاد الشرق الأدنى التى وقع عليها عدوان الغربيين باسم الصليب .

ثانيا — شبه جزيرة أيبريا .

ثالثا — جزيرة صقلية .

يطلق اسم العصور المظلمة فى التاريخ الأوروبى على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى أواخر القرن الخامس الميلادى وقيام النهضة الوسطى أو عصر الانتقال المبكر فى نهاية القرن الحادى عشر . عمت أوروبا خلالها سحابة كثيفة من الظلام والتخلف الحضارى فتوارت معالم الحضارة الرومانية ، تدريجيا من إيطاليا وفرنسا وانجلترا وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية . ولم يبق أثر للحضارة إلا ماكان يوجد ببعض مدارس الأديرة أو الأسقفيات . ولما كانت البابوية هى التى تشرف على توجيه الدراسة فى هذه المدارس فقد طبعت سياستها التعليمية بطابع دينى ضيق مزيف ، كما أن هذا الإشراف جعلها تهتم بالدراسات الدينية المسيحية دون غيرها من الدراسات الأخرى التى كانت تلقى مقاومة شديدة وهجوماً عنيفاً . فقد اعتبرت الكنيسة ورجالها الدراسات القديمة وثنية المبادىء ، تتعارض مع تعاليمها وتقاليدها ، ونادوا بأنه لايحق لأى مسيحى مخلص للكنيسة أن يطلع عليها ، وبذلك وضعوا ستاراً كثيفاً بين الأذهان والمعرفة الحقيقية ، المعرفة المجردة من كل الاعتبارات .

لذلك كان لاتصال أهل غرب أوروبا بالحضارة الإسلامية الشامخة المزدهرة فى مصادرها المختلفة أكبر الأثر فى اقتباسهم للشىء الكثير من أسباب الحضارة الشرقية ومقوماتها ولا سيما فى مجال الفنون والعلوم الرياضية ، وكان لاطلاعهم على الكتب

العربية المترجمة عن الإغريقية أكبر الأثر فى تنبيههم إلى الرجوع إلى كنوز المعرفة القديمة للاقتباس منها ، وللحصول على المعرفة الحقيقية عن طريقها . وقد استمر هذا الاتصال فى الشرق الأدنى مدة قرنين من الزمن أثناء الحروب الصليبية .

وكانت أيبريا حيث ساد حكم العرب ما يقرب من ثمانية قرون (من معركة تور أو بواتييه ٧٣٢ م إلى طرد عرب بنى الأحمر من غرناطه ١٤٩٢ م) — موردا فياضا للعلم والمعرفة وازدهار الفن ، فقد صارت أيبريا فى عهد العرب مركزاً لامعا للحضارة ومهداً للعلوم والفنون . ومقراً لدور العلم والمعاهد والمدارس ، وقد أصبحت جميعاً قبلة لطلاب العلم من كل صوب ومكان ، فازدهرت فيها الدراسات الطبية القديمة ، والعلوم الفلسفية ، والرياضيات بأنواعها ، كما ارتقت دراسة الأدب والشعر .

وكانت صقلية المصدر الثالث للحضارة العربية ، بدأ غزو العرب لها عام ٨٢٧ . وفى عام ٨٧٨ تمت سيطرتهم عليها ، وظلت خاضعة لهم مدة ٢٦٣ عاماً عندما غزاها النورمان عام ١٠٩٠ . وقد استمرت الحضارة الإسلامية قائمة فى عهد الحكم النورماندى.

وقد نقل الغربيون عن المسلمين كثيراً من العلوم ولا سيما الطب والعلوم الرياضية إلى جانب بعض الصناعات مثل صناعة الحرير والسكر والورق .

٢ — الاطلاع على مؤلفات وكتابات الأقدمين من يونان ورومان دون قيود والعمل على تصحيحها ومقارنة بعضها بالبعض الآخر ، ثم الاجتهاد فى إدخال تعديلات أو تعليقات هامة عليها ، ثم محاولة محاكاتها والاستفادة من طريقة البحث مع ظهور عنصر الابتكار والتجديد . وقد دفع هذا الاطلاع المهتمين بهذه الدراسات إلى الرغبة الشديدة فى الوصول إلى مزيد من الحقيقة والمعرفة ، كما حررهم تماماً من القيود والأغلال التى كانت تشل تفكيرهم أيام العصور الوسطى ، وتبعدهم عن ميادين البحث والمعرفة .

٣ — استجابة عدد كبير من المفكرين لهذه الحركة وتكريسهم للجهد والمال فى سبيل ازدهارها ، فتسابقوا فى البحث عن كل ما هو قديم ودراسته وتقديمه للأذهان سهلا مستساغاً . وقد استطاعوا تحت تأثير آداب القدماء وفنونهم بعث التفكير القديم فى كل نواحيه المختلفة ، وأضافوا عليه ما تميز به كل منهم من ميزات خاصة فى كل من الدول المختلفة ، فنتجت عن ذلك حضارة منقطعة النظير ، لها طابعها الخاص فى كل مكان ظهرت فيه . ويعرف هؤلاء المفكرون بجماعة الإنسانيين ، الذين كرسوا حياتهم

للدراسة الأدبيات القديمة ؛ فاستطاعوا بمجهوداتهم أن يقربوا لمعاصريهم مؤلفات وأفكار كتاب العهد القديم . كان هؤلاء الإنسانيون كذلك كتاباً اجتهدوا فى تقليد الأساتذة القدامى فى طريقتهم وأسلوب تفكيرهم ، كما كانوا كذلك جامعين لكل ما تقع عليه أيديهم مما كتبه القدماء ، وانصفوا بأنهم كانوا علماء يعملون على تصحيح كل ما يجدونه من منقول للمخطوطات الأصلية ، وأساتذة بدأوا دراسات جديدة مبنية على أساس العلوم القديمة ، وما تعلموه من الاطلاع على حضارة المسلمين الشامخة .

٤ — وكان لانتقال عدد كبير من أدباء الإغريق إلى إيطاليا أثر واضح فى ازدهار هذه الحركة ورواجها . ومن الخطأ أن نعتقد أن سقوط القسطنطينية فى ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح العثمانى هو العامل على ذلك الانتقال ، لأن حركة الهجرة قد بدأت قبل ذلك بكثير ، فهنالك العالم الإغريقى «ما نويل كريزولوراس» Manuel Chrysoloras الذى حاضر باليونانية فى فلورنسا بين عامى ١٣٩٧ ، ١٤٠٠ ثم انتقل منها ليحاضر فى ميلان والبندقية ، ومنهم «بساريون» Bessation الذى نجح فى جمع حوالى ستمائة (٦٠٠) وثيقة يونانية كلفته نفقات طائلة ، وخلفها فى النهاية للبندقية ، فأصبحت نواة لمكتبتها الشهيرة . وهكذا استمرت دراسة اليونانية بين عامى ١٤٠٠ ، ١٤٥٣ بفضل أمثال هذين العالمين أى أنها لم تكن لاحقة لعام ١٤٥٣ فحسب بل وجدت من قبل.

ففى خلال نصف القرن الذى سبق سقوط القسطنطينية ، سافر عدد كبير من العلماء إلى اليونان للدراسة فيها أو لمجرد الزيارة . ومنهم «جيوفانى أوريسبا» Giovani Aurispa ، وقد أحضر معه إلى إيطاليا ٢٣٨ وثيقة ، وكان العلماء البيزنطيون عند قدومهم إلى إيطاليا يحملون الوثائق اليونانية ، فيستقبلون استقبال القواد المظفرين . وقد نتج عن سقوط القسطنطينية بعد ذلك ضياع عدد كبير من المؤلفات اليونانية ومع ذلك فقد أنقذ عدد كبير من الكتب والمخطوطات .

٥ — ولا ننسى أن اختراع الطباعة كان من العوامل التى حققت للإنسانيين نجاح حركتهم ، إذ أنها سهلت طبع المخطوطات والكتب القديمة بسرعة ، فأصبحت أكثر انتشاراً وتداولا ، إذ أن أثمانها قد انخفضت عن ذى قبل . والمعروف أن «يوحنا جوتنبرج» Gutenburg من أهالى «ماينز» Mainz فى ألمانيا ، كان أول من استخدم الحروف المتحركة فى الطباعة عام ١٤٥٠ ، وأخذت المطابع تنتشر فى أنحاء أوروبا المختلفة فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها . وكان «ألدوس ما نوسيوس» Aldus Manutius (١٤٤٩ — ١٥٤٤) بالبندقية من أشهر القائمين بالطباعة فى إيطاليا ؛

أخذت مطابعه في الإنتاج منذ عام ١٤٩٠ . ولم يمض على إنشائها إلا حوالى ربع قرن عندما أخرجت تلك المطابع نسخاً عديدة من كتب الأقدمين اليونانية . وقد كان «آلدوس» فوق ذلك من مشاهير العلماء ، وتميزت مطبوعاته اليونانية بالوضوح والقيمة العلمية ، مما جعل الإقبال عليها عظيماً . وفى فرنسا ازدهرت حركة الطباعة على يد «هنرى اتيين» Henri Estienne (١٥٣٢—١٥٩٨) وهو ينتمى إلى أسرة اشتغلت بالطباعة ، وكان فى الوقت نفسه من العلماء المرموقين .

من أهم نتائج الحركة الانسانية :

١ — أنها ساهمت بنصيب وافر فى تدعيم تكوين الفكر الحر الذى أولع أصحابه بالبحث والتنقيب والاختيار الشخصى والتجربة ؛ وكلها من مميزات الفكر الحديث ، كما قضت على التفكير الدينى القديم ؛ فكان من نتائجها قيام الحركة العلمية جنباً إلى جنب مع النهضة الأدبية .

كان لبعض الكتاب والفلاسفة الإغريق وفى مقدمتهم أرسطو مكانتهم فى جامعات العصور الوسطى ، وقد عرفت آثارهم عن طريق الترجمات العربية . وكان بترارك أول من جرؤ على مناقشة مصادر المعرفة عند أرسطو ، ثم كان الاطلاع على ما كتبه بعض القدامى من المفكرين والفلاسفة مثل أفلاطون قد وضح ، وتبين أنه لم تكن هناك ضوابط فى وحدة التفكير عند أولئك القدماء ، واتضح حينئذ أن البحث عن المعرفة لايكون فى الكتب وحدها ولكن ينبغى الاعتماد على طرق أخرى ترتكز على التفكير الحر والتجربة .

ويعتبر «ليوناردو دافنشى» (١٤٥٢ — ١٥١٩) أول عالم عظيم من علماء العصر الحديث . فقد تبين له بوضوح أن العلوم لايمكن أن تتقدم إلا عن طريق ملاحظة التجربة من ناحية ، وإشغال الفكر والحجة من ناحية أخرى . وقد ترك «دافنشى» مخطوطات عديدة تبين مدى انشغاله ببعض المسائل التى لم تحل إلا فى أيامنا الحالية ، مثل الطيران واستخدام الغواصات ، كما أن تفكيره وعبقريته العلمية فى العلوم البحتة وفى طريقة تطبيقها تشهد له بالتفوق على مدى العصر الذى عاش فيه . على أن «ليوناردو دافنشى» لم يملك من الوقت — لانشغاله فى أكثر من ميدان فى العلوم والفنون — ما يعينه على نشر جهوده العلمية ؛ فظلت أكثر جهوده فى ميادين المعرفة الأخرى مجهولة .

وفى القرن السادس عشر أفادت كل فروع العلوم من التفكير الجديد والحماس الشديد للبحث عن المعرفة ؛ ففيما يتعلق بالرياضيات كان تقدم الجبر تقدماً ملحوظاً بفضل جهود « فرانسوا فييت » Fancois Viéte (١٥٤٠ — ١٦٠٣) ، وكان معروفاً بمثابرته على العمل . وتقدمت العلوم الطبيعية ، وعلم وظائف الأعضاء ، وبالتالى معرفة تركيب الجسم البشرى ؛ مما كان له أثره فى تقدم الطب والجراحة ولاسيما عندما سمح بتشريح الجثث فى الكليات . وفى عام ١٥٤٣ نشر الجراح « فيزال » Vésale (١٥١٤ — ١٥٦٤) من بروكسل ، وهو جراح الإمبراطور شارل الخامس وصفاً تفصيلياً ودقيقاً لتكوين الجسم البشرى ؛ كما وفق الطبيب الأسبانى « ميشيل سير فيه » Michcl Servet (١٥٠٩ — ١٥٥٣) فى اكتشاف دورة الدم الصغرى بين القلب والرئتين . كما أن الجراح الفرنسى « أمبواز باريه » Amboise Paré(١٥١٧٨—١٥٩٠) قد طور طريقة إيقاف النزف بأنواعه من استخدام الكى أو الحسم بالزيت المغلى باستخدام ربط الشرايين . ويعد الطبيب السويسرى « براسيلس » Paracelse (١٤٧٣ — ١٥٤١) مجدداً فى مهنة الطب باستخدامه للمستحضرات الكيمائية .

ويعتبر أكبر اختراع علمى لهذا العصر هو ذلك الذى قام به « كوبرنيك البولندى » (١٤٧٠ — ١٥٤٣) . فاستطاع بعد سلسلة من التجارب أن يصل إلى نتيجة تخالف النظرية القديمة لبطليموس التى كان معترفاً بها فى العصور الوسطى ؛ وهى أن الأرض هى التى تدور حول الشمس وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض ، وقد اتضحت تجاربه فى كتابه « ثورة فى الأفلاك السماوية » الذى نشره عام ١٥٤٣ وأهداه إلى البابا بول الرابع .

وقد ووجهت نظرية « كوبرنيك » بمقاومة شديدة . وظلت هذه المقاومة حتى بداية القرن السابع عشر ، وقد استخدم أعداؤها النفوذ الدينى سنداً لهم ، مؤكدين فى كتاباتهم بأن تلك النظرية إنما تتنافى مع الكتابات المقدسة ، وان هذه المقاومة الشديدة التى واجهت كافة العلماء تقريباً إنما تفسر البطء الشديد الذى سار فيه التقدم العلمى فى بادىء الأمر .

٢ — كانت هذه الحركة أكبر مشجع ودافع على تكوين المكتبات التى أصبحت عالمية الأهمية فى العصر الحديث . فكان حب اقتناء المخطوطات القديمة من لاتينية ويونانية ، والحصول عليها أكبر حافز على تكوين المكتبات . فوضع « بساريون »

Bessarion نواة مكتبة البندقية ، كما دعم «كوزمودمدتشى» Cosmo de Medici مكتبة «سان ماركو» فى فلورنسا ، وجمع لها المخطوطات : واهتم البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ — ١٤٥٥) بمكتبة الفاتيكان واقتنى لها الكتب النادرة ، كما أودع فيها حوالى خمسة آلاف مخطوط ، حتى أصبحت المكتبة فى عهده تضم ما يقرب من ١٢ ألف مجلد ، وهكذا تكونت مكتبات العالم العظمى فى إيطاليا ؛ فى روما وفلورنسا والبندقية ، وبعد ذلك فى فرنسا وانجلترا وأصبحت المصدر الأساسى للاطلاع والبحث العلمى .

٣ — نشأة الأكاديميات الحديثة وترجع التسمية إلى الأكاديمية الأفلاطونية فى أثينا وكانت لدراسة الفلسفة ، وقد كان لها دورها الهام فى نشر الدراسات الإغريقية واللاتينية ؛ إذ كانت بمثابة حلقات علمية ثابتة للبحث والتدريس يلتقى فيها الأساتذة ويلقون المحاضرات التى تعقبها المناقشات العلمية الموضوعية العميقة ، يشترك فيها الأستاذ المحاضر وطلابه . والأكاديمية أشبه بجامعة غير رسمية .

فى فلورنسا أنشأ كوزمو دمدتشى أكاديمية أفلاطون ، وكانت أشهر أكاديميات إيطاليا ، وكان «كوزمو» من المعجبين بالفيلسوف أفلاطون ومن أنصار نشر آثاره ، وقد تعهدها من بعده حفيده «لورنزو» العظيم ، ولمع فيها اسم أحد الإنسانيين ، ممن تمتعوا بشهرة عالمية هو «بيكو دلا ميراندولا» Pico della Mirandola (١٤٦٣ — ١٤٩٤) ، وكان بالرغم من صغر سنه يجيد ما يزيد على العشرين لغة ، مما جعله واسع الاطلاع ، غزير المعلومات . وقد اهتم لورنزو العظيم بهذه الأكاديمية وأكثر من إقامة الحفلات لتخليد ذكرى أفلاطون .

وظهرت أكاديميات أخرى فى إيطاليا فى كل من روما ونابلى والبندقية ، وكان لكل منها طابعها الخاص ؛ فبينما تميزت أكاديمية فلورنسا باهتمامها بالدراسات الفلسفية بصفة خاصة ، أصبحت أكاديمية روما تهتم بالدراسات التاريخية والآثار ، بينما تخصصت أكاديمية نابلى فى الآداب . أما أكاديمية البندقية ومؤسسها «ألدوس مانوسيوس» Aldus Manutius فقد تخصصت فى الدراسات الإغريقية . وكان لمؤسسها صاحب مطبعة البندقية الشهيرة فضل عظيم فى نشر عدد كبير من الدراسات الإغريقية .

٤ — ظهر الاهتمام جلياً بالدراسات الإغريقية واللاتينية التى استهوت أفئدة الكثيرين من الأوربيين فى ذلك الوقت ، واعتقدوا أنها أروع وأرق ما يمكن أن

تنتجه عقول البشر ، وأن الفرد لايمكن أن يصل إلى مكانة عالية فى المجتمع ما لم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات . لذلك لانعجب إذا كانت هذه الدراسات قد ازدهرت ، وأفردت لها كراسى ومراكز خاصة فى الجامعات المختلفة . وظهر الاهتمام كذلك باللغة العبرية لإمكان فهم كتاب « العهد القديم » ودراسته وكان على رأس من اهتموا بهذه الدراسات « يوحنا روكلن » Johann Reuchlin (١٤٥٥—١٥٢٢) وهو من أعلام الفكر الألمانى .

٥ — ظهر اتجاه جديد فى الدراسة يهتم بالتربية البدنية إلى جانب التربية الذهنية ومؤسس هذا النوع من الدراسة هو « فيتورينو دا فلترى Vittorinnoda Feltre (١٣٩٧ — ١٤٤٦) ، الذى اهتم اهتماماً بالغاً بالتربية البدنية وجعلها أساساً للتدريب الخلقى ، فعنى عناية خاصة بالسباحة ، وركوب الخيل ، والقيام بالتمرينات العسكرية ، واهتم بالنشاط خارج قاعة الدرس ، ولذلك يعتبر من أوائل المربين الحديثين ؛ إذ كان يعمل على تربية النشء تربية ذهنية وخلقية وبدنية صحيحة ، ولذلك جعل الرياضة البدنية تسير جنباً إلى جنب مع الدراسة ، واهتم فى مدرسته باللاتينية فجعلها أساساً للدراسة . وكانت تتلخص فى أشعار الرومان والقطع الخطابية التى اشتهر بها بعض خطبائهم ، كما اهتم الرجل بالدراسات الإغريقية والرياضة والهندسة وعلم الفلك .

أنشأ كليته النموذجية فى « مانتوا » Montua بإيطاليا بناء على توجيه حاكمها ، لكى يقوم على تربية أولاده ونفر من أصدقائهم . وقد درس للأميرتين مع سائر الأمراء .

٦ — ظهور اللغات الحديثة : كانت اللغة اللاتينية هى لغة العلم والكتابة فى العصور الوسطى ، كتب وألف بها العلماء ؛ ثم تضاءل استخدامها حتى أصبحت مقصورة على رجال الدين ، إذ عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم ، فنشأت فى شبه جزيرة إيطاليا وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتينى . وظهرت فى شمال أوروبا لهجات أخرى تعتمد على الأصل التيوتونى . وعمد علماء كل لغة إلى الارتقاء بمستواها حتى أصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والآداب ، وأصبح الاهتمام بها مظهراً من مظاهر القومية .

فى إيطاليا كتب دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) كتابه الشهير «الكوميديا الإلهية» باللغة الإيطالية ، وفى انجلترا ألف «تشوسر» Chaucer (١٣٤٠ — ١٤٠٠) «قصص كنتر برى» Canterbury Tales باللغة الانجليزية . وفى فرنسا كتب «جون كلفن» (١٥٠٩ — ١٥٦٤) «قواعدالدين المسيحى» Institutions Chretiennes ويعد من أبدع ماكتب فى النثر الفرنسى . وفى أسبانيا ألف سرفانتيس Servantes (١٥٥٧ — ١٦١٦) قصته المشهورة «دون كيشوت» Don Quichotte .

٧ — وأخيراً ، وليس آخراً ذلك النتاج الرائع فى ميادين الآداب والفنون التى ازدهرت بها أماكن شتى من أوروبا ، بعد أن بدأت فى إيطاليا التى كانت مهداً لهذه الحركة ومنها انتشرت فبلغت سائر أنحاء أوروبا ، وقد بلغت هذه الحركة أوجها فى إيطاليا خلال القرن الخامس عشر .

* * *

النهضة فى إيطاليا

إن العوامل التى جعلت النهضة تظهر مبكرة فى إيطاليا عنها فى أى بقعة من بقاع أوروبا يمكن تلخيصها فيما يأتى :

١ — مهد الحضارة الرومانية : كانت إيطاليا المهد الأول للحضارة الرومانية فكانت مقراً لكثير من مخلفات التراث الخالد القديم من مبان وتماثيل ونقوش وغيرها من الآثار الفنية البديعة ، إلى جانب غناها بالمخطوطات القديمة . كان الإيطاليون يرون أنهم حفدة الرومان ، وعليهم أن يحيوا تراث الامبراطورية الرومانية القديمة فى كل هذه الميادين ؛ وقد وجد أدباء وعلماء وفنانو حركة النهضة فى إيطاليا نماذج حية فعملوا على دراستها ومحاكاتها والاجتهاد فى بعثها .

٢ — كانت مدن إيطاليا الشمالية حلقة الاتصال بين غرب أوروبا والشرق الأقصى وهو موقع فريد أتاح الفرصة للإيطاليين الاتصال عن كثب بحضارة الشرق والاطلاع على مفاتنها ومدى تقدمها ؛ فنقلت إيطاليا نتيجة لهذا الاتصال المباشر المستمر كثيراً من المعلومات الرياضية والفلكية والطبية ، ثم إن موقعها الجغرافى الفريد على مقربة من الدولة البيزنطية جعلها تستفيد من الأساتذة الزائرين من الإغريق ، ممن هرعوا إليها ليحاضروا فى جامعاتها ومعاهدها ، كما سهل على علمائها التواقين إلى الاستزادة من الدراسات الإغريقية الانتقال إلى القسطنطينية .

٣ — اشتغال هذه المدن بالتجارة جعلها كذلك فى بسطة من العيش ، وتتمتع برخاء اقتصادى واسع المدى ؛ فقد ازدادت ثروة البندقية وجنوة وميلان وغيرها . وكان لوفرة المال أهمية فى الاطمئنان والاهتمام بكل ما هو جميل فى عوالم الأدب والفنون ، كما كانت هذه الثروة عاملا هاماً لتشجيع العلماء واقتناء الكتب النادرة واللوحات الفنية العظيمة .

٤ — طبيعة إيطاليا السياسية وانقسامها إلى إمارات ودوقيات وجمهوريات متنافسة ، أتاح الفرصة لحكامها المستنيرين للتنافس على تشجيع الآداب والفنون : تهافتوا جميعاً على إكرام الشعراء والأدباء واحتضانهم . ومن هذه الأسر العريقة : أسرة Medici فى فلورنسا فقد بلغ تكريم لورنزو العظيم للنحات والمثال المشهور

ميخائيل أنجلو Michael Angelo أن اتخذه رفيقاً لأولاده ، وأسرة Visconti وقد سيطرت على ميلان (١٢٧٧ — ١٤٤٧)وأسرة بورجيا Borgia وقد سادت على الإمارات البابوية واشتهرت بطغيانها ، ومع ذلك كان لها باعها الطويل فى تشجيع الأدباء والفنانين .

ولم يكن البابا أقل تحمساً من الأمراء فى حركتهم ؛ بل إنه كثيراً ما تفوق عليهم فى هذا الميدان . فقد أخذ البابوات ينافسون الأمراء الإيطاليين فى تشجيع الآداب ورعاية الفنون . وكان كرمهم من الحوافز التى شجعت الفنانين والأدباء على تلبية دعواتهم . ويحتل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ — ١٤٥٥) صفحة مشرقة فى تاريخهم الوضاء . وهو مؤسس مكتبة الفاتيكان ، ثم ليز العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١) من أسرة المدتشى وهو واضع أساس كنيسة القديس بطرس .

٥ — طبيعة إيطاليا الجغرافية ، وجمال طبيعتها وسحر مناظرها مما كان له أثره العميق فى رقة شعور أهاليها ، وشدة تأثرهم بالجمال والتعبير عنه بما سنته أقلامهم من أدب ، وما صورته أيديهم من عمائر وتماثيل ونقوش ورسومات .

وقد استمرت حركة إحياء القديم من الآداب والعلوم والفنون اللاتينية والإغريقية فى إيطاليا خلال قرنين من الزمن ، من منتصف القرن الرابع عشر ١٣٥٠ إلى منتصف القرن السادس عشر ١٥٥٠ أنتجت إيطاليا خلال ذلك موضوعات فذة فى الأدب والفن والفلسفة . ولكن لم تلبث شعلة هذه الحركة أن خمدت عندما أصبحت إيطاليا تابعة لأسبانيا ، وما كان من أثر ذلك من حركة رجعية كاثوليكية ، ومن محاكم التفتيش ونظام للجزويت ، كبتت أنفاس إيطاليا وجعلتها تفقد مكانتها فى هذا الميدان بعد أن أغنت العالم الأوروبى بمخلفاتها الأدبية والفنية ، وبعد أن خلفت لنفسها آثاراً خالدة لاتزال تشيد بعظمتها إلى اليوم .

وتميزت النهضة فى إيطاليا باتجاهها اتجاهاً أدبياً وفنياً . وقد تبين لنا كيف نجحت الحركة الإنسانية وما كان من نتائجها العظيمة . ولاقت الحركة نجاحاً عظيماً . ولا غرو فى ذلك فإن آثار الحضارة القديمة كانت ماثلة أمام الفنانين المحدثين ، مما جعلهم يتجهون نحو دراستها ، واتباع المقاييس القديمة ، فاهتموا بالدراسة العميقة للأشكال . واهتموا بدراسة تفاصيل الجمال الجسدى كما رسموا الأجساد العارية .

فأخذت بذلك النماذج الوثنية مكانها إلى جانب النماذج المسيحية ، وأصبح الفنان فى معالجته للموضوع الفنى لايتغير أو يتأثر بطبيعة هذا الموضوع . فمعالجته للنماذج المسيحية لاتختلف عن معالجته للنماذج الوثنية . وهكذا لم يقتبس الفنانون من العهود القديمة الأشكال الفنية فحسب ، بل روح الفنانين ومثلهم العليا . كذلك ، ومع ذلك لم يكن فنانو النهضة مجرد مقلدين ، بل امتازوا إلى جانب ذلك بمبتكراتهم الرائعة مما جعلهم ينتجون تحفاً فنية فريدة فى نوعها ، وقد شاهدت المدة بين ١٤٧٠ ، ١٥٢٥ تقدماً محسوساً فى الاهتمام بالدراسات القديمة والمخلفات الفنية القديمة ، وفى هذا الوقت أنشىء متحفا الفاتيكان والكابيتول .

ولم تخل مدينة واحدة فى إيطاليا أيام عصر النهضة من هذه الحركةالفنية العظيمة ، فأنتجت إيطاليا فى هذا العهد مالم تقو على إنتاجه أى دولة أخرى فى نفس المدة . وقد بزت جميع المدن الإيطالية فى هذا الميدان فلورنسا ؛ فكانت من أبرز هذه المراكز وألمعها ليس فى إيطاليا فحسب ، بل فى جميع أنحاء أوروبا . وقد احتفظت فلورنسا إلى نهاية القرن الخامس عشر بمكانتها المتفوقة فى الآداب والفنون ، فأمست جديرة بأن توصف بأنها « العاصمة الثقافية والفنية لأوروبا خلال القرن الخامس عشر » .

« The artistic and intllectual capital of Europe ».

العوامل التى جعلت فلورنسا العاصمة الثقافية والفنية لأوروبا أثناء القرن الخامس عشر

١ — أسرة المديتشى «Medici» التى حكمت فلورنسا خلال القرن الخامس عشر واشتهر فيها كوزمو«Cosmo» ،وكان مشجعاً للعلوم والآداب والفنون محباً للتنقيب عن الوثائق القديمة وامتلاكها . وقد مكنه ثراؤه العريض الناتج عن صلاته التجارية الواسعة النطاق من تحقيق ذلك . استطاع أن يجمع عدداً عظيماً من الكتب القيمة المكتوبة باللغات المختلفة من يونانية وعبرية وعربية وهندية . ووضع نواة تلك المكتبة الشهيرة التى أضاف إلى مقتنياتها خلفاؤه ولاسيما حفيده «Lorenzo» العظيم (١٤٦٩ — ١٤٩٢) .

وكان « لورنزو» معروفاً بحبه الجم للفنون الجميلة والفنانين والعلماء فأصبح قصره فى فلورنسا وغيرها مركزاً للعلماء والفنانين يقصدون إليه من كل مكان . ولا أدل

على غيرته على العلم والعلماء من إنشائه للأكاديمية فى فلورنسا ، وهى أكاديمية الفلسفة لإحياء ذكرى أفلاطون وقد لمع فيها اسم بيكودلا ميراندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ — ١٤٩٤) وكان على صغر سنه يجيد ما يزيد على العشرين لغة ، مما جعله واسع الإطلاع ، غزير المعلومات . وقد اهتم « لورنزو » باللغة اليونانية إلى جانب اللغة اللاتينية . وكان يقوم بتدريسها إما يونانيون أو إيطاليون أتقنوا اللغة اليونانية . وكان لذلك أثره العظيم فى تخريج عدد كبير من علماء اللغة اليونانية الذين درسوا فى مدارسها المختلفة ، مما أدى إلى نشر هذه اللغة فى سائر أنحاء إيطاليا بل وفى فرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا ، وانجلترا . كما أقام Lorenzo فى حديقة قصره معهداً للفنون ، يكفيه فخراً أن كان « ميخائيل أنجلو » أول زهرة من زهراته .

٢ — كانت فلورنسا كذلك المهد الأول لعظماء رجال النهضة الأدبية والعلمية والفنية ومن العلماء « بول تسكانيللى »«Paul Toscanelli»الفلكى المشهور وكان يطلق عليه «Paul Le Physicien» ، ومن الأدباء « بترارك Petrarch » و « بوكاشيو Boceacio » ، و « جيشاردين Guicciardin » ، و « مكيافيللى » «Machiavelli» ، كما كانت من قبلهم مهداً « لدانتى Dante » .

ومن الفنانين : « جيبرتى Ghiberti » و « دوناتللو Donatello » و « ميخائيل أنجلو Michael Angelo » و « ليوناردو دافنشى »«Leonardo ep Vinci»و « برونلسكو Brunelleschi » و « مساشيو Massaccio »

وأما « توسكانيلى Toscanelli فولد فى فلورنسا عام ١٣٩٧ ومات بها عام ١٤٨٢ . وكان عالماً شهيراً فى علم الفلك . ولم يشاطر معاصريه فى آرائهم فى الفلك ، ويعتبر جهازه (ساعته الشمسية) الذى أقامه فى (١٤٦٨) من أعجب الآلات الفلكية التى ظهرت فى العالم . وله فى حركة الشمس ، والقمر والنجوم آراء وملاحظات هامة ، وقد وافق على مشروعات كريستوف كولمب ، تلك المشروعات التى استشاره فيها ذلك الملاح المشهور .

أما « بترارك Petrarch » فانصرف إلى دراسة اللغة اللاتينية ، فأجادها وأتقنها . وقد أحب هذه اللغة مما جعله يحتقر اللغة الإيطالية كل الاحتقار ؛ ولذلك نجده يأخذ على دانتى أنه ألف كتابه العظيم « الكوميديا الإلهية » باللغة الإيطالية .

بدأ عمله الأدبى بكتابة ملحمة شعرية يطلق عليها « أفريقيا Africa» وهى تتناول بعض حوادث الحروب التى وقعت بين روما وقرطاجنة ، وفيها يوضح كيف تخلصت إيطاليا من الأخطار الخارجية عندما انتصر « سيبيو » الأفريقى «Scipio Africanus» القائد الرومانى على هانيبال «Hannibal» قائد القرطاجنيين . واختار بترارك اللغة اللاتينية كما فعل غالبية الإنسانيين لمدة قرن من بعده . وكانت اللاتينية لاتزال هى اللغة الأدبية والعلمية المعترف بها فى أوروبا . على أنه ألف كذلك شعره الغنائى المشهور باللغة الإيطالية ، وكان شعراً جذاباً جلب له الشهرة فى أنحاء إيطاليا . بل إنه ترجم إلى الفرنسية فانتقل إلى فرنسا حيث ذاعت شهرته . وقد تميزت أشعاره بحساسية فياضة ، وذهن حاضر ، وذكاء نادر ، وشعور مرهف وإحساس فياض نحو جمال المرأة والطبيعة والأدب والفن مما جعل له مكانة ممتازة فى المجال الأدبى . وقد قام برحلات عديدة والتقى بأشهر العلماء ورجال الدين والقانون والسياسة من إيطاليا وفرنسا وانجلترا . ويشبه بترارك روسو من حيث تقديره وشعوره المرهف إزاء الطبيعة . وقد أجمعت الآراء على أنه كان أول الإنسانيين ، كما كان أول كاتب يعبر عن حق الفرد فى الاهتمام بحياته فى وضوح وقوة ، وأن يتمتع بها ، ويعمل على زيادة محاسنها وهو من هذه الناحية يعد بحق أب الحركة الإنسانية .

أما « بوكاشيو» Boccacio (١٣١٣—١٣٧٥) فقصد إلى القسطنطينية هادفاً إلى التعمق فى الدراسات الإغريقية ، واستطاع فعلا أن يصل إلى درجة عالية فى هذه الدراسات كما أنه برع فى كتابة النثر باللغة الإيطالية . ويعتبر ماكتبه وألفه فى هذه الناحية من أجمل وأبهى ماكتب من النثر الإيطالى ، ولا سيما قصصه الشهيرة المجمعة فى كتابه المسمى « ديكاميرون » Decameron . وقد بدأ فى كتابتها عقب انتشار وباء الطاعون فى عام ١٣٤٨ ، وكان يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين وقد أصبح عندئذ يفضل كتابة النثر على الشعر . واستقى كثيراً من موضوعات قصصه مما قرأه من كتابات « تشوسر » الكاتب الإنجليزى ويعتبر كتابه « الديكاميرون » إلى اليوم من أهم قطع الأدب العالمى .

ولربما ترجع هذه الشهرة إلى اهتمام هذا المؤلف بالمبادىء الأخلاقية أكثر من الفن الأدبى نفسه . . ومن هذه الناحية فكتابته تفوق كتابة « تشوسر Chaucer فى قصص « كانتربرى Canterbury Tales » كما تميزت كتابته بالفصاحة وقوة

التعبير ، ووضوح الأسلوب وحيوته ؛ فهو كتاب يعبر عن حب الحياة والتعلق بها ، ويشبه فى أسلوبه ما كتبه « رابليه » Rabelais الكاتب الفرنسى . وعلى الرغم من بعض المبالغات فإن العالم كله يعتبر هذا الكتاب كتاباً خاصاً به ، ولذلك ترجم إلى اللغات الأوروبية كافة ، وقد أظهر الكتاب من بعده إعجابهم الشديد بهذا الكتاب ومنهم « ليسينج Lessing » الألمانى « وموليير Moliere» ، و « لافونتين » La Fontaine الفرنسيان « وتشوسر » Chaucer وشكسبير Shaekspeare الانجليزيان .

أما « جيشاردين » Guiciardini (١٤٨٢ — ١٥٤٠) فهو كاتب ومؤرخ ، ألف كتاباً عن تاريخ إيطاليا وصف فيه الحروب التى عاصرها واشترك فيها ، ولم ينشر هذا الكتاب إلا بعد مماته فى عام (١٥٦١) . وقد كان أستاذاً للقانون وسياسياً ومؤرخاً وإذا قارناه بمكيافللى نجد أنه يأتى فى المرتبة الثانية .

أما « مكيافيللى Machiavelli (١٤٦٩ — ١٥٢٧) : فألف كثيراً من القطع المسرحية والقصص والأشعار كما كتب « تاريخ فلورنسا القضائى » الذى نشر عام ١٥٢٤ . ولكن شهرته العظيمة ترجع إلى كتابه « الأمير The Prince» الذى نشر عام ١٥٣٢ .

عاش مكيافيللى فى أواخر القرن ١٥ وأوائل القرن ١٦ فى فلورنسا واحتل مركزاً سامياً فى الدولة وقام بعدة سفارات هامة . ثم كان من نصيبه أن ينفى نتيجة الاشتباه فى تآمره على أميره . واكن صفح عنه وقد ضمن أفكاره وتجاربه عدة كتب أهمها الأمير .

كتاب الأمير :

١ — رسالة فى فن الحكم ، وأصول السياسة ، وكان هدفه الواضح فى هذا الكتاب هو تحقيق وحدة إيطاليا السياسية بأى الوسائل مهما كانت وضيعة ، فالغاية فى نظره تبرر الوسيلة . وقد حرر مكيافيللى بذلك السياسى فى أحكامه وأعماله من الخضوع للقوانين الأخلاقية وتعاليمها . فأباح الظلم والعدوان فى سبيل الغاية التى ينشدها الحاكم

٢ — يثير هذا الكتاب الإعجاب لما فيه من قدرة فكرية على الرغم من ترخصه فى استخدام الغاية والعدوان . فقد أظهر هذا الكتاب مدى غيرة هذا المؤلف ووطنيته

وحماسته المتدفقة لصالح وطنه . صرح بمواطن الضعف فى هذا الوطن ، وأباح فى سبيل انقاذه وتخليصه التضحية بكل الاعتبارات الخلقية .

٣ — ومع ذلك فهو يرى أن الفضيلة هى دعامة للحياة القومية . ولكنه فيما يتعلق بإدارة شئون الدولة يعفى الفضائل من وظائفها فى سبيل نجاح أى مشروع سياسى .

٤ — اعترف بنظام الطبقات الذى كان سائداً فى عصره ، ونادى بأن الشعب هو دعامة الأمة .

٥ — لايرى مانعاً من استيلاء دولة على أخرى ؛ وينصح عندئذ بعدم التعدى على تقاليد البلد أو العادات المتبعة بها . كما يوصى بإقامة حاكم من الدولة نفسها بها ، وأن يحتلها جيش كبير ، ويحبذ أن يقطعها لبعض من أتباع الأمير ورجاله ، فيحلهم محل سكانها الأصليين بعد تشريدهم . ثم عليه أن يستميل البعض بالرشوة ، وأن يستأصل البعض الآخر وعلى الأمير ألا يخشى انتقام المشردين ، فالناس فى رأيه لايحاولون الانتقام إلا للمظالم الصغرى .

اختلف النقاد فى تقدير كتاب الأمير ومؤلفه ، فمنهم من يرى أن الكتاب لم يحو إلا دروساً لقنها لطغاة الحكام ، لينير أمامهم سبيل الظلم والعدوان ، وآخرون يرون أن مكيافيلى كان يبحث فى موضوع الظلم بحثاً عقلياً بحتاً بغض النظر عن الاعتبارات الأخلاقية ؛ أى أن دراسته كانت نظرية بحتة .

ولا شك أن كتاب الأمير لاقى رواجاً عظيماً ، فقد درسه كل من شغلته السياسة ، كما انتفع به عدد كبير من ساسة العالم . ومع ذلك فلا يجب أن نتغاضى عما يحويه من ظلم وعدم مراعاة للضمير . ومهما يكن للكتاب فيما مضى من شأن فإنه قد آن الوقت لإعلان كلمة الحق ، حق الفرد وحق الشعوب .

علم التاريخ :

وقد ظفر علم التاريخ بعناية فائقة من رجال النهضة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، فلم يعد المؤرخون يعتمدون فيما يكتبون من حقائق على سماع أقوال الرواة ، فتطورت مناهج البحث التاريخى ، ظهرت مدرسة جديدة فى النقد التاريخى . وقد كانت فلورنسا أسبق المدن الإيطالية فى هذا المجال ، فتكونت فيها مدرسة تاريخية أنتجت عدداً كبيراً

من الكتب التاريخية فى موضوعات شتى . وكان لهذه الأبحاث طابع مميز ؛ يقوم على حرية الرأى وحرية التعبير وعدم التقيد بالموضوعات الدينية ، والتحرر من التقاليد البالية ، والبعد عن الخرافات والتزام الموضوعية ؛ مما جعل هذه البحوث باكورة طيبة للدراسات التاريخية الحديثة .

أما فى ميادين الفن :

فقد كشف الإيطاليون وعلى رأسهم فنانو فلورنسا النقاب عن جمال الآثار القديمة وعملوا على محاكاتها فى روحها وتعبيراتها . فهم باعثو هذه النهضة القديمة كما أنهم مبتكرو الفن الحديث . فلم تعد الفنون قاصرة على خدمة الكنيسة وحدها وأغراضها الدينية بوجه عام . إنما انطلق الفنانون الإيطاليون متحررين من قيود العصور الوسطى ورجال الدين . فتميزت تعبيراتهم فى الفنون على اختلافها بالتحرر والشغف بمناظر الطبيعة وجمال الوجه البشرى وكافة أجزاء الجسم ولم تعد نماذجهم النماذج المحدودة التى سمحت بها الكنيسة فى العصور الوسطى . وإنما بدأوا يقلدون القدماء من الفنانين ، فأصبحت نماذجهم تجمع تلك وأخرى عارية أو مغطاة بالعباءات الرومانية .

فى فن العمارة :

لمعت أسماء أصبح لبعضها شهرة عالمية خارقة . وهنا يجب أن نذكر أن هذا الفن لم يندثر تماماً طوال العصور الوسطى ؛ فقد ظل قائماً مزدهراً معتمداً على نماذج من الفن القديم وظهر فى شمال أوروبا طراز جديد من العمارة يعرف بالفن القوطى . وقد انتقل إلى إيطاليا فتمثل فى بناء الكنائس والكاتدرائيات . على أن هذا الفن قد تطور عند بداية عصر النهضة إذ أدخلت عليه الخصائص والرسومات الهندسية التى كان يتبعها الإغريق فى مبانيهم القديمة . وشهدت فلورنسا هذا التطور الكلاسيكى فى فن البناء فى النصف الأول من القرن الخامس عشر . ومنها انتقل إلى سائر أنحاء إيطاليا ومن المدن التى اشتهرت بهذا الطراز المعمارى ونافست فلورنسا مدينتا البندقية وروما .

وكان « برونلسكى Philippe Brunelleschi » (١٣٧٧—١٤٤٦) من أشهر النوابغ فى فن المعمار وهو من مواليد فلورنسا ؛ امتاز بأسلوبه الكلاسيكى فى البناء فكان ينحو فى مبانيه وطرق تزيينها نحو أصحاب الطرز القديمة ؛ فنجد كنيسة « سانت لوران »

«Saint Iaurent» التى بناها فى فلورنسا أشبه ما تكون بكنيسة رومانية وأهم ما خلفه من آثار معمارية كذلك قبة الكاتدرائية فى فلورنسا « الدومو Il Domo » تمتاز بضخامتها وهى من أبرز المعالم التى تسترعى نظر من يتطلع إلى المدينة من أعلى .

أما فى فن النقش والنحت :

فقد بلغ شأوا بعيداً فى الإبداع الفنى ؛ ولاغرابة فى ذلك فإن النماذج القديمة من تماثيل ونقوش كانت لاتزال ماثلة تشهد بعظمة الفن الإغريقى والرومانى ؛ فاستطاع نقاشو عصر النهضة أن يقلدوها وأن يتخذوها أمثلة حية ، ونماذج ناطقة بما قاموا من انجازه من تماثيل مختلفة .

ومن أشهر أساتذة فن النحت « لورنزوجيبرتى » Lorenzo Ghiberti(١٣٧٨— ١٤٥٥) وهو فلورنسى الأصل ؛ أبدع فى فن النقش وبرع فيه وتجلى هذا فى نقشه للأبواب البرنزية بكنيسة التعميد فى فلورنسا . ويعد أحد هذه الأبواب من أبدع آيات الفن المستحدثة ، فزينته من نقوش عشر منحوتة فى البرنز تمثل صوراً مختلفة من العهد القديم وروعيت فيها النسب والمسافات بدقة شديدة . ولذلك اعتبر Ghiberti أول من أوجد قوانين فن الرسم المنظور . وقد استغرق فى نقش هذا الباب وحده مدة اثنين وعشرين عاماً (١٤٢٥—١٤٤٧) ، واستحق الباب ما ذكره « Michael Angelo » عنه من أنه جدير بأن يكون باباً للجنة .

أما « دوناتللو Donatello » (١٣٨٦ — ١٤٦٦) وهو فلورنسى كذلك فقد اهتم بصنع تماثيل الأجسام البشرية . فهو أول من صنع تماثيل الأجسام العارية . ومن أشهر ما أنجز فى هذا المجال تمثال داوود البرونزى . ويوجد فى متحف « برجيلو» Bargello، ويكاد أن يكون عارياً .

كما اشتهر بنحت تمثال آخر للقديسة « مادلين Madeleine » فى كنيسة التعميد بفلورنسا ، وهو مصنوع من الخشب ، ويمثل الفقر والحاجة بصورة تدعو إلى الإعجاب

ماساشيو «Massaccio» (١٤٠٢ — ١٤٢٨) :

يعتبر من أئمة الفن الحديث من النقاشين مثل جيبرتى ، عثر على قوانين فن الرسم

المنظور ، كما شابه «Donatello» فى صنع التماثيل للأجسام البشرية العارية منها ، والمغطاة بالعباءات الواسعة .

أما « ميخائيل انجلو Michael Angelo» (١٤٧٥ — ١٥٦٤) :

فهو شخصية أخرى تحتل مكانتها بين العباقرة العالميين ، كان نقاشاً فوق كل اعتبار آخر ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك كان رساماً ومهندساً ومعمارياً وشاعراً . ويعتبر أقوى وأشهر فنانى عصر النهضة ، لافى إيطاليا وحدها بل وفى العالم كله . اشتهر بوفرة إنتاجه الفنى ، وتعدد الموضوعات التى عالجها ، والمستوى الرفيع الذى بلغه فى هذا الإنتاج. فلورنسى الأصل ، كان من الفنانين المفضلين المقربين من لورنزو العظيم . بدأ نتاجه المعروف فى فلورنسا وهو فى سن العشرين ، فنحت ما أسماه « الحب النائم » ويظنه الرائى قطعةمن مخلفات الأقدمين . وترجع شهرته بصفة خاصة إلى تحفتين من روائع فنه : الأولى ويطلق عليها «Pieta» وتمثل العذراء ومعها المسيح ميتاً ، والثانية تمثال داوود العملاق وهو لايزال قائماً فى أحد ميادين فلورنسا ، وفى عام ١٥٠٥ استدعاه البابا يوليوس الثانى إلى روما ، ومنذ ذلك التاريخ حتى مماته لم يتوقف عن العمل للبابوات .

بدأ أولا فى بناء مقبرة للبابا يوليوس الثانى ، ولكنه لم يتمها . ثم كلفه البابا بتزيين « سقف السكستين شابل Sixtine Chapel» (١) وقد عمل فيها مدة أربع سنوات متوالية ، وهو مستلق على ظهره (١٥٠٨ — ١٥١٢) ؛ فكانت آية من أروع آيات الفن ، ثم نقش تمثال « موسى والعبيد » خصيصاً لتزيين مقبرة البابا يوليوس الثانى ، كما عمل لحساب البابا كلمنت السابع مقابر لورنزو ويوليوس من أسرة المديتشى فى فلورنسا ، وكلفه البابا بول الثالث بإنهاء تزيين مقصورة السكستين فرسم على الحائط الداخلى لها ما أسماه « بالحكم الأخير » (١٥٣٦ — ١٥٤١) . وكانت سنه يومئذ واحداً وسبعين عاما عندما أطلق عليه البابا بول الثالث مهندس كنيسة القديس بطرس فى عام ١٥٤٧ ، كما أنه بنى القبة العظيمة للكنيسة التى بدأ فى إنشائها المهندس «برامانت Bramante » .

---

(١) سكستين شابل Sixtine Chapelle : توجد هذه الكنيسة الصغيرة فى الفاتيكان . وقد جرت العادة أن ينتخب فيها الكرادلة البابا عندما يخلو كرسى البابوية .

تميزت مخلفات ميخائيل انجلو فى النقش بنوع من القوة لم يكن مألوفاً قبل عهده ؛ فعظم تماثيله إنما تمثل أشخاصاً عظيمى البنية قوى العضلات والبنيان . فهم أشبه ما يكونون بالرياضيين . كذلك تمتاز بما تستدره من النفوس من عطف وحزن وإشفاق . وإن ذلك كله ليرجع إلى طبيعته الحزينة القلقة النفور ، ولا أدل على ذلك مما ينسب إليه من بيت من الشعر فى إحدى قصائده :

Mille Plaisirs ne valent pas un tourment.

« إن ألف ساعة من سرور لاتوازى ساعة من حزن » .

فى فن التصوير :

ويعتبر رافائيل«Raphael» (١٤٨٣ — ١٥٢٠) إمام الفنانين الذين برعوا فى فن التصوير فى إيطاليا . وعلى الرغم من أنه مات وهو فى عنفوان شبابه إلا أنه خلف آثاراً فنية فى ميدان التصوير بلغت حد الروعة والإعجاز . وهو فى مميزات إنتاجه ورسومه بل وحياته يختلف تمام الاختلاف عن ميخائيل انجلو العظيم . إذ امتاز رافائيل بطبيعة سهلة سعيدة جنبته الحزن .

سافر إلى روما عام ١٥٠٨ . حيث كلفه البابا يوليوس الثانى بتزيين بعض حجرات الفاتيكان وبسرعة وسهولة تدعو إلى الإعجاب تمكن رافائيل من إنجاز رسمين ، يعدان غاية فى الجمال والروعة أنجزهما فى ستة أشهر . رسمهما على الحائط مباشرة (وهو ما يعرف برسم الفريسكو) : أحدهما يمثل « المسيح ومغزى العشاء الربانى «La dispute du Saint Sacrement» والآخر يمثل « مدرسة أثينا » «L'Ecole d'Athénes» . ومعنى ذلك أن أولهما يمثل تاريخ الكنيسة والثانى الفلسفة القديمة .

ومنذ ذلك التاريخ اكتسب رافائيل شهرة واسعة النطاق فأصبح لاينقب إلا بالمقدس كما أصبح فى منزلة وزير ومصرف شئون الفنون الجميلة للبابا . فأمه الطلاب من كل صوب وتتلمذوا عليه . ومن آثاره الفنية الرائعة « البرناس «Le Parnasse» » (جبل مخصص لإله الشعر عند اليونان) ، وتخليص القديس بطرس ، وتجلى الرب . ولا زالت حجرات رافائيل بالفاتيكان تشهد بعظمة انجازات هذا الرسام العظيم الذى تميزت رسوماته بهدوئها ووضوحها . فلم يكن هناك من يجاريه فى تجميع الأشخاص فى وحدات منسجمة . كما لم يكن هناك من يفوقه فى توضيح التعابير المختلفة لجميع تلك الشخصيات ومراعاة المسافات بينها ونسبة بعضها إلى بعض .

ومن العباقرة العالميين فى فن التصوير كذلك ليوناردو دافنشى «Leonardo da Vinci» (١٤٥٢ — ١٥١٩) . ولد فى قرية « فنشى » «Vinci» على مقربة من فلورنسا واشتهر بنشاطه فى فروع شتى من الفنون والعلوم ؛ اشتهر فى عالم الرسم والنحت والمعمار والهندسة والموسيقى والجيولوجيا والرياضة والفلك وعلم وظائف الأعضاء وكانت رغبته العامة الوصول إلى حد الكمال فيما ينتجه من لوحات مما جعله لايخلف الكثير وراءه منها ، كما أن جزءاً كبيراً منها قد أبيد نتيجة لبعض الحوادث .

ويوجد بمتحف اللوفر بعضاً من أحسن لوحاته : العذراء بين الصخور ، العذراء والقديسة آن ، والقديس يوحنا المعمدان ، وأشهرها صورة لسيدة من فلورنسا تدعى « مونالبزا » «Mona Lisa» وهى معروفة كذلك باسم « لاجاكونلدا «La Jaconde» تزوجت فى السادسة عشرة من عمرها على كره منها أحد ضباط مدينة فلورنسا ، وقد ظل الفنان مستغرقاً فى رسمها أربع سنوات فكانت النتيجة صورة تعتبر معجزة فنية خالدة ، تمثل مفاتن سيدة وديعة حسناء مثالية ، تتسم بجاذبية نادرة ، يعلو وجهها ظل ابتسامة تفيض من عينيها الناعستين وترتسم على شفتيها . واستطاع ليوناردو بمواهبه العظيمة أن يجعل من هذه السيدة المجهولة شيئاً مذكوراً فى التاريخ .

استدعاه فرانسوا الأول عام ١٥١٦ . فمات بعد سنوات ثلاث فى قصر « سان كلو» «St. Cloud» .

ويرى البعض أن « ميخائيل انجلو » و « ليوناردو دافينشى » و « رافائيل » يشتركون فى تكوين ثالوث الفن فى القرن السادس عشر . بما حققوه من أمجاد فنية ستظل على توالى العصور فى مقدمة ما أبدعه الإنسان فى ميدان الفنون الجميلة .

إن النهضة التى بلغت أوجها فى القرن الخامس عشر فى فلورنسا لم تلبث أن خبت أضواؤها فى عام ١٤٩٤ عند مطلع الحروب الإيطالية . عندما اجتاحت جيوش شارل الثامن ملك فرنسا شبه الجزيرة الإيطالية . وتأثرت بها فلورنسا أيما تأثر ، ولذلك لم يلبث مركز حركة النهضة المشع أن انتقل من فلورنسا إلى روما التى ظلت محتفظة بمكانتها فى عالم الحضارة من عام ١٤٩٤ حتى عام ١٥٢٧ .

وقد ساهم البابوات فيها بنصيب وافر . فتنافسوا جميعاً فى تشجيع حركة النهضة فى روما مما جعلها ترث المكانة التى كانت تتمتع بها فلورنسا .

وكان البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ — ١٤٥٥) من أكبر مشجعى حركة النهضة فى روما . فاستدعى إلى بلاطه عدداً كبيراً من العلماء والأدباء النابغين ومن المترجمين المهرة فى اللغتين اليونانية واللاتينية . كما أوفد العلماء إلى كافة أنحاء إيطاليا بحثاً عن الوثائق النادرة لشرائها وحملها إلى مكتبته فى روما . ولم تقتصر زياراتهم وتجوالهم على أنحاء إيطاليا ، بل تعدتها إلى ألمانيا وانجلترا ، واليونان ، والشرق بصفة عامة . وترجمت إلى اللاتينية لأول مرة كثير من القطع اليونانية لكل من « هيرودوت » و « اكزنفون » «Xenophon» و « ديودور الصقلى » «Diodore» والإلياذة « لهومر » Homerus . ويكفيه فخراً أنه مؤسس مكتبة الفاتيكان الشهيرة .

وقد زاد فى مقتنياتها من بعده ليو العاشر ١٥١٢ — ١٥٢١ ، واهتم بالتنقيب عن الوثائق القديمة ، كما اهتم بتدريس كل من اللغات الكلدانية والعبرية والسورية واليونانية واللاتينية .

ولم يكن اهتمامه بالفن أقل من اهتمامه بالأدب : فقد كان مغرماً بالموسيقى ومشجعاً للرسم والنحت والمعمار . وأظهر اهتماماً بالغاً فى بناء كنيسة القديس بطرس التى بدىء العمل فيها فى عهد البابا يوليوس الثانى ١٥٠٣ — ١٥١٣ وقد وضع تصميمها المعمارى المشهور « برامانت » «Bramante» ولكنه مات قبل أن ينجزها .

وقد كلف « ميخائيل أنجلو » بتأسيس كنيسة سانت لوران فى فلورنسا ، كما استعان بجهود ليوناردو دافنشى . وقام « رافائيل » فى عهده بتزيين بعض قاعات الفاتيكان بالفرسكو .

أما « أدريان السادس Adrian VI» ١٥٢٢ — ١٥٢٣ فليس له ذكر فى هذه الحركة وخلفه « كلمنت السابع Clement VII» (١٥٢٣ — ١٥٣٤) الذى ساهم فى حركة النهضة بنصيب وافر . فبلغت الأكاديمية الرومانية فى عهده مبلغاً عظيماً من التفوق حتى كان عام ١٥٢٧ وهو العام الذى اجتاحت فيه جيوش الامبراطور شارل الخامس روما . وأسرت البابا كلمنت السابع . فكان ذلك العام بداية لنهاية هذه الحركة .

أما البندقية التى خلفت روما فى حمل لواء النهضة فقد بلغت عند مطلع العصور الحديثة مبلغاً عظيماً من الثروة والنفوذ . ولكنها مع ذلك بدأت تفقد كثيراً من مكانتها

بسبب محاولات العثمانيين تهديد مركزها التجارى ومنازعتها السلطان فى حوض البحر المتوسط ، وإغلاق طريق التجارة إلى الشرق فى وجهها . وقد ساهم فى إضعاف مركزها التجارى تلك الكشوف الجغرافية التى ترتب عليها اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ، والعثور على عالم جديد يقع إلى الغرب من المحيط الأطلسى .

على أن أملاك البندقية قد اتسعت فى إيطاليا ؛ فأصبحت تسيطر على « بادوا Padua » ، و « برجانو Bergano » و « فيرونا Verona » ، وقد كانت تلك الممتلكات توصلها عن طريق ممرات جبال الألب إلى أملاك الهبسبورج ، وتربطها بدوقية ميلان . وهكذا كانت على صلة ببعض ساسة أوروبا أيام العصور الوسطى ، وكانت الدول كثيراً ما تطلب معونتها المالية والحربية . وكان النظام السياسى القائم بها دقيقاً وناجحاً . فهو أكمل مثال لحكم الأقلية فى أوروبا . فيه كانت السلطة تتركز فى أيدى الأسرات التجارية العظيمة . وكانت تستأثر بحق حضور المجلس العظيم الذى كان يقوم بتعيين الإداريين وتوجيه سياسة الدولة ، وكان الدوج « Doge » هو الرئيس الأعلى لهذه الأقلية التجارية ولكنه كان محدود السلطة .

كان لحركة النهضة فى البندقية طابعها المميز المختلف عن طابع النهضة الفنية فى كل من فلورنسا وروما ؛ فبينما اهتم فنانو فلورنسا وروما بجمال الشكل على وجه الخصوص ، اهتم الفنانون فى البندقية بالألوان ، ومزجها وتركيبها قبل أى شىء آخر ، فكانوا عظيمى الحساسية لاختلافات الضوء ، والانسجام بين الألوان ؛ وقد دفعهم ولعهم بالألوان إلى الاهتمام برسم المنظر قبل أى شىء آخر ، لذلك كانوا أول من اهتم برسم المناظر الطبيعية . كما استخدم البنادقة فى تزيين الحوائط الطريقة الفلمنكية أى التلوين بالزيت .

ومن أشهر رساميها « تيتيان Titian » (١٤٧٧ — ١٥٧٩) الذى ظل وفياً للبندقية رغم العروض المغرية التى عرضها عليه كل من البابا ليو العاشر وفرنسوا الأول ، خلف رسوماً عديدة يصل عددها إلى نحو ٤٠٠٠ لوحة . وقد فاق غيره فى رسم اللوحات الزيتة ، ورسم الأشخاص . وبقيت تلك المدرسة بالبندقية حتى نهاية القرن ١٦ بفضل جهود كل من « تنتوريتو Tintoretto » (١٥١٢—١٥٩٤) و « فيرونيز Veronese » (١٥٢٨ — ١٥٨٨) وامتاز الأخير برسومه الكبيرة الحجم ، ومنها فى

متحف اللوفر Les Noces de Cana « عرس كانا » .

حركة النهضة خارج إيطاليا :

نشأ عن حركة النهضة فى إيطاليا فن جديد وأدب عظيم ، بينما نتج عنها فى فرنسا فن جديد ولكن له مميزاته الخاصة ، التى تجعله يختلف عن فن إيطاليا وإن كان الأساس فيهما واحد . وهو الرجوع إلى القديم ومحاولة محاكاته ، ولكن الفن فى فرنسا احتفظ إلى جانب ذلك ببعض مميزاته التى سادت فى العصور الوسطى كما أن النهضة الأدبية فى فرنسا لم تبلغ أوجهاً عندئذ ، وإنما بعد ذلك أى خلال القرنين : السابع عشر والثامن عشر ؛ فظهرت أثناءها نخبة من الكتاب ممن يمكن وضعهم فى منزلة كتاب إيطاليا فى عهد النهضة . ومع ذلك لم يخل هذا العهد بالنسبة لفرنسا من بعض الأسماء اللامعة فى الشعر والأدب أمثال رابليه وكلفن ورونسار ومونتين . أما فى ألمانيا فاتجهت حركة النهضة إتجاها علميا ودينيا ، وكثيرا ما ترجع شهرة الألمان الحالية فى الميدان العلمى إلى ذلك العهد الذى بدأت فيه الجامعات تتكاثر وتنتشر ، وبدأت تزدهر فيها الدراسات العلمية . فكانت نتيجة هذه النهضة فى ألمانيا نهضة علمية فريدة ، كما أدت إلى ظهور عقيدة جديدة . وفى انجلترا نتج عن النهضة مدرسة عظيمة للشعر والدراما من أعظم ما عرفه التاريخ منذ عهد اليونان .

ويعتبر « ارزم » Erasmus (١٤٦٧ — ١٥٣٦) الهولندى صاحب الفضل فى انتشار حركة النهضة فى أوروبا ، ورسول الدراسات الإنسانية فى الشمال بفضل نبوغه الفكرى ، والشهرة التى نالتها كتاباته مما كان له أثره فى تمهيد الطريق لإحياء العلوم والمعارف ليس فى هولندا موطنه الأصلى فحسب بل وفى سائر أنحاء أوروبا . زار باريس واكسفورد حيث اختلط بزعيمى الإصلاح فى اكسفورد « جون كوليت » Johncolet ، و« توماس مور » Thomas Moore وكانا من خير أصدقائه . وقد استمر يتجول فى أنحاء مختلفة من إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، والأراضى المنخفضة ، وأمضى السنوات الأخيرة من عمره فى بال . وقد حاضر فى هذه البلاد فى اللغتين الإغريقية واللاتينية ، وجد فى البحث عن الكتب القديمة وجمعها والتعليق عليها ونشرها للإفادة منها ، وقد وضع عدة مؤلفات باللغة اللاتينية .

كان مؤمناً بأن الدراسات الإنسانية وسيلة إلى غاية سامية وهى إصلاح المجتمع الأوروبى وتخليصه من الشرور والآثام والفضائح الخلقية ، وكانت الناحية الدينية هى الناحية المفضلة لدراساته . وعكف على دراسة الكتاب المقدس فنشر النسخة الإغريقية

الأصلية وأرفقها بالترجمة اللاتينية ، وكان يدعو المسيحيين إلى بساطة المسيحية الأولى ونقائها ؛ لذلك كان من الرواد الأوائل فى المطالبة بالإصلاح الدينى نظراً لأنه لمس بنفسه التدهور والانحطاط الذى وصلت إليه الكنيسة . ولكنه لم يخرج على العقائد ولا على كنيسة روما . وكان ظهوره قبل مارتن لوثر بفترة وجيزة .

وعلى الرغم من تجواله المستمر فإنه أنتج مؤلفات كثيرة . فقام بنشر بعض الكتب والنصوص القديمة ، وإلى جانب نشر النسخة الإغريقية من الكتاب المقدس والترجمة اللاتينية الملحقة بها ، نشر كثيراً من المخطوطات الكنسية ، ومن أشهر كتبه بخاصة ما أسماه « مديح الجنون » «Eloge de la Folie» . وهو نقد للحالة الاجتماعية ، نشر عام ١٥١١ ، وراج رواجاً عظيماً . فطبع سبع طبعات فى بحر بضعة أشهر كما أنه ترجم إلى جميع اللغات . انتقد فى هذا الكتاب بعض تصرفات رجال الكنيسة وأبان جهل القساوسة وما وصلت إليه أخلاق رجال الدين من سوء . ولكنه مع ذلك لم يتعرض بتاتاً لمسألة العقائد الدينية ذاتها أوسلطة البابوات . أى أنه لم يفكر فى مهاجمة الكنيسة ولا النفوذ البابوى . وكان حريصاً على الاستقلال فى الرأى والكتابة . كما كان دائماً يتوخى الحذر والاعتدال فيما يكتب حتى لاينفر الناس من حوله أو يثير سخط الكنيسة أو الدولة عليه . وكانت كتاباته باللاتينية التى كانت لاتزال اللغة الشائعة بين المثقفين فى أوروبا .

الفصل الرابع

الحروب الايطاليه

(١٤٩٤ – ١٥٥٩)

يرى بعض المؤرخين أن سنة ١٤٩٤ تعتبر من مطالع تاريخ أوروبا الحديث ، وذلك لما ترتب على الحروب الإيطالية التى بدأت فى ذلك العام من نتائج هامة فى ميدان السياسة الدولية . فقد بدأ أثناء الحروب الاهتمام بمبدأ التوازن الدولى . وذلك عندما اجتاحت جيوش شارل الثامن إيطاليا مهددة أملاك البابوية وأسبانيا والامبراطورية فتكونت الأحلاف السياسية لتضع حداً لسيطرة فرنسا على إيطاليا . لما قد يترتب على ذلك التفوق من إخلال بمبدأ التوازن الدولى .

ولم تكن أهمية هذه الحروب قاصرة على ظهور مبدأ المحافظة على التوازن الدولى نتيجة لأحداثها ، بل أعلنت المنافسة المريرة بين كل من فرنسا وأسبانيا للسيطرة على إيطاليا ، وهى منافسة كانت بداية لصراع طويل بين أسرة الهابسبرج فى أسبانيا والنمسا من ناحية وبين أسرتى الفالوا ثم البربون فى فرنسا من ناحية أخرى ذلك الصراع الطويل الذى استمر ما يزيد على القرنين ، وكان له أثره الهام فى تطور العلاقات الدبلوماسية فى أوروبا .

ولهذه الحروب أهميتها كذلك من ناحية أنها شغلت حكام أوروبا الكاثوليك عن مواجهة الحركة الدينية التى بدأت تظهر أخطارها فى ألمانيا وفرنسا فى بداية القرن السادس عشر ، إذ شغل هؤلاء بالأطماع السياسية والمنافسة الأسرية عن مواجهة هذا الخطر الداهم وهو فى المهد ، فمكنوا بطريقة غير مباشرة لحركة الإصلاح الدينى من السير فى طريقها .

وللحروب الإيطالية أهمية أخرى وهو أنها نقلت إلى فرنسا آثار النهضة التى كانت فى أوجها بإيطاليا ، وذلك عندما بدأت الحروب الإيطالية التى خاضها ملوك فرنسا :

شارل الثانى ولويس الثانى عشر وفرانسوا الأول وهنرى الثانى ؛ ولولا هذه الحروب لما قامت النهضة فى فرنسا فى ذلك الوقت على الأقل . ولتأخر موعدها عن ذلك ، ولما كانت لها هذه الصورة القوية ؛ ذلك لأن رجال الحملة الفرنسية على إيطاليا قد تأثروا بما شاهدوه من روعة النهضة فيها .

ومن ذلك نرى أثر الحملة على إيطاليا قد تجاوز ملوك فرنسا إلى طبقات الشعب .

أما الأهمية الأخيرة لهذه الحرب فهى أن الصراع بين الدول الأوروبية والدول القومية الناشئة قد بين قدرة هذه الدول من الناحية العسكرية فعلى الرغم من أن فرنسا كانت هى البلد القوية التى بدأت هذه الحرب بانتصارات حافلة . فإن الغلبة لم تكن لها فى النهاية ، وإنما كانت لأسبانيا ، فاستطاعت أسرة الهابسبرج منذ ذلك العهد أن تسيطر على شبه الجزيرة الإيطالية إلى أن تم توحيد إيطاليا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فكان لزاماً على حركة التحرير التى قادها زعماء إيطاليا أن يطردوا فرع هذه الأسرة النمساوية من أراضيهم حتى يحققوا الوحدة الإيطالية .

أسباب الحروب الإيطالية :

لم تكن هذه الغزوات بالنسبة لإيطاليا غزوات جديدة . فقد كانت من قبل خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين فريسة للهجوم من العناصر الجرمانية وقد شجع فرنسا على غزو إيطاليا عندئذ ظروف إيطاليا السياسية المواتية وثروتها الكبيرة التى كانت تجنيها من نشاطها التجارى . وجد شارل الثامن فى سوابق تاريخية حجة لفرنسا كى تحقق مطامعها فى إيطاليا ، فقد حكمت أسرة أنجو فى نابولى ، ولم يكن فشلها وطردها من الأمور التى تجعل فرنسا تحجم عن المطالبة بتحقيق أطماعها ، كما كانت هناك صلة مصاهرة بين أسرة أورليان فى فرنسا والأسرة الحاكمة فى ميلان بسهل لمبارديا . لذلك استجابت فرنسا إلى نداء حاكم ميلان « لودفيكو **Lodovico**» عندما طلب منها المساعدة ضد فلورنسا .

والواقع أن كل هذه الأسباب قد كانت ذريعة ولم تكن أسباباً حقيقية لهذه الحرب فالواقع أن فرنسا كانت دولة قوية ، يحسب لها حساب فى ذلك العهد ، فهى قد أنهت حربها الطويلة ضد انجلترا بنجاح . واستطاعت تحقيق وحدتها القومية ، وعندما استقرت الأمور لأسرة الفالوا فى الداخل بدأت تتطلع إلى إحراز الانتصارات فى

الخارج ، والاستحواذ على مزيد من الممتلكات على حساب إيطاليا الضعيفة . فعلى الرغم من تفوق إيطاليا فى ميادين الفنون والآداب ، فإنها كانت تفتقر إلى القيادة السياسية الموحدة ، كما لم يكن لها جيش قوى يدافع عنها ؛ وإنما كانت الجيوش المرتزقة هى التى تساق إلى الحرب للدفاع عنها .

أما أسبانيا فقد انتهت من نزاعها الطويل القومى والدينى ضد العرب ، وحققت قسطاً وافراً من الوحدة وأصبحت ذات قوة عسكرية لايستهان بها . وقد كانت أسبانيا ترى لنفسها فى إيطاليا حقوقاً تفوق ما تدعيه فيها فرنسا ؛ إذ كانت أراجون إحدى الإمارات الرئيسية فى أسبانيا تسيطر على صقلية ، مما جعل أسبانيا تطالب بحقها فى السيطرة على بقاع أخرى من إيطاليا .

وهكذا أصبحت إيطاليا ميداناً للصراع بين الدولتين . وقد كانت الانتصارات الأولى فى هذه الحرب من حظ الفرنسيين . ولكنهم لم ينجحوا فى تثبيت أقدامهم فى تلك الانتصارات وإنما كان النجاح فى النهاية للهابسبرج الذين كانوا يسيطرون على صقلية فنجحوا فى السيطرة على مصير شبه الجزيرة الإيطالية حتى منتصف القرن ١٩ عندما تحققت الوحدة الإيطالية .

قيام الحروب الإيطالية (المرحلة الاولى) :

بدأت هذه الحرب بانتصارات شارل الثامن بدخوله مدينة فلورنسا ، وبيزا ثم روما ، ونابولى فى أقصى الجنوب . عندئذ تكون حلف من أسبانيا والامبراطور مكسمليان والبندقية وميلان ، فهى قد اتحدت جميعاً لتضع حد ألالتفوق الذى أحرزته الجيوش الفرنسية داخل إيطاليا . فاضطرت هذه الجيوش إلى التراجع عن إيطاليا أمام قوات هذا الحلف السياسى القوى ، وكان ذلك قبل وفاة شارل الثامن مباشرة .

وعندما تولى لويس الثانى عشر حكم فرنسا (١٤٩٨ — ١٥١٥) أعاد الكرة ولكنه لم يكسب شيئاً . ولم يلبث البابا يوليوس الثانى أن دعا إلى تكوين حلف مقدس لطرد الفرنسيين من إيطاليا ، فنجح فى تكوينه من أسبانيا والامبراطورية والبندقية وانجلترا فيما بعد ، وترتب على ذلك أن لويس الثانى عشر اضطر إلى عقد الصلح عام ١٥١٥ . وبعد موته تولى الحكم فرانسوا الأول (١٥١٥ — ١٥٤٧) وكان هذا الملك شاباً شجاعاً طموحاً يرى أن السبيل إلى الوصول إلى عظمة فرنسا فى عهد أسرة الفالوا فى الداخل

والخارج لايكون إلا بإحراز انتصارات على الإمبراطورية وهزيمة أسرة الهابسبرج، وقد خطا فى سبيل الحرب خطوته الأولى ؛ فحقق انتصاراً عظيماً على أسبانيا فى موقعة « مارينيانو Marignano » سنة (١٥١٥) ؛ ولهذه الواقعة أهمية كبرى فى تاريخ هذه الحرب ؛ فقد استطاع فرانسوا عقد معاهدتين هامتين إحداهما « Concordat الكونكوردات » مع البابا (الاتفاق البابوى) ؛ وبمقتضاه رضيت فرنسا أن تدفع قدراً معيناً من المال للبابوية بشرط أن يتولى ملك فرنسا بنفسه تعيين بعض رجال الدين فى دولته . وكان هذا كسباً عظيماً لملك فرنسا ، واستمر العمل بهذه الاتفاقية حتى القرن التاسع عشر . وعقد المعاهدة الثانية مع السويسريين تعهد فيها جنود سويسرا بألا يتدخلوا فى حرب بعد ذلك ضد فرنسا .

المرحلة الثانية من الحروب الايطالية :

لم يلبث أن مات الامبراطور مكسيمليان عام ١٥١٩ . وآلت الامبراطورية إلى شارل الخامس . وقد كانت المنافسة على التاج الامبراطورى بين شارل وفرانسوا ملك فرنسا عظيمة ، ولكن الغلبة فى النهاية كانت لشارل الأول ملك أسبانيا الذى أصبح يعرف باسم شارل الخامس الامبراطور .

حاول كل من الطرفين (الهابسبرج والفالوا) الحصول على مزيد من الحلفاء ، ونجحت الامبراطورية فى ضم إنجلترا إلى جانبها فى هذا الصراع . ثم استؤنف الصراع بينهما عام ١٥٢٢ .

كان انضمام انجلترا إلى الإمبراطورية فى ذلك الوقت مبعثة أغراض شخصية للكاردينال « ولزى Thomas Wolsey » الذى ظل مدة ١٤ عاماً (١٥١٥ — ١٥٢٩) يحكم انجلترا دون منازع بتفويض من هنرى الثامن ، ثانى ملوك أسرة «التيودر » . وكان يطمع فى الوصول إلى كرسى البابوية وإن كان يخشى نفوذ فرنسا على البابوية فقد عقد تحالفاً مع الإمبراطور الذى وعده بمساعدته فى تحقيق أطماعه . ولكنه بعد هزيمة البابا ، ووقوعه فى الأسر عام ١٥٢٧ لم يحقق الإمبراطور وعوده .

ومهما يكن من شىء فإن فرنسا هزمت فى الصراع الجديد عندما انتصرت الجيوش الامبراطورية فى موقعة « بافيا Pavia » سنة (١٥٢٥) وأسر فرانسوا الأول ، ونجحت الجيوش الإمبراطورية فى اجتياح روما ، وأسر البابا كلمنت السابع سنة

(١٥٢٧) ولهذا الحادث أثره العظيم فى تاريخ انجلترا ، إذ لم يستطيع كلمنت السابع بسبب ذلك الأسر أن يتصرف بمحض إرادته فى مسألة السماح لهنرى الثامن بطلاق كاترين الأرغونية ، قريبة الامبراطور ؛ فنتج عن ذلك الانفصال بين كنيستى روما وإنجلترا ، وقيام الإصلاح الدينى بانجلترا . ولذلك كثيراً ما يقال إن أطماع الهابسبرج والفالوا فى إيطاليا كان العامل الرئيس فى تحويل كنيسة إنجلترا إلى العقيدة الإنجليكانية .

تأثرت الحروب الإيطالية كذلك بالصراع الدينى الذى كان قائماً فى ذلك الوقت فى ألمانيا بين أتباع لوثر وأتباع الكنيسة الكاثوليكية ، . انتهز فرانسوا هذه الفرصة فأخذ يحاول تأييد الحركة المناوئة للهابسبرج فى آلمانيا بالتحالف مع الأمراء البروتستانت . وأصبحت الامبراطورية كذلك تعانى من خطر هجوم العثمانيين على أملاكها الشرقية ولاسيما بعد أن وصلت إلى أبوب فيينا .

هذه العوامل جميعاً أدت إلى عقد صلح «كامبرىCambrai» «(عام ١٥٢٩) على أن هذا السلام المؤقت بين الأسرتين لم يستمر طويلا ، فلم يجاوز أمده سبع سنوات فلما كانت سنة ١٥٣٦ أستؤنف الصراع من جديد للسيطرة على إيطاليا عندما أصبح عرش ميلان شاغراً . وتجددت إدعاءات الهبسبورج والفالوا عليه ؛ وفى عام (١٥٤٧) مات فرانسوا الأول قبل انتصار الإمبراطور شارل الخامس على اللوثريين فى موقعة «موهلبرج Muhlberg» بشهر واحد .

وكانت موقعة «موهلبرج» أول صدام حربى بين أتباع لوثر وجيوش الامبراطورية المدافعة عن الكاثوليكية ، وانتصرت فيها قوات الامبراطور وكان ذلك بعد وفاة لوثر بعام واحد . و «لوثر» كما نعرف كان من المقاومين لحركة العنف والصدام العسكرى ضد الكاثوليكية .

مات فرانسوا الأول قبل هذا الانتصار . وحل محله هنرى الثانى على العرش حتى انتهاء الحروب الإيطالية سنة (١٥٥٩) ، وكان هنرى الثانى (١٥٤٧ — ١٥٥٩) متعصباً للكاثوليكية ، فاشتد الإضطهاد الدينى ضد أتباع جون كالفن بفرنسا . ولكن توحيد ألمانيا تحت زعامة أسبانيا كان يهدد مركز فرنسا ويثير المخاوف والقلق فى نفوس ساستها . وهكذا كانت مسألة جمع ألمانيا وأسبانيا تحت حكم واحد (أسرة الهبسبورج) يهدد سلامة فرنسا ويؤدى إلى تأكيد تهديد أسرة الهابسبورج إياها .

وكانت أسبانيا قد ضمت لأملاك الهابسبرج نتيجة لسياسة الزواج الأسرى التى اتبعتها هذه الأسرة وأصبحت تحت سيطرة الامبراطور شارل الخامس . وكانت لاتزال تحت سيطرة الهابسبرج الاسمية على الأقل ، ولذا رأت فرنسا إضعاف هذه السيطرة عن طريق تشجيع الحركة الدينية فى ألمانيا ، تلك السياسة جرت عليها فرنسا منذ ذلك الوقت . فكانت دائماً عائقاً يحول دون توحيد ألمانيا . وكثيراً ما كانت تحرض الإمارات الإلمانية الكبرى الجنوبية ضد إتمام ذلك الاتحاد . لذلك كان يتحتم على بسمارك — عندما وضع نصب عينيه تحقيق هذا الاتحاد — أن يهزم فرنسا أولا ، وقد تم له ذلك فى سيدان سنة ١٨٧٠ .

وأخذ هنرى الثانى يكيد لشارل الخامس منذ موقعة « مهلبرج Mnlberg » ، فرفض أن يشترك معه فى تأييد مجلس « ترنت Trent »(١) وشجع كل مراكز مقاومة السياسة الامبراطورية فى ألمانيا . ثم تدخل فى ألمانيا إلى جانب الثوار والعصاة على الامبراطور . وكان لهذه الخطوة أهميتها العظمى ، إذ توقفت عليها — إلى حد بعيد — العلاقات بين فرنسا وألمانيا خلال القرنين التاليين .

وبدأ هنرى الثانى خططه بعقد اتفاقية مع موريس أحد أمراء سكسونيا ، وذلك عندما طلب هذا مساعدته ضد الإمبراطورية فى نظير منح هنرى الثانى الأسقفيات الثلاث الموجودة عند مدخل اللورين وهى : « تول Toul » و « ميتز Metz » ، و « فردان Verdun » . وقد تم هذا الاتفاق سنة (١٥٥٢) وتقدمت قوات فرنسا تحت قيادة دوق « دى جيز » لتحتل (متز » إحدى هذه الأسقفيات . ونجحت فرنسا فى احتلالها وحاول الامبراطور عبثاً أن يطرد الجيش الفرنسى منها ، ولكن مقاومة الفرنسيين استمرت ثلاثة أشهر . مما اضطر قوات الامبراطور إلى التخلى عن حصار هذه المدينة .

أعيت الامبراطور شارل خلال ذلك مشاكل الامبراطورية العديدة : الأراضى المنخفضة ، الثورة الدينية الممثلة فى حركة مارتن لوثر ، ثم الصراع الأسرى مع الفالوا فى إيطاليا ، والخطر العثمانى الذى كان يهدد تلك الامبراطورية من جهة الشرق .

---

(١) مجلس ترنت : عقد بين بين عامى ١٥٤٥ ، ١٥٦٣ بصورة متقطعة . لم ينجح فى التوفيق بين الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه أصلح بعض شئون الكنيسة الكاثوليكية ، فنظم شعائرها الدينية ، وثبت قواعدها ، وطهر الكنيسة مما علق بها من فساد وإهمال ، فاعتبر وسيلة هامة من وسائل انتعاش الكاثوليكية

فتنازل الامبراطور عن بعض أملاكه لأخيه فرديناند الذى خصه بلقب امبراطور ومنحه السيطرة على أملاك الامبراطورية الشرقية . فكان عليه وحده التصدى للخطر العثمانى الماثل ، وخص ابنه فيليب الثانى بملك أسبانيا وما يتبعها من مستعمرات فى العالم الجديد ، وأملاك إيطاليا مضافاً إليها الأراضى المنخفضة ؛ لذلك وقع على عاتق الملك فيليب الثانى أن يستمر فى محاربة الفالوا فى إيطاليا ، فانتصر على الفرنسيين وهزمهم هزيمة ساحقة فى شمال فرنسا فى موقعة « سانت كونتان St. Quentin » فى عام (١٥٥٧) وكانت جيوش أسبانيا المدربة هى صاحبة الفضل فى هذا النصر على فرنسا .

كانت « سانت كونتان » من المواقع الحاسمة فى الحروب الإيطالية لأنها أكدت لفرنسا أنه لامجال لها فى منافسة أسبانيا للسيطرة على إيطاليا .

على أن القوات الفرنسية لم تلبث أن أحرزت نصراً فى الشمال عندما أتيح لها أن تسترد كاليه من إنجلترا فى عام ١٥٥٨ ، وقد أصبحت أسبانياً يومئذ حانية لانجلترا نتيجة لزواج مارى تيودور ملكة انجلترا (١٥٥٣ — ١٥٥٨) وابنة هنرى الثامن من فيليب الثانى ملك أسبانيا . غدت الحاجة ماسة إلى عقد الصلح بين الطرفين ؛ حيث أنهكت قوى الجيوش فى هذه الحروب ، وأخذ النصر يتأرجح أثناءها بين القوتين المتحاربتين . كما تبين لفرنسا أن الحركة البروتستنتية بها قد أخذت تتسع ويشتد خطرها ، فأصبح عدد كبير من الفرنسيين يعتنقون المبادىء البروتستنتية على المذهب (الكالفنى) ؛ لذلك كان لزاماً على فرنسا أن تنهى نزاعها مع الهابسبرج فى إيطاليا لتتفرغ للمشكلة الدينية داخل فرنسا نفسها .

ومن ثم انتهت الحرب ، وعقد صلح (كاتوكمبرسيس) سنة (١٥٥٩) بالشروط الآتية : —

١ — تنازلت فرنسا بمقتضاه عن أطماعها فى إيطاليا ، وردت إلى Emmanuel Philibert حاكم سافوى ، وصاحب النصر فى « سانت كونتان » كلا من سافوى وبيدمونت ، ولم يحتفظ الفرنسيون الابتورين ومدينة كازال فى سهل لمبارديا بصفة مؤقتة حتى تنفيذ شروط المعاهدة .

٢ — وإذا كانت فرنسا قد فشلت فى تحقيق أطماعها فى إيطاليا فإنها قد عوضت عن

ذلك فى الشمال . فمع أنها ردت إلى الأراضى المنخفضة أملاكها فإنها قد احتفظت بثغر كاليه كما أنها ضمت إليها الأسقفيات الثلاث (تول ، ومتز ، وفردان) ؛ وإن لم يكن ذلك مما نصت عليه شروط المعاهدة فى صراحة . فكانت خطوة هامة فى سبيل استيلاء فرنسا فيما بعد على اللورين واتجاهها نحو الهدف الطبيعى فى التوسع نحو الحدود الشرقية للوصول إلى نهر الراين . وظلت فرنسا تسيطر على هذه الأسقفيات حتى سنة (١٨٧٠) عندما تم لبسمارك انتزاع الألزاس واللورين من فرنسا وضمهما إلى اتحاد ألمانيا الجديد .

٣ — أكد هذا الصلح سيادة أسبانيا على شبه الجزيرة الإيطالية ، وأتاح لها أن تمد سلطانها على ميلان فى الشمال ونابولى وصقلية وسردينيا فى الجنوب .

٤ — تم الاتفاق كذلك على أن يتزوج فيليب (وقد ماتت زوجته الانجليزية) من اليزابيث إبنة هنرى الثانى ، وأن يزوج أخته مرجريت « لعمانويل فليبير » دوق سافوى .

وكان الغرض من تلك المصاهرة بين أسبانيا وفرنسا الحد من العداء بين الطرفين على أنها لم تأت بالأثر المأمول فى تحسين العلاقات بين الدولتين ، بل استمر العداء بينهما مدى قرن ونصف قرن .

ولمعاهدة (كاتو كمبرسيس) أهمية خاصة فى تاريخ القرن السادس عشر إذ أنها تقسم هذا القرن إلى قسمين ؛ ساد فى أولهما النزاع الأسرى والتنافس فى السيطرة على أوروبا بين الفالوا والهابسبرج ، على حين خفت حدة هذا الصراع فى القسم الثانى من هذا القرن ، وبدأ يظهر الصراع الدينى الذى احتل حينئذ مكانة أساسية فى العلاقات الدبلوماسية بين دول أوروبا فى القرن السابع عشر ، ويستمر الصراع الأسرى ، وتشتد وطأته مستغلا الصراع الدينى فى خدمة أغراضه ، وتبدو مظاهر ذلك أثناء حرب الثلاثين عاما .

الفصل الخامس

حركة الاصلاح الدينى

مرت الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السا س عشر بأخطر محنة عرفتها فى تاريخها ، إذ أفقدتها حركة الإصلاح الدينى جزءاً كبيراً من نفوذها وسيطرتها ؛ فظهرت طوائف دينية جديدة تخالف العقيدة الكاثوليكية ، وأدى ذلك إلى وقوع حروب أهلية طويلة فى أغلب ممالك أوروبا الغربية . واضطرت الكنيسة الكاثوليكية إلى إصلاح شئونها والعمل على تطهير دوائرها من آثار الفساد .

أما العوامل التى أدت إلى قيام حركة الإصلاح الدينى فهى :

١ — ليس عسيراً أن ندرك تلك العوامل وإن كان المعاصرون لتلك الأحداث لم يتنبأوا بها ، كما أنها باغتت البابوية فلم توحد الجهود لمحاربة تلك الحركة الإصلاحية إلا بعد مرور ثلاثين عاماً على بدئها . ومن قبل فشلت المجالس الكنسية فى « كونستانس » « Constance » و « بال » « Basl » ؛ فكان ذلك الفشل فى القرن الخامس عشر الأساس الأول لذلك التصدع الذى أصاب الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر ؛ ذلك لأن ذلك الفشل ترك أسباب التذمر قائمة تجاه الكنيسة ورجال الدين ، كما أنه شجع البابوية على الاسترسال فى سياستها ، والتمادى فى غض النظر عن الإصلاح المنشود نظراً لشعورها بالأمان .

٢ — أخذت رذائل الكنيسة تزداد خطورة يوماً بعد يوم ؛ فكان من الواضح أن غرض البابوات الأول أن يحصلوا من رجال الدين ورعايا الكنيسة الكاثوليكية على كل ما يستطيعون الحصول عليه من أموال دون مراعاة للوسائل ومدى اتفاقها مع الروح الإنسانية والمبادىء الأخلاقية . وذلك لكى يحققوا الأبهة والترف الذى كانوا

يتمتعون به فى بلاطهم ، وأتموا المبانى التى بدأوها ، وحققوا أغراضهم السياسية فى إيطاليا . كان البابوات يتحايلون على اصطياد الأموال بكل الوسائل ، فكانت الوظائف الدينية تشترى بالمال بصرف النظر عن مؤهلات الشخص ، والعدالة نفسها كانت تشترى بالمال كالعفو عن المجرمين وما إلى ذلك ، وكان الغفران يباع ويشترى . كان فى تلك السياسة المالية الفاسدة إفساد لطبقة كبار رجال الدين وقد ملأهم الجشع فأعماهم عن كل حق ، وكانوا فى غالبيتهم من الأسر الارستقراطية ممن لا يهتمون كثيراً بتأدية أعمالهم ، وكان لتدخل الأمراء فى تعيين تلك الطائفة من رجال الدين أن أصبحوا يتميزون باهتمامهم بالسياسة وخدمة مصالح الأمراء . بينما كانت طائفة صغار رجال الدين مهملة غير مراقبة ، فظلت فى نومها وجهلها ، لا تتمتع بنظام أو مبادىء أخلاقية معينة . لذلك رأت هذه الطائفة فى حركة الإصلاح الدينى فرصتها المواتية للانتقام من كبار رجال الدين .

٣ — وكان بيع صكوك الغفران من أهم الموارد المالية التى ابتدعها البابوات فأغدقت عليهم أموالا طائلة . وقديماً كان البابا يمنح الغفران نظير الحج إلى الأراضى المقدسة أو قراءة كتاب دينى أو المساهمة فى إنشاء مؤسسة عامة كمستشفى أو غيره . ولكن لم يلبث الحصول على الغفران أن تحول إلى وسيلة ناجحة فى إثراء الكنيسة وتوفير المال اللازم للبابوات وكبار رجال الدين ليتمادوا فى غيهم . ولا أدل على أن مسألة بيع هذه الصكوك قد أصبحت مسألة تجارية بحتة أن عملاء الكنيسة فى هذا الصدد كانوا من رجال المصارف المالية فى العادة ، ينظمون البيع على أصول تجارية بحتة كأن يحصلوا على نسبة معينة من المبلغ بالإضافة إلى ما كان يمنحه إياهم دافعو المبالغ الضخمة . وكان المبلغ الذى يودع فى خزينة روما عادة يتراوح بين ٣٠ ، ٤٥٪ من القيمة الأصلية.

٤ — ولا يفوتنا ما كان من أثر للحركة الإنسانية فى عهد النهضة ، وما ترتب عليها من فكر متحرر ، [illegible] جديد للعلم أخذ ينتشر فى العالم الثقافى والدينى ، وأخذت الأذهان تعى القديم بصورة دقيقة ، وأتيح للكثرة المطلقة من القراء أن يطلعوا على الكتب المقدسة التى ترجمت إلى اللغات الحديثة ، وكان من نتائج ذلك أن يتبينوا ما كان خافياً عليهم من قواعد وتعاليم ؛ فبذلت الجهود لإعادة القواعد الدينية إلى بساطتها الأولى ، وفهم معانيها السامية ، وكان لكل هذه الحقائق أثرها الواضح فى

مؤلفات « جون كوليت John Colet » (١٤٦٧ — ١٥١٩) ورجال الإصلاح فى أكسفورد ، و « إرزم » Erasmus وتلاميذه ، ولهذا انتشرت الدراسات الدينية على أساس العلم والتفكير الحر ، فكان كتابها من الذين يجيدون اللغتين الإغريقية والعبرية . كل ذلك بانت آثاره فى الإنصراف عن توقير رجال الدين السابقين والقائمين عندئذ على الشئون الدينية وأدى كذلك إلى إهمال تعاليمهم . ويتداول المسيحيون يومئذ الكتاب المقدس وقد أصبح باللغات القومية ، ويتاح لهم الإطلاع على أصوله ، ويزداد علمهم بالتعاليم المسيحية السليمة .

٥ — وتتصل حركة الإصلاح الدينى بالحركة القومية : ففى ألمانيا بكثر المريدون لمارتن لوثر ، يظاهرونه ويعاونونه على نشر الحرية ، لأنه كان أقرب إليهم من كل من البابا والامبراطور . وكان لظهور النزعة الاستقلالية وما ترتب عليها من تحقيق الوحدات القومية فى بعض جهات أوروبا أثره فى تقوية الرغبة فى الاستقلال الدينى ، وقد رأت الدول الناشئة أن تستكمل إستقلالها بالانفصال عن الكنيسة الرومانية ، وإضعاف الارتباط بها على الأقل إذاتعذر لإنفصال عنها.فنجد إنجلترا تنجح فى تكوين كنيسةوطنية كما نجد فرنسا الكاثوليكية تنجح فى عهد فرانسوا الأول فى عقد «كونكوردات» مع البابا كان من شأنها زيادة نفوذ الملك الدينى والتقليل بالتالى من نفوذ البابا ، إذ أصبح نتيجة لذلك من حق ملك فرنسا تعيين بعض رجال الدين فى فرنسا .

يرتبط اسم « مارتن لوثر » بحركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا واسم (جون كلفن) بتلك الحركة التى ظهرت بفرنسا وسويسرا ، كما يرتبط إسم « زونجلى » بسويسرا و « جون نوكس » باستكلندا . وقد قام كل منهم بدوره الخطير فى الموقع الذى كان فيه إلى جانب تأثير جهات أخرى بدرجات متفاوتة بهذه الدعوات الإصلاحية المختلفة . على أن أولئك المصلحين لم يكونوا أول من نادى بحركة الإصلاح الدينى . وإن كانوا أول من هاجم تعاليم الكاثوليكية ، بل وغيروا فيما بعد من قواعدها الأساسية .

حركة الاصلاح الدينى فى المـانيا

مارتن لوثر « Martin Luther »

(١٤٨٣ — ١٥٤٦)

نشأ فى مدينة « ايزليبن Eisleben » فى سكسونيا ، فى أسرة قروية فقيرة وعاش عيشة بائسة ، وكان أبواه يقسوان عليه . كما تأثر بشبح الخوف الذى كان متسلطاً على الأذهان إذ ذاك بسبب الفوضى الأخلاقية والدينية التى انتشرت عندئذ . تلقى دراسة القانون فى جامعة « ارفورت Erfurt » وحصل على الماجستير فى القانون من نفس الجامعة عام ١٥٠٥ . ولكنه لم يلبث أن انصرف عن هذه الحياة العلمية ، ودخل فى سلك الرهبان المعروفين بجماعة سانت اغسطين فى « ارفورت Erfurt » . وفى ذلك الدير أشبع رغبته فى التأمل والتفكير فى تخليص الروح . وبعد عامين التحق بجامعة « فتنبرج Wittenberg » ليتمم دراسته الدينية . وكانت تلك الجامعة أحدث وأصغر جامعات ألمانيا . فقد أنشأها منتخب سكسونيا عام ١٥٠٢ وفى ذلك دليل على حماسة ألمانيا للحركة العلمية . ولم تكن الجامعة لحداثة عهدها من الجامعات المشهورة . وقد استطاع لوثر بما جبل عليه من مثابرة وقوة أن يجعل لها مكانة عظيمة فيما بعد . أصبح فى عام ١٥١٢ أستاذاً للاهوت فى الجامعة . ونجح نجاحاً عظيماً فى مهمته فى التدريس والوعظ .

وقد كانت السنوات التى قضاها فى هذه الحياة الدينية ، ملأى بدراسته المستفيضة لعلم اللاهوت وبأعمال التقشف وتعذيب النفس ، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من حالة القلق التى كانت تساوره إلى أقصى الحدود ، إلى أن توصل بعد اطلاعاته العديدة إلى أن « الإيمان » هو خير وسيلة لتخليص الروح و« أن التبرير يكون بالإيمان وحده » أى أن الإيمان المطلق برحمة الله وسيلة إلى الخلاص من عقابه . كانت هذه العقيدة أساساً للثورة الدينية التى بشر بها . وكانت تتضمن إلغاء نظام الكنيسة الذى ساد أيام العصور الوسطى حيث كان الاعتماد كله يقوم على الأسرار والتقاليد الدينية وأعمال البر التى تقوم بها المنشئات الدينية . فكانت الكنيسة هى المتسلطة على أرواح الأفراد

وحياتهم اليومية . وما من شيء كان يمكن من القضاء على تلك السلطة أكثر من عقيدة لوثر التي نادى بها . وقد رفعته عقيدته المشار إليها إلى مصاف أئمة المصلحين الدينيين ، فهو قد وجه اهتمامه نحو مسألة الغفران وابتذال الكنيسة فى جمع المال عن طريق بيع صكوك الغفران ، إذ أصبحت مسألة الغفران تشترى بالمال بعد أن كانت ترتجى أو يتوصل إليها بالتوبة والاعتراف والصوم .

بلغت مسألة بيع صكوك الغفران مبلغاً مزرياً حقاً عندما أصبحت معركة فى سبيل الحصول على المال يقوم بها « جون تتزل John Tetzel » الواعظ الدومينكانى لحساب كبير أساقفة « ما ينز Mainz » والبابا فى كل من « Magdburg, Mainz » ، وكان البابا يشجع تلك العملية لأنه كان فى حاجة إلى المال لبناء كنيسة سان بطرس فى روما . دفعت تصرفات « تتزل » هذه لوثر إلى تعليق احتجاجه على هذه المسألة على باب كنيسة « فتنبرج Wittenburg » فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ .

وعبثاً حاول البابا أن يجعل لوثر يتراجع عن آرائه . وأخذت الحركة الدينية تنمو بسرعة عجيبة . ولا سيما وأن احتجاج لوثر قد لاقى هوى فى كثير من النفوس التى رحبت بمهاجمة تلك « التجارة المقدسة » فطرد « تيتزل Tetzel » من وظيفته ولم يعد هناك أى ميدان لبيع هذه الصكوك . وطلب البابا (ليو العاشر يومئذ) من رئيس جماعة سانت أغسطين أن يضطروا مارتن لوثر إلى التقهقر والتراجع عن أفكاره الثورية . وفعلا نوقش لوثر فى مجمع « هيدلبرج Heidelberg » فى مايو ١٥١٨ ولكنه لم يتقهقر مطلقاً عن مبادئه ؛ بل استمر فى حركته العدائية للكنيسة فى روما التى رأت أن تقبض عليه ولكن رعاية منتخب سكسونيا له كان لها أثرها فى حمايته . وتوصل مارتن لوثر فى عام ١٥٢٠ إلى الاستنتاجات التالية : أن كل مسيحى معمد إنما يمكن اعتباره من رجال الدين ، وأن روما مدينة منحلة الأخلاق ، وأن البابا عدو المسيح ، كما نادى بضرورة زواج رجال الدين ، وجعل الطلاق أمراً مشروعاً وقد جمع أسس عقيدته الدينية والسياسية وأخرجها فى أسفار ثلاثة أطلق عليها رسائل الإصلاح . الأولى موجهة للمدنيين بالألمانية يحثهم فيها على المساهمة فى إصلاح الكنيسة ، والثانية باللاتينية موجهة إلى رجال الدين والثالثة غريبة فى نوعها تتعلق بالحرية المسيحية وموجهة إلى البابا « ليو العاشر » ، يظهر له فيها لوثر غضبه الشديد وبغضه للحقيقة التالية وهى أن الشعوب المسيحية قد حادت عن جادة الصواب بالخضوع له وبما يعرف بالكنيسة

الرومانية ، ويشير فيها إلى أنه لذلك قد قاوم ، وسيستمر فى المقاومة مادامت عقيدته حية باقية .

ختمت هذه الرسائل انفصال لوثر عن الكنيسة وجعلت من المستحيل إصلاح علاقته بالبابا . وفعلا أرسل البابا رسالة يدعوه فيها للخضوع للكنيسة ولسلطة البابا الدينية دون قيد أو شرط . ولكن لوثر أحرق كتاب البابا هذا على ملأ من الناس فى ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ . فأعلن البابا حرمانه من رحمة الكنيسة . ولكن مع هذا الحرمان من رحمة الكنيسة تمكن مارتن لوثر من المضى فى دعوته وقد ساعدته بعض العوامل نذكر منها التأييد السياسى والدينى الذى لاقاه مما كفل له الحماية ، فقد انتشرت كتاباته كما انتشرت كتابات « الريك دى هاتن Ulrich de Hutten » وغيرهما باللغتين اللاتينية والألمانية . والفضل يرجع إلى اختراع الطباعة فى نشر تلك المؤلفات وإليها يرجع الفضل فى دعوة « هاتن Hutten » الألمانيين إلى السلاح ضد روما فى عام ١٥٢٠ . وقد وصل لوثر فى تلك الآونة إلى منزلة لم يكن يحلم بالوصول إليها ، فقد كان تسعة أعشار ألمانيا كما ذكر أحد أتباع البابا « الياندر Aléandre » ينادون بحياته ، بينما العشر الباقى الذى لم يكن يتبعه كان ينادى بسقوط روما .

أصبح لوثر بطلا شعبياً ، لأنه كان يعبر عن شعور الألمانيين فى الرغبة فى معارضة روما البغيضة إلى نفوسهم .

وقد ظهر ذلك عندما دعى الدايت(١) فى « ورمز Worms » فى ٢٧ يناير ١٥٢١ لكى يبحث فى أمر حرمان البابا لوثر من رحمة الكنيسة ، وطلب منه فى هذا المجلس أن ينكر المبادىء التى نادى بها ، والتى تجعله عاقاً للبابا والكنيسة فى روما ، وأن يدع ما عدا ذلك فى كتاباته محل البحث فى فرصة أخرى . ولكن لوثر اشترط أن تكون الأبحاث قائمة على أساس الكتاب المقدس وحده ، لا على أساس التقاليد ، وبذا وقف موقف الثائر على رجال العهد القديم ، بل وعلى رجال النهضة الذين كان يمثلهم « إرزم Erasmuz » ؛ فوقع الإمبراطور شارل الخامس مرسوم حرمانه من الحقوق

---

(١) الدايت Diet جمعية للمناقشة أو التشريع . كان دايت الامبراطورية الرومانية المقدسة يدعى بغير انتظام . ونظمه الامبراطور شارل الرابع فجعله فى عام ١٣٥٦ ثلاث هيئات : المنتخبون ، والأمراء ومشلوه المدن الأمبراطورية . وفى عام ١٦٤٨ أصبح هيئة فيدرالية فوق الإمبرطور . وتسمى بها الهيئات البرلمانية لبعض البلاد الأخرى — مثل السويد — دايت أيضا .

المدنية كما حرم من الحقوق الدينية من قبل وأمر بحرق مؤلفاته كما حرم نشر أى كتاب يتعلق بالكتاب المقدس أو يعالج مسائل العقيدة ، دون أخذ رأى كليات اللاهوت ،

ولكن منتخب سكسونيا حمى لوثر عندما جعله يقيم فى قصره فى « فارتبورج Watburg » حيث بقى عشرة أشهر . وقد درس هناك لوثر اليونانية والعبرية ، وبدأ ترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية ، وقد كانت هذه الترجمة من أحسن ما كتب بالألمانية .

إن اللوثرية التى بدأت عند مطلع القرن السادس عشر كان مقدراً لها أن تنال قسطاً وافراً من النجاح ، وأن تصبح عاملا دائماً فى تاريخ أوروبا الاجتماعى والدينى . ولفهم ذلك يجب أن نلقى نظرة على حالة ألمانيا وأوروبا عندئذ لأن الحركة الدينية كانت فى بدايتها مسألة بسيطة غير معقدة ، ولكنها لم تلبث أن تعقدت لارتباطها بأحوال ألمانيا الاجتماعية والسياسية وكذلك لاتصالها بالعلاقات الدولية بين قوى أوروبا العظمى ،

ولم يكن شارل الخامس الإمبراطور (منذ عام ١٥١٩) من حكام العالم العظام كما لم يكن سياسياً قديراً أو جندياً ماهراً . كان يحكم إمبراطورية واسعة الأرجاء ، من أعظم ما عرف منذ أيام « شرلمان » ، وكانت هذه الإمبراطورية مقسمة إلى وحدات سياسية عديدة كل منها مستقلة عن الأخرى ، ولكل منها طريقة خاصة للحكم ولمعالجة شئونها الخارجية . فالإمارات السبعة عشرة التى كان يحكمها فى الأراضى المنخفضة كان لكل منها دستورها الخاص ، وفى أسبانيا كان لكل من قشتاله وأرغونة وكتالونيا دستورها الخاص وبرلمانها الخاص . كما كانت أملاكه الإيطالية مستقلة عن أسبانيا ، وكانت كل منها مستقلة عن الأخرى ، فكانت مشكلته العظمى هى كيفية جمع هذه الممتلكات المتنوعة المنفرقة تحت راية واحدة ، ونشر النظام والسلام بين ربوعها ، والعمل على رفاهيتها . وليس فى فشل شارل الخامس فى ألمانيا ما يصرفنا عن النجاح الذى أحرزه فى كثير من الميادين الأخرى ، فهو قد أدخل نظاماً أكثر إنسانية فى حكم مستعمرات أسبانيا الواسعة فى أمريكا ، كما ساهم فى إضعاف قوى المسلمين فى شمال أفريقيا ، وبدأ بإيجاد نوع من التوحيد فى الأراضى المنخفضة ، أما فى ألمانيا فكان سقوطه وفشله فيها تاماً ، ومع ذلك فلا يحق لنا أن نغمطه حقه فى كل ما قام به من أعمال ، لقد كان كاثوليكياً متحمساً ، فلم يعطف على الحرية اللوثرية . ومع

ذلك قصد بها إلى حياة السلام فى ألمانيا وحاول طوال عهده أن يحول دون تسبب الحركة اللوثرية فى نشر الفوضى بصورة أكبر فى ألمانيا ، وأن يمنح ألمانيا على الرغم من الصعاب الدينية النظام الموحد المستقر الذى كان يتوق إليه كل مواطنيها . وفى الأمور الدينية كان بعيداً عن أن يكون متعصباً ؛ كان يأمل أن تترك حركة لوثر للزمن ليخمد نارها كما كان يأمل فى تسوية هذه المسألة بالطرق السلمية .

أما العوامل التى ساعدت على انتشار اللوثرية فهـــى :

١ — شخصية لوثر وقوة إيمانه بمذهبه . فقد كان يتصف بشجاعة لاتقهر ، وقوة عظيمة بعثته على إقناع مريديه بالثقة الكاملة من غرضه ، مما جعل فريقاً كبيراً من الشعب الألمانى يعتقدون أنهم يستطيعون بقيادة لوثر الوصول إلى الحقيقة الخالصة التى قد ظلت فترة طويلة مختفية بين طيات فساد الكثير من الكتب الكاثوليكية ، وأن تلك الحقيقة لو نادى بها لوثر خارج ألمانيا لتقبلها العالم كله ، فهو لايمكن أن يقاوم بغير الجشع والجهل . ومن ثم نشأ فى ألمانيا أمل جديد فى حياة مستقبلة أفضل من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية . هذه الآمال لم تتحقق فى سهولة كما تصور أصحابها . غير أن نجاح هذه الحركة قد كان من دعائمه تلك الآمال العريضة التى غمرت بها النفوس فى ذلك الوقت . وليس من شك فى أن شخصية لوثر القوية قد جذبت إليه النفوس ، فهو قد فهم الروح الألمانية فهماً عميقاً ، فصار خير معبر عن آمالها ورغباتها . وليس يفوتنا ماكان له من حظ وفير فى فهم اللغة الألمانية وتعمق أصولها وتقدير الألمان لإمامته الدينية وحربه المتصلة ضد الفساد الذى ساد الكنيسة الرومانية .

٢ — كانت أحوال ألمانيا السياسية كذلك مشجعة لنمو الحركة الجديدة وانتشارها . فقد كانت ألمانيا مقسمة سياسياً ؛ إذ كانت إمبراطورية بالإسم وكانت فى الواقع إتحاداً فيدرالياً يضم الولايات المستقلة التى لاتقبل التدخل فى شئونها . فلم يكن فى استطاعة الإمبراطور دون معونة دويلات ألمانيا العظمى أن يفرض ضرائب أو أن يجمع جيشاً أو يعلن حرباً ، ولم يكن من السهل عليه أن يحصل على موافقة تلك الدويلات الألمانية . وكان لذلك أثره فى نجاح لوثر . ولو ملك الإمبراطور ما ينبغى له من قوة لاستطاع بها القضاء على لوثر وحركته . ولو كان غير مشغول بأمور أخرى لاستطاع أن يجمع جيشاً عظيماً من أسبانيا وإيطاليا ، والأراضى المنخفضة والنمسا ، ولربما

استطاع به أن ينتصر على أعدائه اللوثريين . ولكنه لم يكن فى حالة تسمح له بذلك فقد كان مشغولا بالأخطار المختلفة التى كانت تهدد ملكه العريض . فهو مشغول بحروبه ضد أسرة « الفالوا » فى فرنسا والحروب الإيطالية (١٤٩٤ — ١٥٥٩) ، والاضطرابات فى الأراضى المنخفضة ، كما أن أسبانيا لم تكن موالية له على الدوام ، كما أرسل حملات كبيرة لمحاربة المسلمين فى شمال أفريقيا وفى النمسا حيث كان يحكم أخوه فرديناند وكان عليه أن يصد الأتراك العثمانيين الذين كانوا يهددون حدود الإمبراطورية الشرقية . وقد أدى العداء بين أسرتى الهبسبرج والفالوا إلى تقديم ملوك فرنسا المساعدة للوثريين على الرغم من أنهم كانوا من الكاثوليك المتفانين فى كاثوليكيتهم ، ولكنهم ارادوا إحداث قلاقل للإمبراطور .

٣ — لاقت هذه الحركة كذلك رواجاً وتشجيعاً لأنها اعتبرت حركة تحررية قومية ضد الأجنبى . حقيقة أن ألمانيا لم تكن عندئذ أمة موحدة كما كان الحال بالنسبة لانجلترا وفرنسا وأسبانيا ، ولكن كان يسودها شعور الكراهية بالتدخل الأجنبى فى شئونها ، فكان الألمانيون يكرهون « شارل الخامس » لأنه كان أسبانياً ، والبابا لأنه إيطالى ، ولذلك نجح لوثر فى اجتذاب عدد كبير من الألمانيين لأنه كان ينادى بأن ألمانيا يجب أن تكون للألمانيين ، وهكذا اشتد أزر لوثر بسبب إقتناع الكثيرين بأهمية هذه الحركة وخيرها على الألمانيين . وقد حماها فى بداية عهدها أنه لم يكن فى إمكان الإمبراطور أن يجمع جيشاً ليقضى عليها فى مهدها . فكان أمراً يدعو إلى الدهشة حقاً أن تبقى حركة لوثر فى ألمانيا وتنتعش مدة ثلاثين عاماً دون أن تواجه بمقاومة حربية ، وإنما اقتصر الأمر على أن مجالس الدايت نادت مع الإمبراطور بإلغائها وساعد على ذلك البابا . ولكن الحرب لم تقع إلا بعد موت لوثر نفسه .

٤ — ثم إن طبيعة ألمانيا السياسية وانقسامها إلى إمارات مستقلة جعلت أمراءها يرحبون بهذه الحركة ويعتنقون العقيدة الجديدة لكى تكون خطوة فى سبيل تحقيق استقلالهم السياسى إلى جانب انفصالهم الدينى ؛ وقد ساعد على هذه الحركة مالاقاه لوثر من حماية « فردريك العاقل » « Frederic the Wise » منتخب سكسونيا ، الذى قام بدور السياسى المشجع لحركة مارتن لوثر ، ولا أدل على ذلك من إيوائه فى قصره فى « فارتبرج Wartburg » عندما فقد حقوقه الدينية والمدنية ، حيث بقى مختفياً عن الأنظار ما يقرب من العام .

٥ — وجود جامعة ناشئة خاضعة للوثر ومخلصة لتعاليمه ألا وهى جامعة « فتنبرج » Wittenburg التى أنشأها فردريك العاقل وكان معتزاً بها . وقد أصبحت المركز الرئيسى لدعوة مارتن لوثر ، فقد كانت كعبة للعلماء من كل أنحاء العالم وعلى وجه الخصوص ألمانيا ؛ فهى التى نشرت مؤلفات لوثر الأولى وكانت بلغة يفهمها الألمان .

ولا يفوتنا ماكان للعالم « فيليب ملانكتون Philippe Mélancton » (١٤٩٧ — ١٥٦٠) من فضل على هذه الحركة وهو من كبار الإنسانيين . ومن أقرباء « يوحنا روكلن Reuchln » قدم إلى جامعة « Wittenburg » عام ١٥١٨ ليدرس بها الآداب الإغريقية واللاتينية ، ولم يلبث أن أصبح من أخلص تلاميذ لوثر وأتباعه ومن أظهر المدافعين عن القضية اللوثرية . فوضع فى سبيلها جهوده وما امتاز به من ذكاء ومرونة لم تكن من طباع لوثر . وقد أفادت اللوثرية بما اتصف به من مهارة دبلوماسية فى إيجاد حلول مرضية حاسمة لخدمة تلك الدعوة .

ومن نتائج حركة مارتن لوثر ما يأتى :

١ — قيام ما يعرف بثورة الفلاحين : وآيتها أن فلاحى ألمانيا ؛ ولا سيما فى المنطقة الغربية والجنوبية الغربية منها كانوا فى حالة سيئة ، أسوأ مما كانوا عليه منذ نصف قرن وكانت حالتهم حالة استرقاق . وكانوا يقومون بكثير من الأعمال لساداتهم على شكل التزامات إقطاعية . وقد أثارتهم الحركة الدينية التى قام بها مارتن لوثر . وكان فى مناداته بالحرية أكبر دافع لهم على أن يأملوا فى الوصول إلى التغييرات الاجتماعية فى حالتهم الراهنة . ولذلك ثاروا ولا سيما فى الجنوب الغربى بالقرب من « فورتزبرج Wurzburg » ؛ وقدموا مطالبهم وكانت تنحصر فى اثنى عشر بنداً . فطالبوا كما فعل لوثر من قبل أن تنظر مطالبهم على ضوء الكتاب المقدس . وأشاروا إلى أن الله خلقهم أحراراً ولذلك يجب أن يبقوا كذلك . فطالبوا بإلغاء تلك الالتزامات الإقطاعية التى كانوا يئنون من وطأة أعبائها كما نادوا بمحو ضريبة العشور . وقد قامت حرب أهلية من جراء ذلك عام ١٥٢٤ . وخشى لوثر أن تؤثر تلك الحركة على دعوته الدينية لذلك عاون السلطات الزمنية على قمعها وفشلت الحركة كما فشلت حركة أخرى مماثلة قامت فى شمال ألمانيا .

ولكن كان لها آثارها على الحركة الدينية . فقد لجأ الفلاحون إلى لوثر فلم يجدوا منه المعونة بل وجدوا المقاومة . ومنذ ذلك الحين لم تعد حركة لوثر تلك الحركة الواسعة المحببة إلى النفوس كما كانت فى البداية ، وإنما فقد لوثر مكانته الأولى ، وتأييد طبقة كبيرة من الفقراء . ومنذ تلك الآونة كان عليه أن يعتمد على الطبقة الوسطى والسلطات القائمة ، ومن ثم بدأت اللوثرية تعتمد على سلطة الدولة . وهذا من مميزات حركة اللوثرية .

٢ — وإذا كان لوثر قد فقد تأييد بعض فقراء ألمانيا بسبب موقفه المعادى لثورة الفلاحين فهو قد كسب تأييد من هم أقوى ؛ ونعنى بعض الأمراء ومنهم من اعتنق مذهبه فى صراحة نذكر منهم « جان الثابت Jean-le Constant » منتخب سكسونيا ، وأخ فردريك الذى لم يعتنق المذهب الجديد ، واكتفى بحماية لوثر وإيوائه ، كذلك فيليب Philippe أمـــير مقاطعة « هس كاسل Hesse-Cassel » ، ثم دوق « مكلنبرج Mecklemburg » ، ودوق « برميرانيا Pomérania » وكثير من المدن الألمانية .

ولكن أهم من هذا كله فى تلك الفترة كان اعتناق ألبرت صاحب براندنبرج Albert of Brandenburg — وكان رئيساً لطائفة الفرسان التيوتونيين Knights of Teutonic Order — اللوثرية ، وتحويله لبروسيا الشرقية من مقاطعة كنسية إلى مقاطعة زمنية وراثية تحت سيطرة بولندا ، كما عقد معاهدة صداقة مع منتخب سكسونيا .

الامبراطور يستأنف جهوده لوضع حد لنفوذ اللوثرية :

رأينا ماكان من اجتماع الدايت فى « ورمز » ١٥٢١ ، وما كان من قراراته التى قضت بحرمان لوثر من حقوقه المدنية والدينية ، وقررت كذلك حرق مؤلفاته . لم يحرك الإمبراطور بعد ذلك ساكناً ليقضى على اللوثرية إلا فى عام ١٥٢٦ عندما دعا الدايت للاجتماع فى « سباير Speier » . على أن هذا الاجتماع لم يسفر عن شىء . ونتج عنه أن أقام كل من أمراء سكسونيا وهس أقوى معقلين للوثرية فى ذلك الوقت كنائس لوثرية .

ولكن اجتماع آخر للدايت بعد ذلك بثلاث سنوات (١٥٢٩) فى نفس المكان

أكد أن « مرسوم ورمز » الصادر فى ١٥٢١ ما يزال قائماً ، وآيته منع إقامة كنائس للمذهب الجديد فى أى مكان من ألمانيا .

وقد احتج معظم الحاضرين من اللوثريين وأعلنوا ما يلى :

"We hereby protest to you that we cannot and may not concur therin, but hold the resolution null and not binding".

« إننا فى اجتماعنا هذا نحتج على هذا القرار . ونعلن أننا لن نستجيب لندائه ونعتبره لاغياً وغير ذى موضوع » .

ومن هنا سمى أتباع مارتن لوثر « بالمحتجين» أى البروتستنت تلك التسمية التى لم تلبث أن شملت سائر المذاهب المسيحية غير الكاثوليكية .

مجلس « أوجسبرج » Augsburg ١٥٣٠ :

كانت السنوات التى تلت مرسوم Worms من أكثر السنوات حرجاً فى تاريخ ألمانيا ، إذ كان الإمبراطور مشغولا بمشاكله المتعددة فى أسبانيا ، وإيطاليا والأراضى المنخفضة ؛ مما حال بينه وبين إيجاد حل للمسألة الدينية التى أخذت فى الانتشار بسرعة ومع ذلك حاول الإمبراطور أن يوفق بين عقائد البروتستنت والكاثوليك فى المجلس الذى دعا إلى انعقاده فى أوجسبرج ١٥٣٠ . وكان لوثر قد بقى فى«كوبورجCobourg» وهناك انبرى « ملانكتون Melanchton» للدفاع عن القضية اللوثرية فى ذلك المجلس وكان مرناً فى جداله أثناء الدفاع ، ومع ذلك فإن رجال الدين الكاثوليك رفضوا كل ما عرض عليهم من حلول ، وأصروا على اتخاذ كل الوسائل اللازمة للقضاء على المذهب اللوثرى .

حلف « شماكالد Schamalkald » (ديسمبر ١٥٣٠ — مارس ١٥٣١) :

تولى فيه الأمراء البروتستنت مسألة الدفاع عن اللوثرية وكانت الولايات الظاهرة فى هذا الحلف سكسونيا وهس وبراندنبرج . وقد تكون ذلك الحلف رغم معارضة مارتن لوثر . ومن ثم أصبح أمر الإصلاح الدينى بعد مجلس أوجسبرج مسألة يقوم بها رجال السياسة بعد أن كانت من اختصاص رجال الدين إلا أن الامبراطور لم يستطع أن يتصدى لذلك إلا بعد مضى حوالى ١٥ عاماً ، إذ كان مشغولا فى حروبه مع

فرنسا وضد الأتراك . كما أنه كان عظيم الأمل فى إعادة الوحدة الدينية بمجرد اجتماع مجلس كنسى . ولكن قرارات هذا المجلس الذى اجتمع أخيراً فى « ترانت » Trent فى عام (١٥٤٥) لم ترض اللوثريين ، وهنالك اتفق البابا والامبراطور على إخضاعهم بالقوة ؛ وأعانهما على ذلك ما ظهر من الإنشقاق بين صفوف اللوثريين ، وانضمام « موريس » أحد أمراء سكسونيا للإمبراطور مقابل وعد صريح بأن يسند إليه منصب منتخب تلك الدوقية .

وهكذا حالت مشاغل الامبراطور دون وقوع الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت حتى عام ١٥٤٧ عندما استطاع شارل أن يجمع جيشاً كبيراً ؛ وقد مات لوثر قبل أن تبدأ الحرب . بدأها موريس بغزو جميع أراضى قريبة منتخب سكسونيا ولم تلبث الجيوش الامبراطورية أن انتصرت فى موقعة « مهلبرج Muhlberg » على نهر الإلب فى أبريل ١٥٤٧ وكان البروتستنت يعتمدون على سكسونيا وهس . وسقطت فى أيديهم « فيتنبورج Wittenburg » ؛ وهنا حصل موريس على المنصب الذى كان يطمع فيه وهو منتخب سكسونيا . وما كاد يحصل على ذلك المنصب حتى انقلب ضد الإمبراطور . وأخذ يفاوض هنرى الثانى ملك فرنسا فى احتلال الأسقفيات الثلاث ، وقد جهر موريس بعدائه للإمبراطور عند وصول الجيوش الفرنسية إلى نهر الراين . واضطر كل من شارل الخامس وأخيه فرديناند إلى الفرار بسرعة عن طريق إنزبروك Insbruch ، كما أجل يوليوس الثالث استئناف إجتماع مجلس ترانت ؛ وهنا اضطر الإمبراطور إلى عقد صلح « أوجسبرج Ausgburg » سنة ١٥٥٥ .

صلح أوجسبرج ١٥٥٥ :

عهد شارل الخامس إلى إبنه فيليب بالأراضى المنخفضة عام ١٥٥٥ ، وأسبانيا فى ١٥٥٦ ولكنه منذ عام ١٥٥٤ ترك لأخيه فرديناند شئون الامبراطورية والبت على وجه الخصوص فى المسألة الدينية فى ألمانيا .

١ — قرر صلح أوجسبرج الحرية الدينية للإمارات اللوثرية ، وتعهد الإمبراطور والمنتخبون والأمراء بأن يتركوا الولايات البروتستنتية تؤدى شعائرها الدينية بكل حرية ، وبألا يتعرضوا لهم بأى أذى . كما قرر ذلك الصلح أن يحترم الأمراء البروتستنت والمقاطعات البروتستنتية الحرية الدينية للأمراء والمقاطعات التى لازالت مخلصة للدين القديم ألا وهو الكاثوليكية .

٢ — ونص ذلك الصلح فى قراراته على عدم الإعتراف بأى مذهب آخر غير المذهبين المذكورين . وهكذا لم يعترف هذا الصلح بمذهبي «كلفن وزونجلى» Zwingli

٣ — نص ذلك الصلح على أن يسمح للرعايا الراغبين فى الإنتقال من ولاية إلى أخرى ببيع ممتلكاتهم دون التعرض لهم بسوء .

٤ — نص هذا الصلح على أن تبقى الأراضى التى اغتصبت من الكنيسةالكاثوليكية قبل عام ١٥٥٢ فى يد مغتصبيها ، بينما تعاد تلك التى اغتصبت بعد ذلك التاريخ إلى حالتها الأولى . وكان الغرض من ذلك النص المحافظة على أملاك الكنيسة الكاثوليكية .

لم يكن هذا الصلح إلا هدنة مؤقتة بين الطوائف البروتستنتية والكاثوليكية ، ومع ذلك فقد كان كسباً عظيماً للبروتسنتية ؛ إذ أنها ضمنت للولايات البروتستنية ولو إلى حين السلام فى علاقاتها مع الولايات الكاثوليكية والامبراطور . ولكن هذا الصلح لم يمنح الفرد حرية العقيدة وإنما منحها الولاية عامة ، ومع ذلك فقد اعترف ببعض الحرية للفرد ؛ ذلك عندما نص الصلح على تسهيل عملية انتقال الفرد من ولاية إلى أخرى ؛ كما أن هذا الصلح لم يمنح المذاهب البروتستنتية الأخرى كمذهب كلفن وزونجلى الحرية الدينية مع أن مذهبهما كان قد اعتنقه كثير من الألمانيين وسكان الإمبراطورية . وقد كان ذلك النقص فى شروط الصلح باعثاً على استئناف الصراع الدينى وتحويل ألمانيا فى القرن السابع عشر إلى ميدان للنضال الدولى كما كانت الحال فى إيطاليا فى القرن السادس عشر . كما نتج عن هذا الصلح ازدياد نفوذ الأمراء على حساب الإمبراطور إذ أصبح لهم حق تقرير مصير ولاياتهم الدينى .

الفصل السادس

انجلترا فى القرن السادس عشر

تحت حكم أسرة التيودور ١٤٨٥ – ١٦٠٣

حكمت أسرة التيودور انجلترا عقب الحرب الأهلية المعروفة بحروب الوردتين (١٤٥٥ – ١٤٨٥) . وقد بلغ هنرى السابع عرش انجلترا عقب واقعة « بوزورث » Bosworth عام ١٤٨٥ . وبذلك بدأ حكم أسرة التيودور الذى استمر خلال القرن السادس عشر . بدأ حكم هذه الأسرة بدءاً متواضعاً خالياً من الإسراف . ولكن لم يلبث أن أصبحت لها مكانة ممتازة فى عهد « البزابيث » ويرجع ذلك إلى جهود جدها ، وكانت تشبهه فى سلوكها . كما تماثلت ظروف اعتلائهما العرش فى الفوضى وعدم الاستقرار .

وأهم ما يميز عهد أسرة التيودور فى انجلترا فيمكن تلخيصه فيما يلى :

١ – سياسة الزواج الأسرى ، تلك السياسة التى كان يبغى من ورائها ربط وتوثيق العلاقات بين انجلترا وغيرها من الدول الأوروبية ، وكذلك لتوسيع رقعتها وبناء إمبراطوريتها . وأدى اتباع هذه السياسة فى انجلترا إلى ربط انجلترا بأسبانيا . وآية ذلك زواج مارى تيودور بفيليب الثانى ملك أسبانيا عام ١٥٥٤ ، وماتت مارى ١٥٥٨ . ووقع زواج ثان بين مرجريت ابنة هنرى السابع وجيمس الرابع ملك اسكتلندا ، ثم ولد لهما ابن أصبح ملكاً على اسكتلندا باسم جيمس الخامس وتزوج هذا من أسرة « دى جيز » الفرنسية وولدت له ابنة هى التى عرفت باسم مارى الاسكتلندية التى صارت ملكة على اسكتلندا ، وعندما تزوجت من ملك فرنسا فرانسوا الثانى (١٥٥٩ ١٥٦٠) أصبحت ملكة على فرنسا . وقامت الثورة فى اسكتلندا فاضطرت إلى التخلى

عن عرش اسكتلندا عام ١٥٦٧ وخلفها عليه ابنها جيمس السادس الذى أصبح يعرف بجيمس الأول عندما آل إليه ملك انجلترا عام ١٦٠٣ فأصبح ملكاً على انجلترا واسكتلندا معاً .

٢ — وفى عهد هذه الأسرة عرفت الطباعة فى انجلترا وانتشرت الثقافة والاتجاهات العلمية السليمة ، وذلك تبعاً للتحرر الفكرى الذى ساد عصر النهضة .

٣ — ثم قامت الحركة الدينية فى انجلترا . وانتهت فى عهد أسرة التيودور باستقلال كنيسة انجلترا عن روما ، فأصبح لها مذهب جديد مستقل ، وله كنيسة خاصة اسمها الكنيسة الأنجليكانية .

٤ — انصرفت انجلترا عن فكرتها السياسية التى كانت تهدف إلى توسعها فى فرنسا ، وتحول اتجاهها إلى العالم الجديد هادفة إلى تأسيس الامبراطورية البريطانية .

ولم تكن انجلترا هى البادئة بهذا السلوك ، فقد سبقتها إليه دول أخرى : ففى سياسة الزواج الأسرى سبقتها أسرة الهبسبورج ، وفى مجال الطباعة واتساع النشر سبقتها ألمانيا وغيرها ، وفى حركة الإصلاح الدينى سبقتها ألمانيا وفرنسا . وفى الاتجاه نحو العالم الجديد سبقتها كل من البرتغال وأسبانيا . على أن انجلترا قد تميزت عن كل ما ذكر من الدول التى سبقتها ، بطابع خاص لم تبسقها إليه واحدة من تلك الدول .

وكان على مؤسس هذه الأسرة هنرى السابع أن يقضى على الفوضى والاضطراب اللذين انتشرا فى البلاد قبل أيامه بسبب الحروب الأهلية . وكأنما بذر هذا الحاكم فى عهده بذرة أينع زهرها وطاب ثمرها فى النصف الثانى من القرن السادس عشر . وإليه يرجع الفضل فى بناء ملكية التيودور على أسس قوية . وأن الظروف قد هيأت له الجو الهادىء الذى قام فيه بأعماله العظيمة ، إذ كانت حرب الوردتين قد أضعفت أصحاب المطامع من المتنافسين على الحكم . فبات الشعب يتطلع إلى رسل السلم ، وقد توافر له ذلك بين يدى هذا الملك القوى ، الذى آمن بالحياة المنظمة . واستجاب إلى الشعب فسار على نفس النهج . ومن هنا وصف حكمهم المطلق بأنه حكم استبدادى برغم خلوه من الاستبداد ، لأن البرلمان قد استجاب لهم فى كل ما أرادوا .

حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا

كان لموقع انجلترا الجغرافى أثره فى جعلها بمعزل عن أوروبا . ولكن كانت عزلتها فى الواقع ظاهرية أكثر منها واقعية . ومع ذلك كان للقناة الإنجليزية (بحر المانش) آثارها العميقة فى حياة انجلترا ؛ من ذلك أنها حتى عام ١٩١٤ تخلصت من الأعباء الحربية . ونجت من الحروب التى اجتاحت القارة . ولم يكن لها جيش قائم لأنها لم تكن فى حاجة إليه . ومكنها ذلك من الحد من سلطة ملوكها ، إذ استطاع البرلمان أن يمارس نشاطه دون ضغط وفى أمان مطلق . وكان ملوك فرنسا وأسبانيا وكثير من أمراء ألمانيا يعتمدون على الجيش فى تركيز السلطة فى أيديهم . من أجل ذلك نستطيع أن نقول إن انجلترا ببرلمانها كانت هبة البحر . كما كان العامل الجغرافى الذى عزلها عن بقية دول أوروبا سبباً من الأسباب التى ميزتها عن بقية هـــذه الدول فى سائر اتجاهاتها السياسية والدينية والفكرية . وعلى الرغم من كل ذلك لاينبغى لنا أن نتصور تاريخ انجلترا منفرداً عن تاريخ أوروبا . وبحسبنا أن نذكر أن تاريخها فى القرن السادس عشر كان متصلا تمام الاتصال بتاريخ سائر دول أوروبا .

والواقع أن حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا لم تظهر إلا فى عهد ثانى ملوك أسرة التيودور وهو هنرى الثامن .

هنرى الثامن ١٥٠٩ — ١٥٤٧ :

كان ذلك الملك شديد الاهتمام بتنظيم بحرية انجلترا . فهو الذى وضع نواة الأسطول ، فأنشأ أحواضاً لبناء السفن فى « وولويتش » Woolwich وفى « دبفورد » Depford ، كما أنشأ مدرسة للبحارة يطلق عليها « ترينتى هوس » Trinıtv House واهتم ببناء الأسطول الملكى .

وكان اهتمامه غير قاصر على ذلك بل امتد إلى الناحية الدينية . وكان للدين يومئذ أثره الواضح فى العلاقات السياسية . شأنه فى ذلك شأن الاقتصاد فى عصرنا الحديث . ومن مظاهر اهتمامه بالناحية الدينية مقاله الذى طعن فيه على لوثر ، وأنكر سلوكه الدينى وكان ذلك فى عام ١٥٢١ . وقد أرضى ذلك المقال البابا ليو العاشر ، الذى نعت كاتب المقال « بحامى العقيدة » Fidei Defcnser . وعلى الرغم من اهتمام

هنرى الثامن بالناحية الدينية ، لم يقدر له الشعب الإنجليزى ذلك لأنه شعب لم تكن تهمه الحركات الدينية بقدر ما كانت تهم الاسكتلنديين . ولعل ذلك راجع إلى أن الإنجليز لم يتأثروا بحركة لوثر ، ولم يكن بين أفراد هذا الشعب من يحتفظ بأثر للولاردية(١) (اتباع ويكلف) غير قلة فى لندن .

وليس يفوتنا أن نذكر أن الشعب الإنجليزى المطبوع بطابع المحافظة قد كان لايزال يظهر ولاءه لكنيسة روما . وليس معنى هذا أن حركة الإصلاح اللوثرية قد أهمل شأنها تماماً فى إنجلترا ، ويكفى أن نذكر اهتمام بعض الجامعات الإنجليزية وفى مقدمتها « كمبردج» Cambridge بدراسة حركة مارتن لوثر وأصولها .

وإذا كان وصف الإنجليز بالمحافظين قد غلب عليهم فإنهم لم يكونوا فى عامتهم من الذين يشغلون أنفسهم بأمور الدين ، بل كانوا يعادون رجال الدين ، وأكثر ما وضحت هذه الظاهرة بين سكان لندن من المشتغلين بالتجارة ولعل سلوك هؤلاء قد كان مبعثه ظهور طبقة منافسة دفع أهلها إلى التجارة حقدهم على رجال الكنيسة الذين كانت تؤول إليهم أموال كثيرة . وعلى الرغم من انصراف الشعب الإنجليزى عن رجال الدين فإن أفراده لم يسلكوا سلوك غيرهم من شعوب أوروبا من حيث إشعال نار الثورة والحروب الأهلية . كما حدث فى حركات الإصلاح الدينى فى ألمانيا وفرنسا .

وإذا كان هنرى الثامن يعد أول من بدأ حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا فهو قد ترك شئون دولته بين يدى « توماس ولسى »Thomas Wolsey مدة أربعة عشر عاماً (١٥١٥ — ١٥٢٩) وكان من رجال الدين . كما كان من خلصاء الملك الذى آمن بمقدرته الفائقة . وعمله المتصل . وإقدامه على ما يمليه عليه عقله وضميره . ظل خلال تلك السنوات يحكم انجلترا بتفويض من هنرى الثامن حكماً مطلقاً غير منازع فيه من جانب زملائه أو البرلمان . وإذ كان من كبار رجال الكنيسة فإن أثره لم يكن وقفاً على انجلترا وحدها بل تعداها إلى أوروبا كلها . استمد سلطانه من روما ، ومنها كان يتوقع تحقيق كل ما يجيش بخاطره من مطامع غايتها الوصول إلى كرسى البابوية ، ولذلك كان يهتم بمصير البابا ، فكان من أجل ذلك حريصاً على ألا يقع البابا أسيراً

---

(١) انظر ص ٢٤ هامش (١) .

فى يد فرنسا إذ أنها لن تلبث عندئذ أن تصبغ البابوية بأغراضها ، وتحول بينه وبين ذلك المنصب ؛ لذلك رأى أن تتخذ انجلترا دوراً هاماً وظاهراً فى ذلك النزال الدولى ، الذى كان قائماً بين الإمبراطور وفرنسا فى إيطاليا (الحروب الإيطالية) . وفى عام ١٥٢١ استطاع « ولسى » أن يحالف الإمبراطور . ولكن عندما وقعت الحرب بين الخصمين لم تفقد البابوية حريتها على يد فرنسا وإنما على يد الإمبراطورية . فلما وقع فرانسوا الأول أسيراً فى « بافيا » Pavia عام ١٥٢٥ تلاه البابا ، فوقع هو الآخر أسيرا عام ١٥٢٧ . وبعد ذلك بعامين أى فى ١٥٢٩ وقعت معاهدة برشلونه ، وبمقتضاها سلبت سلطة البابا . وأصبح الأمر كله بيد الإمبراطور . وعندما حان وقت انتخاب البابا لم يف الإمبراطور بوعده الذى كان « ولسى » يستند إليه ليصل إلى كرسى البابوية . وكانت النتيجة انتهاء سيطرة « ولسى » على السياسة الإنجليزية . والتمهيد لتأسيس الكنيسة الأنجليكانية . أما السبب المباشر لانفصال كنيسة انجلترا عن كنيسة روما فقد كان مرجعه رغبة الملك هنرى الثامن فى الطلاق من زوجه « كاترين الأرجونية » التى لم تنجب له غير بنت واحدة ، أطلق عليها اسم « مارى » ، ومات من حملت منه بعدها أثناء الولادة ، فقال إن ذلك مرجعه إلى غضب الله عليه لأنه تزوج بتصريح من البابا يوليوس الثانى . أراد أن يطلق كاترين ليتزوج من « آن بولين » Anne Boleyn ولم يكن ذلك بالشىء الغريب ، إذ كان التصريح بذلك فى يد البابا ، غير أن البابا فى هذه الواقعة بالذات كان أسيراً لا يملك من الأمر شيئاً . فأخذ يسوف فى التصريح بالطلاق ؛ ذلك لأن كاترين الأرجونية كانت من أقارب الإمبراطور . فاقترح البابا تحت هذا الضغط أن تؤلف فى لندن محكمة يرأسها قاضيان من الكرادلة أحدهما إنجليزى وهو « ولسى » والآخر إيطالى وهو « كمبجيو » ampeggio . وبإيعاز من الإمبراطور اقترح البابا نقل هذه المحكمة إلى روما .

ولما تبين لهنرى الثامن أن رجله الكاردينال « ولسى » قد فشل فى تنفيذ رغبته فى الطلاق استغنى عن خدماته . وأحل محله « توماس مور » Thomas More ١٥٢٩ ، فرفعه إلى أعلى المراكز ، ولكنه لن يلبث أن يرسله إلى الموت . وفى عام ١٥٣٠ اتهم « ولسى » بالخيانة العظمى وتقرر سفره إلى لندن لمحاكمته ولكنه مرض أثناء تلك الرحلة الحزينة ، ومات فى دير « ليستر » Leicester ؛ وأباح وهو يحتضر الأطماع التى كان ينطوى عليها صدره ، كما اعترف بأنه استبدل بمآربه الشخصية طاعة الله ، وأنه يستحق الجزاء على ذلك .

وفى تلك الأثناء ظهرت على مسرح السياسة شخصية جديدة هى شخصية «توماس كرانمر» Thomas Cranmer ، الذى أولاه الملك الثقة التى أولاها «وامسى» من قبل . واستعان به فى حل مشكلة الطلاق التى كان يواجهها . فاقترح «كرانمر» عليه أن يستشير كل جامعات أوروبا فى مدى شرعية زواجه . وكانت آراء جامعات فرنسا وإيطاليا تحبذ قرار الملك الخاص بالطلاق وذلك فى نظير حصولها على بعض المال . فشجع ذلك هنرى الثامن على تحدى البابا ؛ فاستعان بالبرلمان ؛ ذلك البرلمان الشهير فى تاريخ انجلترا ، والمعروف ببرلمان الإصلاح الذى ظل قائماً مدة سبع سنوات (١٥٢٩ — ١٥٣٦) . وفى عام ١٥٣١ سن البرلمان عدة قوانين كان من شأنها الحد من سلطان البابا الدينى فيما يتعلق بشئون انجلترا الدينية . وأثار ذلك المخلصين للسلطان البابوى أمثال «توماس مور» الذى استقال عام ١٥٣٢ .

وفى عام ١٥٣٣ تزوج الملك سراً «بآن بولين» بعد أن طلق زوجه «كاترين» . وعندما أصدر البرلمان قانوناً يمنع استئناف قضايا الزواج والطلاق فى روما ، أعلن الملك على الملء زواجه الجديد . وأعلن «كرانمر» الذى أصبح رئيساً لكنيسة كانتربرى حكم الطلاق الذى لم يكن فى الاستطاعة حينئذ السماح به إلا من الكنيسة الرومانية . وتوجت بذلك «آن بولين» ملكة على انجلترا ، ثم لم تلبث أن أنجبت «اليزابث» التى نودى بها ولية للعهد . فأعلن البابا بطلان حكم الطلاق . وهدد الملك بالحرمان من رحمة الكنيسة إذا لم يعدل عن ذلك فى بحر مدة معينة . وهنا قام البرلمان بخطوة جريئة عندما قرر قطع جميع الروابط بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما . ففى عام ١٥٣٤ صدق البرلمان على زواج الملك من «آن بولين» وعلى عدم قانونية زواجه من «كاترين» ، وأعلن البرلمان أن ملك انجلترا أصبح السيد الأعلى للكنيسة الأنجليكانية . كما أعلن البرلمان كذلك منع إرسال الأموال السنوية إلى البابا . وتعرف هذه القوانين الثلاثة الهامة التى حققت استقلال كنيسة انجلترا عن كنيسة روما بقانون المعونات المالية السنوية Act of Annates وقانون الاستئناف Act of Appeals وقانون السيادة Act of Supremacy .

ومع ذلك فإن هنرى الثامن لم يكن من المتحمسين لحركة الإصلاح الدينى بمعنى أنه لم يرض بتغيير العقائد الكاثوليكية المعترف بها فى انجلترا من قديم ، ولكنه لاقى عداء الكاثوليك والبروتستنت على حد سواء . فقد أساء إلى الكاثوليك بقطع الصلة

بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما ، كما أساء إلى البروتستنت بتشبثه بالإبقاء على المبادىء الكاثوليكية . وقد جوزى كل من جهر برأيه بالموت ، ومن بينهم شخصيتان مهمتان هما سير « توماس مور » Sir Thomas More والأسقف « فشر » Fisher حين امتنعا عن تأدية القسم بالولاء للملك كرئيس أعلى للكنيسة الانجليزية .

وظهر على مسرح السياسة «كرمويل » Cromwell . فقام بالخطوة التالية فى ذلك الإصلاح ، ألا وهى حل نظام الأديرة فى إنجلترا وكان الغرض من ذلك مزدوجاً : القضاء على أعداء حركة إنفصال كنيسة إنجلترا عن روما ألا وهم الرهبان والراهبات فهم جند البابوية ، وقد أساء إليهم ذلك الإنفصال . كما أراد كرمويل أن يحول كل إيرادات الأديرة الوفيرة إلى الخزينة الملكية ، وتم له ما أراد على درجات فبدأ بزيارة بعض الأديرة وأخذ معه فريقاً من موظفى الدولة . واطلع على ما فيها من عيوب وفساد . ثم أعلن ذلك . وقرر التخلص منها . فقضى عليها نهائياً .

وفى عام ١٥٣٩ أعلن هنرى — بصفته سيداً أعلى للكنيسة . العقائد الأساسية للإنجليز فيما يعرف بقانون المواد الست التى وافق عليها البرلمان ، وتتلخص فى الاعتراف بالوجود الفعلى فى القربان . وعدم زواج رجال الدين . وفوائد إقامة حفلات القداس ، وأهمية عملية الاعتراف . وتناول القربان المقدس بطريقة واحدة . وتقرر أن تكون عقوبة عدم الإعتراف بالمادة الأولى الحرق ، أما عقوبة عدم الإعتراف بالمواد الأخرى فكانت السجن والمصادرة أولا ثم عقوبة الموت إذا تكرر ذلك الأمر . لكن الملك ظل يعدل فى المواد المختلفة حتى عام ١٥٤٥ حيث نشر فى نهاية الأمر ما يعرف بكتاب الصلوات .

الاصلاح الدينى فى عهد ادوارد السادس ١٥٤٧ — ١٥٥٣ :

عندما خلف أباه هنرى لم يكن قد بلغ من العمر ما يجاوز تسعة أعوام إلا ببضعة أشهر ، وكان أبوه قبل موته قد عين مجلساً للوصاية وإدارة شئون الحكم فى عهد طفولته وأجيبت رغبات هنرى الثامن بادىء الأمر فعين خاله دوق « سمرست » Duc de Sommerset وصياً ، وكان من المؤيدين لحركة الإصلاح ، وأظهر ميوله فنشأ ادوارد تنشئة بروتستنتية ، واتفق « سمرست» مع «كرانمر » على القضاء على العقيدة الكاثوليكية . ولكن التغيير الفجائى كان من الخطورة بمكان لذلك قرراً أن ينفذاه على مراحل ،

فأرسل « سمرست » مبعوثين من رجال الدنيا والدين إلى المقاطعات المختلفة فقاموا بتعديل طقوس الكنيسة الرومانية القديمة ، وقربوها بقدر المستطاع من نظام طقوس كنائس الإصلاح . وقد اعترض أحد وزراء هنرى الثامن القدامى وهو « جاردنر Gardiner أسقف « ونشستر » Winchester على تلك التجديدات فأودع السجن .

فى تلك الأثناء كان الهياج فى اسكتلندا على أشده فقد اتخذت حركة الإصلاح الدينى فيها طابعاً حماسياً متطرفاً يفوق ماكان بالقارة الأوروبية ، فطلب مؤيدو حركة الإصلاح معونة انجلترا على حين طالب المناوئون لها بمعونة فرنسا . فتقدم Sommerest بجيش يبلغ ١٨,٠٠٠ مقاتل إلى اسكتلندا . وأراد أن يجمع بين المملكتين بتزويج الأميرة الصغيرة مارى الاسكتلندية من ادوارد السادس ، وجعل ذلك ثمناً للصلح ولكن رفض طلبه ، فوقعت واقعة « بنكى» Pinkey بين الفريقين على مقربة من أدنبرة ، فهزم الاسكتلنديون وفر غالبيتهم كما فقدوا الكثيرين من رجالهم . ولكن سمرست لم يستفد كثيراً من انتصاره لرغبته فى العودة بسرعة إلى لندن .

وعند عودته دعا البرلمان لكى يلغى قوانين هنرى الثامن ، ويبدأ فى عمل الإصلاح . فألغى قانون المواد الست ، فحرمت حفلات القداس الخاصة وأعلن الاعتراف بسيادة الملك على شئون الكنيسة ، وفرض عقوبات شديدة على كل من لايعترف بها : واستمرت الحركة الإصلاحية بعد سومرست أى فى عهد نفوذ Northumberland وقد تميز هذا الأخير بعنفه وخطورته واندفاعه .

وفى ١٥٥٢ أصدر البرلمان قانوناً يفرض على رجال الدين إستخدام كتاب صلاة جديد قد أعده كرانمر بمساعدة بعض المصلحين ؛ وكان كتاباً قيماً خدم به العقيدة الجديدة ، ولا أدل على جودة ذلك الكتاب مما نشره أحد الكتاب الكاثوليك فى امتداحه .

"He gave a strength to the newly established religion which it could never have drawn from any other source. He provided a substitute for the noble Latin on which the soul of Europe had formed for more than a thousand years.

« لقد منح ذلك الكتاب العقيدة الجديدة قوة لم يكن فى استطاعة أى مصدر آخر

أن عدما تمثلها ؛ فقدم ما يقوّم مقام الكاثوليكية التي اعتنقها الأوروبيون مدة تزيد على ألف عام » .

ولم تكن تلك هي الخدمة الوحيدة التي قدمها كرانمر للعقيدة الجديدة بل ان استشهاده في عهد ماري — عندما أمرت بإحراقه — خلف لمعتنقي العقيدة الجديدة آثاراً لاتمحى ، وجعلهم يتشبثون بها عن ذي قبل . فقد بدأ عند التنفيذ بمد يده اليمنى التي أخطأت عندما اضطر تحت الضغط التوقيع بها على بعض حالات كان فيها إنكار للعقيدة الجديدة ، ثم لاقى مصيره في النار ، فاعتبر شهيداً من شهداء الإصلاح ولم يكن الوحيد الذي لاقى حتفه في عهد ماري تيودور .

الاصلاح الديني في عهد ماري تيودور ١٥٥٣ — ١٥٥٨ :

كانت كاثوليكية متحمّسة لكاثوليكيتها . فبدأت عهدها بالقضاء على كل ماتم من إصلاح ديني في عهد إدوارد السادس ، وأمرت بإحراق كرانمر وغيره من الأساقفة البروتستنت فبلغ عدد الضحايا حوالى ثلاثمائة نفس . وقد خدمت ماري العقيدة الجديدة بتلك الاضطهادات ، إذ جعلتها تزداد رسوخاً في القلوب ، ولا سيما لما رأى المؤيدون ولمسوا من شجاعة الشهداء واستبسالهم وتضحيتهم آخر الأمر بالحياة كل ذلك أنسى النفوس ما بقي لها من ذكريات الماضي مثل قضايا الطلاق والزواج وما حول ذلك من أعمال الإضطهاد التي قام بها هنري الثامن ؛ فقد مسحت تلك الذكريات دماء من استشهدوا في سبيل الدين الجديد .

وغادر السجن الأسقف « جاردنر » Gardiner ووقف إلى جانب ماري تيودور ، فألغي كتاب الصلوات الذي ألفه كرانمر ١٥٥٢ ، كما أعيدت الصلة بين كنيسة انجلترا والكنيسة الرومانية . وأثارت الملكة الشعور القومي في انجلترا بتلك الإضطهادات كما أثارته كذلك عندما تحدته بزواجها من فيليب الثاني ملك أسبانيا في عام ١٥٥٤ ، على الرغم من أنه قد أظهر بوضوح عدم رضاه عن ذلك الزواج ، وما ينتج عنه من تبعية إنجلترا للسياسة الأسبانية ، وإذا كان الشعب الإنجليزي قد رضخ للأمر الواقع فذلك لأن ماري تيودور لم يكن لها وريث على العرش إلا اليزابث ، وكانت على نقيضها إنجليزية الأصل وليست أسبانية تحبذ حركة الإصلاح وليست متعصبة للكاثوليكية مثلها .

وقد تولت اليزابث الحكم عام ١٥٥٨ وظلت تحكم حتى ١٦٠٣ وكانت الرغبة فى حل المشكلة الدينية من أشد الأمور إلحاحاً فى ذلك الوقت ، فقد كانت الأحوال الدينية فى انجلترا تضطرب اضطراباً شديداً منذ خمسة وعشرين عاماً قبل توليها الحكم ، فتارة يتغلب أنصار العقيدة الجديدة ، وتارة أخرى يتغلب أنصار الكاثوليكية ، واستشهد الكثيرون من معتنقى العقيدتين وإن كان ذلك لا يصل إلى من استشهد فى سبيل العقيدة فى جهات أخرى من أوروبا أثناء حركة الإصلاح الدينى .

لم تكن مهمة اليزابث هينة ، ذلك لأن الشعب الإنجليزى لم يكن راضياً عما حدث فى عهد مارى تيودور من تعصب الكاثوليكية وإعادتها بحذافيرها ، كما أنه لم يرض عن خطوات الإصلاح الدينى التقدمية التى وضعت فى عهد إدوارد السادس ، لذلك كان عليها أن تتخذ طريقاً وسطاً بين الأمرين لتكسب إلى جانبها غالبية الشعب الإنجليزى وقد ساعدها على تأدية تلك المهمة الصعبة بنجاح عدة عوامل من أهمها :

١ — إن إضطهادات مارى وتحمسها الزائد للكاثوليكية قد عملت على زيادة البروتستنتيين تعلقاً بالعقيدة الجديدة مما جعل الفريق البروتستنتى متفوقاً على الفريق الكاثوليكى .

٢ — كان لإنتشار الطبعة الإنجليزية للكتاب المقدس أثرها فى ازدياد أتباع الدين الجديد ، إذ تبين للجميع أنه فى استطاعتهم أن يحلوا مشاكلهم الدينية دون الإستعانة بأحد ، وكان الدين الجديد يدعو إلى ذلك .

٣ — كانت الرغبة فى قطع الصلة بكنيسة روما قوية فى النفوس ولم يكن طبيعياً أن يتأتى لإنجلترا ذلك إذا استمرت انجلترا كاثوليكية .

٤ — أضعف من جانب الكاثوليك أن قضيتهم قد أصبحت قضية الأجانب ؛ فمارى وزوجها فيليب الثانى وكلاهما كان أجنبياً فى نظر الشعب قد عملا فى حماسة على إعادة الكاثوليكية ؛ ولذلك لقيت اليزابث ولاء عظيماً لأنها كانت إنجليزية ومؤيدة للعقيدة البروتستنتية .

وتم لإليزابث ما أرادت دون استخدام وسائل العنف أو الشدة وساعدها على ذلك أن منصب رئيس أساقفة Canterbury كان شاغراً بموت « بول » Pole فأحلت محله « ماثيوباركر » Mathew Parker وقد عرف باعتدال آرائه البروتستنتية . وتبعت ذلك

الملكة بإصدار أوامرها عن طريق البرلمان بأن تؤدى الصلاة والعقيدة والأوامر كلها فى الكنيسة باللغة الإنجليزية واجتمع البرلمان فى عام ١٥٥٩ وقرر النظام الدينى الجديد على النحو التالى : —

١ — الغاء قانون ١٥٥٤ فأدى ذلك إلى إعادة ذلك الإنفصال الذى قرره هنرى الثامن بين كنيسة انجلترا وروما .

٢ — وقانون السيادة Act of Supremay ، ويمنح الملكة السيطرة على الشئون الدينية إلى جانب سيطرتها على الشئون المدنية .

٣ — Act of Uniformity ينص على استخدام الكتاب الثانى للصلوات الذى صدر فى عهد إدوارد السادس عام ١٥٥٢ .

الفصل السابع

عهد الملكة اليزابيث

(١٥٥٨ – ١٦٠٣)

كانت الأحوال فى انجلترا مضطربة تمام الاضطراب عند اعتلاء اليزابيث عرش انجلترا وهى فى سن الخامسة والعشرين ؛ كانت انجلترا تعانى اضطراباً فى نواحى حياتها المختلفة بسبب تلك التبعية التى ناءت تحت أعبائها أثناء حكم مارى تيودور ، ووقوعها بسبب زواج الأخيرة من فيليب الثانى فريسة سهلة فى يد أسبانيا ، وكانت تعانى من مشاكل الانقسامات الدينية التى تسببت فيها مارى تيودور . وكانت ميزانيتها غير مستقرة ، وقواها الحربية غاية فى الضعف والانحلال . وكانت كذلك تفتقر إلى زعماء وقادة للقيام على شئونها فى السلم والحرب . وكان من السهل – وانجلترا على الحال التى وصفنا – على أسبانيا وفرنسا أن تلحقا بها من الأضرار ما يؤذيها ، إلا أن التنافس الشديد بين هاتين الدولتين الكاثوليكيتين العظيمتين قد شغلهما عن انجلترا ، فنجت من كل ضر محتمل . كان كلا الدولتين المشار إليهما تتنافسان يومئذ فى السيطرة على أوروبا ؛ ومعنى ذلك أن الاتحاد بينهما كان مستحيلا ؛ بل كانت كل منهما تنظر إلى الأخرى بعين الحذر وترقب اتجاهاتها فى يقظة تامة . وساهمت المصاعب التى واجهت كلا الدولتين فى نجاة انجلترا منها . فقد ووجهت أسبانيا بثورة الأراضى المنخفضة ، كما ابتليت فرنسا بالحروب الدينية التى اشتعلت نيرانها فيها فى تلك الأثناء . وكانت اليزابث تغذى كلا منهما بالمال والرجال من حين لآخر ، كما استطاعت اليزابث خلال تلك الظروف التى شغلت عنها الدولتان المتنافستان أن تهتم بحل المشكلة الدينية ، ووفقت فى أول أعوام حكمها فى أن تبعث إلى الوجود الإصلاحات التى قام بها أبوها هنرى الثامن من قبل . واستطاعت انجلترا أن تعلن قيام الكنيسة الأنجليكانية كنيسة رسمية فى بلادها ، وأفادت من ذلك ، لأن هذا العمل قرب وجهات النظر بين انجلترا

واسكتلندا ؛ فقد كان عام ١٥٥٩ عام انفصال الكنيسة فى كل منهما عن روما . ومع أن وقوع الحادثين فى وقت واحد كان بمحض الصدفة ، فقد ترتب على ذلك الإنفصال نتائج هامة بالنسبة لكليهما ، إذ ترتب على الإصلاح الدينى فى كليهما نجاتهما من خطر أوروبا وسلطانها الروحى والزمنى . ومن قبل كانت انجلترا دولة رومانية كاثوليكية خاضعة لأسبانيا ، ولم يكن حظ اسكتلندا من ذلك يختلف عن حظ انجلترا ؛ فقد كانت هى الأخرى دولة كاثوليكية رومانية خاضعة لسلطان فرنسا ، ولا غرابة فى ذلك إذ كانت ملكتها مارى الاسكتلندية Mary Queen of Scots — وهى الكاثوليكية المتعصبة — زوجة لدوفين فرنسا الذى أصبح فرنسوا الثانى فى عام ١٥٥٩ ولم يعش طويلا بل مات فى العام التالى . وبعد عامين من ذلك التاريخ أصبحت كل منهما بروتستنتينية كما خلصت كلاهما من النفوذ الأجنبى . وكان استقلال الدولتين الدينى عاملا أساسياً فى استقلالها السياسى ، ونجحت هذه الحركة فى كل من انجلترا واسكتلندا لأن المنافسة استمرت بين أسبانيا وفرنسا . ومن مزايا ذلك الحادث الذى أدى إلى استقلالها أنه قرب سياسياً بين الدولتين انجلترا واسكتلندا .

موقف اليزابيث من مارى الاسكتلندية :

ولم يلبث الأمر طويلا حتى اشتعلت نار الخلاف بين الملكتين مارى الاسكتلندية واليزابث فى انجلترا ، وهو خلاف كان مبعثه الأول إغراء مارى الاسكتلندية بعرش انجلترا ؛ يعاونها فى ذلك ملك أسبانيا وبابا روما ، ومن وسائل ذلك كان موقفها المعادى لكنيسة الإصلاح فى اسكتلندا مما أدى إلى إثارة الشعب عليها واضطرارها إلى الفرار إلى انجلترا لاجئة إلى اليزابث ؛ لاطلباً فى السلام ولكن رغبة فى تنحية اليزابث عن العرش لتحتليه ، وباتت تدبر لذلك مؤامرات استعانت فى تدبيرها ببعض رجال البلاط وكبار الساسة فى انجلترا ؛ وانكشف أمرها لدى اليزابث ، فلم تر بدآ من سجنها . على أن هذا العمل لم يبطل نشاطها فى تدبير المؤامرات ؛ وصبرت اليزابث على ذلك مدة تسعة عشر عاماً (١٥٦٨ — ١٥٨٧) برغم إلحاح البرلمان بالتخلص منها عن طريق الموت . ولعل السبب فى صبر اليزابث طوال ذلك الوقت أن يكون حرصها على تجنب الصدام العسكرى مع فيليب الثانى الذى لم ييأس من تحقيق آماله فى حكم انجلترا مادامت مارى عدوة اليزابث على قيد الحياة . ولم يكن غريباً أن تخشى اليزابث عدوان أسبانيا

خاصة وأن ذوق الفا وجيشه القوى كانا فى الأراضى المنخفضة وعلى بعد قريب من انجلترا . وظاهر أن اليزابث كانت حريصة على تجنب الصدام العسكرى مع أسبانيا ؛ على أن الجهود الفردية من رجال انجلترا وبخاصة بحارتها قد استمرت ، وكانوا يكثرون من أعمال القرصنة ومهاجمة الأسطول الأسبانى فى طريق عودته معبأ بخيرات العالم الجديد . لذلك بينما تميز التاريخ الرسمى للحكومة فى هذه الفترة بخلوه من أحداث التصادم بين الطرفين كان نشاط الأفراد غير الرسمي يبدأ عهداً جديداً فى تاريخ العالم .

لذلك لم تقم الحرب بين الفريقين بالمعنى الصحيح حتى تاريخ موقعة الأرمادا ١٥٨٨ . ومع ذلك فقد كانت سياسة كل منهما تنذر بأن الاصطدام واقع بينهما لامحالة ؛ إذ حرم فيليب الثانى على كل الدول الأوروبية أن تقترب من سواحل الأقاليم التى اكتشفتها أسبانيا والبرتغال حديثاً ، كما اعتقد أنه فى مقدوره أن يعاقب كل من يخالف هذه الأوامر ، أو يضبط فى مياه المستعمرات الأسبانية بإرساله إلى محاكم التفتيش ، كما أن فيليب لم يكن راضياً عما آلت إليه العلاقات بين انجلترا وأسبانيا . وقد ظل فيليب خلال الأعوام الإثنى عشر الأولى من حكم اليزابث يحاول التآمر على قتلها والإغارة على بلادها ؛ وإنما حالت دون ذلك مشاغله الجمة والتردد فى عزيمته ، وتحمل خلال ذلك كثيراً من الإهانات التى وجهها إليه كل من « هوكنز Hawkins » « ودريك Drake » .

وأتاح كل ذلك لإليزابيث خلال ذلك الوقت الطويل أن تمضى فى إصلاح شئون بلادها ، وتوطيد مركزها وهى فى نفس الوقت لم تنقطع عن التصدى لمعاكسة فيليب بطريق غير مباشر ، ومن ذلك أنها عاونت الأراضى المنخفضة فى الحصول على استقلالها ، كما شجعت القراصنة الإنجليز وفى مقدمتهم « هوكنز » و « دريك » على مهاجمة الأسطول الأسبانى . وكانت المستعمرات الأسبانية فى العالم الجديد مسرحاً لهذا العدوان ، وإذا كان فيليب قد أغلق ثغور هذه المستعمرات فى وجه المتجرين من غير الأسبان فقد كان أهلها يرحبون بالقراصنة الإنجليز وما تحمله سفنهم من خير يتمثل فى المنسوجات الصوفية والرقيق . وكان أحد قادة القراصنة ويدعى « هوكنز » يزود أهل المستعمرات بالرقيق على حين كان الثانى وهو « دريك » يسطو على السفن الأسبانية ، وينهب ماكانت تحمل من كنوز تلك المستعمرات وبخاصة ما كان فيها من ذهب وفضة . وقد كان لعمل انجلترا هذا غير المشروع نتائجه التى عادت عليها

بالربح الوفير ، فأثرى تجارها بما حملوا إلى بلادهم من سلع المستعمرات الأسبانية بعد أن كانت تجارتهم قاصرة على دول أوروبا .

موقعة الارمادا :

كان مصرع مارى الاسكتلندية ١٥٨٧ على يد اليزابث أول نذر الحرب التى وقعت بين الدولتين ، وعرفت فى تاريخ الحروب باسم « حرب الأرمادا » . وقد بذلت أسبانيا فى الإعداد لهذه الحرب نفقات باهظة فأقلع أسطولها الذى باركه البابا من لشبونه فى ٣٠ مايو سنة ١٥٨٨ بقيادة الدوق « ميدينا سدينا » Medina Sedina ، ولم يكن له دراية بمثل هذا العمل ولكنه كان من الإقطاعيين ، فكان ذلك كل مؤهلاته . وكانت الخطة تقتضى أن يتقدم الأسطول فى بحر المانش إلى « دنكرك » و « نيوبورت » Nieuport ومن هنا ينقل جيش بارما إلى إنجلترا حيث تخلع اليزابث لتخلفها على العرش ابنة فيليب الثانى .

وفشلت الحملة بما أعده القدر من أسباب علها لم تجل بخاطر فيليب ولا بخاطر البابا . فسفائن الأسطول كانت ثقيلة بطيئة الحركة وعليها رجال غير مدربين . فدارت من حولها سفن الأسطول الإنجليزى الصغيرة الخفيفة ، وعليها رجال مهرة من القراصنة وغيرهم ممن تعودوا ركوب البحر وأصبحوا سادة فى هذا الميدان . وشاركت فى ذلك عوامل الطبيعة فبعثت بعواصف عاتية حطمت الأسطول الأسبانى على صخور الهزيمة . وليس يفوتنا آخر الأمر أن نشير إلى الأسطول الهولندى وكان يحوم حول دنكرك ، فعوق بذلك بارما الذى اضطر إلى البقاء بالساحل ، وفى خلال ذلك أخذ قائد القراصنة الإنجليز يعمل فى تحطيم ما تبقى من السفن الأسبانية .

ومن عجائب القدر أن الانتصار لم يكن مستحيلا بالنسبة لجيوش أسبانيا رغم كل ما ذكرنا لو أتيح لأسطولها أن يبلغ أرض انجلترا ؛ فقد كان جيش إنجلترا البرى الذى يرابط فى « تيلبرى » Tilbiry للدفاع عن لندن — لحداثة عهد جنده وعدم دراية من يقودهم بأمور الحرب — غير كفء لأداء مهمته . وظهر فى هذا الوقت الحرج ثبات اليزابيث ورباطة جأشها . وبحسبها أن تقف بين جنودها الذين ذكرنا ، مخاطرة بحياتها لترفع من روحهم المعنوية وهى تقول :

« اثبتوا أمام أعدائكم الطغاة لتبعثوا فى قلوبهم الرعب ، وأحب أن تعلموا أن ذلك

كان سلوكى دائماً مستندة إلى الإيمان بالله وما تنطوى عليه صدور رعاياى من الولاء الصادق والعزيمة القوية . وها أنا بينكم فى قلب المعمعة ، فإما الموت فى سبيل بلادى وإما الخلاص معكم تحت راية النصر . واعلموا أننى أعرف أن لى جسد المرأة الضعيف ولكن لى قلب لايكون إلا للملوك وملوك إنجلترا بالذات » .

على أن معركة الأرمادا لم تكن بالفصل الأخير فى سلسلة الحروب الطويلة التى استمرت بعد وفاة فيليب الثانى والبزابيث ولم تنته إلا فى عام ١٦٠٤ ، بل كانت الفصل الأول منها .

أهم نتائج موقعة الارمادا :

١ — وكان من نتائج هزيمة أسبانيا وتحطيم الأرمادا أن آذنت شمس أسبانيا بمغيب، ولاحت شمس انجلترا بالشروق ، وإن كانت لم تتحقق نتائج فور الهزيمة . فعزيمة فيليب على استئناف الحرب لم تنته ، ولكنه آثر أن يكون استعداده لذلك قوياً محكماً لايتيح لانجلترا أن تفلت منه ، غير أن الظروف لم تمكنه من الأمر كما تصور ؛ إذ كانت أطماعه فى فرنسا تشغل باله كما أن عزمه على ما أراد قد اقتضاه مشروعات عديدة كلفته نفقات باهظة وقفت بأسبانيا على باب الإفلاس .

٢ — ومن نتائجها أن يتشجع الثائرون من شعب الأراضى المنخفضة فى الاستمرار فى المطالبة باستقلالهم ، وكان الأمل فى ذلك يملأ نفوسهم .

٣ — اطمأنت فرنسا بعد تلك الهزيمة التى حلت بأسبانيا فأمنت خطر فيليب الثانى وكان نفوذه مؤيداً بمساندة البابا قد تغلغل فى فرنسا ، وكان فيليب يومئذ رئيساً للعصبة الكاثوليكية . وتخلصت فرنسا نهائياً من هذا النفوذ بجهود هنرى نافار الذى أصبح يعرف بهنرى الرابع .

وهناك فريق من النقاد يوجهون اللوم إلى الملكة البزابيث فيتهمونها بالتقصير فى البذل بسخاء على تحريض من يناوئون أسبانيا فى الأراضى المنخفضة وفى فرنسا . ويعجبون من إحجامها عن الاستمرار فى محاربة فيليب الثانى — بعد الذى أصابه من ضعف وإخفاق — لإمكان الاستيلاء على بعض المستعمرات التى كانت واقعة تحت سلطانه . وأكبر الظن أن ما ضمت دار الوثائق فى بلاط البزابيث من امتناعها عما أراد النقاد قد خفى عليهم . ثبت من تلك الوثائق أن حال انجلترا المالية لم تكن لتعين على بذل

الجهود التى أشار إليها النقاد ، كما ثبت أن الإصلاحات الداخلية فى إنجلترا قد كانت فى مسيس الحاجة إلى توجيه جهود الملكة إليها لأن ذلك قد كان أجدى عليها وأنفع لها من تشتيت الجهود فى مساعدة الحركات البروتستنتية بصورة أوقع خارج انجلترا . وقد أثبتت الأيام حكمة سياسة الملكة الرشيدة فى اتجاهها نحو تركيز جهودها فى وضع الأسس القوية لبناء إمبراطوريتها بتقوية أسطولها العظيم .

اليزابيث والاستعمار :

وثابت أن انجلترا لم يكن فى استطاعتها أيام اليزابث أن تبدأ ببناء امبراطوريتها لفقرها إلى المال والرجال ، إذ كان عدد سكانها لايجاوز خمسة ملايين نسمة ، ولهذا كله باءت محاولات « سير ولتر رالى Sir Walter Raleigh » فى تأسيس مستعمرة فرجينيا عام ١٥٨٤ بالفشل . وفى بداية القرن السابع عشر أيام أسرة ستيوارت تتحسن أمور البلاد المالية ويزداد عدد سكانها فيبدأ التفكير فى حركة الاستعمار ويساعد على ذلك الاضطهاد الدينى الذى وقع بالبيوريتان فى عهد شارل الأول فيضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى أمريكا الشمالية فيؤسسون فيها مستعمرات لهم جنوبى نهر سنت لورنس ، عرفت باسم انجلترا الجديدة « New England » .

اليزابيث وبناء قوة انجلترا البحرية :

بدأت انجلترا تهتم بقوتها البحرية فى عهد أسرة التيودور فبلغت مركزاً هاماً فى عهد اليزابث ؛ إذ فطن الإنجليز فى عهد هذه الأسرة إلى حقيقة هامة وهى أن موقعهم المنعزل لم يعد كذلك ؛ بل أصبح مركزاً متوسطاً لطرق التجارية الحديثة ، وفطنوا إلى المكاسب التى تعود عليهم لو قاموا ببعض المخاطرات فى سبيل الكشف . وترتب على التغيير فى طرق التجارة نتيجة للكشوف الجغرافية البرتغالية التنافس بين الدول الثلاث أسبانيا وفرنسا وانجلترا على السيادة البحرية ، ذلك لأن كلا منها كانت تواجه المحيط الأطلسى الذى أصبح الطريق التجارى الهام بين غرب أوروبا ومنطقة جزر الهند الشرقية أى فى الشرق الأقصى .

وكانت أسبانيا وجارتها البرتغال أولى هذه الدول استغلالا للموقف . وقد عمرتا بالسكان أمريكا الجنوبية والوسطى . وأرادت فرنسا أن تحذو حذو أسبانيا ، فتنافسها فى سيادة البحار وفى الاستعمار فى العالم الجديد ، ولكن عندما كشف كولمبس أمريكا

كانت فرنسا مشغولة بمشاكلها الداخلية وبالنزاع الأسرى بينها وبين أسرة الهبسبورج. وقد كانت الحروب الدينية التى اندلعت فى فرنسا (١٥٦٠ – ١٥٩٨) ، ونجت منها إنجلترا فى عهد اليزابث من العوامل التى جعلت فرنسا تنصرف كذلك عن الميدان الاستعمارى .

وهناك حقيقة هامة يجب أن نشير إليها وهى أن طائفة البروتستنت فى كل من هولندا وانجلترا كانت طبقة تجارية وبحرية ، كما كانت طائفة الهيجونوت من أنشط الطبقات فى فرنسا ، ولكن أبيد فريق كبير منها فى مذبحة « سان برثلميو St. Bartholomew » عام ١٥٧٢ فى فرنسا على حين أصبح « دريك » وبحارته البروتستنت أبطالا فى نظر الشعب الإنجليزى .

نضيف إلى ذلك أن طبيعة انجلترا وقرب سواحلها من البحر جعل اتصالها بالبحر سهلا ولا سيما لندن التى تقع على البحر بينما كانت عاصمة فرنسا باريس تقع فى الداخل . أما أسبانيا فعلى الرغم من موقعها البحرى الممتاز ؛ فإن تخلفها فى ميدان الصناعة قد جعلها تخلو من التجار المخاطرين والبحارة المهرة ، بل ومن الساسة المحنكين ، ولكنها امتازت أيام عظمتها بقوة جيشها البرى ، وجنودها الأشداء .

ساعدت تلك العوامل إلى جانب نمو الحركة التجارية فى انجلترا على نجاح القوة البحرية فى عهد اليزابث ونجاح حركة الاستعمار أيام الأسرة التى تلت حكمها وهى أسرة استيوارت .

ومن كل ما ذكرنا نرى كيف نجح الإنجليز والهولنديون حيث فشل الأسبانيون ؛ وقد كانوا فى عهد فيليب الثانى أقوى دول الاستعمار ، ذلك لأن الإنجليز والهولنديين تعلموا الاتجار مع المستعمرات الأمريكية المكتشفة حديثاً على عكس الأسبانيين ؛ فى سبيل بيع مصنوعاتهم من المنسوجات أخذ التجار الإنجليز المحبون للمخاطرة يبحثون عن أسواق جديدة لهم منذ بداية القرن الخامس عشر . فاتجهوا فى عهد اليزابيث إلى ميادين بعيدة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا . ونجحت اليزابيث فى توسيع حركة بلادها التجارية بروسيا وذلك بإنشاء أول شركة غربية فى موسكو وهى « شركة موسكو الانجليزية » .

وكان لاقتناع اليزابيث بأهمية التجارة أثر كبير فى اتصالها بالرأى العام ، فاستطاعت بمعاونة « سيسيل Cecil » — رئيس مجلسها الخاص — أن توثق صلاتها بمؤسس البورصة

الملكية « سير توماس جريشام Sir Thomas Gresham » ، واعتمدت عليه فى الحصول على القروض التى استعانت بها فى سد حاجاتها فى الداخل وتحقيق سياستها فى الخارج ، كما اتخذت منه مستشاراً لشئونها المالية .

علاقة البزابيث بالبرلمان :

بدأ مجلس العموم فى البرلمان الانجليزى أيام البزابث يتجه اتجاها سياسياً خاصاً فى اتصاله بالحكومة مؤيداً أو ناقداً . فكان أعضاؤه أشد حماسة من الملكة نفسها فى موقفها السياسى من البابا وأسبانيا كلها . ومن ذلك إظهار ولائهم للملكة وإصرارهم على اتخاذ إجراءات من شأنها حماية الملكة وضمان سلامتها ، ثم نصحوا لها بالزواج بغية الإبقاء على الحكم فى أسرتها بتعيين من يخلفها على العرش ، كما نصحوا لها بالتخلص من عدوتها مارى الاسكتلندية وكانت سجينة فى انجلترا عن طريق الإسراع بإعدامها . كان البرلمان فى بداية عهد أسرة التيودور كما تبينا خاضعاً لإرادة الملك منفذا لأوامره وكان لذلك أثره فى نجاح سياسة الإصلاح الدينى .

أما البزابيث فقد اتصفت كما تقدم بالحرص على احترام حقوق أعضاء البرلمان وامتيازاتهم ، وكانت فى ذلك واضحة الذهن بحيث أدركت أن قوتها لا تستند إلى إيمانها بالحق الإلهى كما هو الحال فى فرنسا ؛ وإنما إلى ولاء الشعب الذى يتمثل فى برلمانه . وكانت طوال عهدها موفقة فى اتصالاتها برجالات الدولة وأعضاء البرلمان. وخرجت من دنياها مستحقة لتقدير رجالات عهدها وبخاصة أعضاء البرلمان ، ذلك لأنها استجابت لرغبتهم فى إلغاء الاحتكارات التجارية المختلفة التى كانت بغيضة إلى نفوسهم .

نهضة العلوم والآداب :

وامتاز عصر البزابث بنهضة فى العلوم والآداب . وكان عصراً زاخراً تحسد عليه انجلترا ، وبحسبها أن يكون من رجال هذا العصر شكسبير (١٥٦٤—١٦١٦) بانتاجه الأدبى الذى عدته الأجيال من معجزات ذلك العصر .

يستطيع القارىء أن يتصور معنا بعد الذى ذكرنا من ملامح عصر البزابيث وسماته أنه كان بحق عصر أسرة التيودور الذهبى .

الفصل الثامن

ثورة الأراضى المنخفضة

كيف آلت الأراضى المنخفضة إلى أسبانيا ؟

آلت هذه الأراضى إلى أسبانيا عندما ماتت مارى البرجندية زوج الإمبراطور مكسمليان فى عام ١٤٨٢ ، وكان قد تزوج منها فى عام ١٤٧٧ ، وقد أصبحت الأراضىَ المنخفضة عند وفاة زوجه تحت وصايته وحكمها نيابة عنه ابنه فيليب ، وقد تزوج فيليب هذا فى عام ١٤٩٦ من « جوانا » الأسبانية فورث ابنهما شارل عرش أسبانيا باسم « شارل الأول » ملحقا بها الأملاك البرجندية وأهمها الأراضىَ المنخفضة . ثم انتخب إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم « شارل الخامس » .

ونتج عن هذا الإرث البرجندى أن أصبحت أسبانيا ترقب باهتمام بالغ كل ما يقع فى بريطانيا وأسبانيا وفرنسا وغرب أوروبا بصفة عامة ؛ وإن كان لهذا الإرث مساوئه بالنسبة لآل هابسبورج أنفسهم وبالنسبة لألمانيا والإمبراطورية ، فقد وزع جهود الأباطرة ووجهها نحو غرب أوروبا ، بينما كانت مصالح الإمبراطورية الرئيسة تقع فى شرق أوروبا حيث تقع فيينا مفتاح الباب الشرقى لها : وكثيراً ما تعرضت العاصمة فيينا لغارات الأتراك والمجريين والسلاف وغيرهم .

الاختلافات الواضحة بين الأسبانيين وشعب الأراضى المنخفضة :

وأصبحت الأراضى المنخفضة المحور الرئيسى الذى تدور حوله السياسة الأسبانية. ومن الغريب أن الأراضى المنخفضة كانت تختلف عن أسبانيا تمام الاختلاف ؛ فبينما كانت أسبانيا لا تزال إقطاعية أرستقراطية كانت الأراضى المنخفضة قطراً مكوناً فى غالبيته من مدن عديدة تعيش على التجارة . ونجحت أسبانيا إلى حد بعيد فى توطيد الحكم المركزى فيها ، بينما كانت الأراضى المنخفضة تتكون من سبع عشرة ولاية مستقلة لكل منها دستورها الخاص ؛ حتى لتكاد كل منها تكون جمهورية مستقلة بشئونها الخاصة ، كذلك كان شأن الحياة السياسية فى ذلك الوقت . وقد نشأ عن صراع

الأسبانيين مع العرب وعن طبيعتهم الخاصة أن أصبحوا شعباً متعصباً لكاثوليكيته . فقد تميزت أسبانيا بتعصبها الشديد الذى عرفت به منذ حكمها العرب . وكانت الأراضى المنخفضة كاثوليكية كذلك فى غالبيتها وبقيت على هذه الحالة حتى انتهاء الصراع بينها وبين أسبانيا ، ومع ذلك فقد كان يسود ربوع الأراضى المنخفضة الحرية والتقدم ، كما كانت الآراء الحديثة تلقى ترحيباً ، وأخذت اللوثرية تنتشر بين ربوعها. لذلك كانت العلاقات بين الشعبين من أصعب المشاكل القائمة ، وقد يقال إنه من الممكن حل هذه المشكلة لو منحت تلك الولايات استقلالا داخلياً واسعاً ، وحريات قومية ، ولكن لم تكن هذه الآراء التقدمية التى تدفع إلى التسامح معروفة بعد (أى فى القرن السادس عشر) . فكان منح الشعوب المحكومة بعض الحرية والاستقلال الداخلى يفسر على أنه ضعف من الحاكم . ولم يكن فيليب الثانى (١٥٢٧ — ١٥٩٨) المستبد المتعصب ليقبل أن تنعت أسبانيا بالضعف عندما تصل إلى هذه الدرجة التى تمنح فيها شعب الأراضى المنخفضة حريتــه واستقلاله الذاتى ، لم يكن فيليب الثانى المغرور بسلطانه ، المتصف بصلابة الرأى ليقبل ذلك العمل ، مع أن الحكمة كانت تقتضيه أن يعمل على استمالة هذه الولايات الغنية بدلا من تنفيرها بوسائل الغش والخداع وتسليط رجال الدين عليها التماساً لجعلها خاضعة له خضوعاً تاماً . فوسائل السلم قد نجحت فى النهاية فى الإبقاء على الولايات الجنوبية من الأراضى المنخفضة (بلجيكا) تابعة لأسبانيا ، تلك الوسائل التى رفض فيليب الثانى بادىء الأمر أن يستعين بها على استمالة هذه الولايات جميعاً .

كانت الولايات السبع عشرة من الناحية السياسية تكون إسمياً جزءاً من أملاك الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومع أن الإمبراطور كان الحاكم لهذه الولايات إلا أنها كانت لاتتبعه إلا تبعية إسمية ، وكان نفوذه فيها ضعيفاً للغاية ، لذلك كانت السياسة الأسبانية تتجه نحو تركيز سلطتها فى هذه المنطقة . وكانت هذه ظاهرة من الظواهر السياسية فى القرن السادس عشر ، وكانت الأراضى المنخفضة فى أخذها بالمبادىء الاستقلالية وعدم خضوعها لسلطة موحدة إنما تمثل خروجاً على ما كان سائداً فى غرب أوروبا فى ذلك العهد من القدرة على تجميع السلطة . ولكن حكام هذه الولايات مكسمليان وفيليب الأول وشارل الخامس وفيليب الثانى على التوالى قد أراد كل منهم أن يوحدها ويجمعها تحت حكم واحد ، وظهرت الرغبة بين هذه الولايات بضرورة إيجاد

نوع من الوحدة بينها ، وقد كان هناك اتفاق شبه جماعي على ذلك في استحداث بعض المجالس المركزية ، وقد أثبتت صلاحيتها ومهارتها في العمل .

ونجح شارل الخامس بعد تجارب عديدة عام ١٥٣١ في إنشاء ما أسماه بمجلس الدولة Councul of State للإشراف على السياسة العامة للأراضي المنخفضة . وإنشاء المجلس الخاص Private Conncil وكان بمثابة محكمة قضائية عليا تقضي في الخلافات القائمة بين الولايات المختلفة . كما أنشأ مجلساً ماليا Financial Council للإشراف على الأمور المالية للولايات السبع عشرة . كانت هذه المجالس تشبه المجالس السائدة في ذلك العصر في دول أوربا المختلفة . وكان ينهض بأعبائها موظفون يعينهم الحاكم (الملك) ليحققوا له من أمور السلطان ما يريد ، وتميز أعضاء مجلس الدولة بأنهم كانوا يبقون في وظائفهم مدى الحياة . ونضيف إلى هذه المجالس مجلساً آخر نشأ في هذه الولايات عام ١٤٦٣ ، وكان يعرف بمجلس طبقات الأمة States General ، وقد أخذت الفكرة والتسمية من فرنسا . لم يكن هذا المجلس من المجلس الأصلية في هذه الولايات ، وإنما كان في بداية الأمر عاملا على تسهيل شئون الحكم وجمع الضرائب من الولايات المختلفة . كما لم يكن أعضاؤه منتخبين ولم يكن لهذا المجلس سلطان أو نفوذ ما ؛ فلم يكن حتما على الولايات المختلفة أن تأخذ بقرارات هذا المجلس ، كما لم يكن أعضاؤه ممثلين للولايات وإنما كانوا مبعوثين منها وكان لا يؤخذ بقرارات هذا المجلس إلا إذا وافقت عليها السلطات المختلفة في الولايات جميعاً .

وكان هذا المجلس يختلف عن مجلس طبقات الأمة الفرنسي ، كما أنه يختلف اختلافاً جوهرياً عن البرلمان الإنجليزي ؛ فكانت جلساته عبارة عن مناقشات ومداولات بين سفراء هذه الولايات أو مندوبيها ؛ فمن هنا لم يكن هذا المجلس إدارة حقيقية للحكم المركزي ، وتميز هذا المجلس بكثرة اجتماعاته ، وقد أصبح فيما بعد المكان الذي ظهرت فيه معارضة الولايات لسياسة ملك أسبانيا ، كما أخذت هذه المعارضة تقوى فيه تدريجياً .

وإذا أردنا التماس الحياة السياسية الحقة لهذه الولايات (الهولندية والبلجيكية) فإننا لا نجدها في المجالس المركزية وإنما نعثر عليها في المجالس المحلية الإقليمية . فقد

كانت المجالس الوطنية المحلية قوية إلى حد أنها استطاعت أن تقاوم كل عدوان خارجي، ولم يقع الاتحاد بين هذه الولايات إلا فى حالات محدودة لمواجهة الأزمات الشديدة ؛ الأزمات التى كانت تهدد حياة هذه الولايات وكيانها . فتمثلت فى المجالس المحلية الإقليمية حياة سياسية قوية لا يمكن أن تقارن بها الحياة فى أي بقعة من بقاع أوروبا فى تلك الفترة ، هكذا رأى « جرانت » الذى يقول "a political life incomparably more intense than any that was to be found in Europe at this epoch". وتظهر قوة هذه الحياة السياسية المستقلة وأخذ هذه الولايات بمبادىء الحرية والاستقلال ما أعلنته هولندا بعد قرن ونصف قرن — مع العلم بأنها كانت تتكون من سبع ولايات تتحد فى ديانتها ، ومصالحها التجارية وشعورها القومى — من أنه من حسن حظها وتوفيق الله إياها أنها لم تكن موحدة . فقد كان لكل ولاية حاكمها Stadhoulder ولها مجالسها الخاصة . كما أن الولاية الواحدة لم تكن تكون وحدة متماسكة تماما فى نظامها بل كان للمدن مجالسها ونظمها الخاصة بها .

الحياة الاقتصادية : امتازت هذه الولايات بحياتها التجارية العظيمة ؛ فقد كانت مهداً للتطورات الاقتصادية والتجارية فى هذه الحقبة التى أخذت فيها الأهمية التجارية لإيطاليا فى الاندثار ، والتى لم تكن قد ظهرت فيها بعد الأهمية التجارية لانجلترا . وقد نتج عن ذلك إثراء هذه الولايات ؛ فكانت « أنتورب » Antwerp تتمع بمركز ممتاز وسيطرة تجارية لم تعرفها من قبل أى مدينة من مدن أوروبا ؛ فأصبحت مركزاً مهما فى التعامل الدولى ، وفاقت كلا من « بروج » Bruges و « غنت » Ghent فى الثروة والتمتع بالحرية المطلقة فى الاتصالات ، وكان لنمو التجارة فى المحيط الأطلسى أن أصبحت « انتورب » تفوق مدن Flanders « الفلندر » فى مركزها الممتاز بالنسبة للتعامل الدولى . وقد تأثرت كل من « بروج » Bruges و « يبر » Ypres فى الفلندر بقيام الصناعات الصوفية فى انجلترا .

ومع ذلك فقد كانت الأراضى المنخفضة أكبر وأعظم المصادر التى تسهم فى ثراء أسبانيا . وكما كانت تجارة هذه الأقاليم مرتبطة ارتباطاً عظيماً بانجلترا فى الفترة التى كان فيها فيليب الثانى يحكم إنجلترا مع زوجه مارى تيودور (١٥٥٤ — ١٥٥٨) ، وكان فيليب الثانى يقدر مدى أهمية مصادقة إنجلترا ، كما كان أبوه يقدرها من قبل وكان كذلك يدرك الخسارة الفادحة التى يمكن أن تحل بأسبانيا إذا توقفت هذه

التجارة ، إذ كان فى مقدور انجلترا — إذا كانت على علاقة غير طيبة بأسبانيا — أن تقطع المواصلات البحرية بينها وبين الأراضى المنخفضة على حين أنه إذا كانت العلاقات علاقات صداقة فإن إنجلترا تحمى هذه المواصلات .

الناحية الدينية : كان فيليب الثانى كاثوليكياً مخلصاً فى كاثوليكيته ، وكان الدين هو الاعتبار الأول الذى يوجه نحوه فيليب الثانى اهتمامه .

ولم تكن الحياة الدينية فى الأراضى المنخفضة أقل أثراً من الحياة السياسية والتجارية بها ، إذ كانت مساوىء الكنيسة واضحة ، وكانت من هذه الناحية لا تختلف كثيراً عنها فى ألمانيا . وظهر « إرزمس » (١) فى الأراضى المنخفضة فى روتردام وهى مسقط رأسه ، وقام بنشاطه المبكر ، وكان لتعاليمه الإنسانية أثرها العميق فى توجيه الأذهان نحو الإصلاح ، فأدخلت كثير من التعديلات فى نظم التربية ، وقد ساعد نمو الطباعة على نشر حركة الإصلاح .

أما فى المجال الأدبى ، فقد كانت هذه الولايات تفتقر إلى لغة قومية ، وبرغم أن اللغة الفلمنكية القديمة لا تزال معروفة ومستعملة إلا أن اللغة الفرنسية استطاعت أن تحتل مكانة ممتازة فى عالمى السياسة والأدب ، لم يلتفت إلى الاحتفاظ باللاتينية كلغة للثقافة فى أى مكان فى أوروبا كما كانت الحال فى الأراضى المنخفضة ، فكان أرزمس يكتب غالباً باللاتينية . ومع أن نتاج الأراضى المنخفضة الأدبى لم يكن عظيما فإن نتاجها الفنى قد عوضها عن هذا النقص ، إذ استمر فن التصوير فى ازدهاره ، وكان لإيطاليا أثرها العظيم فى إنعاش هذا الفن ، على أن النصف الثانى من القرن السادس عشر لم يكن عصر الازدهار فى تاريخ الفن فى الأراضى المنخفضة .

الأراضى المنخفضة تحت حكم فيليب الثانى :

بسطت الامبراطورية نفوذها على الأراضى المنخفضة فى عهد شارل الخامس ، ثم خلف فيليب الثانى أباه فى حكم الأراضى المنخفضة (١٥٢٧ — ١٥٩٨) وكان الأمل عظيما فى أن يسودها السلام ، إذ استقبل الحكم الجديد بحماسة عظيمة . فقد انتهت الحروب الإيطالية بانتصار أسبانيا وتفوق قواتها على فرنسا . فأحرزت قوات أسبانيا انتصارين عظيمين فى نهاية هذه الحرب وهما انتصار « سانت

(١) انظر ص ٩٦ — ٩٧ .

كونتان » St.Quentin وانتصار « جرافلين » Cravelines وقد قام فيهما الضباط والجند الفلمنكيون بدور خطير ، فقد كان mmanuel Philibert of Savoy حاكم الأراضى المنخفضة يومئذ يقود القوات الأسبانية فى معركة St Quentin بينما ساهم فى هذة المعركة كذلك Count Egmont من الأراضى المنخفضة وقاد الجيوش فى الانتصار الثانى فى « جرافلين » Gravelines .

الأراضى المنخفضة تحت حكم « مارجريت أوف بارما » (١٥٥٩–١٥٦٧) :

عينت « مارجريت أوف بارما » Margaret of parma حاكمة على الأراضى المنخفضة عقب عقد صلح Cateau-Cambrésis عام ١٥٥٩ . وهى ابنة غير شرعية لشارل الخامس ، وهى أم « اسكندر صاحب بارما » Alexander of Parma الذى سيقوم بدور هـــام فى تاريخ هذه الولايات فى نهاية ذلك القرن . كانت مرجريت فلمنكية الأصل ، قديرة فى إدارتها مملوءة نشاطاً وحيوية ، تجيد لغة البلاد، ولو تركها فيليب الثانى تحكم بمساعدة الفلمنكيين لنجحت ، ولكان حكمها حكماً مرضياً عنه . ولكن لم تترك لها حرية التصرف ، فكان فيليب الثانى يصدر اليها أوامر سرية باضطهاد المخالفين للعقيدة الكاثوليكية ، كما عين فيليب الكاردينال « جرانفيللا » Granvella رئيســاً للمجلس . وكان فيليب الثانى على اتصال دائم به يملى عليه سيــاسته .

وبدأت الصعوبات تظهر بسرعة فى وجه الحاكم الجديد . ذلك لأن الحرب التى اشتركت فيها أسبانيا المعروفة « بالحروب الإيطالية » قد كلفتها أموالا طائلة ، وجعلت حكومتها مشرفة على الإفلاس مما جعل فيليب الثانى يطلب من الولايات أن تدفع أكثر مما كانت تراه ، كما أنه أراد أن يترك بعضاً من جنده فى أراضيها . وكان يرمى من وراء ذلك إلى التخفيف عن أسبانيا بعض أعبائها الاقتصادية ، وجعل هؤلاء الجند عوناً للحكومة إذا وجدت أى مقاومة وطنية . وقد كانت المعارضة قوية ضد هذين الإجراءين لدرجة أن فيليب الثانى وعد بسحب القوات وبتخفيض المبالغ التى أراد جمعها من سكان هذه الولايات . ولكن لم يلبث الأمر طويلا حتى نشأت مشكلة جديدة ذلك عندما ظهرت الحاجة إلى إعادة تنظيم الأسقفيات فى الأراضى المنخفضة ؛ كانت حالتها فى حاجة إلى تغيير اقتضاه أمران :

أولهما : أن توزيع الأسقفيات لم يكن يتفق مع الوحدات السياسية .

وثانيهما : تبعية هذه الأسقفيات لرئيس أساقفة « كولونيا » Cologne و « ريمس » Reims .

وإذا كانت الولايات قد رحبت بإعادة تنظيم الاسقفيات وإصلاح الأوضاع المتعلقة بتبعيتها ، إلا أنها لم ترحب بمسلك أسبانيا فى الإصلاح ذلك لأن ملك أسبانيا كان يريد أن يجعل من حقه فى تعيين الأساقفة الجدد وسيلة لتحويلهم إلى أعوان خاضعين لاسبانيا ، فيراقبون بالتالى الأهالى مراقبة دقيقة ، وينشئون فى أراضيهم مايماثل محاكم التفتيش .

وقد رأس حركة مقاومة الحكم الاسبانى ممثلا فى الكردينال « جرانفيللا » شخصيتان تختلفان عن بعضهما تمام الاختلاف ، فعملا على إقصائه من منصبه الرفيع فى الاراضى المنخفضة ، وهما الكونت « إجمونت » Count Egmont و « أمير أورنج » Prince of Orange وكان « اجمونت » يملك ضياعاً واسعة ، وقد قاد جيوش أسبانيا بشجاعة فائقة ، وأظهر تفوقاً عظيما فى كل من موقعى St. Quentin ، Gravelines ، كان كريماً ، محبوباً ، صريحاً ، ولكنه اتصف بالغرور .

أما « وليم أورنج » William of Orange المعـروف فى التاريخ « بالصامت » The silent فكان ينتسب إلى ولاية « أورنج » Orange على نهـر الرون ، ويحكم « هولندا » Holland و « زيلندا » *Zeeland* ، و « يوترخت » Utrecht ، كما كان بالإضافة إلى ذلك على علاقات وثيقة بألمانيا حيث كان يمتلك بعض الأراضى ، وكان مقرباً من شارل الخامس الذى استعان به عندما تنازل عن لقبـه الامبراطورى وعن أملاكه . وكان وليم أورنج لوثريا ، ولكنه تربى على المذهب الكاثوليكى . ولم يلبث أن تحول إلى الكالفنية . اتصف بشبابه وشجاعته ، وكبريائه وهى كبرياء لم تخل من العطف . كان هذا الأرستقراطى العظيم يحقد على وجود القوات الأسبانية ببلاده ، كما كان يشفق على أولئك الذين وقعوا تحت طغيان أسبانيا وقسوتها . فقام — بما اتصف به من مزايا عسكرية وتمسك بالمبدأ ، وسيطرة تامة على الشئون الدبلوماسية — بقيادة

الشعب الفلمنكى فى نضاله للتخلص من النير الأسبانى ، وقد أخـذ عليه بعض النقاد أموراً منها أنه كان أول أمره من الموالين للحكم الأسبانى ثم انقلب ثائراً عليه ، وكان كاثوليكياً ثم أصبح لوثرياً ثم كلفنياً . وإقراراً للحق أن الرجل من عشاق الحرية ومن المؤمنين بها فعمل على سيادتها ، وكان يبغض التعصب فأضحى مصيره القتل كمصير صديقه « اجمونت » Egmont ، وهو يعـد من أبطال الحرية العظام ، فى أوروبا .

ناضل حزب المعارضة كى يقضى على حكومة الأراضى المنخفضة . وقد أثار ذلك فيليب الثانى لدرجة عظيمة . ولكنه وجد أنه من الضرورى أن يرضخ للأمر الواقع ، وأن يحنى رأسه بعض الوقت للعاصفة : فاستبعد « جرانفيلا » Granvclla عام ١٥٦٤ ، وتحقق بذلك أحد مطالب المعارضة . وقد ظنت عندئذ مارجريت أنه فى استطاعتها أن تحكم — بعد إقصائه — بالعدل وأن تصلح من شئون الأراضى المنخفضة . ولكن كانت المقاومة فى هذه الآونة قد انتقلت إلى دائرة أوسع وظهرت فيها روح جديدة . ويرجع ذلك التطور إلى أن المذهب الكلفنى بدأ يتوغل داخل الأراضى المنخفضة متخذاً طابعاً ثورياً مليئاً بالتعصب . ووجدت تعاليم المذهب الجديد ترحيباً لدى كثير من النفوس نظراً لأنها كانت مكتوبة بالفرنسية مما جعلها مفهومة لدى الغالبية العظمى من السكان ، كما أنها كانت تنادى بالحكم الذاتى المستقل وتؤيد مقاومة الحكام الذين يضطهدون الأفراد . لذلك انسجمت هذه التعاليم مع حركة المقاومة التى كانت قائمة فى الأراضى المنخفضة ضد أسبانيا .

ولم يكن عزل جرانفيللا ليثنى فيليب الثانى عن عزمه فى المضى فى سياسته فقد أخذت محاكم التفتيش تعمل بعنف ، كما أخذت قوانين الاضطهاد Placards تنفذ بدقة . وزاد عليها فيليب الثانى بأن فرض على سكان الأراضى المنخفضة أن يوافقوا على مبادىء مجلس « ترانت » Trent (١). عندئذ قدم الثائرون بإيعاز من ونيم أورنج احتجاجاً على هذا الاضطهاد ، وسلمه Egmont بيده للملك فى يناير ١٥٦٥ .

ولما لم يجد هذا الاحتجاج اشتد هياج النفوس ، وأخذت فئة من صغار النبلاء ومنهم « مرنكس » Marnix الكلفنى ، و Brederode الكاثوليكى تقاوم بعنف محاكم التفتيش ، وفى ابريل ١٥٦٦ قدموا التماساً إلى الحاكم وعرفوا عندئذ بالمتسولين Gueux تسمية لحقت بهم كتلك التى لحقت ببروتستنت فرنسا بالهيجونوت Huguenots .

---

(١) انظر هامش (١) ص ١٠٤ .

ولما لم يجد الاحتجاج ، بلغ الهياج أشده فى الأراضى المنخفضة فى هذه الفترة إذ امتنعت الحكومة عن إيقاف العمل بالاضطهادات الشنيعة وإيقاف أعمال محاكم التفتيش . وانتشرت الفوضى فعمت الأراضى المنخفضة . ومع أن أعضاء المذهب الكلفنى كانوا قلة إلا أنهم استطاعوا بمساعدة السلطات المحلية السلبية فى موقفها أن يتمادوا فى تخريبهم وهياجهم والإخلال بالأمن . فأعدت أماكن لإقامة شعائر كلفن علناً ، وأخذ الثوار فى تخريب الكنائس الكاثوليكية لدرجة أثارت كلا من « وليم أورنج » و «كونت اجمونت » فهاجم الثوار بين ما هاجموا كنيسة « انتورب « Antwerp الغنية بمخلفاتها الفنية التى ترجع إلى العصور الوسطى .

أثارت كل هذه الاعتداءات فيليب الثانى إثارة عظيمة ، ولكنه تريث فلم يظهر نواياه مباشرة . ولا غرابة فى ذلك فإنه لم يتصف بالصراحة ولا بالذكاء كما خلا من الإنسانية ، فلم يلبث أن ضرب ضربته القاضية عندما أرسل جيشاً مكوناً من ١٨,٠٠٠ مقاتل من الأسبانيين والإيطاليين وعلى رأسهم دوق ألفا Alva عام ١٥٦٧ ، فلم يرق ذلك مرجريت ، فاعتزلت الحكم ، وحل محلها دوق ألفا ؛ فأصبح حاكماً عاماً على الأراضى المنخفضة (١٥٦٧ — ١٥٧٣) . أراد أن يطبق فى الأراضى المنخفضة سائر النظم المتبعة فى أسبانيا وأن يخضعها إخضاعاً تاماً ، هادفاً بذلك إلى تثبيت مكانه فى بلاط فيليب الثانى ، إذ كان مركزه مزعزعاً فى أسبانيا ، فخطر له أن من وسائل ذلك التغلب على خصوم أسبانيا فى الأراضى المنخفضة ؛ لذلك لم يتوان لحظة واحدة فى تنفيذ خطة إرهابية للسيطرة على الموقف ، فقبض على كل من «كونت هورن » Horn Admiral Count و «كونت اجمونت » Count Egmont وأودعهما السجن (وكانا كاثوليكيين) بعد أن نصح إليهما من قبل وليم أورنج بمغادرة البلاد إلى مكان أمين بعض الوقت وذلك حين فطن إلى نوايا فيليب ولكنهما كانا مطمئنين كل الاطمئنان لدوق ألفا ، ولذلك لم يبارحا البلاد بينما فضل وليم أورنج أن ينسحب إلى أملاكه فى ألمانيا حتى تزول ساعة الخطر .

وأنشأ دوق Alva « مجلس الدم » الذى استحق هذه التسمية بسبب ضحاياه العديدة ثم أدين كل من « هورن » Horn و « اجمونت » ,Egmont وحكم عليهما بالموت لتآمرهما على ملك أسبانيا . ولم يشفع لهما مركزهما الرفيـــع فى الدولة ولا أصلهما

الارستقراطى ولا الخدمات الجلية التى قدماها لبلدهما ؛ فقد أعدما فى ميدان السوق فى بروكسل فى ٥ يونيو ١٥٦٨.

واستمر « ألفا » يعمل على تنفيذ سياسته الغادرة ست سنوات ، أحرز فى بدايتها بعض النجاح . فحكم بالموت عن طريق مجلس الدم على حوالى ١٨٠٠ نفس من الثوار والمارقين . وساهمت فى النهاية عوامل عدة لم تكن فى الحسبان فى فشله فى مهمته منها :

(١) المقاومة الشديدة العنيفة الصادقة التى واجهها من شخص التفت حوله قلوب سكان الأراضى المنخفضة وعقدت عليه أمانيها وهو الأمير أورنج ، وقد حكم عليه مجلس الدم بالموت غيابياً أثناء وجوده فى ألمانيا . وقد نشر عندئذ مقالا وهو بعيد عن بلاده بعنوان « التبرير » هاجم فيه طغيان فيليب وظلمه مهاجمة سافرة كما أنه لم يقبع فى داوه بل شن غارات مختلفة على الأراضى المنخفضة . ومع أن قواته كانت أقل عدداً وتنظيما من قوات « ألفا » وهزمت أكثر من مرة إلا أنها قد كلفت « ألفا » نفقات باهظة .

فى تلك الأثناء اعتنق أمير أورنج الكلفنية ، وأظهر إخلاصاً عميقاً لها ، كما تميز بروح تسامح دينية غير عادية ، بل وغير مألوفة فى ذلك العهد . نجح فى أن يهاجم جيش Alva وينزل به خسائر كثيرة وإن كان الانتصار فى النهاية لدوق ألفا . ثم جمع جيشاً جعل قيادته لأخيه « لويس ناسو » Louis of Nassau . وقد نجح هذا القائد فى بادىء الأمر فأحرز بعض الانتصارات فى « فريزلاند » Friesland وكان يأمل فى الحصول على معونة الهيجونوت . ولكن ألفـــا بادر بمواجهة قواته فى « ييمنجن » Jemmingen فاضطرت قوات « لويس ناسو » غير المدربة إلى الفرار أمام المحاربين المدربين من الأسبان فى ٢٢ يوليو ١٥٦٨ ، ونجح ناسو فى الفرار ولكن لم يستطع غالبية جنده ذلك ، ولم يقتل من المحاربين الأسبان فى المعركة أكثر من سبعة . وكان واضحاً من ذلك مدى عجز الأراضى المنخفضة عن نيل استقلالها والمضى فى مقاومتها .

على أن ذلك لم يثن أورنج عن عزمه وتصميمه ؛ فى سبتمبر ١٥٦٨ دخل ولاية « برابانت » Brabant ونازل قوات ألفا التى رفضت مواجهته ، ومع ذلك فقد نزلت بقواته خسائر فادحة ؛ فاضطر إلى أن يعود من حيث أتى بعد شهر دون أن ينجح فى تحقيق أى نتائج حاسمة .

وانتصر « ألفا » من جديد ، واشتدت وطأة قسوته واضطهاداته مما جعله يقيم فى « انفرس » تمثالا ضخماً لنفسه احتفالا بهذه المناسبة : « لأنه أخمد الثورة ، وعاقب المتمردين ، وثبت العقيدة ، وضمن العدالة ، ووطد السلام » .

على أن إجراءات ألفا الوحشية فشلت فى أن تحقق انتصاراً شاملا ، وكان ألفا فى نهاية عام ١٥٦٩ يفخر بأنه قد قضى على الهرطقة وأخضع الولايات ، ويرى أنه لم يعد أمامه سوى أن ينفذ بقية خططه الخاصة بجعل الولايات تكفر عما تسببت فيه من اضطرابات وتساهم بدرجة كبيرة فى تنمية الموارد الملكية فى المستقبل لتنفيذ ما أراد .

(٢) العامل الثانى هو فرض ضرائب جديدة ، وهنا أثبت « ألفا » أنه قليل الدراية بالشئون المالية إذ غاب عنه أن هذه الضرائب التى فرضها على بعض السلع الهامة من شأنها أن تعوق التجارة ، ولا تحقق الغرض الذى من أجله فرضها وهو زيادة موارد الدولة . كما أثبت قصر نظر وعدم حكمة عندما أثار الجميع ضده الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء ، فاتحدوا جميعاً عند المساس بمصالحهم التجارية ، هذا مع العلم بأن الكاثوليك كانوا قد أيدوا من قبل اجراءات « ألفا » التعسفية للقضاء على أعداء الكاثوليكية ولكنهم لم يلبثوا أن رفعوا ضده راية العصيان ؛ فاشتدت المعارضة فى مدريد وفى الأراضى المنخفضة ، وركدت التجارة وأغلق التجار محالهم مفضلين ذلك على تأدية الضرائب المطلوبة . وامتلأت نفوس الغالبية العظمى من الشعب بالاستياء العام والكراهية البالغة تجاه شخص « ألفا » alva البغيض .

(٣) أما العامل الثالث فهو جهود الثائرين فى البحر :

فى هذا الجو المشحون بالاستياء والغضب كان من السهل إثارة الشعب ودفعه إلى مقاومة هذا الحكم الغاشم : وفر فريق من سكان الأراضى المنخفضة أمام الاضطهاد والخوف من الخضوع لسلطان دوق ألفا ، وكانوا من هواة ركوب البحر ، فاشتغلوا بالقرصنة فى القناة الانجليزية ، وأخذوا يشنون الحرب باسم « وليم أورنج » ضد دوق ألفا ؛ وتميزت عملياتهم بالشجاعة والجرأة فتسببوا فى إنزال خسائر جمة بالسفن الأسبانية ، كما وجدوا فى انجلترا سوقاً رائجة لأسلابهم . وفى بداية عام ١٥٧٢ احتج ألفا لدى اليزابث على إيوائها أولئك البحارة الذين اعتادوا الاقامة فى بعض ثغور جنوب انجلترا . ولم ترغب اليزابث فى إثارة الأسبانيين عليها فأرسلت أوامرها إلى قراصنة

الأراضى المنخفضة تعلن حرمانهم من المؤن . فلما قسى عليهم الجوع غادرت انجلترا سفنهم الأربع والعشرون تحت قيادة النبيل الفلمنكى « وليام دلامارك » de la Marck William قاصدة الاغارة على الأراضى المنخفضة ، فدفعت الريح هذه السفن صوب مدخل نهر « الموز » Mevse فأصبحت فى مواجهة مدينة « بريل » Brill . هنالك خطر لهم – وكان عددهم لايجاوز خمسين ومائتى رجل – أن يحتلوا مدينة « بريل » فبعثوا إلى من فيها برسالة يطلبون إليهم تسليم المدينة ، ولم يكن القراصنة يتوقعون وراء رسالتهم تلك سوى التهديد وإثارة الرعب ولكن وقع بسبب هذه الرسالة أثر لم يخطر على بال . فهى لم تكد تبلغهم حتى نشرت الرعب بين المواطنين والحكام على حد سواء ففروا تاركين مدينتهم الحصينة لقمة سائغة لمن كان يسميهم أعداؤهم عندئذ متسولى البحر Water Beggers فاستولوا على هذه المدينة باسم « الأمير أورانج » .

أثر سقوط « بريل » :

لما فشل الأسبانيون فى تخليص « بريل » Brill من أيدى القراصنة ملأت الشجاعة قلوب أهالى الأراضى المنخفضة ودفعتهم إلى المضى فى مقاومتهم الباسلة لتخليص سائر المواقع من النفوذ الأسبانى ، كما شجعت وليم أورنج على المضى فى قيادة الحركة ؛ فلم تلبث « فلاشنج » Flushing أن خلصت نفسها من الحكم الأسبانى ، وحذت حذوها المدن الرئيسية فى « هولندا » Holland « وزيلاندا » Zeeland وكثير من المدن فى جيلدرلاند » Gelderland وفى « أوفريسلى » Overyssel وفى « فريزلاند » Freesland . وهكذا لم ينته عام ١٥٧٢ إلا وكانت نسبة كبيرة من سكان الأراضى المنخفضة فى ثورة عارمة على سلطان دوق « ألفا » .

أدت الخلافات بين الولايات الكاثوليكية والبروتستنتية إلى نقض «صلح جنت(١) ١٥٧٦ » ؛ عندما اتحدت الولايات الوالونية الكاثوليكية فى الجنوب بمقتضى إتفاق منفصل يعرف باتحاد « آراس » Arras الكاثوليكى فى يناير ١٥٧٩ بينما قبل وليم أورنج على مضض أن يرضخ للأمر الواقع ، وأن يترك جانباً آماله بخصوص توحيد الأراضى المنخفضة كلها تحت راية واحدة ، وأن يقبل تشكيل اتحاد « يوترخت Utreeht » فى عام ١٥٧٩ بعد بضعة أيام من عقد اتحاد آراس . وهنا انحصرت مهمة وليم أورنج فى حماية معتنقى العقيدة الكلفنية بالولايات الشمالية . وكان هؤلاء

(١) صلح جنت ١٥٧٦: ترتب على تأخير دفع مرتبات الجند الأسبان ثورتهم وقيامهم بسلسلة من أعمال النهب والسلب كان نصيب أنتورب منها كبيرا . أدى ذلك الغضب والاستياء من هذا الاعتداء الوحشى إلى جمع شمل ولايات الأراضى المنخفضة . فانتهز وليم أورنج الفرصة، وعقدما يعرف بصلح جنت Ghent، فى نوفمبر ١٥٧٦ ، وفيه اتحد الشمال الهولندى مع الجنوب الولندى على مواجهة الخطر الأسبانى المشترك متغاضين عن خلافاتهم الدينية .

على أتم استعداد للتضحية بكل شيء فى سبيل عقيدتهم . وكان اتحاد يوترخت يتكون من « زيلندا Zceland » و « يوترخت Utrecht » ، و « جلدرلاند Gelderland » و « أوفريسال Overyssel » و « فريزلاند Friesland » و « برونينجن Broningen » و « هولندا Houand » ومعه تكونت دولة المقاطعات المتحدة أو هولندا الحديثة .

وعقد اتحاد آراس المكون من عشرة الولايات الأخرى صلحه مع أسبانيا ، وتبين عندئذ لفيليب الثانى ملك أسبانيا عدم جدوى محاولة ضم الأراضى المنخفضة جميعاً وجعلها تابعة لأسبانيا ؛ إذ أثبت أهالى الولايات الجنوبية إرتباطهم بأسبانيا ويقبولهم إياها حاكماً عليهم لعامل أساسى يرتبط بالعقيدة الدينية ألا وهى الكاثوليكية ، ومن ثم أصبح الصراع فى الأراضى المنخفضة صراعاً دينياً .

وبذلك وضع وليم أورنج نواة تلك الدولة التى كان مقدراً لها أن تسود البحار دهراً وأن تنشىء امبراطورية عظيمة فى الشرق ، وأن تصارع البحرية الانجليزية والجيوش الفرنسية ، وأن تستحق اعتراف الإنسانية بجميلها كمصدر هام لحرية الفكر ووطن لمدرسة عظيمة من الرسامين كان لهم أثرهم القوى فى حضارة أوروبا .

على أن المكافأة التى أعلنت لمن يغتال « وليم أورنج » قد أثمرت عندما وقعت محاولة اغتياله فى عام ١٥٨٢ ، ولكنه نجا منها ، على أنه لم ينج فى المرة الثانية من يد كاثوليكى متعصب يدعى « بلتزارجيرار Balthasar Gerard » .وقع ذلك فى ديفت Deft فى يوليو عام ١٥٨٤ . وكان قائد الكفاح يبلغ من العمر واحداً وخمسين عاما .

ويعتبر وليم أورنج بحق مؤسس هولندا الحديثة ، التى تم الاعتراف بها رسمياً بعد صراع طويل متقطع فى صلح « مونستر Munster » عام ١٦٤٨ ، عندما أعلنت أسبانيا استقلال « المقاطعات المتحدة الشمالية » التى وضع وليم أورنج الركيزة الأولى لها فى اتحاد يوترخت » عام ١٥٧٩ . كما نص الصلح على منح الهولنديين حرية التجارة فى الهند الشرقية والغربية . وقد كان هذا الصلح بين أسبانيا وهولندا ضربة قاصمة لمزران ، إذ كان الفرنسيون يأملون فى ضم الفلندرز إلى بلادهم . ولكن هذه المعاهدة على أى حال أثبتت أن أسبانيا قد قضى عليها كدولة لها سيطرتها فى أوروبا .

الباب الثانى

اوروبا فى القرن السابع عشر

أوروبا فى القرن السابع عشر

لو استعرضنا تاريخ أوروبا فى القرن السابع عشر لو جدنا أنه فى الوقت الذى أخذت فيه ملكية البوربون فى فرنسا تعمل على تركيز السلطة فى يدها بحيث أصبح ملوكها يحكمون دون منازع : كانت ملكية استيوارت فى انجلترا فى صراع مرير ضد البرلمان الذى كان يدافع عن حقوقه وامتيازاته . وكانت الغلبة له فى النهاية . وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى اتجهت فيه الملكية فى فرنسا اتجاهاً استبدادياً أى نحو الحكم المطلق تتجه الملكية فى انجلترا نحو الحكم الديمقراطى فتسودها ملكية مقيدة . وليس من شك فى أن الظروف التى أحاطت بكل من الدولتين والعوامل الجغرافية الخاصة بكل منها قد فرقت بين اتجاهاتهما .

أما ألمانيا فقد أصبحت فى القرن السابع عشر كما كانت إيطاليا فى القرن السادس عشر مسرحاً لحرب طويلة مدمرة دامت ثلاثين عاماً ، كانت عند نشأتها دينية أهلية ؛ لم تلبث أن تغيرت فى طابعها بحيث لم تعد دينية أهلية ، تلك هى حرب الثلاثين عاماً التى كان مسرح أحداثها ألمانيا نفسها فأحدثت بها ضرراً بليغاً لا يمكن إغفاله ، مما عوق ألمانيا عن ركب الحضارة مدة قرنين من الزمن .

شاهد منتصف ذلك القرن كذلك مولد دولة جديدة هى الأراضى المنخفضة الشمالية التى أصبحت تعرف بهولندا (١) ، والتى أدهشت العالم بنشاطها التجارى والاستعمارى .

فرنسا فى القرن السابع عشر (١٥٩٤ – ١٧١٥) :

يبدأ عهد أسرة البوربون باعتلاء هنرى الرابع عرش فرنسا عام ١٥٩٤ ،

(١) انظر ثورة الأراضى المنخفضة واستقلال هولندا ص ص ١٤١ – ١٥٣

وسنوضح فيما يلى الصعوبات التى اعترضت طريقه إلى عرش فرنسا ، وكيف استطاع أن يتغلب عليها .

ثم نتكلم عن عصر الوزراء العظام (١٦٢٤ - ١٦٦١) موضحين الجهود التى بذلها كل من ريشيلير (١٦٢٤ - ١٦٤٢) ومزران (١٦٤٣ - ١٦٦١) لإعلاء شأن ملكية البوربون .

ونختتم فى النهاية حديثنا عن أسرة البوربون فى القرن السابع عشر عند عصر لويس الرابع عشر (١٦٦١ - ١٧١٥) .

الفصل الأول

هنرى الرابع مؤسس أسرة البوربون

(١٥٩٤ – ١٦١٠)

هنرى « نافار » :

اشتهر أمر هنرى نافار Navarre فى نهاية الحروب الدينية فى فرنسا (١٥٦٠ – ١٥٩٨) . كان زعيما من زعماء الهيجونوت ، وآلت إليه ولاية العهد لعرش فرنسا فى عام ١٥٨٤ بعد موت أخى الملك هنرى الثالث وولى عهد العرش، وكان يدعى « دوق دانسون » Duke d'Alencon ، ذلك لأن فرع البوربون كان يلى فرع الفالوا فى أحقيته فى عرش فرنسا ، كما كان هنرى نافار متزوجاً من مرجريت أخت الملك هنرى الثالث من أسرة الفالوا الحاكمة ، ولو كان هنرى كاثوليكياً لما كانت هنالك أى موانع لولايته العهد ، ولكنه كان من أشد أنصار البروتستنتية بل كان زعيماللبروتستنت منذ وفاة كل من « كونديه» Condé و« كوليني» Coligny وكان أعضاء الاتحاد الكاثوليكى – الذى كان يسيطر على شئون فرنسا من ١٥٧٦– ١٥٩٤ ، وتؤيده أسبانيا حاميته – يفضلون قيام جمهورية فى فرنسا على تولية هنرى نافار الحكم ، ولما قتل هنرى الثالث على يد «جاك كليمان » Jacques Clément فى عام ١٥٨٩ أصبح لهنرى الحق فى أن يعتلى عرش فرنسا ، ولكن كان عليه أن يغزو باريس التى كانت تحتلها الجنود الأسبانية لكى يصل إلى العرش الفرنسى . ولم يكن ذلك الغزو أمراً هيناً ، لأن هنرى نافار كان قد فقد ثقة الكثيرين من أتباعه الهيجونوت بسبب ما تردد عندئذ من شائعات عن احتمال تغيير هنرى نافار لعقيدته ، كما أن أعضاء الحزب الكاثوليكى أرادوا إنقاذ العرش من ملك بروتستنتى فأعلنوا دوق بوربون من ذوى قربى هنرى ملكاً على فرنسا .

معركة ايفرى Ivry عام ١٥٩٠ :

لم يتبين هنرى نافار — وسط هذه الظروف المظلمة التى ذكرنا — أملا كبيراً إلا فى الاستنجاد بمعونة انجلترا ، إذ كانت اليزابث عندئذ فى حرب صريحة مع فيليب الثانى ، فلم يكن غريباً أن تبادر بنجدته ، فقد بعثت إليه بقوة من خمسة آلاف مقاتل (٥٠٠٠) من الإنجليز والاسكتلنديين ، على أن هنرى نافار ظفر بالنصر على قوات الحلف الكاثوليكى التى كان يقودها « ماين » Mayenne فى موقعة «اركس» Arques فى ٢١ سبتمبر ١٥٨٩ قبل وصول النجدة التى كان ينتظرها ، فلما بلغته تقدم بها مع بقية الجيوش نحو باريس ، وكان الأمل عظيما فى أن يكون لعامل المفاجأة أثره ، فى إسقاط العاصمة الفرنسية ، ولكن خبر الغزو المتوقع وصلها فى الوقت المناسب . هنالك تحول بقواته نحونورمانديا لتخليصها من جيوش الحلف ، نظراً لأهمية المقاطعة فى الاتصال المباشر مع انجلترا وإمداداتها . فحاصرت هذه القوات « درو » Dreux ، ونظراً لأهميتها بادر « ماين » بنجدتها وعند التحام الطرفين على مقربة من هذا الموقع ظفر بالنصر فى معركة « ايفرى » Ivry فى مارس ١٥٩٠ .

كانت « ايفرى » من المواقع الحاسمة فى تاريخ هنرى نافار ، ويرجع الانتصار فيها إلى تفوق فرق المشاة بجيشه ، كما أن هنرى كقائد لفرق الفرسان قد اتبع طريقة ألمانية جديدة فى القتال كان لها أثرها فى انتصاره فى هذه الموقعة . وكان لهذا الانتصار كذلك أثره فى ازدياد شعبية هنرى وتردد ما يشبه الأساطير حول اسمه ؛ فأخذ الجميع يشيدون بشجاعته ، وإنسانيته ، وتسامحه ، وتفوقه فى ميادين القتال . وقد عفا عن الفرنسيين الذين وقعوا فى قبضة يده ، ولكنه لم يتوان فى قتل الألمان الذين انضموا لأعدائه بعـــد أن كانوا يعملون ضمن صفوفه ؛ وكثيراً ما أظهر عطفه على فقراء الفرنسيين . كل هذه الصفات الحميدة علقت باسمه وجعلته أكثر ملوك فرنسا شعبية . وقد كان فى الواقع يتمتع بكافة هذه الصفات الحميدة .

كانت موقعة « ايفرى » حاسمة لدرجة أنه كان من الواضح أن باريس لن تلبث أن تخضع لهنرى ، إذا ما بادر بالتقدم نحوها ، وقد نوقشت أسباب تأخره فى إنجاز هذا الأمر كما اختلف المؤرخون فيهـــا . واتضح أن السبب الرئيسى أنه لم يكن فى استطاعة جيشه بعد هذه الانتصارات أن يقوم بهجوم سريع على باريس ، فلم تتقدم

القوات لمحاصرة باريس إلا فى مايو ١٥٩٠ . وكان أعوان الحلف الكاثوليكى يختلفون فيما بينهم وكان لاختلافهم يومئذ دوى ، ولكن الحصار أسكتهم بعض الوقت . وقد كان المعروف أن برلمان باريس لا يرضى الاعتراف بأى قوة أجنبية ولو كان مصدرها البابا أو أسبانيا الكاثوليكية . ولكن عندما هاجم هنرى نافار باريس كان السفيران الأسبانى والبابوى يتمتعان بنفوذ عظيم . وقد أخذت جماعة الجزويت والوعاظ يثيرون حماس الشعب الدينى . كان انتصار هنرى يبدو يومئذ أمراً محققاً ؛ فقد انتشرت المجاعة فى المدينة ومعها انتشر الوباء . وكانت باريس فى حالة أسوأ بكثير مما كانت عليه عندما حاصرها هنرى الثالث أثناء الحروب الدينية . ولكن الباريسيين كانوا يعرفون أن استسلامهم معناه تنصيب ملك من الهيجونوت عليهم .

لم يلبث هنرى نافار أن فقد هذه الفرصة الفريدة للاستيلاء على باريس عندما تقدمت القوات الأسبانية وعلى رأسها دوق « بارما » Parma من الأراضى المنخفضة ، ذلك لأن قضية الحلف الكاثوليكى كانت فى الوقت نفسه قضية ملك أسبانيا فيليب الثانى ؛ فقد كان انتصار هنرى نافار وسيطرته على الموقف فى فرنسا معناه فقدان فيليب الثانى لأطماعه فيها وربطها بعجلة السياسة الأسبانية . وقد استطاع دوق « بارما » أن ينقذ باريس من الحصار وكانت هذه العملية الحربية التى قادها من أبرع ما شاهدته الاستراتيجية ، وقد كشفت عن مدى تفوق قيادة دوق بارما للقوات الأسبانية ؛ فاستولى دوق بارما على « لانيى » Lagny ، وأرسل إلى باريس بعض المؤن والذخائر ، وتحدى هنرى عندما أبى أن يواجهه فى قتال ، فعاد عندئذ أدراجه إلى الأراضى المنخفضة .

ونجت بذلك باريس من الحصار . ولكن بعد الخطر عنها جعل الانقسام يعود إلى صفوف الحلف الكاثوليكى من جديد بسبب خلو عرش فرنسا بموت الكاردينال « بوربون » أثناء حصار باريس بعد أن نودى به ليشغله ، وأصبح الموقف يحتم اختيار ترشيح جديد للعرش الفرنسى . وكان أمر ذلك ليس بالشىء اليسير ؛ فهذا فيليب يرى الفرصة سانحة فيتطلع إلى العرش الفرنسى ، ومستنداً فى ذلك على أن صليبه يحميه ، فخطر له فى سعيه هذا أن يجعل من نفسه حامياً لفرنسا Pretoctor of France ، وقاوم غالبية الفرنسيين تلك الأطماع نظراً لأن تحقيقها معناه تحويل فرنسا إلى التبعية لأسبانيا . وانقسم أعضاء الحلف على أنفسهم عندما ظهرت مطامع البعض فى العرش .

على أن مركز هنرى نافار كان مليئاً بالصعوبات . فهو يدين البروتستنتية ، ولذلك لجأ إليه الكثيرون من مؤيديه من الكاثوليك يذكرونه بوعده ، ويحثونه على التحول إلى الكاثوليكية ، بينما أصدر البابا قراراً ينفر الكاثوليك منه ، ويدعوهم إلى الانفضاض من حوله . كما بدأ الهيجونوت يشكون فى نواياه وإخلاصه لهم ، ولا سيما بعد أن وصلت إليهم أخبار احتمال تحوله عن عقيدتهم . كما أعلنت جامعة السوربون أنه لن يتمكن من اعتلاء عرش فرنسا حتى ولو تحول إلى الكاثوليكية .

كان عليه عندئذ أن يعتمد على المساعدة الأجنبية مرة أخرى ، وآية ذلك أن أرسلت له اليزابث معونة من المال مع ستة آلاف مقاتل ٦,٠٠٠ ، كما جاء لنجدته من ألمانيا ١٢,٠٠٠ جندى .

فاز هنرى نافار بمجموعة من الانتصارات فسقطت فى يده « شارتر » Chartres « ونويون » Noyon ، واتبع ذلك بمحاصرة « روان » Rouen ، ولموقعها أهمية كبرى ، لأنه لو سيطر عليها لأصبح من السهل عليه الاستيلاء على باريس ، ولأمن أن يكون على اتصال مباشر بانجلترا . ولم يكن بين أفراد جيشه البالغ عددهم يومئذ ٤٠,٠٠٠ سوى ٨٠٠٠ من الفرنسيين ، وضم الجيش فوق ما ذكرنا ٤,٠٠٠ من الجنود البريطانيين تحت قيادة « اسكس » . ووجد هنرى فى قيادة القوات الأجنبية كل ما كان ينتظره من طاعة وتوفيق . وبدا سقوط « روان » محققاً عندما اعترض دوق بارما من جديد طريق هنرى . على أن الأول ما لبث حتى عاد إلى الأراضى المنخفضة دون أن يحقق ما كان يأمل أعضاء الحلف الكاثوليكى من معاونته فى المستقبل ، إذ كانت هذه آخر معاركه فقد مات فى ديسمبر ١٥٩١ .

هنرى نافار يصبح الملك هنرى الرابع :

من كل ما مر بنا يتضح أن أسلحة الحرب وحدها لن تبلغ بهنرى عرش فرنسا . ولو أنه تحول إلى العقيدة الكاثوليكية لبلغ ما أراد فى سهولة ويسر .

فلم يكن خافياً يومئذ ما كان يهدد استقلال بلاده وسلامتها من أخطار .

ولن يكون عجباً أن تنتقل أهمية الأمور من ميدان الحرب إلى ميدان السياسة على الرغم من استمرار القتال . بات ما يشغل الأذهان أمراً واحداً ، وهو هل يتحول

هنرى من عقيدته البروتستنتية إلى الكاثوليكية ؟ لم يلبث أمر ذلك أن وضح ، فها هو هنرى يعلن كاثوليكيته فى كنيسة « سانت دينس » St. Denis فى ٢٥ يوليه ١٥٩٣ . ثم يتوج بعد ذلك بقليل عام ١٥٩٤ فى كنيسة « شارتر » Chartres ، لكأنما كان أثر تحوله إلى الكاثوليكية كأثر السحر فى النفوس ، فقد كان الرعايا الفرنسيون يثقون فى أخلاق هنرى نافار ويعتقدون اعتقادا راسخاً فى الملكية ، ويكرهون أشد الكراهية الحكم الأجنبي . وكانت شعبية هنرى عظيمة لدرجة أن الكثيرين ممن حاربوه لأسباب تتعلق بالعقيدة كانوا يقدرونه ويحبونه . وقد تسابقت مدن فرنسا العظمى بتقديم ولائها لبلاطه : « مو » Meaux ثم « بيرون » Peronne ، « مونديدييه » Mondidier ، « روا » Roye ، « بنتواز » Pontoise ثم « أورليان » Orléans و « بورج » Bourges و « أميان » Amiens و « ريمس » Reims ، ثم « ليون » Lyons حيث قامت ثورة لطرد دوق « نيمور » Nemours شـــقيق دوق « ماين » Mayenne . وظلت باريس خارج هذا النطاق بعض الوقت، وزاد فى حرج الموقف وجود حامية أسبانيا بها ، ولكن حاكم باريس الجـــديد « بريساك » Brissac الذى عينه « ماين » بدأ تواً يفاوض هنرى ، فحصل على شروط طيبة بالنسبة له ولمواطنيه أهالى باريس، ومن ذلك ألا تقام شعائر الهيجونوت الدينية داخل باريس ، وألا تصادر الأملاك ، كما اتفق على إعلان هدنة عامة والسماح للأجانب بمغادرة باريس فى ســـلام ، وأن يكافأ الحاكم على جليل خدماته ، وهكذا تم ترتيب كل شىء . وقدم هنرى بنفسه إلى مدخـــل قصر « التويلرى » Tuileries ، وعلى الرغم من أن العاصفة قد أخرت حضوره ساعتين كاملتين إلا أنه وجد الجميع فى انتظاره ، وقد زادت تصرفاته الحكيمة بعد ذلك فى التفاف القلوب حوله ، فقد زار دوقة « نيمور » Nemours وعفا عن عدوته القديمة « مـــدام دى مونتبنسية » Madame dc Mcntpensier ، وشاهد بنفسه مبارحة الجيوش الأسبانية للعاصمة دون أن يتعرض لها بأى أذى . كل ذلك زاد من حب الشعب له وتقديره إياه ، وقد عفا عن جميع أعدائه ، ومن ذلك يبدو أنه كان يهتم بالصالح العام قبل أى شىء آخر ، وإن مذكرات وزيره الهيوجونوتى « سلى » Sully لتشهـــد وتثبت أن حكومته كانت قائمة على مراعاة الصالح العام قبل أى شىء آخر ، ولذلك نجح هنرى الرابع فى التغلب على كافة الصعاب التى واجهته ، وكان جديراً بتقدير الشعب الفرنسى له فأصبح بحق أحد أبطال فرنسا البارزين ؟

وليس معنى هذا أن سبيل الحياة أصبحت بعد ذلك سهلة معبدة فقدكان لزاماً عليه أن يتخطى كثيراً من العقبات لتدين له البلاد بالطاعة الـكاملة ، ولتستقر أمورها بعد أن زعزعتها الحروب الأهلية ثلاثين عاماً أو يزيد .

وأخطر المشاكل التى واجهته ملكاً موقف أسبانيا منه ، فخطر الأسبان لم ينقطع بخروج القوات الأسبانية من باريس : إذكان لا يزال ماثلا فى الشمال على أتم استعداد للإساءة إلى مركز الملك ، والعمل على تقويض عرشه إذا أمكن .

كما كان عليه ان يواجه غضب الهيجونوت وسخطهم عليه لتحوله عن عقيدتهم واعتناقه للكاثوليكية . وكان عليه أن يعمل بكل الوسائل على إرضاء هذه الطائفةالتى تزعمها ، ولم يخف عنه مدى ما وصلت إليه من سلطان وقوة . ثم كان عليه منذ الوهلة الأولى أن يعمل على إعادة تنظيم فرنسا داخلياً وإقرار السلام والطمأنينة بها ، وذلك بمعالجة جميـع مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية ، كما كان لزاماً عليه أن يدعم اقتصادها وينهض به ،وقد أصابه الشىء الكثير من الاضطراب نتيجة لأحداث الحروب الدينية الطويلة .

الخطر الاسبانى :

واقتضته الظروف أن يبدأ بالتخلص من الخطر الأسبانى ليتمكن من التفرغ لحل المشاكل الأخرى . فبدأ بإعلان الحرب على أسبانيا فى يناير ١٥٩٥ ، واعتمد فى ذلك على حماسة الفرنسيين لهذا الاجراء بسبب بغضهم الشديد للأسبان ، كانت مطامع مليكهم فيليب الثانى فى عرش فرنساقدتبينت لهم أثناءالحروب الدينية ، كمااعتمد على ولاء ذلك الشعب وحبه لمخلصه من ذلك الخطر الماثل . ومع ذلك فلم يكن صراعه ضد أسبانيا أمرا هيناً ، إذ كانت أسبانيا تملك أبرع فرق المشاة فى أوروبا كلها ، كما صرح الملك نفسه بذلك . كانت « بريتانيا » Brittany مركز قوة الاسبانيين فى فرنسا ، حيث أقاموا قلعة « كروازيل » Croisil ، وقد استولت عليها القوات الفرنسية . ولكن الخطر الرئيسى كان يقع على الحدود الشمالية حيث تستطيع القوات الأسبانية أن تتقدم من ولايات الأراضى المنخفضة الجنوبية وكانت يومئذ خاضعة لها.وقد استطاع الأسبانيون أن يضعوا أيديهم على مناطق عديدة ، فعن طريق الخديعة استطاعوا أن يخضعوا لسلطانهم عدة مدن فى بيكارديا، كما استولوا على كاليه Calais ولـكن أهم من هذا كله مدينة « أميان » Amiens ،حيث كان الهيجونوت ناقمين،

على الملك لتحوله إلى الكاثوليكية ، وعلى ذلك كان هذا الخطر لا يستهان به ، ولم تلبث أن وصلت الامدادات من انجلترا تتمثل فى ٤٠٠٠ محارب ، وبفضلها استطاع هنرى أن يحاصر المدينة ، وأن يهزم القوات الأسبانية بسهولة ، فسقطت أميان فى يد الملك فى عام ١٥٩٧ .

وبعد ذلك عقد صلح أميان بين هنرى الرابع واسبانيا فى عام ١٥٩٨ . واحتجت ملكة انجلترا لأن ذلك الصلح قد عقد دون إشراكها فيه . ونبهت الملك بأنه ليس من اللائق أن يقوم بمفاوضات أخرى دون اشراك انجلترا والأراضى المنخفضة الثائرة ، وكان رد فرنسا يتمثل فى اعتذارها بأنها كانت فى حالة لاتسمح لها بتأخير عقد الصلح ، ولذلك سارعت بعقده . وتقابل المفاوضون الفرنسيون والأسبانيون والبابويون فى « فرفان » Vervins على مقربة من حدود الأراضى المنخفضة واتفقوا على شروط الصلح . فتنازلت أسبانيا عن « كاليه » Calais ، والمواقع التى حصلت عليها حديثاً فى بيكارديا ومنها « بلافيت » Blavet ولا ترجع أهمية هذا الصلح فى مواده وإنما فى حقيقة هامة ، وهى أن هنرى الرابع قد استطاع أن ينقذ فرنسا من أطماع فيليب الثانى ومشروعاته الضخمة لضمها لحكم أسبانيا ، كما تمكن من إقامة ملكية قومية فيها ، تعمل لصالح البلاد وتخليصها من كل الأضرار التى نزلت بها نتيجة لتلك الحروب الطويلة التى عرضت استقلالها للخطر .

التسوية الدينية :

كانت التسوية الدينية جزءاً من حركة واسعة النطاق لإعادة بناء فرنسا السياسى والاجتماعى ، وقد اشتهر اسم هنرى الرابع ، بإنجاز ذلك العمل الهام وقورن عمله فى هذا المجال بأعمال « نابليون » Napoleon عندما تمكن له السلطان فى فرنسا . وكانت تسوية ١٥٩٨ التى حررت باسم مرسوم نانت أول اعتراف رسمى صريح بالتسامح الدينى فى تاريخ الانسانية فى غرب أوروبا .

مرسوم نانت ١٥٩٨ :

كانت التسوية الدينية من المسائل الملحة التى واجهت هنرى الرابع مؤسس أسرة البوربون فى مطلع عهده . فالهيجونوت الذين تحدوا التاج الفرنسى أكثر من ثلاثين

عاماً ، وقد ازدادت أعدادهم كان فى استطاعتهم فى أى وقت أن ينزلوا إلى الميدان جيشاً لايقل عدد رجاله عن خمسة وعشرين ألفا ؛ لهذا لم يكن من اليسير إخضاعهم . واستطاع الملك — بعد مفاوضات مضنية استغرقت وقتاً طويلا ، ثم قبلت بعد تردد من جانب الكاثوليكك لضرورة فرضتها الظروف — أن ينوصل إلى تسوية مرسوم « نانت » وعن طريق هذه التسوية منح الهيجونوت حرية العبادة فى أماكن معينة نص عليها الاتفاق ، ومنها قلاع النبلاء وغيرها كما أعطتهم نفس الحقوق المدنية والاجتماعية الممنوحة لغيرهم وأكدت لهم الحماية القانونية . ولتوكيد الضمان الخاص بسلامتهم سمح لهم أن يقيموا حاميات فى مائة وخمسين مدينة . وكانت هذه الحاميات فى غالبيتهاتتكون من البروتستنت الذين يتقاضون أجورهم من الدولة وكان على رأس كل حامية رئيس من الهيجونوت ، وأهم هذه المواقع الحصينة «لاروشيل» **la Rochelle** و«سومير» **Saumur** و « مونبلييه » **Montpellier** . وتدل ظواهر الأمور وحقائقها على شىء لم يكن فى الحسبان ، آيته قيام دولة هيجونوتية صغيرة فى قلب فرنسا لها جيشها وقلاعها ونظمها الخاصة .

وللمرسوم نانت أهمية عظمى فى تاريخ الإنسانية باعتباره أول اعتراف عام بقيام أكثر من طائفة دينية داخل الدولة الواحدة . وجعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الدينى جزءاً من القانون الدستورى لفرنسا قبل الاعتراف به فى انجلترا وألمانيا بوقت طويل .

لم يتم استصدار المرسوم فى سهولة ويسر ذلك لأن أغلبية الكاثوليك فى فرنسا لم تكن راضية عنه ، واشتدت حوله المعارضة فى برلمان باريس وكان طبيعياً أن يعارضوا لأن المرسوم كان يقضى بمنح الهيجونوت امتيازات دينية وسياسية ومدنية وقضائية . ولما اشتدت المعارضة رأى الملك أن يشهد مناقشة المرسوم بنفسه ، فذهب إلى البرلمان بغية التأثير على أعضائه وقد تم له ما أراد وهو الموافقة على صدور المرسوم .

واستمر العمل بهذا المرسوم ثلاثين عاماً ، ثم استبدل بمرسوم آخر يعرف بمرسوم « أليس » **Alais** ١٦٢٩ أيام كان « ريشيليو » رئيساً للوزارة فى فرنسا . وكان الذى دعاه إلى ذلك خوفه من تلك الامتيازات السياسية التى حققها المرسوم السابق للهيجونوت حين تبين له تعارضها مع سياسته التى كانت تهدف إلى تركيز السلطة فى يد ملكية البوربون فى فرنسا . فهو يريد للبوربون أن يكونوا على استعداد لمقاومة سلطان أسرة الهبسبورج فى أوروبا ووضع حد لنفوذها . وقد كرس جهوده لتحقيق هذا الغرض

طول سيطرته على شئون فرنسا فى المدة بين عامى ١٦٢٤ ، ١٦٤٢ ، واستعان فى سلوكه هذا بمحاربة الهيجونوت داخل فرنسا ومحالفة البروتستنت فى ألمانيا . وقد قضى مرسوم « أليس » بحرمان الهيجونوت من الامتيازات السياسية مقابل الإبقاء على حريتهم الدينية كاملة غير منقوصة . وظل الهيجونوت يتمتعون بحريتهم الدينية ومالهم حول ذلك من امتيازات متينة ، وحماية قانونية حتى صدور « مرسوم فونتنبلو » عام ١٦٨٥ فى عهد لويس الرابع عشر . وبصدوره أصبح « مرسوم نانت » لاغياً . وترتب عليه حملة من الاضطهادات السافرة ضد الهيجونوت ، فهاجر منهم عدد كبير يعدون بالآلاف ، ليتمكنوا من ممارسة عقيدتهم فى أمان فى جهات أخرى . وعلى الرغم من صدور مرسوم Alais ١٦٢٩ استمر العمل بمرسوم « نانت » قائماً قرابة قرن من الزمن لأنه صدر من ملك قوى ، ولأن العصبة الكاثوليكية قد انحلت بعد أن هزمت فى فرنسا ؛ فبادر أبرز من فيها من الشخصيات ، وفى مقدمتهم « ماين Mayenne» إلى الالتجاء إلى الملك ملتمسين عقد اتفاقيات فردية معه . ولعل الذى ألجأ إلى ذلك إحساسهم بما أصاب الشعب من إرهاق بسبب توالى الحروب الدينية أكثر من ثلاثين عاماً .

الاصلاحات الاقتصادية :

كانت البلاد فى حاجة إلى الاصلاح والهدوء . وقد ساءت أحوال التجارة والزراعة نتيجة للفوضى التى عمت البلاد أثناء الحروب الدينية ؛ وبلغ سوء الأحوال الزراعية أن هجر بعض الفلاحين حقولهم ، كما أقفرت بعض القرى من سكانها تماما ، وقد تسببت الحروب الداخلية فى إفقار جميع الطبقات ، وهبوط قيمة العملة . فقد أثقلت كاهل رجال الدين والنبلاء أعباء الحرب المالية ، وعندما سرح الجيش الفرنسى على أثر انتهاء الحرب : لم يجد الكثيرون عملا يرتزقون منه فانتشرت أعمال السرقة ، ووقعت أثقل الأعباء المالية على طبقة الفلاحين فأصابتهم المجاعات والأوبئة . ولذلك كادت تقع بعض ثورات من جانب الفلاحين ، ومنها تلك التى قام بها حوالى ٢٠٫٠٠٠ منهم فى جنوب غرب فرنسا على مقربة من « برجيراك » Bergerac ، نادوا فيها بالحرية والعدالة وكانت الحركة ضد النبلاء أكثر منها ضد الملك .

كان على الحكومة أن تبذل جهوداً عظيمة لكى تعيد الرفاهية إلى البلاد . وتميز

عهد هنرى الرابع بالاهتمام البالغ يرفع شأن فرنسا الاقتصادى ، والعمل على ملء خزائنها بالمال . وقد استعان فى ذلك « بسلى » الذى عرف بمقدرته الفائقة على العمل بالإضافة إلى شدة غروره . فوقع على عاتقه تطهير الميدان الاقتصادى الملىء بالفساد كان غرضه الأول أن تسير الأمور بدقة وأمانة دون أن يحدث تغييراً يذكر فى الأداة الحكومية ، وأن يضرب بشدة على أيدى المفسدين والمرتشين ، وأن يشجع التجارة عن طريق شق الطرق واصلاحها ، وأن يبحث عن موارد جديدة لإثراء الدولة .

وكان نظام الضرائب فى فرنسا يختلف تماماً عنه فى انجلترا . فقد كانت أعباء الضرائب على الفرد الفرنسى العادى أكثر منها على مثله فى انجلترا ، ونظام التميز أكثر وضوحاً فى فرنسا منه فى انجلترا ، وبيع الوظائف أكثر أهمية ووضوحاً فى فرنسا . ولم يكن هناك برلمان منتخب ينتقد سياسة الدولة فى هذا الصدد ، كما لم يستخدم ملاك الأراضى فى الأقاليم كأعوان للحكومة على تنفيذ نظمها كما هو الحال فى انجلترا ، وكان المصدر الأكبر للايراد يحصل من ضرائب « التاى Tailles » (الأرض) ، وكلها ضرائب على الأرض والمنازل تفرض على الطبقات التى لا امتيازات لها . ومن هذه الضرائب كانت تتكون نصف موارد الدولة الطبيعية . ثم يليها ضريبة الملح (La Gabelle) التى احتكرت الدولة الاتجار فيه ، وكان عبؤها الثقيل يقع على الطبقات الدنيا . لم يقترح « سلى » أو غيره إلغاء نظام الامتيازات ولكنه قلل من أعداد أصحاب الامتيازات ، وقد استطاع عن طريق إدارته المالية الحازمة أن يترك خزانة الدولة عند مقتل الملك هنرى الرابع عامرة بالأموال .

واهتم « سلى » بإصلاح الطرق ، وبناء الكبارى ، وإنشاء القنوات ، واستطاع بذلك أن يفيد الزراعة وان ينهض بها . وأما فى الميدان الصناعى فقد استعان ببعض الهيجونوت فى صناعة الحرير واتسع نطاق هذه الصناعة وازدهرت على وجه الخصوص فى « بواتو Poitou » . وزاد التبادل التجارى بين فرنسا وغيرها من الدول ، فأصبح من صادراتها كثير من نتاج الصناعات المختلفة وخاصة ما يتعلق منها بالكماليات مثل الخيوط الذهبية وألوان الزجاج وأنواع مختلفة من المنسوجات الحريرية .

وقد تحقق الكثير من مشروعات الحكومة الاقتصادية ، فزاد الدخل وانخفضت قيمة الديون ، وتبدلت أحوال فرنسا ، فبعد أن كانت عند تولية الملك هنرى

الرابع تعانى من ثقل الديون والاضطرابات المالية أصبحت عند انتهاء حكمه وقد تخلصت من ديونها وازدهرت أحوالها الاقتصادية .

تنظيم إدارة الحكم :

كان هنرى الرابع يجد أن خير إصلاح للإدارة إنما يتلخص فى تركيز السلطة فى فى يده ، فأعاد تنظيم المجلس الملكى « Conseit du Roi » ، وكان هذا المجلس هو السند القوى لملوك فرنسا ، وقد بذل ملوك أسرة الفالوا Valois من قبل جهودا عظيمة فى تنظيمه لإعلاء شأنه . فزادوا من عدد أعضائه على حين خفض هنرى الرابع من عددهم ، كما أنه قد حد من نفوذهم ، وكان الملك وحده صاحب الحق فى تعيين أعضائه ، كما كان يشرف ويسيطر على المجالس المختلفة كافة : المجلس الخاص ومجلس الدولة والمالية مستخدما فى ذلك سيطرته أول الأمر على المجلس الملكى .

رفض هنرى الرابع رغم رجاحة عقله أن يدعو مجلس طبقات الأمة للانعقاد ، كما رفض أن يشرك معه رعاياه فى التمرس بالقيام بأعباء الحكم .

وإذا كان مجلس طبقات الأمة فى عهده قد كان ضعيف الشأن فإن برلمان باريس كان يتمتع بنفوذ كبير ، ولم يكن هنرى الرابع يفكر فى القضاء على ذلك النفوذ ، لأن رجال القانون أعضاء هذا البرلمان كانوا العون الرئيسى للملكية ضد مطالب النبلاء ورجال الدين ، ولذلك لم يعمل على الحد من سلطانهم . على أن هؤلاء الأعوان المخلصين للملكية قد أثبتوا فيما بعد أنهم خطر لا يستهان به عليها . واتخذ هنرى الرابع من الإجراءات ما يزيد من استقلال البرلمان ، ولكنه بذلك قد مهد له السبيل إلى تحدى الملكية ؛ فاستحدث فى عام ١٦٠٤ نظاما جديداً بالنسبة للتصرف فى مقاعد البرلمان الشاغرة . وقبل صدور هذا النظام كان أعضاء البرلمان يشترون مقاعدهم بالمال ولهم حق بيعها ولكن تحت شروط معينة . وكان التغيير الجديد الذى طرأ على هذه الطريقة هو الغاء تلك الشروط ، فأصبحوا أكثر حرية فى بيع تلك الوظائف وإذا مات أحد الأعضاء ، ولم تبادر الدولة بالتصرف فى مقعده فى البرلمان فإنه يصبح ملكاً لأرملته أولوريثه . وهكذا أصبحت العضوية فى البرلمان نتيجة للنظام الجديد مستقلة وراثية ، ولم يعد للملك أى نفوذ عليها . وكان الملك يحصل على قيمة العضوية سنوياً مما يوفر له فى النهاية قدراً كبيراً من المال .

وفى عام ١٥٩٩ طلق هنرى الرابع زوجته « مرجريت فالوا » التى تزوجها فى عام ١٥٧٢ لأنه لم ينجب منها أطفالا ، وتزوج من « مارى دىمديتشى » Marie de Médicis وهى من ذوى قربى كاترين دىمدتشى فأصبح له طفل ذكر فى عام ١٦٠١ مؤملا فى أن يصبح من بعده ملكاً ، بذلك ضمن هنرى بقاء العرش فى أسرته . على أن ذلك الزواج الجديد قد ضاعف من تدبير المؤامرات حوله . وقيل إن محاولات اغتياله قد بلغت اثنتى عشرة مرة .

سياسة هنرى الرابع الخارجية :

١ — بعد معاهدة « فرفان » Vervins ، التى عقدت بين فرنسا وأسبانيا والبابا عام ١٥٩٨ ، اتبع هنرى الرابع سياسة سلمية حتى يتفرغ لحل مشاكل فرنسا الداخلية وينهض بها . ومع ذلك فقد كان يعمل على رفع مركز فرنسا فى العالم الخارجى ، فاصطدم مع دوق سافوى عام ١٦٠٠ فى حرب قصيرة ، ضم فى نهايتها « برجى » Burgey إلى فرنسا .

٢ — آثر كما ذكرنا أن يتبع سياسة سلمية ولكنه لم يلبث فى أواخر عهده أن فكر فى مهاجمة الهابسبورج ومحاربتهم ، وتلك فكرة قد تحمس لها « كولينى » منذ حوالى خمسين عاما ، وتتلخص فى استعانته ببروتستانت ألمانيا وسكان الأراضى المنخفضة لمهاجمة أسرة الهبسبورج تمهيداً لاحتلال الأراضى المنخفضة الأسبانية والوصول بحدود فرنسا إلى الراين . وتذرع هنرى الرابع لتنفيذ هــذا المشروع بالنزاع على مصير « كليف جوليش » Cleves Julich الواقعة على حــدود فرنسا الشرقية ، إذ صادف فى آخر أيام هنرى الرابع أن أصبحت إمارة (جولييه) Juliers إمارة يتنازع الحكم فيها كل من البروتستانت والكاثوليك . وكانت هــذه الإمارة تهم أوروبا كلها لموقعها الممتاز على نهر الراين ؛ ولتحكمها فى الطريق بين ألمانيا والأراضى المنخفضة ، ولذلك كانت أسرة الهبسبورج الكاثوليكية ترغب فى ضمها إلى أملاكها بينما كان ينازعها فى ذلك البروتستنت ، وانحاز هنرى الرابع إلى الجانب البروتستنتى ، وأخذ يعد العدة فعلا ليتقدم بجيش عظيم لحماية (جولييه) Juliers من أطماع الهبسبرج . فأثار ذلك المتعصبين من الكاثوليك ضده ، فقتله متعصب كاثوليكى يدعى (رفياك) Ravaillac عند ما كان يعد العدة للتقدم بقواته فى عام ١٦١٠ .

الفصل الثاني

عصر الوزراء العظام

فرنسا فى عهد لويس الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣)

وريشيليو (١٦٢٤ - ١٦٤٢)

كان لويس الثالث عشر يبلغ التاسعة من عمره عندما قتل أبوه ولذلك أصبحت أمه « مارى دىمدتشى » وصية عليه إلى أن استطاع أن يتولى شئون الدولة بنفسه فى عام ١٦٢٤ ، وكان قد بلغ من العمر ثلاثا وعشرين سنة . وتصدع فى عهد الوصاية كل ما قام به هنرى الرابع من إصلاحات ، فاشتدت الفوضى وسادت الاضطرابات البلاد ، ومرجع ذلك الأساسى شدة كراهية الرأى العـــام الفرنسى لأغراض « مارى دىمدتشى » التى كانت تعمل على الاتحـــاد بين البيت المالك فى فرنسا وفى أسبانيا على عكس ما كان يراه الرأى العام الفرنسى إذ كان يعتبر أسبانيا ألد أعداء فرنسا . ترتب على ذلك الخلاف الشديد فى وجهات النظر وقوع حركات ثورية فى عهدها بين صفوف الطبقات الأرستقراطية والبروتستنتية . واشتدت الفوضى فى فرنسا مما جعل الحاجة ماسة إلى دعوة مجلس طبقـــات الأمة فى عام ١٦١٤ إلى الاجتماع . وكان لهذا الاجتماع أهميته من حيث أنه كان الأخير إلى أن دعاه لويس السادس عشر إلى الاجتماع فى ٥ مايو ١٧٨٩ . فكان المجلس الأخير بداية لأحداث الثورة الفرنسية .

اجتمع المجلس فى عام ١٦١٤ لبحث أسباب تدهور الأحوال فى فرنسا عندئذ وليقدم حلولا لمعالجتها . كان ريشيليو فى المجلس أحد ممثلى رجال الدين فى « بواتو» poitou وقد وقع الاختيار عليه ليمثل رجال الدين كافة . وذلك عندما أظهر ميوله نحو الحكومة القائمة . ومما يلاحظ على الخطاب الذى ألقاه فى هذا المجلس أنه دافع

بحرارة عن رأيه الخاص بالسماح لرجال الدين بالاشتراك فى الشئون العامة والسياسية للدولة . ولم يسفر هذا الاجتماع عن شىء لأن مجلس طبقات الأمة لم يكن يملك من السلطات غير إبداء النصح والإرشاد للحكومة : كما لم يكن هناك أى إلزام بالأخذ بهذه الآراء .

ويهمنا فى هذا المجال ماكان من أمر ريشيليو الذى استطاع فيما بعد أن يقضى على الفوضى ، وأن يعين لويس الثالث عشر على تعزيز الملكية وتقوية سلطانها . استطاع فى عام ١٦١٦ أن يصبح وزيرا للخارجية فى فرنسا نتيجة لتقربه من الملكة الأم ومستشارها الإيطالى « كونسينى » Concini . وفى سبيل تدعيم مركزه أخفى أول الأمر اتجاهاته السياسية ، فأظهر استحسانا لسياسة الملكة وكونسينى فى تأييد أسبانيا والعمل على مصادقتها علما بأن سياسته — فيما بعد عندما أصبح يسيطر على الموقف فى فرنسا — كانت معاداة أسبانيا ومحاربتها . اضطر ريشيليو إلى الاستقالة فى عام ١٦١٧ على أثر قتل كونسينى . وظل ريشيليو بين عامى ١٦١٨ ، ١٦٢٤ بعيدا عن السياسة الفرنسية إذ كان وزيرا للملكة الأم المغضوب عليها ومستشارا أعظم لها ، وقد أجبرها ابنها الملك على اعتزال السياسة والاعتكاف فى قصر « بلوا » Blois ونفى ريشيليو إلى « أفينيون » Avignon فى عام ١٦١٨ حيث بقى عاما ، ثم استأنف عمله بالقرب من الملكة ، وقد أصبح كاردينالا عام ١٦٢٢ .

وفى عام ١٦٢٤ أصبح أحد وزراء لويس الثالث ، وعندما تم القبض على « فيوفيل » Vieuville وسجنه فى قصر « أمبواز » أصبح ريشيليو رئيسا لمجلس وزراء لويس الثالث عشر . ومنذ ذلك التاريخ غدا ريشيليو الحاكم بأمره فى فرنسا حين صار رئيس الوزراء بل الوزير الوحيد صاحب النفوذ خلال الثمانية عشر عاما التالية أى حتى عام ١٦٤٢ . ووجد ريشليو فى لويس الثالث عشر ملكا قوى الشكيمة يخشى على ملكه ويغار عليه . وقد أدرك ذلك الملك مدى إخلاص ريشيليو للملكية ، وقدر تلك الجهود التى كان يبذلها ليركز السلطة فى يد الملك وليحقق لفرنسا مكانة مرموقة بين دول أوروبا . لذلك كله أطلق الملك عن طيب خاطر يد ريشيليو فى تصريف شئون فرنسا كافة .

سياسة ريشيليو الداخلية :

أما سياسة ريشيليو الداخلية فقد ارتبطت أشد الارتباط بسياسته الخارجية ؛ ذلك أنه كان يهدف إلى رفع مركز أمته بين دول أوروبا ، ويرى أن أسرة الهبسبورج القوية

تقف حجر عثرة فى هذا السبيل ، لذلك عول على الحد من سلطانها بكل الوسائل ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل أى شىء فى هذا الصدد دون تهيئة الجو الصحى داخل فرنسا نفسها . لذلك ارتبطت سياسته الخارجية بالداخلية ارتباطاً قوياً . وفيما يلى ماذكره ريشيليو موضحاً أهداف سياسته فى الداخل والخارج فيما يلى :

« عند ما شرفتمونى جلالتكم بالمشاركة فى مجالسكم الاستشارية تبينت بصدق أن الهيجونوت يشاركونكم فى الحكم ، وأن النبلاء كانوا يسلكون سلوكا لايدل على أنهم من رعاياكم . كما كان رؤساء الأقاليم منهم يتصرفون وكأنهم حكام مستقلون وقد أهمل شأن المعاهدات الأجنبية ، وتغلبت المصالح الخاصة ، كما تبينت أن قدر جلالتكم قد تضاءل بحيث كان الناس لايشعرون به ، وإننى أعاهد جلالتكم على أن أستغل كل جهودى ونفوذى لتحطيم طائفة الهيجونوت ، ولأحط من كبرياء النبلاء ، وأن أسوق كل الرعايا نحو تأدية ما عليهم من واجبات وأن استرد لفرنسا صيتها بين الشعوب الأجنبية » .

فى هذه العبارات لخص ريشيليو سياسته الداخلية موضحا مدى ارتباطها بالسياسة الخارجية .

١ — سياسته إزاء الهيجونوت :

كان واضحاً أمام ريشيليو منذ أول عهده بالسلطة أن أهم ما يقتضيه العناية وبذل الجهد هى مسألة القضاء على النفوذ السياسى للبروتستانت . كان ريشيليو من القلائل الذين اشتهروا بتسامحهم الدينى ، ولذلك لم يكن فى نزاعه ضد البروتستنت فى فرنسا ليتعرض لعقائدهم الدينية ، وإنما أراد أن يسلبهم تلك الامتيازات السياسية التى منحهم إياها « مرسوم نانت » فجعلهم قوة لايستهان بها فى مقاومة الملكية والتصدى لها ؛ سمح لهم هذا المرسوم بامتلاك عدد كبير من القلاع والحصون فى مدن عديدة زادت على المائة . وكانت لهم مجالسهم الخاصة التى يناقشون فيها مشاكلهم السياسية والدينية وقد أظهروا اهتماما فى هذه المجالس بالاستعداد العسكرى ، وكانت السلطات المناوئة للحكومة القائمة فى فرنسا تستعين بهذه القوات . فقد حدث أن استعان بها « كونديه » عندما ناوأ الملكة « مارى دیمدتشى » ، كما استعانت بها الملكة الأم نفسها عندما أبعدت عن الحكم . وكان حصن « لاروشيل » من أقوى معاقلهم لذلك وجه ريشيليو جهوده

لإسقاطه : ونجح فى إسقاط الحصن فى أكتوبر ١٦٢٨ ، بعد حصار دام خمسة عشر شهراً . وقد أمن ريشيليو السكان على حياتهم وأملاكهم وعلى تأدية صلواتهم بكل حرية ، ولكنه انتزع منهم الاستقلال الذى كانوا يتمعون به من قبل ، وجردهم من امتيازاتهم السياسية وحطم حصونهم ، ومنح الكاثوليك الحرية الكاملة لتأدية شعائرهم الدينية فى تلك المواقع . واستطاع ريشيليو فى العام التالى أن يكلل جهوده ضد الهيجونوت بالانتصار على زعمائهم فى جنوب فرنسا ، وأن يعقد معهم ما يعرف بصلح « اليس » Alais ١٦٢٩ ، وقد جددت بمقتضاه البنود الدينية لمرسوم نانت. ونجح ريشيليو فى استرداد كافة المواقع المحصنة التى كانوا يسيطرون عليها وأن يقضى بالتالى على نفوذهم السياسى وعلى الخطر الذى كانت تتعرض له الملكية فى فرنسا من ذلك النفوذ .

وليس يفوتنا هنا أن نذكر أن ريشيليو قد عاون البروتستنت فى الخارج أى فى ألمانيا أثناء حرب الثلاثين عاماً وفى أماكن أخرى من أوروبا لاعطفاً على عقيدتهم ولكن لعدائه الشديد إزاء القوى الكاثوليكية المعادية لهم . وقد أراد قبل أن يضطر إلى خوض غمار حروب خارج فرنسا ضد هذه القوى أن يقضى على نفوذ الهيجونوت داخل فرنسا وأن يقلم أظافر النبلاء بها .

٢ — ريشيليو يواجه عداء البيت المالك فى فرنسا :

من الغريب أنه بينما كان ريشيليو يعمل طوال حكمه على تركيز السلطة فى يد الملك كان أفراد أسرة البيت المالك يعاونون النبلاء فى تحديهم لسلطان ريشيليو وتآمرهم على حياته . وكانت الملكة الأم « مارى دىمدتشى » وأخ الملك « جاستون أوف أورليان » Gaston of Orleans يتآمران معهم باستمرار لخلع الكاردينال ريشيليو . وهكذا امتلأت حياة ريشيليو بكل أنواع المؤامرات ، وهى مؤامرات تملأ أحداثها مجلدات ضخمة . ففى عام ١٦٢٦ ، أى بعد عامين من وصوله إلى الحكم دبرت أول مؤامرة ضده عند ما تقرر زواج « جاستون » من مدموزيل « مونبنسييه » Mlle de Monpensier الجميلة الغنية على أن هذا المشروع لم يستحسنه أصدقاء «جاستون» ولذلك رأوا أن خير وسيلة لمنع تنفيذ ذلك الزواج أن يقضوا على الوزير الذى أعده وهو ريشيليو . ولكن المؤامرة كشفت فى حينها ، وتم عقد الزواج رغم أنف المعترضين . كان نساء البيت المالك كذلك أشد أعداء ريشيليو شكيمة وقوة . فكانت الملكة الأم

ماري دمدتشي ألد أعدائه ، ولم تكن زوج الملك أقل عداء له منها . ولكنها كانت أقل نشاطا فى تدبير المؤامرات ضده ، على أن عداءهما لريشيليو لم يكن له أثره على مركزه ، لأن الملك لم يكن لأى منهما شيئاً من العواطف .

٣ — ريشيليو يحد من سلطان النبلاء فى فرنسا :

وجد البروتستنت فى نبلاء فرنسا معينا لهم ضد عدوهم المشترك ريشيليو أو بعبارة أصح ضد التاج . وقد شن ريشيليو طوال حياته حرباً شعواء على النبلاء محاولا الانتقاص من سلطانهم بكل الوسائل ، ولكن النبلاء كانوا فى عهده لايزالون أقوياء وأغنياء ومحبين للحروب ، ومع كل ما بذله ريشيليو لإضعاف شوكتهم فقد ظلوا العقبة الكؤود فى سبيل السلطة الملكية . إذ كانوا يتمتعون بامتيازات عديدة ولاسيما فيما يتعلق بالضرائب ، ولم يستطع ريشيليو بطبيعة الحال أن يقضى عليها ، بل ظلت حتى وقوع أحداث الثورة الفرنسية حيث قضى عليها فى عام ١٧٨٩ . ولكنه استطاع أن يحد من عدد أصحاب هذه الامتيازات . كما أنه سلب النبلاء سلطانهم فى الأقاليم عند ما استخدم ريشيليو عمال الملك أو مندوبيه فى الأقاليم Intendants du Roi ليحد من سلطانهم فيها . وأصبح عمال الملك فى الأقاليم خير عون للملكية على تركيز السلطة فى يدها ، وذلك عندما كانت قوية ، ولكنهم استبدوا بالأمور وأصبحوا ملوكا غير متوجين عندما ضعفت الملكية كما حدث فى عهد كل من لويس الخامس عشر والسادس عشر ، والملك ألغت الجمعية الوطنية هذه الوظيفة فى ١٧٨٩ . وإذا كان ريشيليو قد نجح تماما فى تحطيم نفوذ الهيجونوت السياسى والنجاة من المؤامرات التى حيكت حوله فإنه لم ينجح فى تحقيق هدفه الخاص بكسر شوكة النبلاء تحقيقا تاما وإن كان قد حقق جانبا منه .

٤ — اعادة التنظيم الادارى داخل فرنسا :

كان ريشيليو حريصا على أن يستقر حكم ملوك أسرة البوربون على أسس وطيدة ولذلك لم يترك أى فرع من فروع الإدارة دون رقابته وإشرافه المباشر عليه . فكان نشاطه يبدأ عند تعيين الموظف الصغير ، ويمتد ويتسع حتى يشمل تقرير السلام والحرب ، كان ريشيليو عظيم الثقة بنفسه وبوسائل الحكم التى ارتضاها لفرنسا فى عهده ، ولم يكن يؤمن بدور الهيئات التشريعية ؛ وإن كان قد جمع « مجلس الأعيان »

Conseil des Notables مرتين ، وكان رأيه استشاريا . اجتمع أو لهما عام ١٦٢٥ والثانى فى العام التالى ١٦٢٦ ، وعرض على كل منهما بعض مسائل الدولة الهامة . ولكنه حكم فرنسا دون الأخذ بأى مشورة أو نصح ، غير مبال بمعارضة الكنيسة والنبلاء .

لم يكن يفقه كثيرا فى أمور الاقتصاد ولا المالية العامة ؛ فعلى الرغم من المدة الطويلة التى تمتع فيها بسلطان مطلق لم يعالج ارتباك النظام المالى فى فرنسا وما به من فساد وظلم . وعلى ذلك فإن أهمية ريشيليو كانت لاترتبط فى الواقع بأى مقدرة على حل المشاكل المالية ، على أنه أدرك أن تلك الامتيازات التى كان يتمتع بها النبلاء وغيرهم من الطبقات المميزة جعلت العبء الأكبر منها يقع على عاتق الطبقة الدنيا . فأراضى الكنيسة والنبلاء ورجال البلاط معفاة كلها تقريبا من الضرائب . حاول ريشيليو التقليل من عدد المعفيين من ضريبة العقار « التاى » بمقتضى مرسوم أصدره عام ١٦٣٤ .

اهتمام ريشيليو ببناء الاسطول والجيش :

فطن ريشيليو أيضا إلى أهمية اشتراك فرنسا فى الميادين الاستعمارية ؛ فلم تشغله حرب الثلاثين عاما عن ذلك وإن كانت قد جعلته لايسهم فى هذا المضمار بما كان يرنو إليه ويتطلع إلى تحقيقه . تبين له أن فرنسا بسواحلها الممتدة امتدادا كبيرا وشعبها الميال إلى ارتياد البحار بلد له مستقبل بحرى عظيم ، ولذلك تعهد بنفسه شئون المستعمرات والبحرية فأصبح فى عام ١٦٢٦ رئيسا أعلى للبحرية والتجارة . فبدأ ببناء الأسطول الذى لم يكن له وجود عندما آلت إليه إدارة شئون فرنسا عام ١٦٢٤ مما اضطره فى حربه ضد الهيجونوت فى « لا روشيل » إلى الاستعانة بالسفن الهولندية ونجح فى النهاية فى تكوين أسطول لفرنسا مقدرا ما له من أهمية فى حمايتها ، وحماية تجارتها ، وقد كان افتقار فرنسا إلى الأسطول يكلف التجار الفرنسيين خسائر جمة ، كما كان يعوق ازدهار التجارة .

وفى عام ١٦٣٨ أسس فى أمريكا الشمالية شركة فرنسا الجديدة لتشجيع حركة التجارة الفرنسية فى العالم الجديد . وبلغ اهتمام ريشيليو بترويج التجارة أنه عقد مع الروسيا معاهدة تجارية عام ١٦٢٩، وتعتبر من أوائل المعاهدات التجارية الهامة بين البلدين .

كما اهتم ريشيليو بتقوية جيش فرنسا كما قدر هنرى الرابع أنه فى استطاعته أن يجند جيشا من ٣٤ ألف مقاتل ليحقق آماله . وفى عام ١٦٢١ كان جيش فرنسا أثناء حروبها ضد الهيجونوت يتكون من ١٢ ألف مقاتل ثم لم يلبث بفضل جهود ريشيليو أن وصل إلى ٦٠ ألف مقاتل ، وفى عام ١٦٣٨ كان عدد القوات الفرنسية قد بلغ ١٥٠ ألف مقاتل .

سياسة ريشيليو الخارجية :

ارتبطت سياسة فرنسا الداخلية ارتباطا وثيقا بسياستها الخارجية فى عهد ريشيليو فقد كان إعلاء شأن الملكية فى فرنسا هو الهدف الأسمى الذى يسعى له ريشيليو فى السياستين .

وتتلخص سياسته الخارجية بالتالى فى محاربة أسرة الهبسبرج بفرعيها فى النمسا وأسبانيا بطرق مباشرة أو غير مباشرة ، تتلخص فى معاونة أعدائها ضدها ، وإثارة القلاقل فى أملاكها . وكانت أسبانيا قد بلغت مبلغاً عظيما من القوة خلال القرن السادس عشر ، لم يعكر صفوه إلا هزيمة الأرمادا الشهيرة فى ١٥٨٨ . فكانت فى عهد ريشيليو عند مطلع القرن السابع عشر لاتزال تتمتع بنفوذ عظيم فى إيطاليا حصلت عليه فى عام ١٥٥٩ بمقتضى معاهدة « كاتو كمبرسيس » Cateau-Cambrésis كما كانت لاتزال تتمتع بنفوذ ملموس فى الأراضى المنخفضة الجنوبية على الأقل .

ولكن أثناء سيادة ريشيليو على السياسة الفرنسية كان فيليب الرابع يحكم أسبانيا (١٦٢١ — ١٦٦٥) ، وقد وقعت بأسبانيا فى عهده أربع مصائب : تدمير أسطولها ، وثورة كتالونيا ، وفقدان أسبانيا للبرتغال ، وثورة نابولى . ويرجع السبب الأساسى لتلك المصائب إلى أطماع أسبانيا الواسعة فى القيام بدور رئيسى فى السياسة الأوروبية مع ما كانت تعانيه فى تلك الفترة من فقر وإجهاد ، وسوء إدارة ، وعدم اتحاد جغرافى أو سياسى . كانت أسبانيا فى تلك الفترة لسوء إدارتها الداخلية ، واختلال الميزانية ، واضطراب الأحوال فى الأقاليم التابعة لها ، وضياع مستعمراتها ، لاتستطيع أن تقود العالم الكاثوليكى ضد البروتستنتية .

وحاول ريشيليو إثارة القلاقل فى وجه أسبانيا فى ميادين مختلفة دون خوض غمار حرب صريحة ضدها حتى عام ١٦٣٥ عندما استدعت الضرورة وقوع حرب سافرة بين البوربون والهبسبورج .

فنجد ريشيليو فى إيطاليا فى بداية عام ١٦٢٥ يتعاهد مع كل من « البندقية » و « سافوى » ، ولا يتأخر عن إرسال الحملات لمعاونة « منتوا » Mantua فى وسط إيطاليا الشمالى ، ونجده كذلك يحارب دوق سافوى عندما اضطر الأخير إلى عقد تحالف مع أسبانيا عام ١٦٢٩ ، فيوجه إلى سافوى جيشا فى عام ١٦٣٠ ، وأصاب هذا الجيش نجاحا ، فضم بعض الأراضى الإيطالية إلى فرنسا ، كما اضطر شارل عمانويل دوق سافوى أن يخضع أمام انتصارات لويس الثالث عشر .

لم يتوان ريشيليو كذلك فى مساعدة البروتستنت فى الأراضى المنخفضة وفى ألمانيا ومساعدة ملك الدنمرك فى حرب الثلاثين عاما بالمال والرجال ، كما أنه أمد الملك « جوستاف أدولف » ملك السويد عندما أخذ على عاتقه حماية بروتستنت ألمانيا بالمال والرجال .

وعاون ريشيليو هولندا التى بدأت من جديد حربها ضد أسبانيا فى عام ١٦٢١ ، بعد انقضاء مدة الهدنة بينهما وكانت تبلغ اثنتى عشرة سنة . وفى هذا سار ريشيليو على نهج سياسة هنرى الرابع ، واتبع سياسة استمرت إلى أن جاء لويس الرابع عشر فلم يتبعها . أراد ريشيليو بهذه الخطوة أن يحصل على أكثر من استقلال هولندا الذى كان قد تم الحصول عليه تقريبا . لقد أراد أن يخلص مدن بلجيكا من سيطرة أسبانيا حتى يتقاسم مع هولندا شيئا من تلك الغنائم ، بل كان يطمع فى تقسيم بلجيكا بينه وبين هولندا وإذا كان لم ينجح فى ذلك ، فقد نجح لويس الرابع عشر فيما بعد عندما ضم إلى فرنسا « أرتوا » Artois و « دنكرك » Dunkirk وأجزاء من بلاد « الفلندرز » Flanders و « هنولت » Hainault فبقيت كلها تحت سيطرة فرنسا ، وانتهت تلك الحرب الطويلة بين هولندا وأسبانيا عام ١٦٤٨ عندما اعترفت أسبانيا باستقلال هولندا فى صلح وستفاليا الذى ختم حرب الثلاثين عاماً.

وإذا كان ريشيليو قد نجح فى إثارة القلاقل لأسرة الهبسبورج بفرعيها فى النمسا وأسبانيا ، بل استطاع فى النهاية أن يقلل من نفوذ هذه الأسرة ، وأن يقطع شوطا بعيدا فى إضعاف شأن أسبانيا فقد أتيحت له هذه الفرصة أثناء حرب الثلاثين عاما التى اشترك فيها فى بادىء الأمر بطريقة غير مباشرة ، عندما شجع كلا من ملك الدانمرك والسويد على خوض غمارها ضد الهبسبورج والكاثوليك معتمدا على أن كلا من الدولتين كانت على العقيدة اللوثرية ، كما اعتمد فى ذلك على ما كان

لكل من الملكين الدانمركى ثم السويدى من أطماع سياسية فى الاشتراك فى هذه الحرب إلى جانب البروتستنت .

وفى عام ١٦٣٥ عندما لاحت بشائر السلام العام فى ألمانيا دخلت حرب الثلاثين عاما فى طور جديد، تميزت فيه الحرب بفقدانها لذلك الطابع الدينى الذى تميزت به أصلا ، واختفى فى غمرة النضال بين أسرتى البوربون والهبسبورج للسيطرة على أوروبا . يتبين ذلك من المعاهدات التى عقدت عندئذ ، ومن إعلان فرنسا الكاثوليكية الحرب السافرة على أسرة الهبسبورج بفرعيها فى النمسا وأسبانيا .

عند ما فقدت السويد ملكها وقائدها العظيم جستاف أدولف فى عام ١٦٣٥ ، رأى ريشيليو أنه يجب أن يتدخل جدياً فى هـــذه الحرب ، ولا سيما بعد إهزيمة البروتستنت فى موقعة « نوردلنجن » وكان يخشى أن يؤدى ذلك إلى انتهاء الحرب فى ألمانيا ، وضياع الفرصة على فرنسا فى خدمة أغراضها السياسية فى ألمانيا ، ومنع أسرة الهبسبورج من السيطرة على شئونها ، ولهـــذه الأسباب ، دخلت الحرب فى طور جديد يمتاز بفقدانه تلك الصفة الدينية التى كانت تميز الطور الأول إلى حد ما ، وأصبحت حرباً ذات أغراض سياسية بحتة ، وغدت دوراً من أدوار الصراع بين كل من أسرتى البوربون والهبسبورج للسيطرة على أوروبا ، فأعلنت فرنسا الحرب على أسرة الهبسبورج بفرعيها فى النمسا وأســبانيا عام ١٦٣٥ . ولا أدل على عدم الاكتراث بالناحية الدينية من المحالفات التى عقدت فى ذلك العام . المحالفة بين فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستنتية « معاهدة كامبيين Campiégne » فى عام ١٦٣٥ وجمهورية هولندا البروتستنتية ضـــد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية وأسبانيا الكاثوليكية . أما سافوى فقد كان سلوكها مذبذباً فى الحرب فهى تارة مع فريق وتارة أخرى مع الفريق الآخر .

ويعتبر ريشيليو الزعيم الأول لتلك الحرب القاسية المهلكة ، بل ينسب إلى هذا الكاردينال الكاثوليكى الفضل فى نجاح الحركة البروتستنتية فى ألمانيا بسبب ما قام به فى سبيل نصرتها . وكان فى سياسته تلك يهدف إلى العمل على إعلاء شأن الملكية فى فرنسا ، وتمكينها من الوصول إلى مكانة مهابة بين دول أوروبا العظمى ، وذلك عن طريق الحد من ســلطان أسرة الهبسبورج ، ونجحت سياسته فى تحقيق الأغراض المرجوة منها إذ نتج عنها الحد من سلطان الهبسبورج فى ألمانيا والامبراطورية عندما

اعترف فى صلح وستفاليا فى عام ١٦٤٨ بالحرية للبروتستنت ، ومنح الأفراد والحكام الألمان مزيداً من الاستقلال والنفوذ على حساب الامبراطور ، وعندما ترتب على هذه السياسة هزيمة أسبانيا وسقوطها كقوة لها كيانها فى السياسة الأوربية . وقد ظلت فرنسا فى حربها ضد أسبانيا بعد انتهاء حرب الثلاثين عاماً مدة أحد عشر عاماً أى إلى صلح البرانس عام ١٦٥٩ .

انتصر السويديون فى هذا الدور فى عام ١٦٣٦ مما جعلهم يستولون على براندنبرج وبوميرانيا وسكسونيا وثورنجيا . كما نجح الفرنسيون فى الاستيلاء على الالزاس واللورين . وإذا كان ريشيليو قد مات ١٦٤٢ قبل أن يجنى ثمار سياسته فإن خليفته مزران (١٦٤٣ — ١٦٦١) قد جنى ثمار هذه السياسة ، عندما انتصرت قوات فرنسا بقيادة كونديه فى موقعة « روكروا » Rocroy فى الأراضى المنخفضة فى عام ١٦٤٣ .

عهد الوزير الاعظم مزران ١٦٤٣ — ١٦٦١

جنت فرنسا ثمار سياسة ريشيليو الحكيمة فى عهد خليفته وتلميذه الوزير الأعظم مزران الذى سار على نهج أستاذه ، فاستطاع أن يحقق الأهداف التى كان يعمل سلفه من أجلها . فبلغت فرنسا بمقتضى صلح وستفاليا ١٦٤٨ ، مبلغاً عظيما من السطوة والنفوذ . ويكفى أنها نجحت فى تحطيم ألمانيا وإضعافها ، وكانت هذه هى السياسة التقليدية لفرنسا عندئذ، وكانت تهدف إلى عدم قيام جار قوى على حدودها الشرقية وبمقتضى هذا الصلح حصلت فرنسا على الألزاس النمساوية وعلى « تول » و « متز » و « فردان » ، ولم تلبث حتى ضمت إليها أملاكاً أخرى بعد مضى أحد عشر عاماً من تاريخ ذلك الصلح أى فى عام ١٦٥٩ بمقتضى صلح البرانس الذى أنهى الحرب بين البوربون فى فرنسا وفرع الهبسبورج فى أسبانيا .

على الرغم من تلك الانتصارات العظيمة التى حققها مزران لفرنسا نتيجة لاشتراكها فى حرب الثلاثين عاماً وقعت الثورة داخل فرنسا فهددت وحدتها ، وأثرت على مركز مزران وجعلته بادىء الأمر غير قادر على قمعها والسيطرة على الأمور فى فرنسا .

وكان المتسلط على شئون فرنسا فى تلك الفترة أجنبيان عنها : الملكة آن النمساوية Anne of Austria ابنة فيليب الثالث وزوج لويس الثالث عشر والوصية على ابنها

الطفل الملك لويس الرابع عشر . أما الشخصية الثانية وهى الأبرز فكانت شخصية الكاردينال الإيطالى « مزران » Mazarin ، ذلك لأن الملك لويس الثالث عشر مات عام ١٦٤٣ عن طفل لم يتعد الخامسة من عمره . واستطاعت أمه أن تتخلص من المجلس الذى عين ليرشدها فى الحكم،واعتمدت على مزران فى تسيير دفة الأمور فى فرنسا . كانت الأم الملكة آن مكروهة من الشعب لأنها أجنبية ولأنها استعانت بأجنبى فى تصريف أمور الدولة ، بالإضافة إلى ذلك كانت تصرفاتها وتصرفات وزيرها الأعظم مزران بغيضة إلى أمراء البيت المالك وإلى النبلاء وإلى برلمان باريس والشعب الباريسى ، أى أن سائر الطبقات قدكرهت الوصية كما كرهت مزران ، وزاد فى كراهية النفوس لمزران ما استحدثه من ضرائب لتمويل الحرب أولا فى ألمانيا ثم ضد أسبانيا ، تلك الحرب التى استمرت أحد عشر عاماً بعد صلح وستفاليا (١٦٤٨) ، الذى أنهى الحرب ضد ألمانيا .

كانت روح الثورة ظاهرة عامة فى أوروبا فى عام ١٦٤٨ ، إذ قامت الثورة فى نابولى وكتالونيا والبرتغال وانجلترا . كان طبيعياً أن تتأثر فرنسا بهذه الروح الثورية ، فوقعت بها ثورتان عجيبتان تعرفان بثورتى الفروند الأولى (١) والفروند الثانية . وكانت لهما آثارهما الخطيرة فى تعريض الملكية فى فرنسا للسخرية والخطر والانهيار .

كان مزران يسلك سياسة داخلية وأخرى خارجية لا تختلفان عن سياسة سلفه العظيم ريشيليو ، فقد كان كلاهما يعمل على تركيز السلطة فى يد الملكية فى الداخل، كما كانا يعملان على رفع مكانتها ومركزها فى أوروبا عن طريق الانتقاص من سلطة أسرة الهبسبورج فى أوروبا . على أن خصومه لم يعترضوا على سياسته أو يهتموا بها ولكنهم كانوا يخالفونه فى الرأى فيما يتعلق بسياسته الاقتصادية ، إذ اشتد السخط عليه بسبب تلك الضرائب التى استحدثها، ومنها فرضه ضريبة على المساكن فى ضواحى العاصمة، وكانت مسألة المراقبة الدستورية لشئون الملكية المتطرفة كذلك من عوامل

(١) الفروند : حرب أهلية وقعت فى فرنسا أثناء حداثة الملك لويس الرابع عشر بين عامى ١٦٤٨ و ١٦٥٢ . وكانت السلطة يومئذ لأمه الملكة آن النمساوية ووزيرها الكاردينال «مزران» Mazarin. وسمى القائمون بها با « لفروندور » Frondeurs . أى رماة المقاليع نظرا لما حدث مرة فى إحـدى المشاجرات فى الشارع .

الخلاف . كانت هذه الآراء كلها ظاهرة عند القائمين بحركة الفروند الأولى وعلى وجه الخصوص بين أعضاء برلمان باريس الذين تزعموا ثورة الفروند الأولى وأكسبوها ذلك الجلال الذى لا يمكن أن توصف به ثورة الفروند الثانية .

ثورة الفروند الأولى :

قامت كلا الثورتين ضد الملكية فى فرنسا ولكن كان لكل منهما أسبابها وقد تعارضت تماماً هذه الأسباب ولذلك فشلت الثورتان .

انضم أعضاء برلمان باريس إلى النبلاء الثائرين فى الحركة الأولى ، وكانوا يدافعون عن قضية دستورية لها أهميتها ، نهضوا يكافحون فى سبيل الحرية المدنية والضمانات الدستورية ،وإدخال نظام الرقابة على الأموال العامة . ولم يكن فى الواقع برلمان باريس صالحاً للقيام بالإصلاح الدستورى لا من حيث تكوينه ولا اختصاصاته فقد كانت مهمته الرئيسية بل والوحيدة فى كثير من الاحيان قضائية . فهو بمثابة المحكمة العليا. وكان أعضاؤه يصلون إلى مراكزهم عن طريق شراء العضوية أو وراثتها وهكذا لم يكن للشعب ولا للملك نفوذ فى تعيين هؤلاء الاعضاء . كان لهذا البرلمان اختصاص تشريعى واحد وهو خاص بتسجيل المراسيم الملكية ومشروعات القوانين التى كانت لا تصبح نافذة إلا بعد تسجيلها فى برلمان باريس . اعتمد البرلمان على حقه هـــذا فرفض فى أغسطس ١٦٤٨ أن يسجل ضريبة الحرب التى فرضها مزران . واعتمد فى موقفه الجرىء هذا على الرأى العام الثائر فى فرنسا بسبب الضريبة وغيرها من الالتزامات المرهقة . وأخذ يتقرب من الهيئات الأخرى التى تتفرع من مجلس الملك مثل مجلس الحسابات ، ومجلس الجمارك وقد أعلنت تلك المجالس تأييدها لموقف البرلمان ، وطالبت بتخفيض الضرائب ، وبعدم سجن أى شخص دون محاكمته ، وطالبت كذلك بإلغاء وظيفة عمال الملك فى الأقاليم بسبب ما وصلوا إليه من سلطان ونفوذ .

وشجع الحكومة على اتخاذ اجراءات شديدة ضد متزعمى الحركة تلك الانتصارات التى حققتها جيوش فرنسا على أسبانيا ، فبادرت الحكومة بالقبض على زعماء الحركة بالبرلمان ، إلا أن الملك لم يلبث أن استسلم نتيجة لوصول أخبار إعدام شارل الأول ملك انجلترا . وإذا كان مزران قد تراجع واستسلم بعض الوقت إلا أنه كان يستعد

للضرب على أيدى الثوار . فعهد إلى « كونديه » Condé بقيادةالقوات الحكومية التى حاصرت باريس . وأظهرت الأحداث أنه ليس هناك أى اتفاق فى وجهات النظر بين أعضاء البرلمان والنبلاء . فقد أساء أعضاء البرلمان إلى قضيتهم بانضمامهم إلى النبلاء المتمردين الذين أثاروا بدورهم عواطف غوغاء باريس ، أولئك النبلاء الذين كانوا يرغبون فى أن يؤكد مجلس طبقات الأمة امتيازاتهم ويوسعها ، بينما كانت مطالب أعضاء البرلمان تختلف عن مطالبهم ، ولكل كراهيتهم المشتركة للكاردينال مزران دفعتهم إلى الاشتراك معاً فى هذه الحركة .

وفى عام ١٦٤٩ وقع اتفاق الصلح ، ووعدت الحكومة بتقديم بعض الترضيات فيما يتعلق ببعض المسائل المالية التى لن يلبث أن يسحبها مزران فى أقرب فرصة مواتية .

أما ثورة الفروند الثانية : فكانت أضعف مبدأً من الأولى ، إذ لم تكن لها أغراض دستورية ، وإنما كانت من عمل الارستقراطية الغاضبة الساخطة ، وتنحصر فى مجموعها فى أطماع الأمير « كونديه » . بدأت فى مطلع عام ١٦٥٠ باعتقال « كونديه » صاحب انتصار « روكروا Rocroi » ولينز » Lens ، وقائد جيش الوصى على العرش فى الثورة الأولى . وكان ذلك لاجراء جريئاً من جانب مزران إذ كان « كونديه » رجلا له قدره وشهرته وثروته . اتخذ مزران ذلك الاجراء عندما تبين خطورة ذلك الجندى المتعجرف . انفجرت فى البلاد موجة عنيفة من الغضب ، وانضم القائد « تورين » إلى جانب النبلاء رغم طبيعتة المسالمة والموالية للملكية ، وانضم شعب باريس الغاضب إلى الثائرين مطالباً بالافراج عن « كونديه » والقبض على مزران . فأحنى الأخير رأسه للعاصفة بادىء الأمر عندما أطلق سراح « كونديه » وانسحب إلى ما وراء حدود فرنسا فى يناير ١٦٥١ . ولكنه أخذ يستعد لاسترداد مقاليد الامور إلى يده ويد الملكة الوصية على العرش فى فرنسا . استطاع الجانب الملكى المغلوب على أمره عندئذ أن يستميل « تورين » ، وأن يعيده إلى حظيرته مما رجح كفة القوات الملكية . فهزم « كونديه » عام ١٦٥٢ ، خارج أبواب باريس وكاد يقع فى الأسر . لكنه استطاع أن يفر من فرنسا وينسحب إلى أسبانيا .

وفى ٢١ أكتوبر ١٦٥٢ عاد لويس الرابع عشر مرة أخرى إلى باريس ،

وانتهت حرب الفروند الثانية . وقد خلفت هذه الثورة الهزيلة درساً انطبعت آثاره عميقة فى وعى الملك الصغير . وتلك هى الأهمية الرئيسية التى كانت للفروند فى تاريخ فرنسا . فلم ينس لويس الرابع عشر مطلقاً الإهانات التى نزلت به صبياً وتعرض الملكية للانهيار على يد النبلاء الثائرين . خرج من هذه التجربة بحكمة آيتها أن فرنسا فى حاجة إلى يد حديدية لملك مستبد ، لايثق فى وزراء عظام ينهضون بأعماله ، ولكنه يعالج الامور كلها بنفسه .وهكذا أدت اضطرابات الفروند إلى الحكم الفردى للويس الرابع عشر .

حظر عندئذ مزران على أعضاء البرلمان التدخل فى الشئون العامة لفرنسا ؛ كما أعاد نظام عمال الملك فى الاقاليم ، أى أعاد الانظمة التى وضعها ريشيليو من قبله . وفى صلح البرانس ١٦٥٩ صدر العفو عن «كونديه» وسمح له بالعودة إلى فرنسا .

أما سياسة مزران الخارجية . فقد كانت استئنافا لسياسة ريشيلو ، فاستمر فى العمل على تحقيق الخطة التى وضعها ريشيليو من قبل . وقد انتصرت الجيوش الفرنسية فى الاراضى المنخفضة فى موقعة «روكروا» Rocroi عام ١٦٤٣ ، وكان الامير «كونديه» القائد المشهور هو صاحب ذلك النصر الحاسم . وهكذ تحقق النصر الاول للخطة التى وضعها ريشيليو فى عهد خليفته مزران .

عندما تولى مزران شئون فرنسا بعد وفاة ريشيليو كانت فرنسا لاتزال فى حربها ضد الهبسبورج فى ألمانيا وأسبانيا فقد أعلن ريشيليو تلك الحرب منذ عام ١٦٣٥ على أنها لم تتوقف ولم تنته عند عقد صلح وستفاليا Westphalia فى عام ١٦٤٨ ، تلك المعاهدة التى عقدت بين فرنسا والامبراطور فرديناند الثالث . فقد ظلت الحرب قائمة بين فرنسا وأسبانيا ، وكانت كلاهما فى حالة إعياء شديد .

صلح «وستفاليا» Westhalia ١٦٤٨ :

كان صلح «وستفاليا» — الذى وضع حداً لحرب الثلاثين عاماً فى ألمانيا فى عام ١٦٤٨ ، وأنهى الحرب بين فرنسا والامبراطورية — عاملا قوى الأثر فى تحقيق التوازن الدينى والســـياسى فى ذلك العصر ، فأقر ذلك الحال الذى ساد أوروبا لأجيال عديدة .

أثره فى الناحية الدينية :

أنهى الصلح الصراع الدينى ، وأقر المذهب البروتستنتى كعقيدة معترف بها إلى جانب الكاثوليكية . وهكذا كتب للعقيدة الجديدة أن تحيى وتبقى ، ومع ذلك فقد ظل جنوب ألمانيا وغربها كاثوليكياً ، بينما بقى شمال ألمانيا بروتستنتياً على مذهبى لوثر وكلفن . انتشر أولهما فى (براندنبرج) Brandenberg و (هس كاسل)Hesse-Cassel (وبروسيا) و (فرتمبرج) Wurtemberg و (سكسونيا) و (بادن) Baden ، وفى الحوض الأدنى لنهر الراين ، وبوهيميا ، وانتشر خارج ألمانيا فى المقاطعات الغربية والجنوبية فى سويسرا واسكنديناوة . وأما الثانى وهو مذهب كلفن فانتشر فى إقليم البلاتين ، واعتنقه غالبية سكان المجر ممن خرجوا على الكنيسة الكاثوليكية، ثم انتشر خارج ألمانيا وفى فرنسا وهولندا ، واسكتلندا ، وسويسرا الشرقية ، واعتنقته الكنيسة الأنجليكانية بانجلترا ، وفى المستعمرات الأمريكية الشمالية ولا سيما فى انجلترا الجديدة .

ونص الصلح على أن يسترد رجال الدين البروتستنت ما انتزع منهم من أملاك قبل عام ١٦٢٤ . أقر الصلح كذلك مذهب كلفن ، ومع أنه لم يعترف رسمياً بحرية العقيدة للفرد ولكنها استقرت بمرور الأيام .

ولضمان المحافظة على مركز البروتستنت ومصالحهم، أعيد تنظيم المجلس الامبراطورى فأصبح يتكون من البروتستنت والكاثوليك بنسبة واحدة .

أثره فى الناحية السياسية :

١ — نجحت السويد فى تثبيت أقدامها عند مصبات الأنهار الشمالية فاستولت على أسقفيتى (برمن)Bremen و (فردن) Verden ، واستطاعت بذلك أن تسيطر على نهرى (الإلب) Elbe و (الويزر) weser ، وانفتح بذلك أمامها الطريق لتوسع من نفوذها فى شمال ألمانيا ، مما جعلها تتمتع بمركز عظيم فى حوض بحر البلطيق وفى الشئون الألمانية . وقد احتفظت (ببوميرانيا الغربية) Pomerania .

٢ — حصلت براندنبرج على (بوميرانيا) الشرقية بتنازل من السويد ، واستعاضت براندنبرج عن ادعاءاتها فى الجزء الغربى من (بوميرانيا) بوضع يدها على (كامن)

Camin و « ميندن » Minden ومعظم إقليم « مجدبرج » Magdeburg . وهكذا أصبح لبراندنبرج شأن عظيم سيما وأنها نالت استقلالها مما أضعف كيان الامبراطورية التى كانت الحروب قد أنهـكت قواها وأساءت إلى سلطانها بدرجة تفوق إساءتها إلى الكاثوليك جميعاً .

٣ — لم يكن تشبث الامبراطور بالسيطرة على ألمانيا جميعاً يتمثل فى غير سلطة اسمية . فقد استقلت سكسونيا وبافاريا . واقتصر نفوذ أباطرة أسرة الهبسبورج على أملاكهم الوراثية . ولما كان غالبية سكان هذه البقاع من غـير الألمان فلم تعد لهم سيطرة على الألمان .

٤ — وإلى جانب ما قدمنا حدثت تغييرات أساسية أخرى فى ألمانيا ذلك أن مكسمليان دوق بافاريا ضم لدوقيته إقليم البلاتين الأعلى ، كما ثبت مركزه كمنتخب لبافاريا وحق أسرته فيها .

بينما تحول إقليم البلاتين الأدنى إلى إمارة انتخابية ثامنة ، منحت لابن ملك بوهيميا (فردريك الخامس) وكان يدعى « شارل لويس » Charles Lewis (١٦١٧ — ١٦٨٠) .

٥ — احتفظت فرنسا بمكاسبها من انتصاراتها الحربيـة ، فوضعت يدها على الألزاس النمساوية و « ستراسبورج » Strasburg ، كما اعترف بانفصال لأسقفات الثلاث « تول » Toul و « متز » Metz « فردان » Verdun نهائياً عن أملاك الامبراطورية . وكانت فى يد فرنسا منذ عهد هنرى الثانى .

٦ — أعلن هذا الصلح رسمياً استقلال هولندا وسويسرا ، وكانتا تتمتعان بذلك الاستقلال منذ أعوام .

ومع ما انطوت عليه مواد الصلح المذكورة من مظاهر الجد ، فلم تكن هذه المواد وحدها هى فصل الختام . وإنما كانت نتائج الحرب شديدة الأثر على ألمانيا ، فقدت ألمانيا كثيراً ، وبحسبها أنها ظلت ميداناً لحرب ثلاثين عاماً متصلة ، ففقدت من سكانها ما يقرب من الثلثين . فلم يبق من سكان بوهيميا إلا الربع ، ولم يبق من سكان برلين سوى ما يماثل ذلك ، (فأصبحوا ستة آلاف بعد أن كانوا أربعة وعشرين ألف) وتتمثل أكبر الخسائر بعد ذلك ، فى أحد أحياء « ثورنجيا » Thuringia ، حيث قضى على ما يزيد على أربعة آلاف رأس من الغنم ومعظم الأنفس والدور .

وكان طبيعياً بعد ذلك كله أن يتدهور المجتمع الألمانى تدهوراً يتضح فى سلوكه وثروته وثقافته ، وكان لذلك أثره فى تأخير استكمال الاتحاد الألمانى وتكوين الدولة القومية ما يزيد على قرنين من الزمن .

وإذا كانت معاهدة « وستفاليا » قد أنهت الحرب بين فرنسا وألمانيا فإنها لم تنه الحرب بين فرنسا وأسبانيا ، تلك الحرب التى استمرت أحد عشر عاماً بعد ذلك ، وانتهت بصلح « البرانس » فى عام ١٦٥٩ .

لم يدخرمزران وسعاً فى العمل على إضعاف شأن أسبانيا ، فأخذ يغذى الثورة فى نابولى وكتالونيا والبرتغال ، وهو لم يحجم فى سبيل حمل عدوه على عقد الصلح عن التحالف مع الجمهورية الانجليزية التى استباحت دم ملك انجلترا (شارل الأول) .

كان لذلك التحالف بين فرنسا و « اليفركرمويل » وقد أصبح ديكتاتورا على انجلترا (١٦٥٣ — ١٦٥٨) أثره فى ترجيح كفة فرنسا والعمل على أنهاء الحرب بينها وبين أسبانيا ، فتقدم جيش بيوريتانى انجليزى ليحارب تحت قيادة « تورين » فكانت فى مارس ١٦٥٧ موقعة « الدن » Dnnes الحاسمة التى هزمت فيها قوات أسبانيا هزيمة ساحقة ، مهدت لإنهاء الحرب واستولى الانجليز على دنكرك لقاء مساعدتهم لفرنسا .

قامت بعد ذلك مفاوضات جديده بين الطرفين لعقد الصلح ، فعقد صلح البرانس عام ١٦٥٩ . ويعتبر تتمة لصلح وستفاليا ، أى أنه أنهى تلك الحلقة الهامة من حلقات الصراع بين البوربون والهبسبورج فى النصف الاول من القرن السابع عشر ..

حققت فرنسا مكاسب بمقتضى هذا الصلح على حساب أسبانيا فاستولت على إقليم « روسيون » Roussillon فى الجنوب وجزءاً من «أرتوا » Artois وبعض المدن على الحدود الشمالية الشرقية فى بلاد « الفلاندرز» Flanders و « هنولت » Henault و « لكسمبورج » Luxembourg .

وأهم من هذا الكسب المادى ما كسبته فرنسا من ناحية ازدياد مكانتها فى أوروبا ، فقد كانت هى التى فرضت الصلح على ألمانيا عام ١٦٤٨ ، كما أنها قد أملت إرادتها

على أسبانيا عام ١٦٥٩ . وصدر العفو عن « كونديه » وسمح له بالعودة إلى فرنسا ، وتم الاتفاق لتحسين العلاقات بين فرنسا وأسبانيا على أن يتزوج لويس الرابع عشر من الأميرة الأسبانية « ماريا تريزا » Maria-Theresa كبرى بنات فيليب الرابع . وتنازل لويس الرابع عشر فى ذلك العقد عن كل ما يخص زوجته من أملاك أسبانية أو من حق فى عرش أسبانيا . ولكنه اشترط أن يكون ذلك لقاء مبلغ كبير من المال تدفعه أسبانيا . ولما لم تقم بسداد ذلك المبلغ فقد اعتبر لويس الرابع عشر نفسه غير مقيد بتعهداته . وقد شغل الملك بتلك المسألة جزءاً كبيراً من حياته ، فكان الصلح نصراً عظيما لمزران الذى لم يعش طويلا بعده ، إذ مات عام ١٦٦١ .

عند موت مزران قرر لويس الرابع عشر أن يحكم فرنسا بنفسه . وقد اشتهر عصره بأنه كان عصر عظمة فرنسا وأبهتها . وامتاز هذا العصر إلى جانب عظمته فى النواحى الأدبية والفلسفية والإصلاحية بأنه كان عصر حروب مستمرة أراد بها لويس الرابع عشر أن يكسب لفرنسا مكانة ممتازة فى أوروبا .

الفصل الثالث

عصر لويس الرابع عشر

(١٦٦١ – ١٧١٥)

عند موت مزران فى ٩ مارس ١٦٦١ كان لويس الرابع عشر يبلغ الثالثة والعشرين من عمره ، وقد أظهر منذ البداية اتجاهه نحو الانفراد بالحكم والتحكم فى كيفية إنفاق أموال الدولة ، استعان فى الحكم بثلاثة من المستشارين ، «لوتلييه» Le Tellier للشئون الحربية و « ليون » Lionne للسياسة الخارجية . و « فوكيه» Fouquet للشئون الاقتصادية ، وكان مركز « فوكيه » حرجاً بسبب انعدام ثقة الملك فى سلوكه ، ولا أدل على ذلك من أن الملك عين كولبير مساعداً له إلا أنه لم يلبث أن حل محله .

سوء الحالة الاقتصادية : كان اقتصاد فرنسا متدهوراً للغاية ، فبلغت ديون فرنسا ما يزيد على أحد عشر مليوناً من الجنيهات ، ولم تتخذ أية إجراءات لتسديد هذه الديون على أقساط ، وزاد الموقف المالى سوءاً أنه لم يحصل عن ضريبة العقار أو « التاى » المبالغ المتوقعة لسد حاجيات الدولة ، وزاد عبء الضرائب على الطبقات الدنيا التى كان يقع على عاتقها النصيب الأكبر منها بسبب رداءة الحصول مما هدد بالثورة التى قام بها بالفعل بعض صغار الفلاحين ؛ لكن أخمدت نارها بالقوة . وانخفضت قيمة العملة الفرنسية إذا قورنت بالعملتين الأسبانيةوالهولندية ، واختل الميزان التجارى بفرنسا .

اهتمام لويس الرابع بالإصلاحات الاقتصادية : على أن موارد فرنسا المتعددة وطاقاتها الواسعة وكثرة عدد سكانها ، كل هذه الأمور كانت كفيلة على الرغم من تخلفها عندئذ فى الصناعة والزراعة بأن تجعلها تنهض باقتصادياتها . فقد كانت أكثر دول أوروبا القومية سكاناً ، ففيها حوالى خمسة عشر مليوناً من المواطنين

الذين يعملون فى فلاحة الأرض ، وما يزيد على خمسة ملايين يرتزقون من ريع أراضيهم أو من مكاسبهم فى الصناعة والتجارة ، أو من مرتبات يتقاضونها لشغلهم بعض المناصب الإدارية وغيرها .

وعندما بدأت حركة الاصلاحات الاقتصادية فى فرنسا أثناء أعوام الستينات ١٦٦٠ ، استغل لويس الرابع عشر أولئك الاداريين الذين دربهم مزران فى هذا المجال ، وعلى رأسهم الوزير « كولبير » الذى حل محل « فوكيه » ، كما استفاد من جهود طائفة من الفنانين ممن كان كل من مزران وفوكيه يشجعانهم ، ومنهم المعماريون والنحاتون والرسامون .

وقد كان للاستقرار الذى حققه لويس الرابع عشر لبعض الأوضاع القائمة أثره فى نجاح الإصلاحات الاقتصادية . فكان الملك وحده صاحب الحق فى تعيين أعضاء « المجلس الأعلى » Conseil d'en haut ، وكان عدد أعضائه يتراوح بين ثلاثة أعضاء وخمسة يستدعيه الملك إذا كان فى حاجة إلى نصحه ورأيه . استعان لويس الرابع عشر فى أمور الحكم بمندوبى الملك فى الأقاليم الذين اشتهر أمرهم فى عهد كل من مزران وريشيليو . أصبحوا فى عهد لويس الرابع عشر حكاماً مقيمين فى الأقاليم، ثابتين فى مراكزهم حتى يكونوا على بينة بكل ما يجرى فى نواحيهم ، بينما كانوا فى العهدين السابقين مفتشين متنقلين بين أقاليمهم وعاصمة البلاد حيث مقر الحكومة المركزية .

كان الإصلاح الرئيسى الذى شاهدته الستينات (١٦٦٠) فى فرنسا يرتبط بصفة خاصة بالإقتصاد والمسائل المالية . تأثرت ميزانية فرنسا كثيراً بسبب ما أنفقت من أموال كثيرة فى المدة السابقة لحكم لويس الرابع عشر : أثناء محاربة ريشيليو فى العشرينيات (١٦٢٠) ، وعند مقـاومة مزران لحركتى الفروند فى الأربعينيات (١٦٤٠) والخمسينيات (١٦٥٠) ، وهكذا على الرغم من إمكانيات فرنسا الواسعة وطاقاتها الكبيرة وعدد سكانها الكبير ؛ فإنها قد تخلفت عن كل من منافستيها انجلترا وهولندا فى ميدان التجارة وميدان التوسع فيما وراء البحار . ولا يفوتنا أن نذكر أن كلا من الدولتين قد نجت من التورط فى حرب الثلاثين عاماً التى كلفت فرنسا الكثير من المال والجهد .

على أن الإجراءات العديدة التى اتخذت للنهوض باقتصاديات فرنسا وأحوالها

المالية عندئذ كانت حكيمة للغاية وموفقة ، فاستحقت ثناء رجال الاقتصاد فيما بعد كما استحقت تقريظ كتاب الإقتصاد كذلك : فقد أحييت المصانع القديمة وأنشئت كذلك مصانع جديدة . وكان اهتمام الملك بإقامة القصور الملكية ، وتزويدها بكل ما يليق بها من متاع وأدوات للزينة كما نشاهد فى « فرساى » وفى « مارلى » Marly عاملا مساعداً ومشجعاً على إتاحة فرص كثيرة ومتعددة لبعض الصناعات الفرنسية مثل « الجوبلان » و « المرايا » و « المنسوجات الرقيقة الرائعة » ، كما أن ذلك الإهتمام قد فتح مجالات متعددة لعدد كبير من الرسامين والمثالين والمصورين ، وللآلاف من المشتغلين بصناعة الأثاث والأدوات الفضيــة وغيرها من الصناعات المرتبطة بتزيين القصور .

ثم إن حياة القصر الحافلة بالمسرات : الزاخرة بالإحتفالات قد أتاحت فرصة العمل للكثيرين من المشتغلين بصناعة الدانتيلا والتطريز والتفصيل والحياطة وصناعة الحلى والأحذية والقبعات . واشتهرت بعض هــذه الصناعات التى صدرتها فرنسا للخارج مثل الساعات والمنسوجات الرقيقة والدانتيلا والقطع الفنية الرائعة ، وبذلك أضافت فرنسا إلى صادراتها التقليدية من نبيذ ومنسوجات خشنة رصيداً جديداً من الصادرات التى عادت عليها بالربح الوفير .

وأنشىء عدد كبير من الشركات التجــارية فى حوض بحر البلطيق وفى البحر المتوسط وفى منطقة الهند الشرقية والعالم الجديد . وكان لويس الرابع عشر من أكبر المشجعين لهذه الشركات فساهم فيها بأمواله ، كما شجع النبلاء على المبادرة بالإسهام فيها والإقبال على عقد الصفقات التجارية الكبيرة فى عرض البحار . ولا ننسى أن احتياجات الجيش والبحرية المتزايدة قد ساهمت فى زيادة إنتــاج الملابس الرسمية الخاصة بأفراد كل منها ، وكذلك إنتاج الأسلحة والبنادق والسفن .

اهتمام لويس الرابع عشر بالجيش والبحرية :

أما الأمر الثانى وقد بدأ فى نفس الوقت الذى بدأ فيه العمل على تحسين أحوال فرنسا الاقتصادية والمالية وكان نجاحه يترتب على نجاح الاصلاح الاقتصادى ، فقد كان يتعلق بإصلاح الجيش وإنشاء البحرية . قام « لوتليية » Le Tellier ، بكثير من الاجراءات المبدئية بصدد ذلك ، وكان الأمر يقتضى عندئذ تنظيم الجيش وتحويله إلى أداة فعالة لتحقيق سياسة التاج ، وكان ذلك يحتم القضاء على فكرة أن

الضابط النبيل هو صاحب الفرقة والمسيطر عليها حتى لا تتكرر أحداث الفروند ، وجعل أمر تدريب الضباط فى المستقبل تحت إشراف الحكومة ، كما كان ذلك النظام الجديد يهدف إلى أن تكون المهارة والشجاعة والتفوق فى الجيش هى وسائل الترقى فيه ، وليس مجرد الإنتماء إلى طبقة النبلاء . وليس معنى ذلك أن لويس الرابع عشر كان ضد النبلاء وارتقائهم مناصب عليا فى الجيش بل أراد أن يطعم الجيش بكفاءات جديدة لاتسندها الطبقة .

وظل الجيش فى أوائل الستينات (١٦٦٠) قليـــل العدد بسبب الصعوبات الاقتصادية ولكن لم تلبث أن ازدادت أعداده كنتيجة حتمية للحروب التى خاضها لويس الرابع عشر . وقد أصبح عدد أفراد الجيش بما فيها الحرس الوطنى أثناء حرب الوراثة الأسبانية حوالى ٣٥٠,٠٠٠ مقاتل ، إلا أن هـــذا قد خفض بعد الانتهاء من الحرب ، بينما كان الجنود المتبقون فى الجيش يستخدمون فى أداء واجبات مختلفة أثناء السلم ، كانوا يعملون فى بناء الحصون واصلاحها كما كانوا يساهمون فى أعمال الحفر وبناء القصور الملكية .

وإذا كان الجيش يدين خاصة « للوتيلييه » Le Tellier وابنه « لوفوا » Louvois و « مارتينيه » Martinet و « فوبان » Vauban فإن مسئولية البحرية كانت تقع على عاتق « كولبير » Colbert وابنه « ستيجنيلى » Steignelay . وقد ازداد عدد السفن فبعد أن كانت فى ١٦٦١ تبلغ عشرين سفينة مزودة بستين من رجال الحرب البحريين أصبحت فى ١٦٨٨ — ١٤٠ سفينة بها ٢٣٠ من هؤلاء ، وارتبط بهذا نمو البحرية التجارية ولا سيما فى منطقة جزر الهند الشرقية التى كان يستعان بها أثناء الحروب . وقد كان كولبير مدركاً لأهمية الصلة بين البحرية ونمو المستعمرات ، ولذلك أصبحت المستعمرات الفرنسية تتبع وزارة البحرية . وكان لتوحيد إدارة البحرية التجارية والبحرية العسكرية وجعلهما تحت سلطة واحدة أثره فى تسهيل عملية اشتراكهما فى الحرب بعد عام ١٦٩٢ ، وبعد عام ١٧٠٤ عندما اضطرت فرنسا أن تواجه القوى البحرية لانجلترا وهولندا مجتمعة .

وإلى جانب ذلك كان هناك أسطول الغلايين فى كل من « برست » و « طولون » . وكان يستخدم فى البحر المتوسط بصفة خاصة لحماية ثغر مرسيليا من خطر قراصنة شمال أفريقيا . كما كان هناك أسطول صغير من الغلايين فى « روشفور » ochefort

ليستخدم فى الدفاع عن المياه الغربية والشمالية الغربية ؛ على أن استخدام الغلايين أصبح صعباً نظراً لقلة عدد الرقيق الذين كانوا يعملون فى تسييرها .

اهتمام لويس الرابع عشر بالعلوم والفنون :

لم يكن اهتمام لويس الرابع عشر بالعلوم والفنون بأقل من اهتمامه بالقوات المسلحة بل كان شغوفاً بالتقدم العلمى وبازدهار الفنون .

اهتم بالأكاديمية الفرنسية التى أسسها ريشيليو عام ١٦٣٥ . وأصر بأن يصبح كل من « راسين» Racine و« بوالو» Boileau من بين أعضائها ، ونجح فى ذلك . وقد عهد إلى الأكاديمية بتأليف معجم فى اللغة الفرنسية وظل العمل مستمراً فيه حتى عام ١٦٦٣ عندما أنشأ لويس الرابع عشر « الأكاديمية الصغرى للرسوم والميداليات» La Petite Academie des Inscriptions et Médailles. وكانت عندئذ تتكون من أربعة أعضاء فقط لإنجاز الأمور العاجلة : الكلمات المدونة على العملات ، والميداليات والتماثيل ومراجعة الاشعار والقطع النثرية المهداة إلى الملك لتأكيد لياقتها لعظمته ، ومهما قيل عن أهمية هذه الاكاديمية فإن الغرض الرئيسى منها كان النهوض بمستوى اللغة الفرنسية عندما تستخدم فى المناسبات الرسمية .

وفى عام ١٦٦٥ أسست « مجلة العلماء » فكانت المجال الذى أفسح صفحاته للتأليف العلمى العملى المفيد فى تقدم النهضة الصناعية . وفى ١٦٦٦ تأسست أكاديمية العلوم (من خمسة عشر عضواً) ، فشجعت التأليف العلمى فى العلوم الطبيعية ، ودعمت بحوث العلماء الأجانب داخل فرنسا : ونذكر على سبيل المثال العالم الهولندى « هويجنز » Huygens والعالم الفلكى الإيطالى « كاسينى » Cassini والعالم الدنمركى « رومر » Romer .

ويتضح اهتمامه الشخصى بالفنون فى تأسيسه لأكاديمية التصوير والعمارة عام ١٦٧١ ولم يقتصر تشجيعه المادى على الفنانين الفرنسيين وحدهم بل عداهم إلى الاجانب بصرف النظر عن موضوعات أعمالهم الفنية .

لويس الرابع وأوروبا :

احتلت المشاكل الداخلية فى بداية حكم لويس الرابع عشر المطلق مكانة كبيرة . وكما لوح للدوفين فى تعاليماته له بأن كل شىء فى أوروبا كان يلوح هادئاً ، فقد أعادت معاهدتا وستفاليا والبرانس السلام إلى أوروبا . على أن الحالة فى أوروبا لا يمكن أن تستمر جامدة ، وقد كانت سياسة فرنسا الخارجية وعلاقاتها الأوروبية دائماً الشغل الشاغل لملوك فرنسا . وقد شغل لويس الرابع عشر بأربع حروب (١٦٦٧ — ١٦٦٨) و (١٦٧٢ إلى ١٦٧٨ — ١٦٧٩) ، (١٦٨٨ — ٩ إلى ١٦٩٧) ، (١٧٠٢ — ١٧١٣ — ١٧١٤) ، تخللت الاصلاحات الداخلية وأوقفتها بعض الوقت . ولم يكن السبب الذى دفع إلى هذه الحروب بعيداً . فقد نجحت فرنسا فى أن تمد حدودها شمالا وشرقاً ، ولكن كان من السهل بمكان مهاجمة هذه الأملاك عن طريق أودية الأنهار الجارية جنوبى الاراضى المنخفضة والحوض الأدنى لنهر الراين ، وعن طريق اللورين وثغرة « بلفور » Belfort فى إقليم برجنديا وخلال ممرات سافوا . هذه المواقع كانت حساسة للغاية بالنسبة لفرنسا وأمنها . وعلى ذلك كانت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية فى كثير من الاحيان دفاعية حتى عندما كان ينشأ عنها الحرب .

ولكن استعادة فرنسا لقوتها وتصميم لويس الرابع عشر ووزرائه على استغلال موارد فرنسا كان ذلك كله يتسبب فى خلق مشاكل للدول الاوروبية . كما أن جهوده المتصلة للنهوض بالقوة البحرية لفرنسا حتى لا تتفوق عليها القوى البحرية الاوروبية فى الميادين التجارية والمغامرات الاستعمارية قد ووجهت بكل مقاومة . كل ذلك جعل فرنسا قوة خطيرة يخشى منها على استقرار الأمن الاوروبى ؟

العلاقات بين فرنسا والامبراطورية :

توترت العلاقات بين فرنسا والإمبراطور منذ عقد صلح وستفاليا ١٦٤٨ . وبمقتضى هذا الصلح تعهد الامبراطور فرديناند الثالث بألا يقدم أى مساعدة لفليب الرابع ملك أسبانيا فى حربه ضد فرنسا . ولكن قبل أن يمضى وقت طويل أرسل الإمبراطور جيشاً ليحارب إلى جانب الاسبان فى الاراضى المنخفضة الجنوبية . وكانت الإمبراطورية مجهدة بسبب الحروب التى اضطرت إلى خوضها فى ألمانيا.

كما كانت دويلات الراين تخشى على سلامتها فكونت حلفا منها أعلنت اتباعه سياسة الحياد . ونجح مزران فى أن يدخل فرنسا ضمن « أعضاء تحالف الراين » Legue of the Rhine . وقد أكدت إحدى مواد التحالف بألاتقدم الإمبراطورية أى معونة ماليه أو عسكرية لاعداء فرنسا . وكان الإمبراطور ليوبولد قد خلف أباه على عرش الإمبراطورية فى يوليه ١٦٥٨ ، ولم يجدد هذا التحالف بعد صلح البرانس على الرغم من محاولات لويس الرابع عشر فى خام ١٦٦٥ . لم تكن ولايات الراين فى حاجة إلى أى مساعدة زمن السلم ، وقد كانت تعتمد بالنسبة لمركزها داخل الإمبراطورية على ضمانات فرنسا والسويد .

حرب الملكة والاستحقاق :

وقد أثارت الحرب التى بدأها لويس الرابع عشر مطالبا بحقوق زوجه فى عام ١٦٦٧ ، موجة عداء ضده فى الإمبراطورية ، حيث كان الرأى السائد بأن ملك فرنسا قد كسب بمقتضى صلح البرانس عام ١٦٥٩ ما فيه الكفاية وكان عليه من أجل ذلك أن يتغاضى عن عدم حصوله على المال الذى وعد به عند زواجه من الأميرة الأسبانية . وقد أثار هجوم القوات الفرنسية على الأراضى المنخفضة الأسبانية كبير أساقفة « ترير » Trier خاصة كما أثار هجومها على «الفرانش كونتيه» Franche-Comté ضيقاً وامتعاضاً لسكان الراين .

نجحت قوات فرنسا فى هذه الحرب فى الاستيلاء على سلسلة من المدن الفلمنكية مثل « شرلروا » Charleroi و « وأرمنتير » Armentières و « تورنى » Tournai و « دوى » Douai و « ليل » Lille ، وهى مواقع لازالت توجد إلى اليوم داخل حدود فرنسا الشمالية .

على أن هذه الانتصارات السريعة أثارت مخاوف أوروبا ، فتكون التحالف الثلاثى من هولندا والسويد وانجلترا لمقاومة تقدم القوات الفرنسية . وبدلا من أن يقاوم لويس الرابع عشر تعهد فى صلح « أكس لاشابل » Aix la Chapelle عام ١٦٦٨ أن يرد إلى أسبانيا ما كسبه من مواقع فيما عدا المواقع المذكورة فيما تقدم أى فى الأراضى المنخفضة الأسبانية .

الحروب ضد هولندا :

ظل السلام سائداً حتى عام ١٦٧٢ عندما بدأت فرنسا حربها ضد هولندا فقد كانت المنافسة التجارية بين الدولتين كبيرة ، كما أن نشاط هولندا التجارى كان أكبر معوق لنمو فرنسا ونشاطها التجارى الذى رسمه لها كولبير . وكانت هولندا كذلك ملاذاً للمضطهدين الدينيين والسياسيين من أبناء فرنسا . ثم إن لويس الرابع عشر لم يكن ليغفر لهولندا انضمامها الى التحالف الثلاثى ضده عام ١٦٦٧ .

بدأ لويس الرابع عشر بتمزيق المحالفة الثلاثية فعقد مع شارل الثانى ملك انجلترا ما يعرف بمعاهدة دوفر السرية ١٦٧٠ ، تعهد بمقتضاها ملك إنجلترا بمساعدة لويس الرابع عشر عندما يدعوه إلى ذلك ، وانفصلت السويد عن المحالفة بعد حصولها على بعض المال . وعندئذ أصبح الهولنديون وحدهم يواجهون خطر الهجوم الفرنسى . عبرت الجيوش الفرنسية نهر الراين واستولت على كثير من المدن والقلاع حتى أصبحت على مقربة من « امستردام » . قامت عندئذ ثورة داخل هولندا ترتب عليها استبعاد حاكمها « ديويت » De Witt واستدعاء وليم أورنج (وهو الذى سيصبح وليم الثالث ملك انجلترا فى عام ١٦٨٨) ليتقلد زمام أمورها وسط تلك الظروف الصعبة .

نجح وليم أورنج فى تكوين تحالف من هولندا وأسبانيا وبراندنبرج كما تعهدت الإمبراطورية بمقاومة لويس الرابع عشر . واضطر شارل الثانى ملك انجلترا تحت تأثير الرأى العام الإنجليزى إلى نقد تحالفه مع لويس الرابع عشر وأن يتحد بعد ذلك بقليل مع أعضاء الحلف الجديد .

على أن فرنسا كانت فى مركز قوى جداً بسبب انتصاراتها العديدة وتفوق قواتها فوافقت على شروط صلح « نيمجن » ١٦٧٨ — ١٦٧٩ ؛ تنازلت بمقتضاه أسبانيا عن إقليم « فرانش كونتيه » Franche-Comté لفرنسا ، وكان نصيب فرنسا من وراء هذا الصلح كبيراً حتى أن الفرنسيين لقبوا مايكهم لويس الرابع عشر « بالعظيم » Le Grand . ولكن الملك ومستشاريه كانوا يقدرون مدى ضعف مركز فرنسا ولاسيما على حدودها الشرقية .

أما بالنسبة لشمال فرنسا فقد نجح « فوبان » Vauban فى أن يبنى الحاجز الحديدى Barricre de fer الذى صممه من قبل ، وأتاحت له انتصارات فرنسا وحصولها

على بعض المواقع الهامة فى هذه المنطقة فرصة التنفيـذ . وكان هذا الحاجز يتكون من قلاع تربطها قنوات ومجار مائية ، وقد أثبت قوة مقاومته عندما تعرضت فرنسا للغزو من الشمال .

مكاسب جديدة لفرنسا :

كانت فرنسا تهدف إلى تحقيق خط دفاع قوى على حدودها الشرقية على غرار ما حققته فى الشمال . كان نهـر الراين والموزيل يكونان حاجزاً طبيعياً على حدود فرنسا الشرقية ، ولكن هذه الحدود لم تكن آمنة تماماً بسبب نفوذ الإمبراطور فى بعض مناطقها مما جعل فرنسا تهتم بتقويتها . واستخدمت فى هذا السبيل المحاكم المحلية المعروفة « بمجالس الضم » Chambers of Reunion لكى تقرر مدى حقوق الملك فى الألزاس والأسقفيات الثلاث و« فرانش كونتيه » ، ولما كانت لغة المدافع على استعداد دائماً لتعويض ما يغفله القانون . فإن نتائج ذلك التحقيق الذى لا نظير له كانت مرضية للمجلس . فمنحت فرنسا السيادة التامة على الألزاس وأكملتها بالاحتلال الحربى لمدينة ستراسبورج (سبتمبر ١٦٨١) . وخرج لويس من هذه الحرب القصيرة التى أثارتها هذه الإجراءات التعسفية مكللا بنجاح ملحوظ . ولم يكن الإمبراطور — بسبب انشغاله بالغزو التركى الذى كان يشق طريقه إلى أبواب فيينا — فى حالة تمكنه من تقديم عون ذى أثر لدول التحالف الثلاثى فى عملياتها الحربية .

أساء ذلك التوسع الفرنسى فى ألمانيا إلى الإمبراطور والألمان فى آن واحد ، ولذلك بادر الإمبراطور إلى دعوة الدايت الألمـانى إلى الانعقاد فى « راتشبون » Ratisbon عام ١٦٨٤ لينظر فى الأمر ، ويضع حداً لأطماع لويس الرابع عشر فى ألمانيا . وهنا استخدم ملك فرنسا التهديد ملوحاً بقوته العسكرية ؛ فاضطر الدايت أن يعترف بالأمر الواقع . ولذلك يعتبر عام ١٦٨٤ الذى انتصر فيـه لويس الرابع عشر على الدايت الألمانى قمة القوة والسيطرة التى بلغتها فرنسا فى عهده .

ومما لا شك فيه أن لويس الرابع عشر قد اعتمد فى العهد الأول من حكمه عندما تفوقت قواته على أوروبا على ميول ملوك أسرة استيوارت تجاه فرنسا ومحاولة الملكين الأخيرين فيها تقليد ملك فرنسا فى اتباع اتجاهاته السياسية والدينية . وقد كان كلاهما يدين بحق الملك المقدس . كما كان كل منهما على العقيدة الكاثوليكية وإن كان شارل الثانى لم يجهر بها ، بينما أعلنها خليفته وأخوه جيمس الثانى .

حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ — ١٧١٣)

كان ملك أسبانيا شارل الثانى مريضاً منذ سنوات عديدة لا أمل فى شفائه ولا فى وريث يخلفه على العرش ، كان من المتوقع أن موت هذا الملك سيتسبب فى مشكلة عويصة ؛ من يحكم الإمبراطورية الأسبانية العظيمة التى سيخلو عرشها بموت هذا الملك ؛ فالممتلكات الأوروبية التى كان يملكها الفرع الأسبانى من أسرة الهابسبورج كانت امبراطورية شاسعة تضم بين جوانبها ميلان ونابولى وصقلية وسردينيا وجزر البليار ، والأراضى المنخفضة الأسبانية وأسبانيا نفسها . على أن الأملاك غير الأوروبية كانت أكثر اتساعاً فهى تضم جزر الفيلبين والكنارى وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبنما ، وكذلك أقاليم أمريكا الجنوبية باستثناء جيانا والبرازيل البرتغالية .

أحوال أسبانيا :

ظلت أسبانيا تتمتع بقوتها ومركزها فى أوروبا خلال القرن السادس عشر بل وكذلك أثناء القرن السابع عشر ؛ فقد أثبتت حتى منتصف هذا القرن عظمة مواهبها العسكرية ، بينما كان لفنانيها وكتابها الفضل فى جعلها من أميز وأعظم دول أوروبا عندئذ . ولكن مما لاشك فيه أن ضعفها كان واضحاً فى نهاية القرن السابع عشر ، وأن هذا الضعف يرجع إلى عدة عوامل تتعلق بنظمها السياسية والاجتماعية .

وعلى الرغم من اختلاف الآراء فى بواعث وأسباب هذا الضعف فما لاشك فيه أن هناك عوامل متعددة قد تضافرت على تدهورها وإضعاف قواها .

أولا — نظمها المالية :

فقد كانت يومئذ أسوأ الأنظمة المتبعة فى أوروبا ؛ فكانت الحكومة تعانى من الامتيازات المالية العديدة للكنيسة ورجالها والنبلاء ، تلك الامتيازات التى كانت فرنسا تعانى منها كذلك حتى وقوع أحداث الثورة الفرنسية . كما أن أسبانيا كانت تقاسى كذلك من مساوىء أخرى فى نظم مالية خاصة بها ؛ فنظام الضرائب المتبع فيها كان فيه قضاء على الصناعات المحلية دون أن يتسبب فى ازدياد دخل الدولة .

ثانيا — أحوالها الفكرية :

تزعمت أسبانيا فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر حركة مقاومة البروتستنتية والتعصب للكاثوليكية ، وكان هذا الاتجاه يلائم خلق الشعب الأسبانى وسلوكه ولكن نتج عن انتصار الكاثوليكية انتصاراً تاماً بين أرجائها ، وعن وسائل الإرهاب التى اتبعتها الكنيسة فيها باستخدام محاكم التفتيش وغيرها من الوسائل التعسفية ؛ نتج عن ذلك كله طغيان واستبداد فكرى شديد الخطورة . فعندما بدأت الحركة العلمية تزدهر فى أوروبا ، وتنتشر فى ربوعها المختلفة ، أكسبت بقاعها قوة وثروة لم يكن هناك أى احتمال لنجاح هذه الحركة العلمية فى أسبانيا ، حيث لم يكن التفكير الحر مباحاً فى المسائل السياسية أو الفكرية أو العلمية أو الدينية . ومع ذلك فى القرن السادس وبداية القرن السابع عشر بدأت فى داخل أسبانيا حركة فكرية أدبية وفنية لانظير لها . ولكنها سرعان ما انطفأت وخبت فى منتصف القرن السابع عشر . فعادت أسبانيا إلى الظلام الفكرى والسياسى .

ثالثا : أنهكت أسبانيا فى العمل على تحقيق مشروعاتها الاستعمارية الواسعة :

يضاف إلى ما تقدم أن أسبانيا ظلت طوال القرنين الماضيين منهمكة فى مشاريع واسعة النطاق للتوسع والاستعمار فى أنحاء العالم المختلفة . فاتجهت أطماعها إلى غزو الأمريكتين واحتلالها ، كما كانت تطمع فى بسط سيطرتها على إيطاليا ، ونجحت فى ذلك . ولم يكن اهتمامها بحرب الثلاثين عاماً أقل من اهتمام النمسا ، وحاربت أعواماً طويلة لتعيد سيطرتها على الأراضى المنخفضة ولتغزو انجلترا ، ونتج عن نضالها هذا فى الميادين المختلفة كثير من الانتصارات والأمجاد الحربية العظيمة ، ولكنه أنهك قواها الحربية ، وتسبب فى تدهور أحوالها المالية وانصراف ملوكها عن الاهتمام بإصلاح أحوال الشعب الأسبانى ، وتسبب كل ذلك فى إهمال تقوية الأساس الذى كان يتحتم على هذه الإمبراطورية الواسعة أن تقوم عليه . وهكذا تبين للتاريخ أن التوسع فى المشاريع الاستعمارية قد تكون نتائجه عكس ما يريد المستعمرون .

قيمة شارل الثانى فى أسبانيا :

أثبت التاريخ أن عهد شارل الثانى كان نكبة على أسبانيا ؛ فلم يكن — لمرضه الذى

غطى أيامه كلها — بقادر على تصريف أمور الحكم لأنه لم يدرك مشاكل شعبه . وقد أصيب فى أواخر أيامه بالبله والسفه . ولذلك ظلت أوروبا خلال ثلاثين عاماً مشغولة بمسألة هامة وهى مصير أملاك أسبانيا الواسعة بعد موته .

ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ؛ فلم يكن لشارل الثانى وريث مباشر يخلفه على العرش ، ولو كان له وريث فإن أطماع الطامعين من ساسة أوروبا ما كانت لتجعل هذا الملك العريض يؤول إليه دون نضال وحرب . وكان هناك باختصار مطالبون ثلاثة بأحقيتهم فى هذا الإرث العظيم :

١ — حفيد لويس الرابع عشر من زوجته ماريا تريزا ابنة فيليب الرابع ملك أسبانيا .

٢ — الإمبراطور ليوبولد الثانى وهو ابن ماريا أخت فيليب الرابع ، وكان يطالب بالملك الأسبانى لابنه شارل . وكان لويس الرابع عشر أقوى مركزاً من حيث صلته بالملك الأسبانى .

٣ — منتخب بيت بافاريا « ماكس إمانويل » Max Emmanuel وقد تزوج من حفيدة فيليب الرابع .

اهتم وليم الثالث ملك انجلترا بهذه المشكلة التى لو حلت فى صالح فرنسا لجعلت لويس الرابع عشر يسيطر على ملك عريض . ولما لم يكن الشعب الانجليزى على استعداد لدخول حرب جديدة ، فقد كان عليه أن يلجأ إلى وسائل دبلوماسية . فبدأ وليم يفاوض لويس الرابع عشر ، واقترح عليه مشروع اتفاقيتين على توزيع هذه الأملاك ، فعل ذلك دون أن يستشير أسبانيا ملكاً وشعباً . وكان الرأى فى الاتفاقية الأولى أن تؤول أملاك أسبانيا إلى منتخب بافاريا ، لأن ذلك لن يترتب عليه زعزعة التوازن الدولى فى أوروبا ، بينما تحصل كل من النمسا وفرنسا على بعض الأملاك الاستعمارية الواسعة . ولكن هذه الاتفاقية لم تنفذ بسبب موت منتخب بافاريا . فأعدت اتفاقية تقسيم ثانية ، مقتضاها أن تؤول أملاك أسبانيا هذه المرة إلى الأمير النمسوى شارل ، الإبن الثانى للإمبراطور ليوبولد على حين تحصل فرنسا على أملاك أسبانيا فى إيطاليا . وبينما كانت المفاوضات تجرى مع وليم الثالث ، كان سفير فرنسا فى مدريد يحاول التأثير على ملك أسبانيا وبلاطه . ولم يكن عجباً أن يظهر بعد وفاة شارل الثانى أنه كان قد أوصى بأملاكه جميعاً لحفيد لويس الرابع عشر « دوق أنجو » .

وهنا تبين للويس الرابع عشر أن وصية شارل الثانى أجدى على فرنسا من اتفاقية التقسيم الثانية ، ولما كان الامبراطور النمسوى قد رفض التوقيع عليها ؛ فقد كان عليه أن يستعد للحرب . فوسع بحماقته نطاقها إذ كان تسرعه فى إعلان نيته بأن يكون لحفيده عرشاً أسبانياً وفرنسا أثره فى إثارة دول أوروبا . ولم تقف حماقته عند هذا الحد ؛ بل إنه أعلن عزمه على توحيد الجيش الفرنسى والأسبانى . وبادر بإرسال الحاميات الفرنسية إلى مدن الأراضى المنخفضة الأسبانية . وأساء إلى شعور الانجليز عندما اعترف بابن جيمس الثانى ملكاً عليهم على الرغم من تعهده فى صلح رزويك بعدم مساعدة أى فرد من أسرة استيوارت للعودة إلى عرش انجلترا . فأثار بذلك الشعب الانجليزى إلى الحرب ولم يكن البرلمان موافقاً على النفقات التى تتطلبها مثل هذه الحرب ؛ فاضطر بعد ذلك إلى المبادرة بإقرارها . وهنا قام وليم الثالث بعمل يعد من أفضل أعماله وهو تكوين الحلف العظيم Grand Alliance ضد فرنسا . وإذا كان قد مات قبل بدء المعركة . فإن دبلوماسياً قديراً وقائداً مغواراً هو « دوق ملبرا » Duke of Malborough قد استطاع أن ينفذ خطط الملك . ومن ثم بدأت حرب الوراثة الأسبانية .

وقفت أسبانيا وبافاريا إلى جانب فرنسا وقدمت بافاريا مساعدة جدية لفرنسا بينما لم تقدم أسبانيا على الرغم من إمكانياتها الضخمة وجيشها القوى أى مساعدة لفرنسا . وكل ذلك يرجع إلى سوء إدارتها . وضعف حكومتها . على حين وقفت سائر الدول الأوربية العظمى فى الجانب الآخر الذى يضم : انجلترا . وهولندا ، والامبراطورية ، وإمارة براندنبرج الإنتخابية التى أصبحت مملكة فى عام ١٧٠٠ . تسلم قيادة قوات الحلفاء القائد الانجليزى العظيم دوق « ملبرا » الذى قدمت بلاده معظم نفقات الحرب وإن كانت لم تقدم كثيراً من الرجال . وكان معه فى القيادة الأمير « يوجين » Eugene ممثل الامبراطورية . وكانت هناك صداقة تجمع بين القائدين ، كما كانا على أتم تفاهم واتفاق فى توجيه المعركة بالاشتراك مع «هينسيوس» Heinsius حاكم الأراضى المنخفضة يومئذ . وهكذا كان الوفاق يسود قوى الحلف العظيم على تعدد دوله بينما لم يكن هناك اتفاق حقيقى بين فرنسا وأسبانيا على الرغم من أن ملك الأخيرة كان حفيد ملك الأولى . اتسع نطاق هذه الحرب وتعددت ميادينها . وكان يبدو أن هذه الحرب لن تلبث أن تتصل بحرب أخرى كانت تقع فى شرق أوروبا ،

حيث كانت روسيا وبولندا وبعض الدويلات الألمانية تهاجم قوة السويد . أما مسرح هذه الحرب (حرب الوراثة الأسبانية) فقد وزع بين البقاع التالية :

١ — الأراضى المنخفضة ، حيث أغار الإنجليز والهولنديون على الأملاك الأسبانية .

٢ — إيطاليا ، حيث حاولت القوات النمسوية أن تطرد الفرنسيين والأسبان من ميلان .

٣ — بافاريا ، وكانت فى بداية الحرب أكثر الميادين نشاطاً بالنسبة للحركات العدائية بين الطرفين ، واستطاعت قوى فرنسا وبافاريا أن تصمد فى هذا الميدان ، بينما استحال على قوات النمسا أن تتقدم بقوات كافية لمساعدة القائد « ملبرا » ، ولاح فى عدة مناسبات أن النصر فى هذا الميدان قد يكون فى جانب فرنسا .

٤ — أسبانيا ، كانت الميدان الرابع للقتال حيث كان للأحداث أهميتها العظمى فى مصير الحرب . ومهما يكن من أهمية للمعارك التى حدثت فى هذه الميادين الأربعة فإننا لن ندخل فى تفاصيلها وإنما نكتفى بذكر ما يلى : أن موقعة « بلنهيم » Blenheim فى ألمانيا فى عام ١٧٠٤ قد قسمت الحرب إلى قسمين غير متكافئين :

فى القسم الأول منها كادت القوى أن تتعادل ، ولم يبد عندئذ أن فرنسا هى الدولة التى ستهزم فى النهاية . بينما استطاع « ملبرا » الذى قاد قواته بمهارة عظيمة أن يلحق بقوات القائد « يوجين » وأن ينزلا معاً بقوات فرنسا هزيمة منكرة فى موقعة « بلنهيم » ١٧٠٤ . كانت هذه الموقعة حاسمة لدرجة أنها أنهت الحرب فى بافاريا ، بينما استمرت الحرب فى الميادين الأخرى . ومنذ ذلك التاريخ كانت كفة الحلفاء هى الكفة الراجحة .

استفادت قوات القائد « ملبرا » بعد انتصاره العظيم فى « راملى » Ramllies بالأراضى المنخفضة ، واستطاعت أن تبسط سلطانها عليها ، ووطد « يوجين » القائد النمسوى سيطرة القوات النمسوية فى شمال إيطاليا عن طريق بعض المعونة التى قدمها له « فيكتور أماديوس » Amadeus صاحب سافوى . كما تعددت خسائر الفرنسيين وحلفائهم الأسبان فاستولى الانجليز على جبل طارق فى عام ١٧٠٤ ، واستطاع أرشيدوق النمسا شارل أن يدخل أسبانيا وأن يتبوأ عرشها باسم شارل الثالث .

على أن انجلترا استطاعت فى عام ١٧٠٣ أن تعقد محالفة « مثوين » Methuen مع البرتغال(١)، وهى تنص على حرية انجلترا فى استخدام ثغر لشبونه الهام على المحيط الأطلسى ، بينما أمنت انجلترا البرتغال ضد جارتها القويه أسبانيا . ولولا حصول انجلترا على هذا الامتياز العظيم لما استطاعت أن تستولى على جبل طارق ، ولا أن تنتزع من أسبانيا ثغر « بورت ماهون » فى جزيرة منودقة .

ويتضح من الأحداث السابقة أن فرنسا قد هزمت هزيمة فادحة فى هذه الحرب التى لم تعد عليها بأى كسب . ومع ذلك لم يلبث حادثان على جانب عظيم من الأهمية أن غيرا الحال بعض الشيء ، مما حسن موقف فرنسا فى هذه الحرب الخاسرة :

أولها : اشتداد هياج الشعب الأسبانى الذى رفض أن يكون ملكه نمسوياً أى شارل ابن الامبراطور ؛ فثار وقاوم الملك الجديد حتى أنزل وحده بالأعداء هزيمة فادحة ، وأعاد فيليب الخامس منتصراً إلى مدريد . ونجح الشعب الأسبانى فى طرد العدو من أنحاء أسبانيا فيما عدا جبل طارق .

أما الأمر الثانى الذى ساعد فرنسا على تحسين موقفها فيرجع إلى صلابة عود لويس الرابع عشر وقوة شخصيته ؛ عندما طالب بشروط الصلح قدمت له شروط مهينة جعلته على الرغم من ضعف قواه يصمم على استئناف الحرب . وقد بدأ موقف فرنسا على الرغم مما خسرت يتحسن شيئاً فشيئاً ؛ فى عام ١٧١١ حدث ما جنب فرنسا الوقوع فى شر مستطير ؛ ذلك أن حزب التورى تغلب على حزب الهويج ، فقبض بمساعدة الملكة آن على زمام الأمور فى انجلترا ؛ وكان يميل إلى السلم فبدأت مفاوضات الصلح وعقدت فرنسا الصلح مع بريطانيا فى «يوترخت» Utrecht عام ١٧١٣ ، ومع النمسا فى « رستاد » Rastad فى عام ١٧١٤ .

أعجب المؤرخون الحديثون بسلوك لويس الرابع عشر بعد انتهاء عهد حروبه الطويلة ، وكانت تلك السنوات الأخيرة من حياته ذات طابع مميز ومؤثر ؛ تميزت بإصراره على المقاومة وعدم خضوعه لشروط أعدائه المذلة على الرغم من ظروفه غير الملائمة ، كما تميزت بتعاطفه الشديد مع شعبه المتألم المحزون ، وتميزت كذلك بسعيه الحثيث فى استغلال التغيير الذى طرأ على السياسة الداخلية لانجلترا فى عام ١٧١٠ لكى يحصل على شروط ملائمة لفرنسا ؛ فعقد صلح يوترخرت عام ١٧١٣ ، وبمقتضاه

(١) انظر ص ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

اضطرت فرنسا أن تتنازل لبريطانيا عن بعض أملاكها فى المستعمرات ؛ وهى شبه جزيرة أكاديا وجزيرة نيوفوندلاند ، والمنطقة حول خليج هدسن و « سان كريستوفر » Christopher فى جزر الهند الشرقية . ولكن هذه المواقع لم تكن مهمة إذا قورنت بنمو المستعمرات الفرنسية فى ذلك الحين . كما تعهد لويس الرابع عشر بألا يتسبب فى قلقلة نظام الحكم البروتستنتى فى انجلترا ، وبأن يطرد جيمس الثالث المدعى على عرشها من فرنسا ، وكان الشرط المهين الوحيد هو تعهد فرنسا بتحطيم ثغر دنكرك ؛ لأنه كان يمثل خطراً كبيراً يتهدد انجلترا . وفى مقابل ذلك حصلت فرنسا على إمارة « أورنج » Orange ، وكانت مقاطعة ورثها وليم أورنج فى داخل الأراضى الفرنسية .

واعترف بحفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا باسم فيليب الخامس ، واشترط ألا يجمع بين التاجين . وقد أمنت حدود فرنسا الشرقية فلم تفقد فرنسا أى أملاك فى هذه الناحية .

بمقتضى هذا الصلح حصلت انجلترا على كل من صخرة جبل طارق وبورت ماهون فى جزيرة منورقة Minorca بينما آلت الأراضى المنخفضة الأسبانية إلى النمسا وكذلك ضمت إليها كل من ميلان ونابولى وسردينيا ؛ بينما آلت جزيرة صقلية إلى ملك سافوى.

سياسة لويس الرابع عشر الدينية

أولا — سياسته إزاء الهيجونوت (إلغاء مرسوم نانت) :

من الأمور المؤسفة التى وقعت فى عهد لويس الرابع عشر إلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥ ، فقد كان الهيجونوت أثناء حربى الفروند موالين للملكية فى فرنسا ، بل إنهم سارعوا بتقديم المعونات المالية لها عندئذ . وقد اعترف مزران بموقفهم العظيم ، كما لم يكن الملك لينسى الخدمات والمساعدات التى قدموها عندئذ فى أحرج الظروف . هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن متعصباً بل عرف بالتسامح الدينى لأنه بطبيعته لم يكن ميالا إلى المناقشات الدينية والخوض فيها ؛ وإنما كان اهتمامه منصباً على أمر واحد هو الولاء للدولة . ولذلك كانت جماعة الجانسنست بمبادئها تهدد الأسس الدينية والاجتماعية التى يقوم عليها المجتمع الفرنسى ، مما جعل أفراد هذه الطائفة أشد خطراً من طائفة الهيجونوت . على أن لويس الرابع عشر كان فى الوقت نفسه حريصاً على تجنب كل

ما من شأنه إضعاف وحدة البلاد الدينية ، ومن مأثور أقواله فيما يتعلق بالسماح لليهود بممارسة مبادئهم فى حرية . « لامانع من ذلك إذا لم يكن فيه مساس بالكنيسة الكاثوليكية »

ووجه الهيجونوت بعد حربى الفروند بحركة عدائية من جانب الكنيسة الكاثوليكية خاصة وليس من ناحية البلاط . كان رجال الكنيسة الكاثوليكية حريصين على إعادة عدد كبير من رجال الدين البروتستنت إلى العقيدة الكاثوليكية . كما اعترضوا على انتهاز الهيجونوت فرصة انتشار الاضطرابات فى فرنسا منذ عام ١٥٩٨ لتفسير مرسوم نانت تفسيراً جعلهم يضاعفون من إنشاء معابد لممارسة دياناتهم خارج الأماكن التى اتفق عليها . وأقر وزراء منهم « لوتلييه » Le Tellier شكاوى رجال الدين الكاثوليك التى تضمنت الحقيقة التالية ، وهى أنهم قد أصبحوا يكونون « دولة داخل الدولة ، وطالبت بالعمل على الحد من حرياتهم » . وقد أصغى لويس الرابع عشر لتلك المطالب ، فبدأ إجراءاته ضد الهيجونوت من عام ١٦٦٩ ، وموضحاً بأن بروتستنت فرنسا قد تنازلوا عن امتيازاتهم فأصدر أوامره فى السبعينيات (١٦٧٠) بهدم دور عباداتهم التى أنشئت بعد عام ١٥٩٨ ، وأمر بألا تقام الشعائر الجنائزية الخاصة بهم إلا ليلا ، كما صدرت بعض القوانين بتشجيع لمن يرغب منهم فى الارتداد إلى الكاثوليكية ، ومنها الوعود بالمنح المالية .

ومن العوامل التى أسهمت فى دفع لويس الرابع عشر إلى إصدار قراره بإلغاء مرسوم نانت « رسالة لوتلييه » Le Tellier الذى كتب إلى الملك وهو يحتضر ، يطالب فيها ملحاً بإلغاء المرسوم لتستطيع روحه الاستقرار والطمأنينة . وأغراه بعض الناصحين من بطانته بالمجد الذى ينتظره إذا ما هو نفذ ذلك الإلغاء فيكون بذلك الملك الوحيد الذى نجح حيث فشل كل من هنرى الرابع ولويس الثالث عشر فى القضاء على التفرقة والشقاق الدينى داخل فرنسا ، كما أن لويس الرابع عشر لم يكن على علاقات طيبة مع البابا « إنوسنت » الحادى عشر . وقد رأى أن إلغاء المرسوم يحول دون تدخل البابا فى الحريات الغالية Gallicnn - Liberties ، أى ما حصلت عليه كنيسة فرنسا من حريات واستقلال فى بعض الأمور عن كنيسة روما .

وقوبل إلغاء لويس الرابع عشر للمرسوم فى فرنسا بالترحيب من جانب طوائف الكاثوليك والجانسنت والجزويت والجاليكانيين على السواء . أما الدول البروتستنتية فقد أدانت لويس الرابع عشر وكانت من قبل تمتدح روح التسامح الدينى السائدة فى

فرنسا لدرجة أن عدداً كبيراً من الانجليز والهولنديين قد أقاموا فى فرنسا إقامة دائمة ، حيث كانوا يمارسون دياناتهم المخالفة للكاثوليكية فى أمان واطمئنان ، واتهم لويس الرابع عشر نتيجة لذلك بالتعصب فى سائر الدول الأوروبية . من المؤكد أن ذلك الإجراء قد كلف لويس الرابع عشر غالياً ، وأسهم فى تنفير الدول من فرنسا بعد عام ١٦٨٥ . ثم كانت هناك آثار سيئة للغاية على الاقتصاد الفرنسى نظراً لفرار ١٠٪ من الهيجونوت (وكان عددهم بفرنسا يبلغ حوالى المليونين) . استطاع ذلك العدد من الهيجونوت الفرار من فرنسا على الرغم من العقبات التى وضعتها حكومة فرنسا فى سبيل تعويق مغادرتهم للبلاد . على أن بعض الأبحاث الحديثة قد عدلت الصورة فيما يتعلق بأثر مغادرتهم لفرنسا على الحالة الاقتصادية بها . حقيقة أن صناعة الساعات قد تخلفت وظلت كذلك مدة عشر سنوات . كما أن الدول التى استقبلت الفارين من الهيجونوت من الصناع مثل العاملين فى صناعة الورق والخبراء الاقتصاديين قد استفادت كثيراً منهم ؛ فاستفادت كل من انجلترا وهولندا بل وبروسيا ؛ وكانت الأخيرة بصدد بناء اقتصادياتها .

من الواضح أن فرنسا لم تضار كثيراً فى اقتصادياتها بسبب فرار الهيجونوت إذ أن بعض هؤلاء الفارين قد عادوا إلى فرنسا ، كما أن من بقى منهم بالخارج لم يتعاون مع القوى المعادية لفرنسا على أمل أن يسمح لهم لويس بالعودة إلى وطنهم بعد أن يطمئنهم على حرية ممارسة عقيدتهم ؛ بينما قدم بعض الهيجونوت من المشتغلين بأعمال البنوك فى جنيف أجل الخدمات لفرنسا . ثم إن هذه الخسارة التى منيت بها فرنسا بسبب فرارهم منها عوضت عنها هجرة الآلاف من الكاثوليك الإيرلنديين والاسكتلنديين من مؤيدى أسرة استيوارت إلى فرنسا بعد عام ١٦٨٨ .

ومن الشائع أن لويس الرابع عشر قد تأثر كذلك فيما يتعلق بإلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥ بزوجه «مدام دمانتون» de Maintenon التى تزوجها بعد موت زوجه ماريا تريزا الأسبانية فى عام ١٦٨٣ .

ثانيا — سياسة لويس الرابع عشر إزاء كنيسة روما :

حصل لويس الرابع عشر نتيجة لنزاع قام بينه وبين البابوية فى عام ١٦٨٣ على ما يعرف «بالحريات الجاليكانية» Gallican Liberties فاكتسب ملك فرنسا بمقتضى

هذه الاتفاقية نفوذا وسلطاناً فتخلص من سلطة البابا ، فى فرنسا على الشئون الروحية وعبثاً حاول البابا إنوسنت الحادى عشر Innocent xi استرداد نفوذه .

ثالثا — إزاء الجانسنست(١) :

نسبة إلى الأسقف جانسن Jansen أسقف « ايبر » Ipres (١٥٨٣ — ١٦٣٨) . كان الجانسنست بيوريتان الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا اتصفوا بالاستقامة وشدة الغيرة على المبادىء ؛ أرادوا العودة بالمسيحية إلى بساطتها الأولى ؛ فنادوا بحياة أكثر زهداً وتقشفاً ، وهاجموا ما اتصف به العهد من خروج على المبادىء الخلقية . اشتهرت تلك الحركة بما اقترن بها من أسماء لامعة . فانضم إليها « راسين» Racine ودعا لها فى شعره المصقول المليء بالتأمل . كما كان «بسكال» Pascal لسان حال هذه الجماعة . وقد اشتهر بمؤلفه الرسائل الإقليمية (١٦٥٦—١٦٥٧) Lettres P.roviniales فى هذه الرسائل الجدلية المشهورة استخدمت جميع أساليب السخرية الخفيفة والجدل الحار لمهاجمة الفتاوى التى استخدمها اليسوعيون لخلق الغموض فى التميز بين الخطأ والصواب . وزاد فى أهمية هذه الرسائل أن مؤلفها لم يكن من رجال الدين المحترفين ، وإنما كان رياضياً عبقرياً تمتع بذكاء حاد ، ووضوح فى الذهن وسلاسة فى الأسلوب.

رأى الملك فى تلك الجماعة ومبادئها اعتداء على سلطته وسلطة البابوية معاً لأنهم اعترفوا بسيادة المجالس الدينية على البابا ، فأصبحوا موضع كراهية الملكية والبابوية واليسوعيين جميعاً ؛ فأصدر البابا أوامره ضدها كما اتبع لويس الرابع عشر العنف للقضاء عليها . وإن الوحشية المنقطعة النظير التى اتصفت بها هذه المعركة لتعد صفحة سوداء فى تاريخ التعصب الدينى ، إذ طردت الراهبات من ديرهن فى « بورروريال دى شان » PortRoy al de champs وهدم الدير ، وانتهكت من حوله حرمات المقابر

---

(١) الجانسنست نسبة إلى «جانسن ، كورنيليس Cornelius gan san أسقف «يبير» Ypres ؛ عاش بين عامى ١٥٨٣ — ١٦٣٨ أثار كتابه « أغسطين » — الذى نشر عام ١٦٤٠ ، ونادى فيه بإلحاح بضرورة رحمة الله وعطفه هداية الإنسان — عاصفة من المعارضة فأدانه البابا «أوربان» الثامن Urban V11I عام ١٦٤٢ . وكان للجانسنست شأن عظيم فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، ومركزها «بورروريال» وأخص أنصارها أسرتا « أرنولد » و « بسكال » . أدان الجزويت هذه الجماعة على يد البابا « انوسنت » العاشر عام ١٦٥٣ ؛ ثم مرة أخرى على يد البابا «كلمانت » الحادى عشر فى عام ١٧١٣ . أدى اضطهادهم إلى اغلاق « بورروريال » وفرار أنصارهم من فرنسا فى أوائل القرن ١٨ . وظلت آثار الجنسنيه قائمة فى « بوتوخت » Utrecht « وهارلم » Haarlem حتى أيام القرن التاسع عشر .

الفصل الرابع

إنجلترا فى القرن السابع عشر فى عهد أسرة إستيوارت

(١٦٠٣ – ١٧١٤)

تميز تاريخ انجلترا فى القرن السابع عشر ؛ أى فى عهد أسرة استيوارت بذلك الصراع المرير الذى وقع بين الملكية والبرلمان على خلاف ما تميز به حكم أسرة التيودور أثناء القرن السادس عشر (١٤٨٥ – ١٦٠٣) من هدوء واستقرار وسلام فى العلاقات بين الملكية والبرلمان ؛ بل إن أسرة التيودور قد نجحت فى حكم انجلترا حكماً يكاد يكون مطلقاً ، ولم يكن ذلك ضد إرادة الشعب ؛ بل بموافقة الشعب نفسه ، وتميز البرلمان عندئذ بأنه كان أداة طيعة فى أيدى ملوك هذه الأسرة ، ويتضح ذلك جلياً فى مؤازرة البرلمان للملوك فى تحقيق سياستهم الدينية .

قام الصراع بين الملكية والبرلمان فى عهد أسرة ستيوارت لتدعيم حقوق البرلمان فى حكم انجلترا ، والعمل على الاستزادة منها أمام تعنت ملوك هذه الأسرة ومحاولاتهم حكم البلاد حكماً فردياً . وإن ظروف انجلترا الجغرافية وطبيعتها الجزرية وبعدها بالتالى عن ميادين الصراع فى القارة الأوربية نفسها – وإن كان الفاصل بينها وبين القارة مجرد بحر المانش الضيق – جعلتها بمأمن من الأخطار الخارجية المفاجئة ، وأغنتها عن وجود الجيش القائم الذى استخدم فى الدول الاستبدادية كأداة لتدعيم أصول الحكم المطلق . وعندما دعت الحاجة فى انجلترا فى عهد هذه الأسرة إلى وجود ذلك الجيش ؛ استبد الحكام بالحكم ؛ ولكن مقاومة البرلمان ومعارضته الشديدة قضت على هذه المحاولات ، وأوجدت كراهية كبيرة تجاه الجيش القائم . ولذلك كان من أهم مواد قانون الحقوق ١٦٨٩ تحريم وجود جيش قائم . لا عجب إذن أن يعتبر البرلمان

الانجليزى ومحافظته على حقوق الشعب هبة البحر كما هو الحال بالنسبة للأسطول البريطانى .

وإذا كان بحر المانش يفصل انجلترا عن القارة الأوروبية ، فإن ذلك لا يحول دون كونها جزءاً من أوروبا ؛ فهى لم تتخلف عن أوروبا فى ميادين النهضة والكشوف الجغرافية والإصلاح الدينى . ولكن ذلك الفاصل الضيق مضافاً إليه طبيعة الشعب الإنجليزى قد جعلت لهذه الحركات فى انجلترا مميزاتها الخاصة التى تجعلها تختلف عن الحركات المناظرة لها فى القارة الأوروبية .

الأسباب التى فرقت بين العهدين :

وإذا بحثنا عن الأسباب التى أدت إلى وضوح الفرق بين العهدين ؛ عهد أسرة التيودور وعهد أسرة استيوارت لوجدنا أن مرجع ذلك هو ظروف داخلية وأخرى خارجية ؛ ففى عهد التيودور ساد الهدوء وعلاقات السلام بين البرلمان والملكية نظراً لأن انجلترا كانت قد سئمت خوض الحروب داخلية كانت أو خارجية ؛ لأن هذا العهد جاء على أثر حروب الوردتين التى استمرت ثلاثين عاماً . فكان الشعب تواقاً إلى السلام والهدوء فقبل راضياً أن يحكم ملوك أسرة التيودور حكماً شبه مطلق ، فلم يدع البرلمان إلا نادراً أثناء هذا الحكم . أما الظروف الخارجية فبعثها خوفاً من جارتها اسكتلندا ، وما قد تشبه عليها من حملات ، فكان على الشعب إذن أن يطلق السلطة فى يد ملوك أسرة التيودور حتى يأمن الخطر الخارجى . ونلاحظ أن عهد استيوارت قد جاء على أثر عهد ازدهار وتقدم فى الفنون والآداب ، وكان عهد اليزابيث عهداً ذهبياً كما كان عصر سلام ، وقد حاولت هذه الملكة أن تتجنب الحرب قدر استطاعتها . أما اسكتلندا فكانت فى عهد استيوارت جزءاً مكملا لانجلترا ؛ وإن كان الاتحاد الحقيقى بين كل من اسكتلندا وانجلترا لم يتم بصورة قاطعة إلا فى بداية القرن الثامن عشر عندما أصبح هناك برلمان واحد يمثل كلا من انجلترا واسكتلندا ، إذن كان هناك استقرار فى الداخل واطمئنان لعدم حدوث أى غارات من الشمال .

كما أن أعضاء البرلمان الانجليزى — وقد مر بهم عصر النهضة وفيه استنارة ، وقد تأثروا بمميزات هذا العصر ، وبدأوا يتشبثون بما اكتسبوه من حقوق دستورية يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر الميلادى — لم يكن من السهل عليهم أن يتنازلوا عن هذه

الحقوق بسهولة ؛ لذلك أصر أعضاء البرلمان على التمسك بهذه الحقوق واستماتوا فى سبيل الزود عنها ، وزاد من إصرارهم أن ملوك أسرة استيوارت كانوا قد تشبثوا بحق الملك المقدس ؛ فالملك منهم كان يعتبر نفسه ظل الله على الأرض ؛ ينفذ كل ما يبدو له صالحاً من أعمال ومشروعات دون أن يحاسب على ذلك ، لايشاركه فى ذلك كله أحد ، وسلكوا بذلك سلوك ملوك فرنسا فى ذلك الوقت ؛ فاندفعوا إلى تثبيت دعائم الحكم المطلق غافلين فى ذلك عن الفرق الكبير بين كل من فرنسا وانجلترا والظروف التى تحيط بفرنسا ؛ فالأخيرة دولة داخل القارة الأوروبية ، ولها حدودها المشتركة مع أسبانيا جنوباً ومع ألمانيا شرقاً ؛ عليها أن تحتفظ بجيش قائم لكى ترد عنها عدوان هؤلاء الجيران ، وكان لوجود هذا الجيش القائم أثره فى تدعيم وتوطيد أركان الحكم المطلق فى فرنسا .

أما انجلترا فكان لها دلك القنال الانجليزى الذى يفصلها عن فرنسا ؛ كان له أثره فى تغيير طبيعة الحكم فيها ، إذ أصبحت انجلترا بمنأى عن الحروب القارية أو التى داخل قارة أوروبا ، فلا يصيبها منها ما يصيب فرنسا . ومع ذلك لايجب أن نبالغ فى حقيقة أن انجلترا كانت منفصلة تماماً عن القارة .

السياسة المالية :

إن الظروف الاقتصادية التى اجتاحت أوروبا عند مطلع القرون الحديثة نتيجة لأحداث الكشوف الجغرافية واكتشاف المعادن النفيسة ، أدت إلى بخس قيمة العملة فلم تعد المخصصات المالية بكافية لسد حاجات الملوك ؛ فاتجه الملوك إلى الطرق غير الدستورية للحصول على المزيد من المال ، ولم يتنبه البرلمان إلى ذلك الأمر ؛ لأن البرلمان لم يكن يشرف عندئذ على الناحية المالية ؛ ولو كان يفعل لكان من الممكن أن يزيد من المخصصات الملكية . ومن هنا كانت السياسة المالية لملوك هذه الأسرة من العوامل التى أدت إلى النزاع بين الملكية والبرلمان .

السياسة الخارجية :

لم يكن لأسرة استيوارت فى النصف الأول من القرن السابع عشر أى نشاط يذكر فى السياسة الخارجية من حيث أنها لم تمهد السبل لرعاياها لكى يحققوا مكاسب تجارية كبيرة بمناسبة بدء علاقات السلام والصداقة مع أسبانيا بين عامى ١٦٠٤ — ١٦٢٥ ،

فلم يمنح هؤلاء التجار المقومات الخاصة للاستفادة من هذا الصلح أو تلك الصداقة . وكان جيمس الأول ، باتباعه سياسة السلام مع أسبانيا ، إنما يخالف سياسة اليزابيث الخارجية التي كانت ضد أسبانيا ، وتعتبرها العدو الأكبر لانجلترا .

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر نلاحظ أن انجلترا قد ساعدت فرنسا في تحقيق أطماعها وأغراضها التوسعية ، وسارت في ركب هذه السياسة غير مدركة مدى خطورة ذلك وما قد ينجم عن موقفها السلبي أو المشجع من ازدياد قوة فرنسا في عهد لويس الرابع عشر .

السياسة الدينية :

في النصف الأول من عهد هذه الأسرة ، أي حوالي منتصف القرن السابع عشر سلكت أسرة استيوارت سياسة عدم التسامح إزاء المذاهب البروتستنتية المخالفة للعقيدة الأنجليكانية وعلى رأسها البيورتان أو المتطهرون من البروتستنت . وفي الوقت نفسه حاولت منذ مطلع عهد هذه الأسرة أن تتسامح مع الكاثوليك فعارض البرلمان مما جعل الملك يرضخ للأمر الواقع . أما في العهد الثاني من أيام هذه الأسرة وهو الذي يبدأ بعودة الملكية سنة ١٦٦٠ ؛ أي عهد كل من شارل الثاني وجيمس الثاني . فقد تميز باعتناق الملكية للكاثوليكية وإن كان الأول منهما لم يجهر بها ، وتتميز كذلك بمحاولة كل منهما فرضها على انجلترا ، وتلك السياسة أدت إلى الصدام العنيف بين البرلمان والملكية .

جيمس الأول : ١٦٠٣ — ١٦٢٥ : ولم يكن مؤسس هذه الأسرة وهو جيمس السادس ملك اسكتلندا من قبل حكيماً في تصرفاته بل كان متهوراً يتمسك بحق الملك المقدس في صرامة وعنف . وأدى ذلك إلى اصطدامه السريع مع البرلمان ؛ فوضعت بذلك بذور الشقاق بين الملكية والبرلمان منذ بداية حكم هذا الملك مما أدى إلى وقوع الثورة في عهد شارل الأول الذي امتد حكمه من ١٦٢٥ إلى مقتله عام ١٦٤٩ .

وكانت السياسة الدينية من العوامل التي أثارت البرلمان ضده فقد اعتنق سياسة اضطهاد جماعة البيورتان ، وحاول أن يمنح الكاثوليك تسامحاً دينياً مما أثار البرلمان عليه ، فاضطر إلى اضطهاد الكاثوليك كما فعل بالنسبة للبروتستنت غير الانجليكان ، وترتب على ذلك تلك المؤامرة التي دبرها الكاثوليك للقضاء على الملكية والبرلمان معاً

وهى المعروفة بمؤامرة البارود التى دبرها « جاى فوكس » Guy Fawkes فعرفت كذلك باسمه ، وكان المتآمرون قد وضعوا باروداً فى الطابق الأسفل بمبنى البرلمان الانجليزى ، وتعمدوا أن يكون ذلك أثناء جلسة الافتتاح فى ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥ وكان غرضهم أن يقتل الملك فقضى بذلك على البرلمان والملك معاً . ولكن أمر هذه المؤامرة اكتشف فى الوقت المناسب ؛ فنجت الملكية والبرلمان ، وقبض على المتآمرين ، وترتب على ذلك اضطهاد الكاثوليك فى انجلترا لمدة قرنين ، فحرموا من سائر الحقوق المدنية ، واضطهدوا ولم يعد لأبنائهم أى حق فى التعليم أو الالتحاق بمعاهد الدولة العلمية . ولم يرفع عنهم ذلك الاضطهاد إلا عند مطلع القرن التاسع عشر .

السياسة الدستورية :

كانت سياسة الملك الدستورية سياسة عقيمة ؛ فأعضاء البرلمان فى ذلك العهد كانوا يعتدون بشخصياتهم ، ويتشبثون بحقوقهم الدستورية ؛ إذ أرادوا الاستمرار فى التمتع بهذه الحقوق . بينما كان الملك يطالب لنفسه بالسلطان المطلق ، فنتج عن ذلك الصراع بين الاتجاهين ؛ ومن ثم أصبحت هناك قضية هامة فى حــاجة إلى اتخاذ قرار بشأنها ، وهى لمن تكون الغلبة والسيطرة على الحكم فى انجلترا ؛ أهى للملك أم للبرلمان ؟

وكان جيمس الأول أول من أظهر عداءه السافر للبرلمان عندما ذكر لأعضائه أن الحقوق التى يتمتعون بها ليست حقوقاً ثابتة أو دائمة وإنما للملك الحق فى أن يمنحهم إياها أو أن يحرمهم منها . . . وأضاف إلى ذلك أن الأمور الهامة التى تتعلق بالمسائل القومية أو الدينية ليست من اختصاص أعضاء البرلمان ، وإنما عليهم الموافقة على الأموال اللازمة للدولة والتعبير عن آراء الشعب الانجليزى الذى يمثلونه فى البرلمان ، وقد ثارت ثائرة أعضاء البرلمان على أثر هذا التصريح ، فأعلنوا وكتبوا فى صفحة من صفحات مجلس العموم أنهم يمتلكون هذه الحقوق امتلاكاً تاما وقد ورثوها عن الشعب الانجليزى منذ القدم ، وأن لهم حق النظر فى كل المسائل الهامة لأنهم يعملون لصالح هذا الشعب الذى يمثلونه . فما كان من الملك إلا أن انتزع هذه الصفحة ومزقها ورأى عندئذ أن يحل البرلمان سنة ١٦٢١ .

السياسة الخارجية :

أغضبت السياسة الخارجية أعضاء البرلمان ؛ فقد كانت انجلترا فى حرب ضد أسبانيا منذ واقعة الأرمادا سنة ١٥٨٨ ، ولم يعقد الصلح بينها وبين انجلترا إلا عند مطلع عهد جيمس الأول سنة ١٦٠٤ ، وقد ذكرنا أن جيمس الأول لم يهيء للشعب فرص الاستفادة من هذا الصلح فلم يهيء لهم وسائل الاتجار مع مستعمرات أسبانيا فى العالم الجديد ، بينما كان لهذا الصلح أثره فى التزام انجلترا بمنع تجارة التهريب التى كانت انجلترا تجنى من ورائها أرباحاً طائلة وبمعنى أصح أضر ذلك بمصالح التجار ومرتادى البحار ، وعندما بدأ جيمس الأول يشعر بخطأ هذا الاتجاه فى السياسة الخارجية كان عهده قد أشرف على الانتهاء ، فقد جمع البرلمان بعد ذلك ، واتفق معه على إعلان الحرب على أسبانيا سنة ١٦٢٤ — ١٦٢٥ . يضاف إلى العوامل السابقة عامل آخر ، وهو يتعلق بشخصية وزير ومن أعظم مستشارى جيمس الأول وهو «جورج فيلييه» Georges Villiers (دوق بكنجهام) ، اختاره الملك ليستعين به . وكان هذا المستشار متعصباً لرأيه ، يساند الملك فى اتجاهه نحو عدم الاعتراف بحقوق البرلمان . فكرهه لذلك الأعضاء وطالبوا الملك باستبعاده ، ولكن الملك أصر على إبقائه ، ولم يكن البرلمان يملك إلا أمراً واحداً لاستبعاد غير المرغوب فيهم من الوزراء وهو إلقاء تهمة الخيانة العظمى عليهم . فكان الوزير المتهم يحاكم أمام مجلس اللوردات بمقتضى هذا القانون ، فيصدر الحكم بنفيه أو قتله أو مصادرة أملاكه . وكانت هذه الطريقة تعسفية إلى حد بعيد ، وظل معمولا بها إلى أن ظهر مبدأ المسئولية الوزارية فى القرن الثامن عشر ، وهى أن يكون الوزير مسئولا أمام البرلمان عن انجازاته وأعماله ، فإذا أخطأ كان عليه أن يتحمل نتائج ذلك الخطأ .

وعلى الرغم من صدور هذا القرار فإن الملك أصر على موقفه ومنع تنفيذه فكان هذا أكبر تحدى للبرلمان .

شارل الأول : ١٦٢٥ — ١٦٤٩ :

عندما مات جيمس الأول ، وتولى شارل الأول ، كانت هذه المشكلة هى المشكلة الأولى التى واجهته . وكان شارل صديقاً حميماً لدوق باكنجهام المتهم فرفض أن يجيب البرلمان إلى رغبته ، وظل دوق باكنجهام يتمتع بنفوذه . ولا أدل على غضب

البرلمان من سلوك الملك الجديد من أنه لم يوافق على منح الملك إيرادات الجمارك المخصصة له مدى الحياة كما كان متبعاً فى الماضى ، وإنما منحه هذا الحق لمدة عام واحد . وكانت المخصصات الملكية فى ذلك الوقت عبارة عن الإيراد الخاص بالملك ثم الإيراد الذى يعود عليه من بعض الإقطاعيات وبعض إيرادات الجمارك ؛ ومن ثم بدأ عهد شارل الأول هذه البداية السيئة . وكان أعضاء البرلمان فى ذلك الوقت — وقد تبينوا الاتجاه المطلق فى عهد الملك السابق ، وموقف شارل الأول المماثل لسلفه — قد بدأوا يفكرون فى الطريقة المثلى للوقوف فى وجه الملك الجديد ، وكانوا ذوى خبرة استطاعوا أن يكتسبوها أثناء ممارستهم للحكم المحلى ، ودراستهم المستفيضة للقانون العام لانجلترا . وكانوا قوة لايستهان بها واجهت شارل الأول منذ بداية عهده ، فلم يكن باستطاعة هذا الملك إزاء موقفهم المعارض إلا أن يحل البرلمان ، ويقبض على من يثير المشاكل ضده به ، ويودعه السجن . وقد استطاع البرلمان بمساعدة قاضى القضاة فى محكمة الدعاوى العامة وكان سير « ادوارد كوك » Sir Edward Coke أن يحصل على موافقة الملك على ما يعرف بملتمس الحقوقPetition of Rights فى عام ١٦٢٨ ، وكان ينص على عدم قانونية الأمور التالية :

أولا : فرض الضرائب أو القروض دون موافقة البرلمان .

ثانياً : القبض على الأفراد أو سجنهم دون محاكمة .

ثالثاً : استخدام قرارات لجان الأحكام العرفية زمن السلم .

رابعاً : إيواء الجند والبحارة فى منازل الأهالى دون موافقتهم .

الحكم المطلق فى عهد شارل الأول (١٦٢٩ — ١٦٤٠) :

نجح البرلمان فى أن يحصل على موافقة الملك على ملتمس الحقوق ١٦٢٨ ، ولو احترم الملك هذا الملتمس لسارت الأمور سيراً طبيعياً ؛ ولكن شارل كان يعتبر نفسه الحاكم المطلق لهذا الشعب ، فبدأ ينقض هذا الملتمس ، ويتصرف تصرفاً مخالفاً له منذ سنة ١٦٢٩ ، وأدى ذلك إلى نفور البرلمان منه ، واحتدام النزاع بين الملكية والبرلمان ، وزاد من حدة هذا النزاع أن شارل تزوج سنة ١٦٢٩ من هنرييت الفرنسية ، وساعد الكاثوليك فى فرنسا ضد البروتستنت ، فكان ذلك يخالف سياسة انجلترا ، وزاد من

هذا النفور أن دوق بكنجهام قتل فى سنة ١٦٢٨ على يد أحد المتعصبين من البيوريتان ، وأدى ذلك إلى رغبة الملك فى الانتقام من البرلمان ، فأمر بفض البرلمان ولكن البرلمان رفض تنفيذ أوامر الملك . ولكنه توصل إلى استصدار القرار التالى تحت تأثير Sir John Eliott

« إن كل من يبتدع جديداً فى الدين أو يفرض ضريبة دون موافقة البرلمان يعتبر عدواً للدولة وللمصلحة العامة » .

وواضح أن الملك كان هو المقصود بذلك ، فما كان من شارل الأول إلا أن فض البرلمان ، وحكم حكماً مطلقاً فى المدة من ١٦٢٩ — ١٦٤٠ ، وفى خلالها وضعت بذور عوامل الثورة العظمى التى أدت إلى الحرب الأهلية بين الملكية وأتباعها والبرلمان وأتباعه وقد انتقم الملك من « اليوت » فأودعه السجن مع صديقيه « فالنتين Valentine » « وسترود » Strode . فمات « اليوت » فى قلعة لندن ١٦٣٢ ، واستمر صديقاه فى سجنهما إحدى عشرة سنة ، وانتقم الملك بذلك لصديقه دوق « بكنجهام » فى شخص (اليوت » ولكنه لم يلبث حتى دفع الثمن غالياً . واستعان الملك بشخصيتين فى تصريف شئون الدولة على النحو الذى يريد ، فسلك كلاهما سياسة استبدادية استفزازية أثارت الشعب الذى كان يرقب عن كثب تصرفات الملك وأعوانه .

كان أولهما « توماس ونتورث » Thomas wentworth

استعان به الملك فى تصريف شئون الدولة ، فاتبع وسائل غير مشروعة فى سبيل تزويد الملك بالمال حيث فرض ضرائب جمركية بمراسيم ملكية ، واستحدث ضرائب جديدة فرضها على سائر طبقات الشعب دون موافقة البرلمان . كما جدد ضرائب أخرى ومنها ضريبة السفن ، وكانت تجبى على الموانى أثناء الحرب . ولكنه فرضها على كل انحاء انجلترا زمن السلم ، فاستطاع بذلك تقديم الأموال اللازمة للملك ، فكان لذلك أثره فى أنه أصبح شخصية مكروهة من الشعب مما ادى إلى إعدامه سنة ١٦٤١ بعد صدور تهمة الخيانة العظمى ضده .

وثانيهما : كان « لود » Laud رئيس أساقفة كنتربرى ، وقد عمل هذا بدوره على تركيز السلطة فى يد الملك عن طريق نشر العقيدة الانجليكانية والقضاء على البيوريتان ، فاضطهد كل من رفض أن يتبع كنيسة انجلترا ، واستعان « لود » بالمحاكم والمجالس الاستثنائية لإلقاء الرعب فى النفوس ، فتعقب المخالفين بالمصادرة

والاضطهاد ، وحرمهم من مصادر أرزاقهم ، بل عرضهم كذلك لألوان التعذيب والتشويه ، فأدى ذلك إلى التذمر وإلى هجرة اعداد غفيرة منهم إلى سواحل امريكا الشمالية حيث هاجر بين عامى ١٦٢٩ ، ١٦٤٠ مئات من الإنجليز من الزراع ورجال الدين وغيرهم ممن رغبوا فى العبادة وفق طريقتهم ، فتركوا بلادهم واستقروا على سواحل « مساشوستس » Massachussetts . وقد نقل من هاجر منهم بسبب اضطهادات « لود » إلى « نيوانجلند » النظم والمجالس التى اعتادوها فى بلادهم . وصدق القول بأن سياسة لود الدينية قد أدت إلى تأسيس المستعمرات الإنجليزية فى « نيو انجلند » .

وعندما أراد أن يفرض العقيدة الانجليكانية على الشعب الاسكتلندى ، وكانت الكنيسة البرسبتارية (١) Prespetrian Church هى السائدة فيها ، وكانت تعتمد على عقيدة كلفن . رفض الاسكتلنديون عتناق المذهب الانجليكانى فأعدوا جيشاً للإغارة على انجلترا من الشمال ليحدثوا القلاقل والاضطرابات حول شارل الأول . فاضطر إلى دعوة البرلمان إلى الاجتماع للحصول على المال اللازم لمواجهة خطر الغزو الاسكتلندى .

البرلمان القصير وقد استمر من ٣ أبريل إلى ٥ مايو ١٦٤٠ :

واجتمع البرلمان فى أبريل سنة ١٦٤٠ ويعرف بالبرلمان القصير ؛ لأنه لم يستمر غير وقت قصير لايعدو الشهر الواحد حيث انفض فى الخامس من مايو ، وسبب ذلك أن البرلمان عندما عرضت عليه الموافقة على الأموال اللازمة لتجهيز الجيش اشترط أن يتعهد الملك باحترام ما جاء فى ملتمس الحقوق ، ولكن شارل الأول رفض الالتزام بهذه الحقوق مما أدى إلى غضب البرلمان وعدم موافقته على مد الملك بالأموال اللازمة لصد العدوان الاسكتلندى ، ففض الملك البرلمان ، وحاول أن يصد الاسكتلنديين بما لديه

---

(١) البرسبتاريون Prespeterians شيوخ الكنيسة وقد سموا بذلك لإصرارهم على أن الحكومة الكنسية فى العهد الجديد كانت من شيوخ الكنيسة ومن معهم من خدامها ؛ وكانوا متساويين فى السلطان ؛ والمنصب والرتبة . وقد استقر هذا النظام الكنسى فى اسكتلندا فى عام ١٦٩٦ . وكانت مواد هذا النظام تتضمنها بناء العقيدة التى قام بصياغتها المصلح الدينى «جون نوكس» John knox فى عام ١٥٦٠ ؛ وقد أقرها البرلمان ثم صدق عليها عام ١٥٦٧ وأخيراً استقر هذا النظام الكنسى بمقتضى قانون أصدره مجلس الشيوخ الاسكتلندى عام ١٦٩٦ ؛ ثم تأكد ضمانه بعد ذلك فى الاتفاق الذى تم بشأن الوحدة بين انجلترا واسكتلندا عام ١٧٠٧ . وكان أول بيت لاجتماع البرسبتاريين فى انجلترا فى «فاندزوورث» wandsworth فى «سرى» Surrey فى ٢٠ نوفمبر ١٥٧٢ .

من موارد ضئيلة ولكن دون جدوى ؛ فقد ارتد جيشه وتقدمت القوات الاسكتلندية تحت قيادة « الكسندر لزلى » Alexander Leslie ، فعبرت نهر « التويد » Tweed واحتلت «درام» Durham و « نور ثمبر لاند »Northumberland ، وأصبحت هكذا جيوش اسكتلندا تحتل أشهر مقاطعات انجلترا فى الشمال ؛ واشترط القائد الاسكتلندى ضمن شروطه للانسحاب والتقهقر الحصول على مبلغ وفير من المال ، فرأى الملك ألا مفر من الخضوع ودعوة البرلمان للاجتماع .

اجتماع البرلمان الطويل (١٦٤٠ – ١٦٥٣) :

اجتمع البرلمان فى نوفمبر من العام نفسه ، وعرف (بالبرلمان الطويل) لأنه ظل منعقداً مدة ثلاثة عشر عاماً . ولهذا البرلمان أهمية عظمى فى تاريخ انجلترا بل أن أهميته قد جاوزتها وعمت آثاره أوروبا كلها بل والعالم أجمع . فكانت قراراته أمثلة حية للتحرر واحترام الحقوق السياسية والمدنية للأفراد . وتزعم الموقف فى البرلمان نخبة من الساسة المخلصين للدستور والبرلمان ممن عرفوا بتحمسهم للمحافظة على حقوق الشعب ، وكان منهم « هامدن » Hampden و « هولز » Holes و« بيم » Pym .

وضع هذا البرلمان حلا نهائياً لاستبداد ملك انجلترا مما كان له آثاره العظيمة فى تنمية الحرية السياسية فى أنحاء العالم كافة ، عندما بدأ هذا البرلمان بإلغاء مايعرف بالمجالس الاستثنائية التى كانت مصدراً للاستبداد . ولم يكتف بذلك بل أثار ما جاء فى ملتمس الحقوق ، فأكد أن الملك لايملك حق فرض أى ضريبة أو الحصول على المال بأى وسيلة أخرى دون موافقة البرلمان ، وهكذا ضمن البرلمان حقه فى السيطرة على سياسة انجلترا المالية ، وكذلك ضمن للأفراد حقوقهم المدنية ، فصدر قرار يؤكد حماية الأفراد وعدم سجنهم دون سبب ما ضرورة إجراء محاكمة تبت فى قراراتها معهم ، وكان ذلك بسبب ما حدث « لجون اليوت » وصديقه « سترود » Strode و « فلنتن» Velentine . عندما قبض عليهم على أثر مقتل دوق «بكنجهام» فى عام ١٦٢٨ . وبذلك حمى البرلمان أفراد الشعب الانجليزى من تحكم الملك وأحكامه التعسفية ضدهم ، وعمل البرلمان منذ الوهلة الأولى على أن تضمن هذه القرارات الهامة دستور الدولة ، وأن تتخذ كافة الإجراءات لحمايتها . ولما كانت شخصية « إيرل سترافورد » من الشخصيات البغيضة المهددة لما حصل عليه البرلمان حينئذ من مكاسب ، فقد رؤى

التخلص منها ، وفعلاً وجهت إليه تهمة الخيانة العظمى فأعدم فى عام ١٦٤١ ، ولاقى « لود » نفس المصير بعد أربع سنوات أى عام ١٦٤٥

وعندما ظهرت الحاجة إلى تعيين ضباط للجيش الموجه إلى إيرلندا للقضاء على الفتنة التى بدأت باعتداء بعض الكاثوليك على عدد كبير من البروتستنت وقتلهم ، وكان الملك فى العادة هو الذى يعين الضباط حتم « بيم » Pym بأن يكون ذلك الأمر أيضاً من حق البرلمان ، وأصر على أن يكون وزراء الملك موضع ثقة البرلمان . ومعنى هذا أن البرلمان سلب الملك كل حقوقه ، وأصبح المسيطر على سياسة الدولة المالية والدينية والحربية . ولم يكن شارل الأول ليقبل ذلك الوضع ، فدبر أمراً للقبض على زعماء حركة المعارضة وقادتها داخل البرلمان وهم « بيم » Pym و « سترود » Strode و « هامدن Hampden » و « هولز » Holes و « هزلرج » Hazlerig . ولكن لحسن حظ البرلمان أن أمر هذه المؤامرة التى دبرها شارل قد اكتشف فى الوقت المناسب فتخلف الأعضاء الخمسة عن حضور الجلسة . وكان لهذا أثره الكبير فى إحداث ضجة كبيرة فى انجلترا ؛ إذ بدأت النفوس تشعر بخطورة اتجاهات الملك المطلقة ، وشعر أعضاء البرلمان بأن الحقوق التى كسبها الشعب الانجليزى على وشك أن يفقدها ، وثار الرأى العام فى لندن لأن مؤامرة الملك كانت تتضمن اعتداءاً صريحاً على حرية البرلمان وكيانه ، فشعر الملك شارل بالخطر المحدق به ، واضطر إلى مغادرة لندن بسرعة ليبتعد عن الشعب الغاضب .

الحرب الأهلية بين الملك والبرلمان :

وهنا بدأت الحرب الأهلية بين البرلمان والملك ، وانضم إلى الملك الأشراف وأتباع الكنيسة الانجليكانية والكاثوليكية ، بينما استعان البرلمان بالطبقة الوسطى ، وكان أفرادها يوصفون بذوى الرءوس المستديرة Round Heads (١) كما استعان بمعتنقى العقيدة البروتستنتية غير الانجليكانية مثل البرسبتارية والبيوريتان . واستطاع البرلمان كذلك

---

(١) ذوى الرءوس المستديرة : Ronnd Heads

عرف اتباع الملك شارل الأول ومعضدوه أثناء الحرب الأهلية التى بدأت فى انجلترا فى عام ١٦٤٢ بالفرسان ، بينما عرف أصدقاء البرلمان بذوى الرءوس المستديرة ، ويقال أن التسمية ترجع إلى أنهم كانوا يرتدون على رؤوسهم قبعة أشبه ما تكون فى استدارتها بالسلطانية أو الطبق بينما قص شعر رءوسهم بحيث لا يتعدى طوله حافة القبعة .

الوصول إلى التحالف مع اسكتلندا ضد الملك والكنيسة الانجليكانية ، واستمرت هذه الحرب مدة خمس سنوات ابتداء من عام ١٦٤٤ ، وانتهت سنة ١٦٤٩ بهزيمة الملك وإعدامه .

وانتصرت قوات البرلمان على قوات الملك لأسباب متعددة من أهمها :

١ — أن الطبقة الوسطى اشتركت فى الحرب إلى جانب البرلمان وهى صاحبة الثروة فى انجلترا وانضمت إليها أقاليم انجلترا الشرقية التى تزخر بمراكزها الصناعية والتجارية ، وبذلك توفرت الأموال اللازمة لتكوين جيش نموذجى ، كما انضمت القوة البحرية أى قوة الأسطول مما كان له أثره فى ترجيح كفة البرلمان على الملك .

٢ — ظهور شخصية أوليفر كرمويل بين المقاتلين فاستطاع هذا الجندى الشجاع أن ينظم جيشاً نموذجياً كسب به المعارك المختلفة التى دارت بين الفريقين وأصبحت له شهرة عالمية ، أشاد بها القائد «الفرنسى تورين» Turenne الذى شهد ببراعة هذا الجيش عندما أرسل كرمويل جيشاً لفرنسا لمساعدتها فى حروبها ضد أسبانيا - فأحرزت يومئذ نصراً فى موقعة « الدن » Dune المشهورة . واستطاعت هذه القوات التى دربها وقادها « أوليفر كرمويل » أن تنتصر على قوات الملك شارل الأول فى موقعتى « مارستون مور » سنة ١٦٤٤ و « نازبى » Nasby سنة ١٦٤٥ . وتعتبر موقعة « مارستون مور » أشهر مواقع هذه الحرب ، ظهرت فيها مقدرة كرمويل الحربية العظيمة التى رفعته إلى مصاف عظماء القواد ، وقد اعترف له البرلمان بذلك . وعرف كرمويل بتسامحه ، فأفسح مجال الترقى فى الجيش أمام الجميع بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية ، على أن البرلمان الذى استطاع أن ينال هذه الانتصارات على الملكية فى ميدان الحرب فشل فى ميدان الصلح . فلم يستطع بعد ذلك أن يوحد صفوفه وأن يتبع سياسة سليمة بين الفريقين بل إن البرلمان اتبع سياسة اضطهاد إزاء معتنقى العقيدة الانجليكانية ، وكان يحرمهم معاشاتهم . وأخذ يطارد الملكيين ويفرض عليهم غرامات فادحة . كما أن البرلمان بدأ يحقد على الجيش ويخشى ازدياد نفوذه نتيجة لتلك الانتصارات التى أحرزها . وهكذا بدأت تظهر الفرقة بين صفوف المنتصرين من أعضاء حزب البرلمان والجيش . ولم يعد البرلمان الذى أظهر عداءه لحرية الرأى البروتستنتى فى انجلترا كما لم يقدر خدمات الجيش الذى يرجع إليه الفضل فى انتصاراته الساحقة على الملك لم يعد صالحاً لحكم انجلترا . وقد أثارت تصرفات البرلمان يومئذ غضب كل من

الشخصيتين العظيمتين فى انجلترا فى ذلك العهد وهما « أوليفر كرمويل » و « ميلتون » .

ويتبين من المفاوضات التى بدأت بين البرلمان والجيش والملك أنه لم تكن هناك أى فكرة لاستبعاد الملك عن العرش ، بل كان كل من البرلمان والجيش يرغب فى عودة الملك إلى الحكم ، وقد عبر كل فريق عن آرائه ومبادئه وكانت جميعها فى صالح الدولة لو أخذ بها . كان الملك بطبيعة الحال ينادى بالملكية وكتاب العبادة الانجليزية (أى العقيدة الانجليكانية) . بينما كان البرلمان ينادى باحترام القانون العام والحكومة المسئولة . والجيش ينادى بضرورة التسامح الدينى لسائر الطوائف البروتستنتية .

فى الواقع أن كل هذه الأمور كانت لصالح الملكية فى انجلترا ، فلو أخذ بها جميعاً لاستطاعت الملكية أن تستقر . على أنه لم يكن مقدراً لشارل الأول أن يعود للحكم ثانية ، إذ رأى لسوء حظه أثناء المفاوضات أن ينتهز فرصة الخلاف بين البرلمان والجيش وموقف اسكتلندا من انجلترا ليقضى على أعدائه جميعاً ، وليعيد لنفسه الحكم المطلق فى انجلترا . وهذا أكبر دليل على أن الملك لم يتخل عن عقيدة حقه المقدس . فبينما كان يفاوض الجيش والبرلمان أخذ يعد العدة لاستئناف الحرب وذلك عن طريق إثارة المدن الكبرى والتحالف مع رعاياه الاسكتلنديين . ولا حكام المؤامرة فر الملك من يد الجيش ، ولكن الجيش لم يلبث أن قبض عليه ولم يغفر له تحالفه من الاسكتلنديين وتآمره بالتالى على سلامة البلاد وعقيدتها الدينية .

وعند عودة أوليفر كرمويل من صد الاسكتلنديين المناصرين للملك فى « برستون » Preston — وكان نفوذه قد ازداد نتيجة التطهر الذى قام به « برايد » Pride عام ١٦٤٩ بطرد الأعضاء البارزين من الحزب الملكى فى البرلمان — أصبح الجو مهيئاً للتخلص من الملك . وقد أجمعت الآراء على ذلك ، فأدانته الهيئة التى حاكمته وكانت مكونة من أعدائه ، واتهمته بالخيانه العظمى فأعدم فى « هوايت هول » white Hall (١) فى فبراير ١٦٤٩ ، ونسى الانجليز الأخطاء التى ارتكبها شارل واعتبروه شهيدا .

---

(١) « هوايت هول » white Hall (فى لندن) :
قصر بناه « هيوبرت دى بورج » Hubert de Burgh ايرل أوف كنت « Earl of Kent » قبل منتصف القرن الثالث عشر ؛ ثم آل بناء على وصيته إلى « الرهبان السود فى هوبورن » Black Fiars of Hopporn الذين باعوه إلى أسقف « يورك » ، ومن هنا صار اسم « يورك بلاس » York Palce . وظل محل اقامة الأساقفة فى هذه المدينة حتى استولى عليه هنرى الثامن من الكاردينال wolsey فى عام ١٥٣٠ . وأصبح خلال ذلك القرن مقراً للبلاط . وقد نقل إليه فى عام ١٦٠٣م جثمان الملكة اليزابث بحراً فى موكب كبير من ريتشموند « Rtchmond » ؛ حيث كانت قد توفيت . ويخبرنا « كامدن » انه بهذه المناسبة تم تأليف مديح فيه اطراء لجلالتها .

عهد سيطرة « أوليفر كرمويل » : ١٦٤٩ — ١٦٥٨ :

اجتمع البرلمان عقب إعدام الملك وألغى الملكية ، وأعلن سيادة الأمة ، ونادى بالجمهورية ، وألغى مجلس اللوردات ، وألف هيئة تنفيذية مكونة من واحد وأربعين عضواً ، من بينهم أوليفر كرمويل الذى استطاع أن يحكم بمساعدة مجلس العموم مدة أربع سنوات من سنة ١٦٤٩ — ١٦٥٣ ، ثم لم يلبث أن نشأ نزاع وخلاف بين الجيش والبرلمان . فبينما كان كرمويل يرغب فى حل مجلس العموم بدعوى عدم تمثيله للشعب الانجليزى تمثيلا سليماً ، كان المجلس يرغب فى التخلص من الجيش بتسريحه ، إذ كان لايرى ضرورة لبقائه بعد انتهاء الحرب . على أن كرمول لم يلبث أن دخل قاعة المجلس بصحبة بعض جنده فى اليوم الذى حدد لتسريح الجيش ، وأمر جنده بطرد النواب ثم حل الهيئة التنفيذية ، وحكم إنجلترا بمفرده بمعاونة الجيش مدة خمس سنوات ١٦٥٣ — ١٦٥٨ . أطلق على نفسه أثناءها « حامى الجمهورية » ، وتمتع خلال هذه المدة بسلطة مطلقة . على أن هذه الديكتاتورية كانت قصيرة الأمد إذ بعد وفاته انتقلت إلى ابنه ريتشارد . ولم يكن يتمتع بخبرة عسكرية أو سياسية ، فعجز عن ملء الفراغ الذى تركه أبوه بعد موته ، مما اضطره إلى اعتزال الحكم بعد شهور قلائل .

واضطربت الأحوال فى انجلترا ، وتداعى النظام ، وانتشرت الفوضى وذلك لأن ثورة كرمويل لم تقم على أسس وطيدة ، كما أن نظام الحكم الذى اتبعه كان يعتمد على قوة مستمدة من شخص واحد فلم يكد يسقط ذلك الشخص حتى انهار ذلك النظام . وهذا هو شأن الحكم الفردى الذى يعتمد على شخص واحد . واستمرت الفوضى مدة عام تقريباً بعد اعتزال ريتشارد الحكم ، سادت خلاله المنازعات بين البرلمان والجيش إلى أن زحف قائد الجيش الاسكتلندى القائد «جو رج منك» G.Monk فطلب من البرلمان القديم أن يعد العدة لدعوة برلمان جديد للانعقاد ، ولما كان غالبية الأعضاء الجدد من الملكيين فقد استدعوا شارل الثانى ليحكم انجلترا دون قيد ولا شرط .

الفصل الخامس

عهد الجمهورية (١٦٤٩ – ١٦٥٣)

والديكتاتورية (١٦٥٣ – ١٦٥٨)

لم يكن مركز كرومويل وأتباعه عقب التخلص من الملك آمناً ، إذ أنكر صغار النبلاء وجماعة البرسبتريان ذلك السلطان ، وشلت حركة البحرية بسبب تمرد أفرادها بينما كانت سفن التفتيش الملكية تسيطر على البحار تحت زعامة «الأمير روبير» Rupert وثارت كل من اسكتلندا وإيرلندا على الأوضاع القائمة ؛ وقد أساء إلى الاسكتلنديين مقتل الملك فاحتضنوا شارل الصغير إلى ان تحين الفرصة لإعادة أسرة استيوارت إلى الحكم . ولم تعترف « فرجينيا » Virginia ولا « بربادوس » Barbados بسلطة المغتصبين . وإذا كانت ولاية « ماساشوستس » Massachussetts لم تظهر عداء إزاء الحكم الجديد إلا أنها منذ بداية النزاع بين الملك والبرلمان قد أظهرت استقلالا تاماً عن انجلترا . استنكرت كذلك كل من هولندا وفرنسا وأسبانيا عملية إعدام الملك . ومع ذلك فقد نجح أوليفر كرومويل بجيشه القوى وبفضل مجهودات القائد البحرى « بلياك » Blake فى التغلب على هذه الصعاب فى مدى السنوات الأربع التالية ، وبذلك أدهشت هذه الجمهورية أوروبا جميعاً . فعلى الرغم من تلك الحرب التى استمرت خمس سنوات بين الملك والبرلمان (١٦٤٤ – ١٦٤٩) ، والتى يحتمل أن تكون قد أنهكتها ، نجدها تظهر قدرة حربية لم تتميز بها انجلترا فى أى عصر سابق ، كما تبدى حماسة منقطعة النظير فى أعمال الهجوم والحرب . وفعلا تملأ أحداث المعارك تاريخ الجمهورية ، مما جعل انجلترا تتميز فى ذلك العهد بمركزها الحربى الممتاز بين دول أوروبا . وقد صرح بكفاءة الجنود الانجليز فى تلك الآونة القائد الفرنسى المشهور « تورين » عندما كتب لمزران ؛ وكان على أهبة البدء فى واقعة « الدن » عام ١٦٥٧ ؛ فذكر فى رسالته أنه لم يكن هناك جيش فى أوروبا يصارع جيش كرمويل فى نظامه وتدريبه .

السياسة الخارجية لعهدى الجمهورية والديكتاتورية فى انجلترا :

لهذين العهدين أهمية خاصة من ناحية السياسة الخارجية ؛ فقد استطاع الجيش الانجليزى حينئذ أن يحقق انتصارات عديدة وأن ينال مركزاً مرموقاً بين الجيوش الأوروبية وقد ذكرت شهادة القائد الفرنسى العظيم « تورين » بكفاءة هذا الجيش وتفوقه فى ميدان الحرب .

ولم يكن تفوق انجلترا البحرى يومئذ بأقل من تفوقها البرى ؛ إذ استطاع الأسطول الإنجليزى بقيادة « بليك » أن يتفوق على قطع الأسطول التى كان يقودها الأمير « روبير » . فطاردها مطاردة عنيفة أوصلت القطع البحرية الانجليزية إلى حوض البحر المتوسط ، حيث صوبت المدفعية بعض ضرباتها نحو تونس ، وأقامت العلم الانجليزى بعض الوقت فى مالطة والبندقية ومرسيليا وطولون . وهكذا أثبت « بليك » — قبل ظهور الحاجة إلى الاستيلاء على سلسلة من الثغور البحرية على طول الطريق البحرى إلى الهند بمدة طويلة — سهولة تحقيق أمثال هذا المشروع .

أوليفر كرمويل والبرتغال :

والواقع أن ذلك النصر الذى أحرزه « بليك » القائد البحرى على الأمير « روبير » يرجع إلى حد كبير إلى تلك المعاهدة التى عقدها كرمويل مع البرتغال فى عام ١٦٥٤ ، وقد أدرك بثاقب فكره وبعد نظره السياسى أهمية موقع البرتغال بالنسبة للأسطول الإنجليزى . ولقد سارت السياسة الانجليزية بعد ذلك وفقاً لهذه الخطة ؛ فتجدد هذا التحالف عند مطلع القرن الثامن عشر فى معاهدة « مثوين »Methuen (١) . أما أهمية هذا التحالف فترجع إلى حاجة الأسطول الانجليزى إلى محطة على الطريق بين انجلترا وحوض البحر المتوسط ؛ ذلك لأنه إذا ما غادر الأسطول الإنجليزى بريطانيا وسار فى المحيط الأطلسى ثم أراد بعد ذلك أن يدخل حوض البحر المتوسط ليقوم بأى عملية عسكرية أو حربية فيه فإنه من المتعذر عليه — وقد أصابه الإرهاق بطول المسافة التى قطعها فى عرض البحر دون توقف — أن يحرز نصراً أو تفوقاً على أعدائه . وهكذا أتاحت معاهدة التحالف الأولى التى عقدها أوليفر كرمويل مع البرتغال لبليك الفرصة —

(١) انظر ص ٢٠٣ .

بعد استجمام قطع أسطوله وتزويدها بما يلزمها من وقود ومؤونة — لكى يطارد عدوه الأمير « روبير » وأن يحقق نصراً ساحقاً على قواته . أما معاهدة التحالف الثانية فقد عقدتها انجلترا مع البرتغال فى ظروف مختلفة أثناء أحداث حرب الوراثة الأسبانية وكانت العامل الرئيسى الذى جعل انجلترا تستولى على صخرة جبل طارق جنوبى أسبانيا و « بورت ماهون » Port Mahon بجزيرة « مينورقة » Minorca ، إحدى جزر البليار المواجهة للساحل الشرقى لأسبانيا المطل على حوض البحر المتوسط .

أوليفر كرمويل وهولندا :

استطاع أوليفر كرمويل أن يضع سياسة استعمارية ثابتة لانجلترا عندما أصدر قانون الملاحة عام ١٦٥١ ؛ وكان هذا القانون يقضى بألا تحمل السلع الانجليزية إلا على سفن انجليزية . وكان الغرض من ذلك أن تستأثر انجلترا بالأرباح الوفيرة التى كانت تعود عليها من الاتجار مع المستعمرات الانجليزية فى العالم الجديد والعمل على الحد من نشاط الهولنديين فى هذا المجال ، ولما كان فى تطبيق انجلترا لهذا القانون ما يقتضى تخلى هولندا عن مكاسب تجارية عظيمة ؛ فقد أدى ذلك إلى وقوع ثلاث حروب كبيرة بين عامى ١٦٥١ ، ١٦٥٤ بين الدولتين ؛ وذلك على الرغم من التقارب الذى كان يبدو بين كل من هولندا وانجلترا ، فكلاهما يدين بالعقيدة البروتستنتية ، وكلاهما يحترم الأنظمة الديمقراطية فى الحكم . على أن ذلك التقارب كان ظاهرياً ؛ فقد كانت المنافسة بين الشعبين شديدة وقوية نظراً لاصطدام المصالح التجارية ، كما كان الهولنديون يؤيدون عودة أسرة استيوارت إلى الحكم فى انجلترا ؛ ذلك لأنه منذ زواج حاكم هولندا وليم أورنج بالأميرة مارى ابنة شارل الأول وأخت كل من شارل الثانى وجيمس الثانى أصبح الهولنديون يؤيدون أسرة ستيوارت التى كان يخشاها الجمهوريون حينئذ فى انجلترا . فوقعت الحرب بين الدولتين على يد قائدين عظيمين من قواد أوروبا البحريين وهما « بليك » Blake و « ترومب » Tromp . وانتهت بمعاهدة عقدت بينهما عام ١٦٥٤ اضطرت هولندا بمقتضاها أن تحترم العمل بقانون الملاحة الانجليزى .

ثم عقد كرمويل معاهدات صداقة مع كل من فرنسا والسويد ، واستأنف النزاع التقليدى ضد أسبانيا الكاثوليكية .

كرمويل وأسبانيا :

كانت رغبة كرمويل فى مساعدة التجار الإنجليز والمستعمرين منهم واتجاهاته نحو تأييد البروتستنت مما دفعه إلى محاربة الأسبان . وهو بهذه السياسة قد أحيى مطالب تجار انجلترا فى الاتجار مع المستعمرات الأسبانية وفى إبعاد خطر محاكم التفتيش عنهم .

ولقد اصطدمت القوات الأسبانية مع المستعمرين والتجار والقراصنة الانجليز فى مياه جزر الهند الغربية بسبب تلك السياسة الاحتكارية التى اتبعتها أسبانيا ، فحرمت على غير الأسبان ارتياد المياه المحيطة بمستعمراتها مع أن انجلترا كانت تملك بعض المستعمرات فى تلك البقاع ، وقد أرسل كرمويل الإمدادات إلى المستعمرين الانجليز فاستولوا على جزيرة « جمايكا » ١٦٥٥ **Jamaica** . وكان الاستيلاء عليها خطوة هامة لتوسيع نطاق المستعمرات الانجليزية فى منطقة جزر الهند الغربية . وظلت جزيرة جمايكا مدة المائة وخمسين عاماً التالية مركزاً نشطاً للتجارة والسياسة والحرب .

ينتقد بعض المؤرخين سياسة كرمويل الخارجية فيما يتعلق بتركيزه لمجهود انجلترا الحربى والبحرى ضد أسبانيا بدلا من توجيهه نحو فرنسا التى أخذت قوتها فى الازدياد فى تلك الأثناء ، ويرون أن انجلترا لم تستخدم قواها فيما يعود عليها بالفائدة ؛ ولكن بعد إمعان النظر يتبين فى يسر العوامل التى جعلت انجلترا تفضل حينئذ التحالف مع فرنسا على معاداتها ؛ فقد كان كرمويل يخشى أن تعاون فرنسا أسرة استيوارت على العودة إلى الحكم فى انجلترا ، كما تبين كرمويل أن فرنسا فى سياستها الخارجية لم تكن تتقيد بالمسائل الدينية . ثم إن أطماع ملك فرنسا لويس الرابع عشر التوسعية لم تكن قد ظهرت بعد . نضيف إلى ذلك أن أوليفر كرمويل فى محاربته لأسبانيا إنما كان يتمشى مع اتجاه الرأى العام فى انجلترا الذى كان عندئذ يرى فى أسبانيا العدو الأكبر بسبب تصادم المصالح التجارية للبلدين .

وقد نجح كرمويل فى الحصول على ثغر « دنكرك » **Dunkirk** المهم نظير مساعدته لفرنسا فى حربها ضد أسبانيا عام ١٦٥٧ .

سياسة كرمويل فى ايرلندا :

لسياسة كرمويل فى كل من إيرلندا واسكتلندا آثارها فى علاقة انجلترا بكل منهما ، وما زالت آثار هذه السياسة باقية إلى اليوم . أراد كرمويل أن يجمع شمل هذه الأجزاء

الثلاثة ، انجلترا وإيرلندا واسكتلندا تحت لواء الجمهورية ، أراد كورمويل بذلك أن يضمن الغلبة للجمهورية البيوريتانية فى سائر أنحاء الجزر البريطانية حتى لاتتمكن أسرة استيوارت من قلب النظام الجديد واستعادة نفوذها ، فرأى أن يحول جنسية الإيرلنديين إلى الانجليزية وديانتهم إلى البروتستنتية ، وكان يخشى عواقب التصعب الدينى الذى أظهره الكاثوليك عندماوقعت تلك المذبحة فى عام ١٦٤١ ، فقتل فيها عدد كبير من البروتستنت. وأراد كذلك أن يكافىء أولئك الضباط الذين ساعدوه على الانتصار أثناء الحرب الأهلية ، فأقطعهم بعض الأراضى الصالحة للزراعة فى إيرلندا ، وكان ذلك على حساب السكان الأصليين الذين اضطروا إلى مغادرة أراضيهم والإقامة فى مناطق مليئة بالمستنقعات الموحشة فى «كونوت» **Connaught** ، حيث لاتزال ذريتهم باقية إلى اليوم . وكانت سياسة كرمويل فى إيرلندا كما كانت فى اسكتلندا عقيمة لم تحقق الأغراض المرجوة منها ؛ بعيداً عن أن يحقق كرمويل التقارب بين الكاثوليك والبروتستنت فى إيرلندا ، فقد تسببت سياسته فى زيادة كراهية السكان الأصليين من الإيرلنديين للبروتستنتية التى تسببت فى وقوع مذابح « دروجيدا » **Drogheda** و« ويكسفورد » **Wexford** ، كما تسببت فى قلقلة الآلاف من الأسر الكلتية المتواضعة لإفساح الطريق لأرستقراطية أجنبية . كان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى العلاقة بين الكاثوليك والبروتستنت فى إيرلندا ولا زالت آثار هذه السياسة باقية إلى اليوم .

سياسة كرمويل فى اسكتلندا :

كانت سياسة كرمويل فى اسكتلندا مماثلة لسياسته فى إيرلندا ، ولكنها تمت فى نطاق أضيق وبطريقة أقل عنفاً منها فى إيرلندا . لم يرض الاسكتلنديون — الذين قاوموا حركة « لود » الهادفة إلى ضمهم إلى كنيسة انجلترا الانجليكانية — عن إعدام ملك انجلترا شارل الأول وكان اسكتلندى الأصل . ورحب الاسكتلنديون بشارل الثانى ونادوا به ملكاً على اسكتلندا وحاولوا إعادته إلى عرش انجلترا . ولكن كرمويل أحبط مسعاهم فى «دنبار» **Dunbar** عام ١٦٥٠ وفى « ورسستر » **Worcester** عام ١٦٥١ ، ثم تلقت اسكتلندا جرعة من العلاج الذى قدمه كرمويل لإيرلندا . ومع ذلك فقد خلفت آثاراً مرة . كان كرمويل محباً للاتحاد ، وعلى ذلك للمرة الأولى تتحد كل من انجلترا واسكتلندا وإيرلندا تحت برلمان واحد . وهكذا أصبح حامياً لبريطانيا العظمى

كلها لا لانجلترا فحسب . ولكن هذا الاتحاد القائم على العنف والظلم لم يكن ليدوم طويلا . فلم يلبث أن تصدع الاتحاد الذى حققه كرمويل عندما عادت الملكية إلى انجلترا ، وبدأ البرلمان فى كل من « دبلن » و « أدنبره » يمارس أعماله . واستمر العداء بين الكاثوليك والبروتستنت إلى يومنا هذا . وكان لا بد من مرور سبعة وأربعين عاماً لتتفق اسكتلندا وانجلترا على الاتحاد .

أما من ناحية تقييم عهد كرمويل من الناحية الدستورية ، فعلى الرغم من غنى عهد الجمهورية بالمناقشات البرلمانية والتجارب الدستورية الجديدة فإنه ليس غير فصل دخيل، حشره الزمن فى تاريخ انجلترا ، لم يساهم فى إحداث أى تغيير فى النظم المتبعة ، كما أن تجربة الحكم الجمهورى ثم الديكتاتورى لم تتكرر مرة أخرى بعد ذلك فى تاريخ انجلترا . ولوتطلعنا إلى الظروف التى وصل على أثرها كرمويل إلى الحكم لتبين لنا أن مركزه قد اضطره إلى رئاسة حكومة عسكرية ، فأرغم على أن يكون حاكماً مستبداً غير ميال للحرية ؛ وذلك لأنه كان لايعتمد فى مركزه على أى حق وراثى . ولو خير أفراد الشعب الإنجليزى عقب إعدام شارل الأول لتغلب الرأى المطالب بإرجاع الملكية . وكان كل ما يرتكز عليه كرمويل فى حكمه شخصيته القوية والتسامح الدينى الذى أظهره إزاء جميع المذاهب البروتستانتية . وعلى الرغم من المكاسب والأمجاد الحربية والبحرية التى حققها كرمويل لانجلترا فإن الشعب الانجليزى لم يرض عن طريقة الحكم التى انتهجها . وكان من أبرز آثار ذلك العهد فى تاريخ انجلترا هو البغض الشديد الذى تميز به الشعب الانجليزى للجيش القائم ، فاعتبره أفراد الشعب الإنجليزى عدواً لحريتهم المدنية، تلك الحرية التى ظل الشعب الانجليزى يتميز بتعلقه بها .

الفصل السادس

عودة الملكية إلى انجلترا (١٦٦٠ – ١٦٨٨)
والثورة العظمى (١٦٨٨ – ١٦٨٩)

فى هذا العهد الذى حكم فيه للمرة الثانية ملكان من أسرة استيوارت تجمعت أسباب التذمر والثورة التى لم تلبث أن وقعت ، وأدت إلى تدعيم المبادىء الديمقراطية والحكم الملكى الدستورى فى انجلترا . هذه الثورة تعرف بالثورة العظمى أو الثورة المجيدة ، ووقعت أحداثها فيما بين عامى ١٦٨٨ ، ١٦٨٩ .

فعلى أثر الفوضى التى وقعت فى عهد ريتشارد بن كرومويل ، وما كان من تدخل الجيش لقمع الثورة ، دعى برلمان جديد للانعقاد عرف ببرلمان الفرسان (١٦٦١ – ١٦٧٩) ، وكان فى غالبيته يتكون من أعضاء ملكى النزعة ؛ ولا عجب بعد ذلك أن يستدعى مثل هذا البرلمان شارل الثانى من منفاه بفرنسا ليحكم انجلترا .

تلك ظاهرة غريبة فى تاريخ الحكم ، فالمعتاد أن الملك هو الذى يدعو البرلمان إلى الاجتماع ، أما فى هذه الحالة فالبرلمان هو الذى دعا الملك ليحكم انجلترا . ولكن وقع هذ البرلمان فى خطأ كبير ؛ منشؤه أنه قد نسى ما حدث فى عهد الملكية الأولى من أسرة استيوارت ثم فى العهد الذى تلاه من أيام أوليفر كرومويل ؛ إذ كان على البرلمان أن يضع من الشروط ما يحدد مدى سلطات الملك واختصاصاته ، فيضمن بذلك سلامة الحكم البرلمانى . وقد أدت غفلة البرلمان هذه إلى خلق أسباب الخلاف فى عهد هذا الملك . ثم اشتدادها فى عهد خليفته من بعده (جيمس الثانى ١٦٨٥ – ١٦٨٨) .

عهد شارل الثانى (١٦٦١ – ١٦٨٥) :

بدأ هذا الخلاف يظهر بين الملك والبرلمان بسبب تصرفات مستشار الملك الأعظم « كلارندن Clarendon » ١٦٦٠ – ١٦٦٧ ، واستطاع الملك أن يتصرف فى ثغر دنكرك فى عام ١٦٦٢ ، عندما باعه لفرنسا بمبلغ خمسة ملايين جنيه ؛ وذلك لأن الملك

لم يكن لديه من المال ما يكفى نفقاته وسد حاجاته ؛ على أن البرلمان اعتبر تصرف الملك فى دنكرك خسارة كبيرة ، ثم وقعت عدة أحداث بين عامى ١٦٦٥ ، ١٦٦٧ أثارت الرأى العام فى انجلترا ، كما أدت إلى اتهام الوزير « كلارندن » بالخيانة العظمى ، فنفى فى عام ١٦٦٧ . وظل فى المنفى حتى مات ؛ إذ وقعت حرب جديدة بين انجلترا وهولندا ظهر خلالها أسطول هولندا عند مصب نهر التيمز فأثار الرعب فى نفوس الإنجليز ، بل صادف عام ١٦٦٧ إنتشار وباء الطاعون فى لندن ، كما حدث حريق لندن المشهور ، وخيل للجميع حينئذ أن جماعة الكاثوليك بانجلترا قد دبروه لإعادة العقيدة الكاثوليكية فى انجلترا . أدت تلك الأحداث إلى نفى «كلارندن» .

تألفت على أثر ذلك وزارة عرفت بوزارة « الكابال » . وإسمها مكون من مجموعة الحروف الأولى من أسماء أعضائها . فالأول يبدأ بحرف «C» وهو الوزير «كليفورد» Clifford والثانى بحرف « A » وهو « أرلنجتون » Arlington والثالث بحرف « B » « بكنجهام » Buckingham والرابع بحرف « A » « أشلى كوبر Ashley Cooper (فيما بعد عرف بلورد شافتسبرى) والخامس بحرف« L » «لودريل» Lauderdale .

لم يرض البرلمان عن هذه الحكومة ؛ ذلك لأن شارل الثانى كان فى قرارة نفسه كاثوليكياً ، شقى بالنفى وذاق مرارة التشريد فى بداية حياته . مما جعله لايجهر بكاثوليكيته . ولكنه لم يلبث أن اتبع سياسة كاثوليكية . وظهر ذلك فى وزارة « الكابال » فى شخصيتى «كليفورد» و «أرلنجتن» . إذ كان كلاهما كاثوليكاً ، كما اتبع سياسة خارجية لاتتفق ومصالح انجلترا ، بل تعرضها للخطر . وهى سياسة التحالف مع فرنسا ضد هولندا بعد أن اضطر فى بداية الأمر أن يتحالف مع السويد وهولندا ضد فرنسا .

وتبلورت سياسته ضد فرنسا فى وضع حد لأطماع لويس الرابع عشر الذى اضطر إلى الموافقة على معاهدة « اكس لاشايل » ١٦٦٠ . ولكن فى ١٦٧٠ اتبع شارل الثانى تلك السياسة العقيمة التى أثارت عليه الرأى العام البريطانى عندما عقد معاهدة دوفر مع لويس الرابع عشر فى عام ١٦٧٠ ، فاتفقت الدولتان على غزو هولندا واقتسام أملاكها فيما بينهما ؛ بينما كانت هناك شروط سرية لهذه المعاهدة تقضى بأن يمد لويس الرابع عشر شارل الثانى بالمعونة من رجال وأموال لكى يعيد العقيدة الكاثوليكية إلى انجلترا .

وتعرضت هولندا لخطر الغزو الفرنسى نتيجة لمحالفة دوفر ، وكادت جيوش لويس الرابع عشر أن تنتصر عليها لولا ثورة الشعب الهولندى وطرده للحاكم « دى ويت » de Wit ودعوته لوليم أورنج ليكون حاكماً على هولندا سنة ١٦٧٢ . وكان الحاكم الجديد بعيد النظر فأمر بهدم الجسور والسدود الموجودة فى هولندا حتى تغمر المياه الأراضى الهولندية . وفعلا نجحت هذه الخطة وارتدت جيوش لويس الرابع عشر عن هولندا ، وأنقذت هولندا من الغزو الفرنسى ، كما أحرز الأسطول الهولندى نصراً عظيماً على القوات الفرنسية الانجليزية ومن ثم أصبح وليم عماد المحالفات التى تكونت ضد لويس الرابع عشر ، وجعلته ينهار فى النهاية .

أهم النتائج التى ترتبت على السياسة الخارجية العقيمة لشارل الثانى :

١ — بدأ أعضاء البرلمان يتألبون على الملك نتيجة لتلك الحوادث المفاجئة ، فأجبروه فى عام ١٦٧٣ على قبول قانون « الاختبار » Test act ، ويتحتم بمقتضاه على كل موظف أن يؤدى قسماً بإنكار الوجود الفعلى فى القربان أى بإنكار العقيدة الكاثوليكية ، مما جعل دوق يورك أخا الملك يتخلى عن منصبه كقائد للأسطول الانجليزى ، ومما اضطر كلا من «كليفورد» و «أرلنجتون» إلى اعتزال الوزارة بينما استبعد الملك «آشلى كوبر» لمبادئه الحرة ، ورغبته فى تقييد السلطة الملكية ، وبذلك سقطت وزارة « الكابال » .

٢ — كما اضطر « برلمان الفرسان » الملك أن ينهى تحالفه مع لويس الرابع عشر ، وينهى الحرب مع هولندا سنة ١٦٧٤ . عندما تبين لأعضائه أن الغرض من محاربة هولندا لم يكن كسب منافع تجارية للشعب الانجليزى . ولا مراعاة لمصلحة الطبقة الوسطى من التجار ، ولا متابعة المنافسة البحرية بين انجلترا وهولندا ، وإنما الغرض منها القضاء على استقلال هولندا لإفساح الطريق للغزو الفرنسى لأوروبا ؛ واتضح للبرلمان كذلك أن فقدان هولندا استقلالها يعرض انجلترا للخطر ؛ إذ يجعل مصب نهر الراين فى يد فرنسا ، وتبين أيضاً أن فرنسا عدو أقوى وأشد كيداً من هولندا ، واتضح للبرلمان أن سيطرة فرنسا على امستردام تجعلها خطراً يتهدد السيطرة البحرية لانجلترا .

وقد استطاعت انجلترا فى مناسبات مختلفة أن تتبين وجه الخطر فى سيطرة قوة كبيرة على الأراضى المنخفضة ؛ فقد وقع أيام الملكة اليزابث سنة ١٥٨٨ عندما كانت

أسبانيا تسيطر على الأراضي المنخفضة أن تعرضت سواحل انجلترا الجنوبية للغزو الأسباني معتمدة على مساعدة الجيش الأسباني بالأراضي المنخفضة ، وحدث مثل ذلك أيضاً أثناء حروب الثورة الفرنسية في عام ١٧٩٣ ، وأيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ . إذن فمصلحة انجلترا كانت تقضي بالعمل على الإبقاء على استقلال هولندا ، ومنع أي قوة أجنبية من السيطرة عليها ؛ ولذلك كانت سياسة البرلمان الذي أجبر الملك شارل الثاني على الخروج من هذه الحرب هي السياسة الحكيمة بالنسبة لأمن انجلترا وسلامتها .

وعلى الرغم من نجاة هولندا من خطر الغزو الفرنسي فإنها ظلت تسيطر على السياسة الانجليزية بل والأوروبية خلال الأربعين عاماً التالية ،أي إلى صلح «يوترخت» Utrecht ١٧١٣ . لم يستطع لويس الرابع عشر بعد عام ١٦٧٤ أن يطمع في مؤازرة انجلترا إياه لإخضاع أوروبا . ولكنه استطاع أن ينال حيادها عن طريق رشوة زعماء البرلمان تارة وتقديم الأموال للملك تارة أخرى . وقد ظلت انجلترا كذلك حتى عام ١٦٨٨ .

٣ — نتج كذلك عن السياسة الخارجية الخرقاء التي انتهجتها أسرة استيوارت، تلك السياسة التي قامت على الاتحاد مع فرنسا ضد هولندا لا لصيانة مصالح انجلترا البحرية والتجارية وإنما للتمهيد لعظمة فرنسا أن تركزت السلطة في يد البرلمان خلال الأربع سنوات التالية ١٦٧٤ — ١٦٧٨ على أساس تأييد العقيدة الانجليكانية . وتدارك عندئذ شارل الثاني خطورة الموقف فتخلى عن مشاريعه الكاثوليكية وعمل على تأمين مركزه بالتحالف مع حزب « التورى » Tory(١) « الانجليكاني » النزعة ، وكان على رأسه وزيره الأول « دانبي » Danby ، ويعتبر مؤسس حزب التورى أي حزب المحافظين ، وغالبية أعضائه من ملاك الأراضي من المؤيدين للكنيسة الانجليكانية والسلطة الملكية ، وكان « دانبي » خلال سيطرته ١٦٧٤ — ١٦٧٨ صديقاً لهولندا ، وعدواً لفرنسا عمل على توطيد أواصر الصداقة بين هولندا وانجلترا بتزويج وليم حاكم هولندا من « ماري » ابنة جيمس أخي الملك وولي العهد على الرغم من معارضة الأخير .

أما حزب « الهويج »(٢) أي الأحرار فكان لا يؤيد سلطة الملك المطلقة .

(١ ، ٢) الهويج « والتورى » أو الأحرار والمحافظون : Whig and Tory وصفان أطلقا في القرن الثامن عشر على وجه الخصوص للإشارة إلى حزبين سياسيين متعارضين ؛ وكانا أول ما ظهرا في عام ١٦٧٩ أثناء الصراع الشديد الذي نشب يومئذ حول مشروع قانون حرمان « جيمس » دوق يورك (جيمس الثاني فيما بعد) من حقه الوراثي في تولي العرش « قانون الحرمان » —

ويعمل على ازدياد حريات الأفراد ، وكان حزب الخارجين على الكنيسة الأنجليكانية

Exclusion Bill « والهويج » whig كلمة اسكتلندية من أصل غالى كانت تطلق فى الأصل على لصوص الماشية والخيول ؛ ومنها انتقلت إلى الاسكتلنديين البرسبتاريين Presbyterians وكان مضمونها العام يشير إلى الروح البرسبتارية والثورية يوصف به عادة من كانوا يدعون السلطة والمقدرة على ابعاد الوريث عن العرش . أما « التورى » Tory فكان اصطلاحاً ايرلندياً يشير إلى الخارجين على البابوية ، ويطلق على الذين يؤيدون حق «جيمس» فى تولى العرش على الرغم من مذهبه الكاثوليكى الرومانى هذا وقد كانت ثورة ١٦٨٨ ، ١٦٨٩ سبباً فى إزالة كثير من الفوارق بين هذين الحزبين من ناحية المبدأ لأنها كانت عملا مشتركاً قاما به سوياً . ومنذ ذلك الحين اعتنق كثير من أعضاء حزب المحافظين بعض مبادىء حزب الأحرار فيما يتعلق بالحد من حقوق الملكية الدستورية ؛ ومعارضة الملكية التى تقوم على الحق الالهى المطلق ، وأصبحوا يمثلون عنصر المعارضة فى عهد الملكة « آن » وفى مقدمتهم أعيان الأقاليم ؛ إذ أخذوا يرفضون التسامح الدينى والتورط فى المشاكل الخارجية . وأصبحت صفة « التوريزم » Torysm وصفاً قاصراً على مذهب الأنجليكية والطبقات العليا من المجتمع ، كما قصر صفة « الهويج whigism على الأسر الارستقراطية من ملاك الأراضى وأصحاب المصالح المالية من الطبقات المتوسطة الغنية . وكان موت الملكة « آن » فى عام ١٧١٤ — الأمر الذى ترتب عليه تولى « جورج الأول » العرش كرشح لحزب الأحرار وهروب زعيم المحافظين فى عام ١٧١٥ إلى فرنسا وهو « هنرى سان جون » الفايكونت الأول لاقليم بولنجبروك — عاملا هاماً فى القضاء على نفوذ المحافظين كحزب سياسى ؛ ثم مرت خمسون عاماً تولى فيها حكم البلاد جماعات الأرستقراطيين ومن يتصلون بهم من الذين يعتبرون أنفسهم من الأحرار إيماناً وتقليداً . هذا بينما أصبح المتشددون من المحافظين يوصفون بأنهم يعاقبه ، على الرغم من بقاء مائة من أعيان الأقاليم الذين يعدون أنفسهم من المحافظين أعضاء فى مجلس العموم خلال سنوات حكم حزب الأحرار . وبقيت لهؤلاء المحافظين أهميتهم الكبرى أفراداً وعلى مستوى السياسة المحلية والادارة . وكان حكم الملك جورج الثالث (١٧٦٠ — ١٨٢٠) بمثابة عهد جديد فى تطور معنى هاتين الكلمتين : الأحرار والمحافظين . فلم يكن هناك فى ذلك الحين أحرار ؛ وإنما كان هناك جماعات من الأرستقراطيين وغيرهم من ذوى الصلات الأسرية ، يعملون فى البرلمان اعتماداً على المحسوبية والنفوذ . ولم يكن هناك كذلك حزب المحافظين ؛ إنما كان هناك شعور بالمحافظين وتقاليدهم ومزاجهم تحيا جميعاً بين الأسر والفئات الاجتماعية . أما هؤلاء الذين كانوا يسمون بأصدقاء الملك والذين كان يفضل جورج الثالث اختيار وزرائه من بينهم (خاصة فى عهد لورد نورث ١٧٧٠ — ١٧٨٢) ؛ فكانوا يأتون من كلا العنصرين وليس من أحدهما فقط . ولكن حدث فى عام ١٧٨٤ — بعد وقوع بعض التطورات السياسية العميقة التى هزت الشعور العام هزاً عنيفاً عندما نشبت المشاكل التى احتدم حولها الجدال مثل تلك التى أثارها «جون ويلك» John willke وقيام الثورة الأمريكية أن ظهر فى ذلك الحين نوع من التحيز الحزبى أخذ يتبلور ويتشكل . وظهر فى عام ١٧٨٤ « وليم بت » William Pitt الصغير زعيماً لحزب المحافظين الجديد الذى يمثل أعيان الأقاليم وطبقات التجار والجماعات الوزارية الرسمية . وفى معارضة هذا الحزب عاد إلى الوجود حزب الأحرار بقيادة « تشارلز جيمس فوكس » Chanles James Fox فاصبح يمثل مصالح المنشقين ورجال الصناعة ومن يرغبون فى إقامة انتخابات برلمانية وأحداث اصلاحات اجتماعية . وقد كانت الثورة الفرنسية والحرب التى نشبت بين انجلترا وفرنسا سبباً فى زيادة هذا التقسيم تعقيداً ، فقد انشق على « فوكس» قسم كبير من أتباع حزب الأحرار الأكثر اعتدالا وأصبحوا يؤيدون «بت» . وابتداء من عام ١٨١٥ ساد عهد من الخلط الحزبى وكان من نتيجته تميز اتجاهات « روبرت بيل » Robent Peel « وبنيامين دزرائيلى » Beniamin Disraeli بروح المحافظة على التقاليد واتجاهات « جون راسل » John Russel و و و . ا . — جلادستون » W.E Cladstone بالتحرر والتجديد . وعلى الرغم من أن صفة المحافظين استمرت تطلق على حزب المحافظين فان لفظ « الهويج » أو الأحرار ؛ قد فقد مدلوله السياسى .

من التجار والطبقة الوسطى ، وكان أعضاؤه يخشون المبادىء الملكية التى يدين بها حاكم هولندا ؛ ولذلك عندما حاول « دانبى » أن يجعل انجلترا تقوم بحرب ضد فرنسا اشتد خوف حزب « الهويج » من إتاحة الفرصة لحزب التورى لتكوين جيش قد يستخدمونه فى القضاء عليهم . ولذلك نجحوا فى منع وقوع هذه الحرب .

وكانت المنافسة خطيرة بين الحزبين ، وقد تبين لدانبى وأعوانه من المحافظين اتخاذ الوسائل لإقصاء « الهويج » الأحرار عن الحكم ، ومن أهمها عدم السماح بوقوع انتخابات عامة من شأنها تغيير طابع البرلمان . وكان فى هذا خطأ كبير لأن وجود حزبين فى الحكم ظاهرة صحية يترتب عليها أن يكون هناك حزب معارض خارج الحكم ، فيجعل الحزب الحاكم حريصاً كل الحرص على ألا يخطىء حتى لاينجح الحزب الآخر فى جعله يفقد ثقة البرلمان فيستبعد من الحكم . عمل دانبى على التخلص من أعدائه من أعضاء الحزب المعارض مستخدماً العنف والشدة ، مما أثار زعيم المعارضة « لورد شافتسبرى » ، وزاد الحالة سوءاً ادعاءات «تيتاس واتس» Titus Oats فى خريف ١٦٧٨ عن وجود مؤامرة كاثوليكية مدبرة لحرق مدينة لندن للتمهيد لخلع شارل وتنصيب دوق يورك ملكاً على انجلترا ، وراحت تلك الشائعات بصفة خاصة عندما نشرت بعض الرسائل التى كتبها « كولمن » Coleman السكرتير الخاص لدوق يورك ولى العهد إلى أحد مستشارى لويس الرابع عشر يشير فيها إلى مسألة تحويل انجلترا إلى الكاثوليكية . وظهر الخلاف واضحاً بين حزبى « التورى » و « الهويج » تجاه هذه المؤامرة ، فبينما أصر « الهويج» على حرمان جيمس من العرش كلية ، اكتفى حزب « التورى » بالإبقاء عليه مع تحديد سلطانه .

وظل حزب « التورى » يسيطر على البرلمان بعض الوقت إلى أن استطاع حزب « الهويج » أن يتغلب عليه ويسيطر على البرلمان فى المدة من ١٦٧٩ — ١٦٨١ ، وفى خلالها اتبع أعضاء حزب « الهويج » سياسة غاية فى القسوة والعنف إزاء أعدائهم من أعضاء حزب التورى والبلاط والكاثوليك . وكان الأجدى بالحزبين فى ذلك الظرف أن يصلا إلى حل موحد بالنسبة لما يتخذ من إجراءات إزاء ولى العهد بعد اكتشاف المؤامرة ؛ وظل أعضاء حزب « الهويج » خلال سيطرتهم على البرلمان مصرين على استصدار « قانون الحرمان » ، وكان يقضى باستبعاد دوق يورك وحرمانه من عرش انجلترا لأنه كاثوليكى ، وقد ذهب أعضاء حزب « الهويج » إلى أبعد من ذلك عندما

اعترفوا بدوق « مونموث » وهو ابن غير شرعي لشارل الثانى ووريثاً للعرش بعدشلول الثانى ، وتخطوا بذلك حق مارى زوجة وليم أورانج فى الأراضى المنخفضة وأختها الأميرة « آن » . ولكن هذه المحاولات التى قام بها حزب « الهويج » أثناء سيطرته على البرلمان قد فشلت ، فأدى ذلك إلى ضعف مركزه كما ترتب على أعمال العنف التى اتبعها حزب « الهويج » . وما اقترن بها من انتشار الاعتقاد بأن أزمة ١٦٤١ لن تلبث أن تتكرر ، ترتب على ذلك انضمام عدد كبير من الأحرار من ذوى الآراء المعتدلة تحت زعامة « هاليفاكس » Halifax إلى حزب « التورى » والملكيين ، كما تم الاتفاق بين حزبى التورى والملكيين وكانا يتنافسان منذ عام ١٦٦١ .

وعندما تمت الغلبة لحزب « التورى » عام ١٦٨١ عقب حل برلمان « الهويج » الثالث . اتبع أعضاء حزب « التورى » نفس سياسة العنف والاضطهاد التى اتبعها « الهويج » من قبل . فتشتت شمل حزب « الهويج » ولاسيما عقب وفاة زعيمهم لورد « شافتسبرى » بمنفاه فى هولندا .

لم يلبث الملك أن حكم بمفرده دون الاستعانة بالبرلمان خلال الأعوام الأربعة الأخيرة من حكمه ١٦٨١ — ١٦٨٥ . وصادفت هذه السنوات ازدياد نفوذ لويس الرابع عشر وانتصاراته فى الأراضى المنخفضة الأسبانية مما كلف انجلترا بعد ذلك عشرين عاماً من الحرب لكى تزعزع من سيطرة فرنسا فى القارة الأوروبية .

وعلى الرغم من أن الحزبين « التورى » و « الهويج» قد اتخذا وسائل عنيفة وتعسفية فى سبيل استئثار أحدهما دون الآخر بالحكم ، مما أتاح الفرصة لفرنسا فى عهد لويس الرابع عشر لتحقيق انتصارات عديدة جعلت نفوذها يصل إلى الذروة فى عام ١٦٨٤ ، فإن ظهور الحزبين ومنافستهما الواحد الآخر قد أفاد البرلمان فجعله أداة حكومية ناجحة فى حكم بريطانيا ومستعمراتها خلال القرون التالية واستمر هذان الحزبان يسيطران على سياسة الدولة خلال القرنين التاليين ، ونما خلال نضالهما بشأن « قانون الحرمان » الشعور بالولاء للحزب ، فاستفاد من ذلك ملوك انجلترا فى العهود التالية أى فى عهد كل من جيمس الثانى ووليم وآن . وتمت فى النهاية هزيمة لويس الرابع عشر كما تم الاتحاد مع اسكتلندا عام ١٧٠٧ بفضل سياسة حزب « الهويج » وأتباعه ، كما تمكن حزب « التورى » من عقد صلح « يوترخت » ١٧١٣ .

وظل حزب « الهويج » الذى أسسه « شافتسبرى » طويلا بعد قانون الإصلاح عام ١٨٣٢ حزب الخارجين على الكنيسة الانجليكانية ، وحزب التجار والطبقة الوسطى بصفة عامة . أما حزب « التورى » فظل على ما كان عليه أيام مؤسسة « دانبى » يتكون أساساً من ملاك الأراضى ورجال الدين من الانجليكان ومن يتبعهم ، ومع ذلك فقد كان له أنصار فى بعض الأحيان فى الطبقات الأخرى .

وفى نهاية القرن التاسع عشر طرأ على طبيعة الأحزاب السياسية تغيير فى انجلترا نتيجة للثورة الصناعية وما ترتب عليها من تغييرات اجتماعية واضحة . فلم تعد الفوارق الدينية ذات أثر فى تمييز الأحزاب واختلافها ، وحلت محلها الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية .

جيمس الثانى والثورة البيضاء

(١٦٨٥ — ١٦٨٨)

بدأ جيمس حكمه بدعوة البرلمان ، وكان فى غالبيته يتكون من حزب « التورى » ، ويدين بالولاء للملك ؛ ومع ذلك لم يكن هذا البرلمان على استعداد ليجعل انجلترا وكنيستها تخضع للكنيسة الكاثوليكية .

وواجه جيمس فى أول عهده بثورة دوق « مونمث » Monmouth المدعى على العرش . وكانت هذه الثورة فى الواقع ثورة تزعمها البيوريتان ليعبروا بها عن سخطهم واستيائهم بسبب مالاقوه من اضطهاد وظلم ، وجادوا بأرواحهم أثناء القتال فى هذه الثورة بشجاعة فائقة تدعو إلى الإعجاب ، تحت قيادة « مونمث » وكانوا مدفوعين فى ذلك بفكرة خاطئة ، وهو اعتبار « مونمث » زعيماً لدينهم ومذهبهم . وأخفقت الثورة ، واتخذ منها الملك ذريعة للقيام بأعمال الإرهاب والتعسف والظلم ، كما أن نصائح فرنسا وجماعة الجزويت جعلته يتخذ إجراءات سريعة لتحويل الدولة إلى العقيدة الكاثوليكية . خولت له هذه الثورة أن يبقى جيشاً قائماً مكوناً من ٣٠,٠٠٠ جندى ، اتخذه أداة فيما عزم عليه من حكم مطلق ، ولم يحتفظ به لضمان الأمن كما أعلن ، وإنما اعتمد عليه فى سلوك سياسة التحدى ضد حزب « التورى » ، وحكام الأقاليم ، ورجال الكنيسة الأنجليكانية . وعين ضباطاً من الكاثوليك على فرق جيشه . ولما لم يجد العدد الكافى اللازم منهم فى انجلترا ، استدعى أعداداً وفيرة من فلاحى ايرلندا ممن كانوا يتكلمون اللغة الكلتية ، فأغضب بذلك الشعب الذى كان يعتبرهم غرباء عنه . وكان ما فعله جيمس كافياً ليثير كراهية حزب « التورى » الذى شاهد الجيش مرتين يستخدم كأداة لإخضاعه (أيام كرمويل وأيام جيمس الثانى) .

وكما كانت ثورة « مونمث » Monmouth عاملا مهد لجيمس سلوك طريق غير صائب ، فإنها قد أدت فى النهاية إلى القضاء عليه كما مهدت الطريق أمام وليم أورنج Orange ، إذ قربت بين الأحزاب المختلفة . كان وليم على علاقات طيبة بحزب

« تورى » منذ وزارة « دانبى » Danby (أيام شارل الثانى) ، ثم نتج عن إخفاق ثورة مونمث Monmouth أن فريقاً من « الهويج » والخارجين على الكنيسة الانجليزية قد ركزوا آمالهم على كل من وليم ومارى . وفعلاً فى عام ١٦٨٧ اتحد غالبية الانجليز فى رغبتهم وأملهم فى أن تحل مارى البروتستنتية محل أبيها على العرش .

أما كاثوليك انجلترا فى تلك الأثناء فكانوا فى غالبيتهم يوجدون بأقاليم انجلترا ، مبعدين عن الوظائف الحكومية ، يعيشون فى وئام مع أفراد الشعب الانجليزى . ولم يكن هؤلاء الكاثوليك المبعدون عن الوظائف منذ مؤامرة البارود ١٦٠٥ متحمسين لسياسة جيمس التى اتبعها بناء على تحريض فرنسا وحزب الجزويت . إذ تبين لهم أن ديانتهم لن تسود انجلترا إلا إذا تدخلت قوات أجنبية . كما كانوا يعتقدون بأن محاولة فرض العقيدة الكاثوليكية على انجلترا ستؤدى حتماً إلى حرب أهلية ؛ وهذا ماكانوا يخشونه ، فقيام حرب أهلية ثانية معناه القضاء على البقية الباقية من الكاثوليك كما قضت الأولى على جزء كبير منهم .

وجدوا فى سلوك البابا « انسنت الحادى عشر » Innocent XI وقد امتاز باعتدال آرائه — أكبر مشجع لهم ؛ وكان البابا فى تلك الأثناء فى نزاع مع لويس الرابع عشر ومع الجزويت ، كما كان يخشى ازدياد نفوذ فرنسا فى أوروبا وبالتالى فى إيطاليا ، ولذلك كان راضياً تماماً عن حركة وليم ورغبته فى مساعدة بروتستنت انجلترا لما سيترتب على حركته هذه من خروج انجلترا من تبعية فرنسا . كل ماكان يرمى إليه كاثوليك انجلترا والبابا أن تحصل هذه الطائفة على التسامح الدينى لا السيادة السياسية كما كان يأمل جيمس الثانى ، وكما فعل عندما أحل الكاثوليك محل الأنجليكان فى كافة الوظائف المدنية والعسكرية ، فاستحق غضب الشعب الانجليزى وسخطه . وقد أعلن وليم نيته واستعداده ليمنح كاثوليك انجلترا هذه الحرية .

كان فى استطاعة جيمس أن يحصل من البرلمان على هذا التسامح الدينى للرعايا الكاثوليك فى انجلترا ؛ ومع هذا فلم يكن فى ذلك حل للموقف يمكن بواسطته تفادى ثورة ١٦٨٨ ، وذلك لأن كلا من حزب « التورى » ووليم لم يكن مستعداً للموافقة على أن يصبح ضباط الجيش من الكاثوليك الايرلنديين أى من الأجانب وأن يملأوا وظائف الحكومة والمجلس الخاص ووظائف إدارة أوقاف كنيسة انجلترا نفسها . على الرغم من هذا الاتجاه الواضح فى الشعب الانجليزى كانت هذه هى السياسة التى اتبعها

جيمس طيلة السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه ، مستنداً فى ذلك إلى أعمال العنف والوسائل غير الشرعية . كل هذا التحقيق غرض واحد ألا وهو قلب نظام انجلترا الدينى .

إلغاء مرسوم نانت Nantes وأثره الاقتصادى والسياسى فى انجلترا :

فى تلك الأثناء التى كان فيها لويس ١٤ يحرض جيمس الثانى على اتخاذ كل الإجراءات الممكنة لتدعيم الكاثوليكية فى انجلترا ، كان يضطهد هيجونوت فرنسا . فألغى مرسوم « نانت » ١٦٨٥ واتبع أقسى وسائل الاضطهاد إزاءهم .

بلغت قسوة الإجراءات الفرنسية فى اضطهاد الهيجونوت أنهم حرموا من حق مبارحة فرنسا ، وأن انتزع من الأسرة أبناؤها ورجالها وكأنهم جميعاً من رقيق الدولة. فأرغم الرجال على العمل فى السفن والنساء والأطفال على تلقى مبادىء عقيدة دينية لايرغبون فى اعتناقها . ولكن استطاع بعض مئات الآلاف من البروتستنت خلال سنوات عديدة أن يهربوا من فرنسا ، وأن يهجروها إلى انجلترا وبروسيا وهولندا . وكانت نسبة كبيرة بينهم من التجار والصناع المهرة ، حملوا معهم إلى البلاد التى استوطنوها كثيرا من الطرق الصناعية المتقدمة المفيدة وكثيرا من وسائل النجاح فى التجارة . وقد خففت من وطأة اعتبارهم منافسين للسكان الأصليين فى الدول التى هاجروا إليها أنهم كانوا قوماً مسالمين دفعهم مجرد الاضطهاد فى بلادهم الأصلية إلى الرحيل عنها . ولا يجب أن نستهين بالنتائج التى ترتبت على هجرة هؤلاء البروتستنت فقدكان نزوح الآلاف من هؤلاء العمال والتجار المهرة من فرنسا إلى انجلترا عاملا له أهميته فى انتزاع انجلترا للمشروعات التجارية والصناعية من فرنسا ، بينما قضى نتيجة لذلك على كثير من الصناعات التى قامت على أكتافهم فى فرنسا ، ونتج عن ذلك استحداث صناعات عديدة فى انجلترا .

أما من الناحية السياسية :

فقد كان لإلغاء مرسوم « نانت » آثاره العظيمة ؛ إذ مهد أذهان الانجليز ومشاعرهم لثورة ١٦٨٨ وللحروب الطويلة التى تلتها ضد فرنسا ، فقد زاد ذلك فى بغض الانجليز للبابوية ، رغماً عن الحقيقة التالية وهى أنه عندما انقسمت دول أوروبا بين مناصر ومعاد لسياسة لويس ١٤ ، كان البابا فى صف الدولة التى كانت تضمر له كل بغض

وعداء ؛ ولذلك كان الانجليز يخشون أن يتبع مثل هذا الاضطهاد إزاء بروتستنت انجلترا إذا تم لجيمس الثانى تحقيق مشاريعه الخاصة بقلب كنيسة انجلترا إلى العقيدة الكاثوليكية . اتحد جميع بروتستنت انجلترا على اختلاف مذاهبهم ناسين كل أسباب خلافاتهم ليقفوا أمام الملك المتعصب ، صديق فرنسا التى اضطهدت البروتستنت فيها ، وشردتهم شر تشريد ، وأمام سلطته المطلقة التى لا حدود لها ، بما اتخذه لنفسه من حق فى تعديل القوانين . وكان فى ذلك انتصار لمبادىء حزب « الهويج » الذى كان يدين بسياسة التسامح على حين وجد أعضاء حزب « التورى » الذى كان يقوم على أساس عدم مقاومة سلطة الملك ، وجدوا أنفسهم مخيرين بين أمرين : إما النزول عن آرائهم السياسية والاشتراك مع « الهويج » فى هذه الحركة ، أو عدم بذل أى مجهود لوقف طغيان هذا الملك المستبد ، وهم يرونه يحاول القضاء على عقيدتهم الانجليكانية ، وقد أصبح حاكماً مستبداً بفضل مبادئهم وولائهم له .

فى الواقع أن سياسة جيمس الثانى الكاثوليكية وإجراءاته التعسفية فى سبيل فرضها على انجلترا قد جعلت مركز حزب « التورى » غاية فى الضعف ، بل وطعنته فى الصميم ليس من الناحيتين العملية والروحية فحسب بل من الناحيتين المادية والسياسية كذلك ؛ ذلك لأنه بينما كان حزب « التورى » فى عام ١٦٨٥ — أى عند اعتلاء جيمس الثانى عرش انجلترا — هو القابض على زمام الأمور فى مجلس الدولة الخاص ، وفى مجالس الإدارة البلدية والقروية ، وبينما كان أعضاؤه يشغلون مناصب الحكم فى الأقاليم ، إذا بأعضائه بعد مضى ثلاث سنوات على هذا التاريخ أى قبيل وقوع الثورة مستبعدون هم وكبار رجال الكنيسة من سائر هذه الوظائف الكبرى المركزية منها والمحلية ، وعلى الرغم من كل ذلك لم يحرك أعضاء هذا الحزب ساكناً ، فلم ينضموا إلى حزب « الهويج » إلا بعد أن رزق جيمس الثانى من زوجته الثانية الكاثوليكية ولداً يرث من بعده الحكم ، ويحول دون وصول مارى ومن بعدها آن(١) البروتستنتيين إلى العرش .

لم يلبث جيمس الثانى أن سلك سياسة عدائية ضد رجال الكنيسة الانجليكانية فى عام ١٦٨٧ ، عندما اعتدى على حقوقها : فحول إحدى كليات اكسفورد إلى كلية للعقيدة الكاثوليكية ؛ وكان لهذا العمل التعسفى آثاره فى إثارة الرأى العام فى اكسفورد

(١) كان الرجل الذى قادهم إلى هذا التغيير هو الذى أسس هذا الحزب وهو « دانبى » Danby . وكان أحد الثلاثة الذين وقعوا الدعوة إلى « وليم أورنج » بالإضافة إلى أربعة من حزب « الهويج » .

وإثارة رأى كل من يستمد وحيه وآراءه منها . كان لهذه السياسة الخرقاء أثرها فى تحويل أكسفورد من مكان يدافع عن حق الملك المقدس ، ويأمر بعدم الوقوف فى سبيله إلى مكان يشع بالثورة ، ويحبذ قدوم وليم إلى انجلترا لإنقاذها .

ثم لم يلبث جيمس الثانى أن طلب من أساقفة الكنيسة الانجليكانية فى انجلترا أن يعلنوا من أعلى منابرهم فى سائر أنحاء الدولة مرسوم التسامح الدينى ؛ وكان يقضى بإلغاء كافة التشريعات التى سنت ضد الكاثوليك وغيرهم من الطوائف المخالفة للكنيسة الأنجليكانية ، وبالسماح لهم بالتمتع بالوظائف المدنية والحربية فى الدولة . ولما كان هذا المرسوم غير قانونى إذ لم يقره البرلمان بعد أصبح من الواضح أن الملك قصد من وراء هذا الأمر تحقير شأن رجال الدين والحط من مكانتهم . لذلك لا نعجب إذا كان سبعة من هؤلاء الأساقفة وكان على رأسهم « سنكروفت » Sancroft رئيس أساقفة « كنتربرى » قد امتنعوا عن تلبية هذا الأمر ، وكتبوا إلى الملك يلتمسون منه إعفاءهم من تنفيذ هذا الأمر ؛ فأمر الملك بمحاكمتهم ، ثم تمت براءتهم على يد هيئة الجورى المحلية وأطلق سراحهم وسط حماسة الشعب الانجليزى (فى ٣٠ يونية ١٦٨٨) .

وفى نفس الليلة من صيف ١٦٨٨ وقع سبعة من زعماء حزب « الهويج » « والتورى » دعوة إلى وليم أورنج ليجىء إلى انجلترا .

ثورة ١٦٨٨ :

وقامت فى سبيل هذه الدعوة عدة عقبات . وكان وليم شديد الرغبة فى الوصول إلى انجلترا ليتمكن من قيادة حركة مقاومة التوسع الفرنسى على يد لويس الرابع عشر ، وكانت انجلترا نفسها فى مسيس الحاجة إلى جهوده لإيقاف حركات الاضطهاد الدينى ، والحد من سلطات الاستبداد التى كان يمارسها جيمس الثانى . واتضح لوليم أنه إذا لم يصل إلى عرش انجلترا فإنه لن يستطيع أن يسيطر على الموقف الأوروبى ضد لويس الرابع عشر .

ووقفت فى سبيل وليم عقبات دون ماكان يريد ويريد له الشعب الانجليزى ، فهناك خطر حرب محتملة قد تقوم بها فرنسا ، وكانت هذه نية من نيات لويس الرابع عشر التى طوى صدره عليها أيام الحروب السابقة . ومن عجيب الأمر أن يقوم جيمس الثانى بإزالة هذه العقبات عن طريق وليم ، فيحجم عن معاونة لويس الرابع عشر ،

وكان هو نفسه فى أشد الحاجة إلى مساعدة ملك فرنسا . وهنا استطاع وليم أن يستعين فى الوصول إلى هدفه باستخدام قوى هولندا البرية والبحرية للنزول فى ميناء « توربای» فى ٥ نوفبر ١٦٨٨ ، ثم بلغ لندن دون أن يلقى مقاومة . وقد أعلن رغبته فى تكوين برلمان حر يعهد إليه بتسوية كل المنازعات . أما جيمس الثانى ففر نظراً للانقسامات العديدة التى نشأت فيه بسبب طبيعة تكوينه من كاثوليك وبروتستنت وانجليز وإيرلنديين ؛ وكان وليم بطبعه عزوفاً عن إراقة الدماء . ولم يكد يعلن رغبته فى إقامة برلمان حر حتى أقبل الشعب عليه والتف من حوله . فهذا « دانبى » المقبل من الشمال على رأس الشماليين يؤيد وليم ، وهذا الزعيم التورى الآخر « سيمور » يقبل على رأس أهالى « ويسكس » ، فيضمهم بدوره إلى معسكر وليم ، وهذا « ديفينشير » من زعماء الهويج » يتقدم لتنظيم الأمور فى وسط انجلترا ، وقامت جماهير لندن تؤيد وليم دون زعيم يقودها . وفى خلال ذلك انتهز جيمس الثانى الفرصة ففر بحياته وأسرته إلى فرنسا فى ديسمبر ١٦٨٨ ، ملتمساً أن يعد العدة للمقاومة .

ويطلق الانجليز على ثورة ١٦٨٨ « الثورة العظمى » و « الثورة المجيدة » و « الثورة البيضاء » والواقع أنها تستحق كل ذلك : فهى بيضاء ، لأنها وقعت دون إراقة دماء ، ومجيدة وعظيمة لأنها تمخضت عن « قانون الحقوق » ١٦٨٩ ، الذى دعم نظام الحكم الملكى الدستورى ونظام العقيدة الانجليكانية ، وما إلى ذلك من مزايا عديدة . وأثبت اتفاق عام ١٦٨٩ بين الملك والبرلمان أنه يتضمن نظاماً وطيد الأركان سليم القواعد ؛ ولم يكن هذا الاتفاق الجديد عاملا عظيماً فى منح الانجليز حرية تفوق تلك التى حصلوا عليها من قبل ، ولكن كان فيه تجديد لحيوية الهيئة السياسية والحكومية للدولة وسلامة تصرفاتها ، كما أحل هذا الاتفاق الجديد التعاون بين الملك والبرلمان محل التشاحن والتنافس على أساس غلبة البرلمان . كذلك استطاعت انجلترا بفضل هذا الاتفاق أن تجتاز المحنة التى واجهتها بسبب أطماع لويس الرابع المتزايدة بسلام ، بل استطاعت كذلك بفضل هذا الاستقرار أن تحتل مركز الزعامة فى السياسة الأوروبية بفضل جهود « ملبرا » Malborough و « والبول » Waipole و « شاتام » Chatham ، فتتزعم أوروبا بجيوشها ومستعمراتها وتجارتها . كما تميزت انجلترا بحريتها فى مجال السياسة والدين واشتهرت بنهضتها الثقافية .

ويرجع الفضل فى ذلك كله إلى « إعلان الحقوق » الذى أعده البرلمان ، ووقع

عليه كل من مارى ووليم فى ١٦٨٩ . وبذلك تلافى البرلمان الخطأ الذى وقع فيه من قبل فى عام ١٦٦٠ عندما استدعى شارل الثانى ليحكم انجلترا . وكانت هذه الوثيقة بمثابة عهد بين الملك والبرلمان . وقد تضمنت القواعد التى يتحتم على الملك أن يسير بمقتضاها ولا يخل بشروطها كما فعل جيمس الثانى من قبل .

وأوضحت هذه الوثيقة سلطة الملك التشريعية : فبينت أنه لا يملك حق إيقاف تنفيذ القوانين أو تعديلها أو العمل على تنفيذها دون موافقة البرلمان . كما تضمنت بنداً من أهم بنود العهد الأعظم ، ذلك الذى ينص على عدم قانونية أى ضريبة أو قرض يفرضه الملك دون موافقة البرلمان . كما نصت كذلك على الالتجاء إلى الإكثار من دعوة البرلمان لمعالجة أمثال هذه المشاكل . وللمحافظة على القوانين وعلى تنفيذها وتصحيحها . كلما دعا الأمر . واشترطت حرية إبداء الرأى والمناقشة فى المجلسين. كما وضحت أن تكوين جيش أو الاحتفاظ بجيش قائم لا يتم إلا بعد موافقة البرلمان .

ووضحت هذه الوثيقة ترتيب الوراثة لعرش انجلترا ؛ فنصت على أن تكون لمارى ووليم معاً . وعند موت أحدهما يكون الملك للثانى ، ثم يخلفهما أولادهما ، وإذا مات دون خلف فإن « آن » تصبح صاحبة الحق فى العرش . ويشترط أن يكون الملك بروتستنتيا أنجليكانياً ؛ أما إذا أعلن الكاثوليكية أو تزوج بكاثوليكية فيسقط حقه فى العرش .

وقد أطلق على هذه الوثيقة فيما بعد « قانون الحقوق » وفى الواقع لم تأت هذه الوثيقة بجديد ، ولكنها دعمت حقوق الشعب الانجليزى ممثلا فى أعضاء برلمانه بما أكدته من قدم هذه الحقوق ، وما أشارت إليه بما قام به جيمس الثانى فى سبيل انتهاك حرمتها مما دعا الشعب إلى الثورة ، ومنحت الفرد حق التقدم بملتمس للملك فى غير خوف ولا حرج . وهنا احتاط الشعب لما قد يحدث مماثلا لما وقع للأساقفة السبعة الذين التمسوا من الملك إعفاءهم من إعلان قانون التسامح فحاكمهم على ذلك .

الباب الثالث

القرن الثامن عشر فى أوروبا

القرن الثامن عشر فى أوروبا

على الرغم من أحداث هذا القرن ليست من الأحداث البارزة المشهورة فى تاريخ أوروبا كشهرة القرن السادس عشر مثلا أو التاسع عشر ، فإن لهذه الأحداث أهميتها العظمى من نواح متعددة من أهمها :

أولا — أنها كانت مرحلة حاسمة فيما يتعلق بالمنافسة الاستعمارية التى بدأت منذ اكتشاف العالم الجديد أى الأمريكتين فى خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وقد اشتدت المنافسة الاستعمارية خلال القرن الثامن عشر. وكان دورها الختامى يومئذ بين الدول الثلاث : انجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا . واستطاعت انجلترا فى بداية النصف الثانى من القرن الثامن عشر (عام ١٧٦٣) بمقتضى معاهدة باريس أن تتغلب على منافستيها فرنسا وأسبانيا ، فأصبحت لها الغلبة فى العالم الجديد عندما طردت فرنسا من كندا ، وآلت كندا إلى انجلترا علاوة على المستعمرات الانجليزية الأصلية التى كانت تمتد على طول الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية جنوبى حوض نهر سنت لورنس ؛ لذلك اعتبرت معاهدة باريس فى عام ١٧٦٣ معاهدة خاسرة بالنسبة لفرنسا .

ثانيا — لهذا القرن أهمية أخرى ، وتتعلق بظهور نوع جديد من الملكيات يعرف بالملكية المستبدة التى أصبحت توصف بالمستنيرة كذلك ، لأن حكامها كانوا متشبعين بعهد الاستنارة من حيث أنهم أصبحوا على الرغم من استبدادهم بالحكم يعملون على رعاية مصالح شعوبهم ونهضة بلادهم . ومن أمثلة ذلك فردريك الثانى أو العظيم ملك بروسيا وهو من أسرة «الهوهنزلرن» Hohenzollern ثم بطرس الأكبر قيصر الروسيا .

والتاريخ يحفظ الدور العظيم الذى قام به ذلك العاهل الروسى فى سبيل نهضة بلاده والعمل على صبغها بالصبغة الأوروبية . ومن هؤلاء كذلك شارل الثالث ملك

أسبانيا ويمكننا أن نضم إلى هؤلاء الإمبراطور جوزيف الثانى صاحب الامبراطورية الرومانية المقدسة .

ثالثا — إلى جانب هذه المميزات نلاحظ كذلك أن ذلك القرن كان معروفاً بظهور الآراء الحرة ، تلك التى نادى بها طائفة من المفكرين فى انجلترا وألمانيا وفرنسا . فكان ذلك القرن عهداً زاخراً بالآراء الإنسانية المستنيرة التى نادى بها كتاب وشعراء وفلاسفة أوروبا يومئذ ، مثل « جوته » و « شيلر » و « هيردر » و « فيلاند » فى ألمانيا ، وأولئك المفكرون الذين قادوا حركة الثورة الفرنسية بما نادوا به من مبادىء ثورية مثل « فولتير » و « منتسكو » و « جان جاك روسو » .

رابعا — من مميزات هذا القرن كذلك أن انجلترا قد مرت خلاله بتجربةدستورية جديدة كان لها أثرها فى انتظام أحوالها الداخلية وفى ازدهار شئونها فى العالم الخارجى ، فقد أدى اعتلاء أسرة هانوفر عرش انجلترا عند مطلع القرن الثامن عشر سنة ١٧١٤ إلى تكوين ما يعرف بمجلس الوزراء كما ظهرت وظيفة رئيس الوزراء ولم تكن معروفة من قبل ، ذلك لأن مؤسس أسرة هانوفر فى انجلترا كان ألمانياً لايعرف اللغة الانجليزية ، فلم يكن فى استطاعته أن يدير دفة الأمور فى انجلترا ، مما نقل السلطة التنفيذية من يد الملك ومستشاريه إلى يد مجلس الوزراء ورئيسه ، كما نشأت المسئولية الوزارية الفردية ثم الجماعية ، فكان فى ذلك ضمان لحسن سير الأمور وانتظامها فى انجلترا .

خامسا — أصبحت انجلترا كذلك فى نهاية ذلك القرن مصنع العالم ، وذلك على أثر قيام الثورة الصناعية فى انجلترا ، وهكذا سبقت انجلترا بما يربو على نصف قرن سائر بلاد أوروبا باتخاذها طابع الدولة الحديثة ذات المستوى العالى فى الصناعة . ولم تلبث أن انتقلت الثورة الصناعية إلى جهات أخرى من أوروبا بل والعالم الجديد ، فكان لها آثارها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على انجلترا وسائر الدول التى تأثرت بها .

سادسا — ومن مميزاته كذلك ظهور الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٧٨٣ فى صورتها الأولى البسيطة عندما كانت تتكون من ثلاث عشرة ولاية ، وكانت فى الأصل المستعمرات البريطانية على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . فقد شهد ذلك القرن ثورة فى المستعمرات على البلد الأم انجلترا . وكان لهذه الثورة أثرها العميق فى استقلال هذا الجزء بصفة نهائية سنة ١٧٨٣ فكانت نواة للولايات المتحدة الأمريكية الحالية .

سابعا — من مميزات هذا القرن كذلك أنه على الرغم من المحاولات العديدة التى بذلت فى سبيل إقرار السلام وسيادته فى أوروبا خلاله فإن مصالح الدول المختلفة وأطماعها فى التوسع قد جعلت من الصعب تحقيق ذلك السلام فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وإن كانت قد نجحت إلى حد ما فى بسط هذا السلام لعهد غير طويل عند مطلع ذلك القرن ، لذلك لم يبالغ المؤرخون حين وسموا هذا القرن بالحرب فأسموه حرب المائة عام .

أهم أحداث القرن الثامن عشر :

تبدأ هذه الأحداث « بمعاهدة يوترخت » Utrecht ١٧١٣ . وتيسيراً لدراسته يستحسن أن نقسمه إلى المراحل التالية :

أولا — المرحلة الأولى من ١٧١٣ — ١٧٢٠ :

وفيها بذلت محاولات للمحافظة على السلام فى أوروبا ونجحت إلى حد بعيد على الرغم من أطماع أسبانيا واستياء الامبراطور من شروط معاهدة « يوترخت » .

ثانيا — المرحلة الثانية وتبدأ من ١٧٢١ — ١٧٣٢ :

أى مدة أحد عشر عاماً ، المدى الذى يقابل السنوات الأخيرة من حكم جورج الأول مؤسس أسرة هانوفر فى انجلترا ، والسنوات الأولى من عهد جورج الثانى ، وأهم من ذلك أنها تقابل العهد الذى قاد فيه « روبرت والبول » سياسة انجلترا فكان يدير دفة الأمور فيها ويوجه السياسة الأوروبية فى آن معاً ، واستمر فى منصبه الذى كان يقابل منصب رئيس الوزراء ، وإن لم يكن قد اعترف بتلك التسمية بعد من ١٧٢١ إلى ١٧٤٢ ، وكان هذا الوزير معروفاً بميوله السلمية ؛ ولذلك اتفق فى اتجاهاته ومشاربه ومشاريعه للسلام مع رئيس وزراء فرنسا يومئذ وهو الكاردينال « فلبرى » Fleuty الذى سيطر على السياسة الفرنسية بين عامى ١٧٢٦ — ١٧٤٣ .

ثالثاً — المرحلة الثالثة وتبدأ من ١٧٣٣ — ١٧٣٩ :

وهو العهد المعروف بعهد حرب الوراثة البولندية . وكان عرش بولندا يومئذ متنازعاً عليه . فاشتركت فرنسا فى الحرب على الرغم من المحاولات الكبيرة التى

بلدها « فلبرى » ليجنب فرنسا خوض هذه الحرب . ولسوف نتبين الأسباب التى جعلت لويس الخامس عشر يصر على الاشتراك فيها . ومن ذلك حرصه على مساعدة حميه « ستانسلاس » على بلوغ العرش . وكان الأخير ملكاً على بولندا ثم خلع عن هذا العرش . وعندما مات أغسطس ملك بولندا وصاحب سكسونيا فى بداية عام ١٧٣٢ انتخب ستانسلاس مرة أخرى ملكاً على بولندا . ولما كان هذا الانتخاب يتعارض مع رغبة كل من روسيا والامبراطورية فقد وقعت الحرب بين الطرفين ، ففرنسا تؤيد « ستانسلاس » وروسيا تؤيد اعتلاء ابن أغسطس صاحب سكسونيا عرش بولندا .

رابعا — المرحلة الرابعة :

وهى عهد حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ١٧٤٨) مسبوقة بما يعرف بحرب « جنكيز إير » ١٧٣٩ .

خامسا — المرحلة الخامسة :

وهى عهد حرب السنوات السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣) .

سادسا — المرحلة السادسة :

وهى عهد حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٤ — ١٧٨٣) .

الفصل الأول

استعراض أحداث المرحلة الأولى

١٧١٣ — ١٧٢٠

تبدأ أحداث العهد الأول بمعاهدة بوترخت التى أنهت حرب الوراثة الأسبانية فقد كان عرش أسبانيا متنازعاً عليه بين قوى مختلفة من أوروبا ، وعلى رأسها فرنسا والامبراطورية ، وانتهى هذا النزاع بنجاح لويس الرابع عشر فى تنصيب حفيده دوق أنجو ملكاً على أسبانيا باسم فيليب الخامس . واشترط عندئذ أن يتعهد فيليب الخامس بعدم الجمع بين التاجين ، التاج الفرنسى والتاج الأسبانى ؛ ولهذه المعاهدة من أجل ذلك أهمية خاصة من حيث أنها جعلت مقراً ثانياً لحكم أسرة البوربون فى أسبانيا . ومن شأن هذا الكسب الذى تحقق لأسرة البوربون أنه عوضها عن خسارتها البسيطة حين اضطرت إلى التنازل عن بعض المواقع المتاخمة لبلاد « الفلاندر » جنوبى الأراضى المنخفضة ، وعزاها عن الشعور بالمذلة حين تعهدت بتحطيم استحكامات « مارديك» Mardik على مقربة من «دنكرك» ؛ على أن كلا من الأمير المنتخب لبافاريا وكولونيا ، وهما حليفا فرنسا فى الحرب قد استردا كافة الأملاك التى فقداها أثناء حرب الوراثة الأسبانية ، ولكن فرنسا فقدت بعض المواقع الهامة فى العالم الجديد ، فاضطرت إلى التنازل لانجلترا عن « نوفاسكوشيا » (شبه جزيرة أكاديا) على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، كما تنازلت عن جزيرة « نيوفوندلاند » وعن المنطقة حول خليج « هدسن » .

أما أسبانيا التى أصبحت من نصيب فيليب الخامس فقد فقدت بعض الأملاك التى كانت تابعة لها ؛ فى إيطاليا مثلا فقدت ميلان ونابولى وسردينيا التى آلت جميعاً إلى الامبراطور ، كما تنازلت له عن الأراضى المنخفضة الجنوبية ؛ وذلك كله على سبيل التعويض عن فقدانه للعرش الأسبانى . ولم تقتصر خسائر أسبانيا على هذا القدر ،

وإنما اضطرت إلى التنازل عن صخرة جبل طارق وجزيرة مينورقة لانجلترا ، فكانت هذه خسارة فادحة بالنسبة لأسبانيا ؛ لأن صخرة جبل طارق هي جزء لايتجزأ من أسبانيا نفسها ، وظلت هذه المسألة حجر عثرة فى إقامة أى تفاهم بين انجلترا وأسبانيا ، كما كانت عاملا هاماً فى ازدياد توثيق الصلة والتقارب بين كل من انجلترا والبرتغال. فالبرتغال دولة صغيرة تتاخم فى حدودها أسبانيا العظيمة ، فهى لذلك فى حاجة ماسة إلى حليف قوى يرد عنها عدوان جارتها القوية ، وقد ظلت البرتغال محتفظة باستقلالها على الرغم من خطورة ذلك الجوار فيما عدا المدة الواقعة بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٤٠. ومن هنا تظهر أهمية معاهدات الصداقة التى وقعت بين انجلترا والبرتغال فى عهد « أوليفر كرمويل » أولا عام ١٦٥٤ : ثم معاهدة «مثوين» سنة ١٧٠٣(١) . وكان لهذه المعاهدة الأخيرة أثرها العظيم فى نجاح انجلترا فى حربها ضد فرنسا أثناء أحداث حرب الوراثة الأسبانية . فلو لا ما تم من اتفاق بين انجلترا والبرتغال من السماح للسفن البريطانية بالتوقف عند لشبونة العاصمة المطلة على المحيط الأطلسى لما كان فى استطاعة الأسطول الانجليزى أن يصل إلى شواطىء فرنسا الجنوبية ، ويحاربها بنجاح نظراً لبعد المسافة بين سواحل انجلترا وبين هذا الموقع . ولم يكن ذلك هو المكسب الوحيد الذى فازت به انجلترا ، بل إنها استطاعت أن تعقد مع أسبانيا معاهدة هامة فى سنة ١٧١٥ وهى معاهدة « الأسينتو » Assiento . ولهذه المعاهدة أهميتها العظمى من حيث اتاحة الفرص لانجلترا للاتجار مع أسبانيا ومستعمراتها ومنحها امتيازات عديدة فى هذا المجال ، مما كان يضر كل الضرر بمصالح أسبانيا . أما صقلية وهى كذلك من الأملاك التابعة لأسبانيا فقد آلت بمقتضى معاهدة « يوترخت » إلى دوق سافوى الذى أصبح يلقب باسم ملك سافوى . ومن هذه الشروط يتبين لنا أن انجلترا قد فازت بنصيب الأسد ، فحصلت على مواقع هامة فى المستعمرات الفرنسية فى كندا ، مما يسهل عليها أمر الانتصار بصفة نهائية على فرنسا فى هذه المستعمرة ، كما أنها استطاعت أن تحقق آمال أوليفر كرمويل عندما جاب بأسطوله البحر المتوسط ، ورفع العلم البريطانى على مواقع شتى من سواحل هذا البحر ، وبدأ من ثم استيلاء انجلترا على أول مركز لها فى حوض البحر المتوسط ، وهو موقع هام لأنه عند مدخل حوض البحر المتوسط الغربى .

كانت أسبانيا الدولة الخاسرة ، إذ فقدت كثيراً من أملاكها التى وزعت بين

---

١) انظر صفحات : ٢٠٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

انجلترا والامبراطور وسافوى . فلا عجب إذن ألا ترضى أسبانيا عن هذا الصلح وصممت على نقضه طمعاً فى تعديل شروطه ، وساعدها فى موقفها هذا أن « اليزابث فرنيز » Elizaleth Farnese زوج فيليب الخامس ومستشارها الأعظم « ألبيرونى» Alberoni كانا إيطاليين ، فحاولا أن يستردا كل ما آل إلى الامبراطور من أملاك أسبانيا فى إيطاليا . والعجيب أن الامبراطور الذى كسب كثيراً من وراء هذا الصلح ، لم يكن راضياً عنه أول الأمر ، إذ كان يعتقد أن ابنه أحق بعرش أسبانيا من حفيد لويس الرابع عشر ، كما لم يرضه أن يحظى بجزيرة سردينيا بدلا من جزيرة صقلية ، ذلك لأن هذه الأخيرة تجاور « نابولى » وقد آلت إلى دوق سافوى بمقتضى صلح « يوترخت » .

أما انجلترا وفرنسا — وكانتا على بينة من عوامل السخط وعدم الرضا عن هذا الصلح بالنسبة لأسبانيا والامبراطور — فكانتا تهدفان إلى إقرار الأمور فى أوروبا . وهنا تلاقت الدولتان ، ولم يكن مبعث ذلك الصداقة أو الود بينهما ، وإنما كانت المصالح الخاصة لكل منها ، وتريان فى ذلك المحافظة على السلام ؛ فقد كان ملك فرنسا بعد لويس الرابع عشر طفلا صغيراً ، فعين دوق أورليان وصياً عليه ، وكان هذا على علم بنوايا فيليب الخامس وأطماعه فى العرش الفرنسى . فعلى الرغم مما نصت عليه معاهدة يوترخت بعدم الجمع بين التاجين ، كان فيليب الخامس لم يوافق على إقرار ذلك . ولا عجب فى أن دوق أورليان كان يخشى اعتداء أسبانيا على فرنسا بغرض الجمع بين التاجين . ثم إن معاهدة « وستمنستر » Westminster التى عقدت عام ١٧١٦ بين انجلترا والامبراطور قد جعلت دوق أورليان يتوجس خيفة من عواقب هذا الاتجاه الذى ذكره بتلك الأحلاف الدولية التى عمدت من قبل للحد من سيطرة لويس الرابع عشر فى أوروبا . وساعد أورليان فى سياسة التحالف مع انجلترا موقفه غير المؤيد لحزب اليعاقبة فى فرنسا ؛ إذ كان غير راض عن خلق المدعى على عرش انجلترا .

أرادت فرنسا أن تخرج من عزلتها لكى تؤمن عرشها للويس الخامس عشر . وكان دوق أورليان يستعين بشخصية قوية ذكية هى شخصية رجل من رجال الدين يدعى « الأبية ديبوا » Abbè Dubois ، وكان هذا الأخير يرى أن أمر الجمع بين انجلترا وفرنسا ميسور ، فلم تكن انجلترا بأقل رغبة من فرنسا فى الاجتماع على

اتفاق . كانت انجلترا هي الأخرى في حاجة إلى التقرب من فرنسا وعقد معاهدة صداقة معها لأن المقر الأصلي للأسرة الحاكمة فيها يومئذ وهو إمارة « هانوفر » أصبح مهدداً من جانب الروسيا التي استطاعت أن تتفوق على السويد . وكانت الأخيرة وعاهلها شارل الثاني عشر قبل ذلك هي الدولة المتفوقة على دول شرق أوروبا ووسطها .

ترتب على هذا التفوق الروسي الجديد أن الروسيا استطاعت الحصول على مناطق نفوذ على ساحل بحر البلطيق فوصلت حتى حدود « مكلنبرج » **Mecklenberg** وهي على مقربة من هانوفر . كانت انجلترا كذلك في حاجة إلى تثبيت دعائم حكم الأسرة الحاكمة بها ، وكان يومئذ مهدداً لأن من يدعي حق اعتلاء عرش انجلترا من أسرة استيوارت **Pretender** كان يبذل غاية الجهد في الوصول إليه . وكان هذا المدعي موجوداً في فرنسا ؛ فخشيت انجلترا أثره مما حملها على التحالف مع فرنسا ؛ وظل عرش هانوفر واقعاً تحت التهديد بسبب الجهود التي كان يبذلها أفراد أسرة استيوارت وأعوانهم للوصول إلى العرش حتى منتصف القرن الثامن عشر . وفي ١٧٤٨ فشلت آخر محاولة للمدعي أحقية اعتلاء عرش انجلترا « جيمس الثالث » .

التحالف الثلاثي عام ١٧١٧ : ورأى « ديبوا » في مخاوف جورج الأول من تهديد الروس لهانوفر وتهديد المدعي حق اعتلاء عرشه فرصة ذهبية ليستغلها عندما طلب ملك انجلترا من وزيره « ستانهوب » **Stanhope** عقد معاهدة مع فرنسا . ونجحت المفاوضات في عقد محالفة ثلاثية في ٤ يناير ١٧١٧ بين انجلترا وفرنسا وهولندا . وكانت ظروف هولندا السياسية تستدعي انضمامها إلى هذا الحلف إذ كانت دولة جديدة ناشئة ، لم يتحدد وضعها السياسي ويتم استقلالها رسمياً إلا في صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ . فكان وضعها يقتضيها أن تتفرغ إلى تقوية اتحاد الولايات السبع الذي نشأت عنه ، كما أنها كانت تعاني من قلة عدد السكان ؛ فلم يكن يزيد على مليونين ونصف مليون مما كان يعجزها عن مد امبراطوريتها بالرجال اللازمين للقيام بأعبائها ، ثم إنها كانت لاتزال تعاني من نتائج ما نزل بها من أضرار بليغة بسبب محاولات لويس الرابع عشر السيطرة عليها . فكانت بذلك كله في حاجة ماسة إلى سيادة السلام في أوروبا . تكون إذن التحالف الثلاثي ١٧١٧ للمحافظة على السلام والعلاقات القائمة بين دول أوروبا على أساس معاهدة « يوترخت » . ولكن الموقف كما ذكرنا كان

غاية فى التوتر فقد كان على هذه الدول أن ترقب عن كثب العلاقة بين الامبراطور وأسبانيا .

أسبانيا تهدد السلام الأوروبى :

وفى أغسطس ١٧١٧ ، نجح الأسطول الأسبانى فى الاستيلاء على جزيرة سردينيا وبذلك حرم الامبراطور من تحقيق رغبته فى استبدالها بصقلية ، كما كان فى ذلك تهديد للحلف الثلاثى فى حوض البحر المتوسط . وهنا طالب الامبراطور انجلترا أن تبادر بمساعدته فى استرداد سردينيا . واعتذرت انجلترا بسبب عدم استعدادها . وحاول « ألبيرونى » عندئذ أن يضم إلى جنبه الوصى على عرش فرنسا « دوق أورليان » محاولاً فصم عرى الاتحاد بينه وبين انجلترا ، ولكنه لم ينجح . ولم يلبث الامبراطور وسط هذه الظروف أن تغاضى عن عدائه إزاء التحالف الثلاثى ، وانضم إليه فأصبح التحالف بذلك رباعياً فى عام ١٧١٨ . وكان لذلك نتائجه السريعة . على أن « البيرونى » أرسل حملة ثانية من برشلونه لغزو صقلية . ولسوء حظه أن الأوامر كانت قد صدرت إلى الأسطول الانجليزى ليحول دون غزو أسبانيا إياها . ولذلك على الرغم من نزول القوات الأسبانية فى « بالرمو » Palermo ، فإن انتصار الأسبانيين لم يلبث أن تحول إلى هزيمة ساحقة فى موقعة « كيب بسارو » Cape Passaro فى ١٨ أغسطس ١٧١٨ ، جنوبى جزيرة صقلية ، وهكذا نجح التحالف الرباعى فى أن يقضى على محاولة أسبانيا تعديل شروط يوترخت .

وفى تلك الأثناء لم يكن « ألبيرونى » قد اكتفى بمحاولاته للحصول على كل من سردينيا وصقلية بل تحمس للاشتراك مع السويد ؛ وكان ملكها شارل الثانى عشر ، ومع روسيا لمعاونة من يدعى حقه فى عرش انجلترا لقلب نظام الحكم فيها وتولية جيمس الثالث ملكاً عليها ، وتعرضت انجلترا لخطر فادح عند مانزلت قوات مشتركة فيها لمساعدة « المدعى » Pretender ، وكاد عرش جورج الأول يتزحزح لولا أن شارل الثانى عشر قتل أثناء إحدى معاركه سنة ١٧١٨ . وقد اشتد رعب حكومة جورج الأول أثناء هذه الأزمة ، فدفعها إلى تقديم جبل طارق إلى « ألبيرونى » فى سبيل الانضمام إلى التحالف الرباعى . ولكن ألبيرونى وقد أغرته الانتصارات الأولى رفض هذا العرض السخى . وكان لهذا العرض مغزى هام من الناحية السياسية : فهو يدل

على أن انجلترا لم تكن فى ذلك الوقت قد تبينت بعد مدى أهمية ذلك الموقع الفريد بالنسبة لمصالحها الحيوية فى الشرق . وانتهى خطر المؤامرة للأسباب التى ذكرناها .

وكان اكتشاف المؤامرة فى باريس مناسبة إعلان دوق أورليان — بوصفه حليفاً لانجلترا — الحرب على أسبانيا . فتقدم بجيوشه لغزوها ، وساعدته انجلترا بأسطولها ؛ وتعرض استقلال أسبانيا للخطر . ولكن فيليب الخامس تنبه له فى اللحظة الحاسمة ، فعزل « ألبيرونى » ، وأعلن انضمامه إلى التحالف الرباعى فأصبح تحالفاً خماسيا . وانتهت بذلك محاولات أسبانيا فى استعادة بعض نفوذها فى إيطاليا ، ولم يطرأ على شروط صلح يوترخت أى تغييرات جوهرية فيما عدا أن الامبراطور قد استطاع أن يحقق مطالبه فى الحصول على صقلية بدلا من سردينيا فى عام ١٧٢٠ ، بينما آلت سردينيا إلى ملك سافوى فأصبح منذ ذلك التاريخ يعرف بملك سردينيا .

ولم يلبث دوق أورليان بعد استبعاد ألبيرونى من منصبه أن استعاد علاقات الصداقة مع أسبانيا فعقد معها محالفة فى عام ١٧٢١ . وفى عام ١٧٢٣ ، مات « ديبوا » بعد أن حقق أقصى أمانيه فى أن يصبح كاردينالا .

الفصل الثانى

المرحلة الثانية من العلاقات الدولية

بين عامى ١٧٢١ — ١٧٣٢

ساد خلال تلك المدة « روبرت والبول » السياسة الانجليزية (١٧٢١ — ١٧٤٢) وقام بدور رئيسى فى توجيه السياسة الأوروبية . واستطاع بميوله السلمية واعتقاده الصادق بأن انجلترا فى حاجة إلى السلام أن يحافظ عليه خلال ذلك العهد . أعانه على ذلك الكاردينال « فلبرى » Fleury الذى شغل منصب الوزارة فى فرنسا من سنة ١٧٢٦ حتى ١٧٤٣ . وكان « فلبرى » كذلك يدين بنفس المبادىء السلمية ، ويعلم تماماً نوايا انجلترا ، واتجاهاتها الاستعمارية التى كانت تتعارض إلى حد بعيد مع اتجاهات فرنسا . ومع ذلك فقد حافظ جاهداً على السلام .

اضطرت أسبانيا كما بينا سنة ١٧٢٠ بعد أن هدد الغزو الفرنسى الانجليزى سلامة أراضيها أن تنضم إلى التحالف الرباعى . ورؤى عندئذ أن تسوى المشاكل بين أسبانيا والامبراطورية بطريقة ودية على أن يكون ذلك فى مؤتمر يعقد فى « كمبرى Cambrai » وعقد المؤتمر بالفعل ولكن طموح البزابث وعنادها وإصرارها على ما أرادت أدى إلى فشل هذا المؤتمر ، فرأت أسبانيا أن تتخذ خطوة جريئة وسريعة وذلك بالاتجاه مباشرة إلى عدوها الامبراطور محاولة عن طريق الاتفاق معه أن تحصل على تحقيق أغراضها وأطماعها فى إيطاليا ، حيث كان يسود النفوذ النمسوى منذ معاهدة يوترخت ، وشجعها على ذلك ما أصاب العلاقات الفرنسية الأسبانية من فتور وحرج سببهما تطور مسألة زواج لويس الخامس عشر .

مسألة زواج لويس الخامس عشر :

لم يمض عام ١٧٢٣ فى فرنسا إلا وكان كل من « دوق أورليان » وكاردينال « ديبوا » قد توفيا . ونزولا على نصيحة الكاردينال « فلورى » مربى الملك عهد

لويس الخامس عشر برئاسة الوزارة الفرنسية إلى عمه دوق « بربون » Bourbon وكان طموحاً إلى الاستئثار بالسلطة والنفوذ . وقد عول على استخدام مسألة زواج الملك لويس الخامس عشر لخدمة أغراضه . فأحدث بتصرفاته الخرقاء فى هذا الصدد أزمات سياسية بسبب ما أثار من مشاكل ؛ ذلك أنه على الرغم من خطبته لابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا وإظهار الميل إلى ابنة بطرس الأكبر ، وطمع أرملة الأخير كاترين الأولى فى عقد التحالف الروسى الفرنسى ، الذى عجز بطرس عن إنجازه ، فإنه تزوج عام ١٧٢٥ من ابنة ملك بولندا المخلوع ، وكان شارل الثانى عشر قد جعله ملكاً على بولندا فى بداية القرن الثامن عشر ، ولكن بطرس الأكبر قيصر الروسيا قد خلعه عنه وهو « ستانسلاس » Stanislas . وقد كلف هذا الزواج فرنسا غالياً . وكان طبيعياً أن تظهر ملكة فرنسا العداء لكاترين الأولى مما جعل الأخيرة تتحالف مع النمسا . وعلى الرغم من أن هذا التحالف قد انحل بموت كاترين الأولى عام ١٧٢٦ إلا أن روسيا انتهجت منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٠٧ سياسة التحالف مع الهبسبورج لا مع فرنسا . على أن إرجاع الأميرة الأسبانية خطيبة لويس الخامس عشر إلى أسبانيا كان له أسوأ الأثر فى العلاقات بين فرنسا وأسبانيا ، إذ بادرت أسبانيا بطرد ممثلى فرنسا العسكريين والتجاريين بها ، وأخذت تفاوض الامبراطور مذعنة لرغباته .

معاهدة فيينا الأولى فى عام ١٧٢٥ :

لم تتردد أسبانيا لحظة واحدة فى الاتجاه إلى الامبراطور لتعقد معه معاهدة فيينا الأولى ، وفيها اعترفت أسبانيا بضمان وراثة عرش الامبراطور لماريا تريزا ابنته ، ويعرف ذلك «بالضمان الوراثى» Pragmatic Sanction ،وذلك أمر كان بطبيعة الحال يشغل بال الامبراطور ، وقد بذل فى تحقيقه جهداً كبيراً منذ توليه الحكم أو بعد ذلك بقليل أى بين عامى (١٧١١ — ١٧٤٠) . فوافقت أسبانيا على الضمان الوراثى ، كما اعترفت فى الوقت نفسه بشركة « أوستند » Ostend التجارية التى أنشأها الامبراطور فى الأراضى المنخفضة الجنوبية .

الضمان الوراثى : والشىء الذى لاشك فيه هو أن الجهود التى بذلها الامبراطور شارل السادس أكثر أيام حياته فى سبيل تحقيق ما أسميناه « الضمان الوراثى » قد كان مبعثه أن الامبراطور لم يكن له ولد يرث عرشه ، وإنما كانت له ابنة ، ولم يكن مألوفاً

ولا معروفاً يومئذ أن تعتلى عرش الامبراطورية امرأة ، وذلك أمر لانلقى له نظير إلا فى نظام العرش البابوى . وتأكيداً لتحقيق ماكان يهدف إليه الامبراطور أنه سعى إلى الحصول على موافقة الولايات الألمانية تمهيداً للحصول على موافقة دول أوروبا العظمى تجنباً لما عساه أن يقع من نكسة بعد موته . وتمت موافقة الولايات الألمانية عام ١٧١٣ ، وتبعتها أسبانيا عام ١٧٢٦ . وهنا بادر الامبراطور بالسعى فى سبيل الحصول على موافقة بقية دول أوروبا ، واقتضاه ذلك تضحيات مادية ضخمة ، ولكن مساعيه جميعاً باءت بعد ذلك بالخسران . وبيان ذلك بعد موته ، فلم تلبث أوروبا طويلا حتى استقبلت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ .

شركة أوستند : وكانت إحدى التضحيات التى أسرع الامبراطور فى تقديمها لتحقيق الضمان الوراثى . وقد أسسها الامبراطور عام ١٧٢٢ لغرضين : الأول الحصول على نصيب من تجارة الهند الشرقية ، وكانت يومئذ من محتكرات كل من شركتى الهند الشرقية الانجليزية والفرنسية ، والثانى لتنمية الحركة التجارية فى الأراضى المنخفضة النمساوية (بلجيكا) وكان ذلك المشروع ناجحاً منذ الوهلة الأولى ، كما كان يبشر بخير كثير مما جعل انجلترا تهدف إلى القضاء على هذه الشركة أو الحد من سلطانها حتى لاتضار مصالح انجلترا الاقتصادية . وظلت شركة أوستند منذ إنشائها حتى ألغيت فى عام ١٧٣١ شوكة فى حلق السياسة الانجليزية .

ولم تكن موافقة أسبانيا على ما أراد الامبراطور من الحصول على تأييدها لكل من « الضمان الوراثى » وشركة أوستند لتحقق لها ما تهدف إليه من مكاسب ؛ فإن الشروط السرية التى انطوت عليها معاهدة « فيينا الأولى » كانت تنص على تزويج ابنى « اليزابث فرنيز » ملكة أسبانيا وهما دون كارلوس ودون فيليب من أميرتين من البيت المالك النمساوى أملا فى أن يحقق لهما ذلك الزواج بعض المكاسب من أملاك الامبراطورية .

محالفة هانوفر ١٧٢٥ : واقتضت مصالح انجلترا أن تدفع « والبول » Robert Walpole إلى العمل على تكوين حلف من شأنه إضعاف معاهدة فيينا الأولى . ونجح « والبول » فى تكوين « حلف هانوفر ١٧٢٥ » من بريطانيا وفرنسا وبروسيا ، وانضمت إليه فيما بعد هولندا والممالك الاسكندناوية فكان ذلك الانتصار الأول « لو البول » . وأثار هذا الحلف مخاوف الامبراطور ، فأعلن رفضه التصديق على موضوع الزواج .

فى عام ١٧٢٦ يجد الحليفان خيراً فى التفاوض على الاتفاق . ولعل من دواعى ذلك أن الكاردينال « فلبرى » أصبح سيد الموقف فى فرنسا بعد وفاة « دوق بوربون » وكان فى سياسته السلمية نظيراً لو البول فى انجلترا ، وإن كانت مهمته بطبيعة الحال أصعب من مهمة والبول لوجود فرنسا وسط دول أوروبا الطموحة المتنافسة . فاقتضاه ذلك أن يعقد معاهدات تحالف عام ١٧٢٧ مع كل من السويد وبافاريا وانجلترا لضمان السلام .

ويلجأ الفريقان : فريق حلف معاهدة « فيينا الأولى » وفريق « حلف هانوفر » إلى عقد مؤتمر « سواسون » Soissons فى عام ١٧٢٨ بغرض ترضية كل من الامبراطور وأسبانيا . وتبوء جهود المؤتمر بالفشل فى تحقيق ما أراد المؤتمرون .

معاهدة اشبيلية ١٧٢٩ :

وفى عام ١٧٢٩ بعد أن فقدت أسبانيا الأمل فى جهود المؤتمر تضطر إلى الاتجاه نحو حلفاء هانوفر رغم ما كان بينها وبين انجلترا زعيمة هذا الحزب من عداء . وانتهى التجاؤها إلى حلف هانوفر بمعاهدة أشبيلية فى نوفمبر ١٧٢٩ .

وتعد هذه المعاهدة بمثابة الانتصار الثانى الذى أحرزه « والبول » فى سياسته الخارجية وفيها اعترفت انجلترا بمطالب « دون كارلوس » ابن (اليزابث فرنيز» ، وبتأييد هذه المطالب فى بارما بعد موت دوقها . وتعهدت أسبانيا بألا تؤيد « شركة أوستند » ولم تذكر مسألة جبل طارق ، واستطاعت بذلك انجلترا أن تقصى عنها خطر تلك الشركة وأن تسكت أسبانيا بعض الوقت عن المطالبة بجبل طارق .

وكانت خطوة والبول التالية أن يحظى بموافقة الامبراطور على تحقيق أغراض أسبانيا فى إيطاليا ، وأن يقضى على منافسة شركة أوستند للمصالح الانجليزية . وقد استعان « بفلبرى » فى ذلك ، فحققا معاً نجاحاً جديداً . وقد تبين « لو البول » عندئذ أنه يستطيع أن يحقق ذلك إذا وافقت انجلترا على الضمان الوراثى الذى اعترفت به أسبانيا سنة ١٧٢٦ وبروسيا والروسيا فى العام نفسه .

مات دوق بارما فى عام ١٧٣١ وأصبح لدون كارلوس الحق فى أن يخلفه على عرش دوقية بارما ؛ ولكن الامبراطور تقدم بجيشه فاحتلها ، وعبثاً حاولت انجلترا

وفرنسا بتحريض من أسبانيا أن تثنياه عن عزمه . ولكن لم يلبث أن تم الاتفاق بين الجميع فى معاهدة فيينا الثانية عام ١٧٣١ .

معاهدة فيينا الثانية ١٧٣١ :

اعترفت فيها انجلترا بالضمان الوراثى . وفى مقابل ذلك حصل دون كارلوس على اعتراف الامبراطور بتوليته دوقيتى « بارما وبياسنزا » **Parma and piacenza** كما حققت انجلترا غرضاً من أهم أغراضها وهو إلغاء شركة أوستند . واستطاعت « اليزابث فرنيز » أن تعدل من شروط معاهدة « يوترخت » وأن تفتح من جديد إيطاليا للأسبانيين .

وليس عجباً أن تحصل أسبانيا على تحقيق مطامعها بمعاونة عدوتها انجلترا ؛ وقد أوشكت أن تشتبك فى حرب معها ، ذلك أن العرف السائد كان يومئذ أن العلاقات العدائية بين الدول الأوروبية كانت قاصرة على البقاع المتنافس عليها بينها ؛ على أن النظرة الفاحصة إلى هذا التحالف تكشف لنا عن نتائج هذا الأمر ؛ ففرنسا قد اعترفت بموضوع الضمان الوراثى ، ثم هى لن تلبث طويلا حتى ينقلب الأمر بينها وبين حليفتها انجلترا . وتركت أمور التجارة بين أسبانيا وانجلترا فى العالم الجديد دون تسوية ، مما سيؤدى إلى وقوع الحرب بين الدولتين وإلى انضمام فرنسا إلى أسبانيا ضد انجلترا .

الفصل الثالث

المرحلة الثالثة من العلاقات الدولية

حرب الوراثة البولندية ١٧٣٣ – ١٧٣٩

مات ملك بولندا أغسطس صاحب سكسونيا فى فبراير ١٧٣٣ ، فانتخب بعده « ستانيسلاس » حمو لويس الخامس عشر ملكاً على بولندا ؛ وقد كان ملكاً عليها فى عام ١٧٠٤ ثم خلع ، وكان ملك فرنسا على استعداد للدفاع عن مصالح «ستانيسلاس» ولو أدى ذلك إلى الدخول فى حرب أوروبية ، على الرغم من جهود الكاردينال « فلبرى » لمنع الملك من إقحام فرنسا فى مثل هذه الحرب التى لاتفيدهم فى شيء . وقد حدث قبل انتخاب « ستانيسلاس » أن قيصر الروسيا والامبراطور وقع اختيارهما على ابن أغسطس ليحكم بولندا ، وحصل الامبراطور فى مقابل ذلك على موافقة أغسطس على « الضمان الوراثى » ؛ فأعلنت فرنسا الحرب على الامبراطور فى أكتوبر ١٧٣٣ . ولم تستطع السويد الوقوف إلى جانب فرنسا لأن الدايت صاحب النفوذ فيها كان يفضل اتباع سياسة سلمية مع الروسيا . وتقدمت الجيوش الروسية نحو « دانزج » Dazig المكان الذى نودى فيه « بستانيسلاس » ملكاً على بولندا .

حاول « فلورى » يومئذ أن يحصل لفرنسا على أكبر قدر من المكاسب الممكنة ، وقد عرض الامبراطور مناطق الراين لخطر هجوم فرنسا عندما أسرع بمهاجمة بولندا . ولكن قبل أن يعلن « فلورى » الحرب عليه ، كان قد اكتسب ولاء ملك سردينيا ، « شارل إيمانويل » ، بعد أن وعده بدوقية ميلان .

معاهدة الاتفاق الأسرى ١٧٣٣ : Pacte de Famille

فى نوفمبر ١٧٣٣ عقدت معاهدة تحالف طبيعية بين فرعى البوربون فى فرنسا وأسبانيا وهى معاهدة « اسكوريال » Escurial ، وتلتها سلسلة من المحالفات

الأسرية لمراعاة مصالح هذه الأسرة ؛ تعهد فيها الطرفان بأن تصبح جميع الفتوحات فى إيطاليا فيما عدا ميلان من حق « دون كارلوس » وكانت أطماعه فى كل من نابولى وصقلية واضحة . ولا شك أن الحليفتين فى هذه المعاهدة كانتا صادقتين فيما تضمرانه من عداء لانجلترا التى كانت ما تزال تحتل جبل طارق ، كما كانت فى نزاع وخلاف مستمرين معهما فى البحار الجنوبية . كما أن انجلترا قد حرمت على مستعمراتها فى أمريكا الشمالية أن تتاجر مع المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية .

الحرب :

تتلخص أحداث حرب الوراثة البولندية فى محاصرة القوات الروسية « لدانزج » **Danzig** ولم يستطع الأسطول الفرنسى الضئيل أن يقف أمام الروس فتقهقر فى حذر نحو كوبنهاجن . وبعد حصار دام حوالى ١٣٥ يوماً سلمت دانزج ، ففر منها الملك « ستانيسلاس » .

أما فى شمال إيطاليا فإن نجاح القوات الفرنسية السردينية الأسبانية كان محدوداً بسبب عوامل الخلاف والغيرة التى شتت صفوفهم . وهكذا ظلت قلعة «منتوا» **Mantua** الحصينة فى يد الامبراطور . أما فى الجنوب فسقطت نابولى وصقلية فى يد « دون كارلوس » وقد ساعده أهلوهما على ذلك فتوج فى « بالرمو » فى يوليو ١٧٣٥ ملكاً على مملكة الصقليتين « صقلية ، نابولى » .

معاهدة فيينا الثالثة ١٧٣٥ — ١٧٣٩ :

ظهر ضعف القوات النمساوية فى جميع الميادين ، كما أدى خوف الامبراطور نتيجة لنشاط الجيوش التركية إلى الرغبة فى عقد الصلح ، كما رأى « فليرى » أن السعى فى الصلح يبعد خطورة انضمام انجلترا إلى الامبراطور نتيجة لما حققته أسبانيا من انتصارات فى إيطاليا ؛ فعقدت معاهدة فيينا الثالثة ٣٥ — ١٧٣٩ . وأهم شروطها : —

١ — فقد « ستانيسلاس » العرش البولندى الذى آل إلى أغسطس الثالث دوق سكسونيا وعوض عن ذلك بإقليم اللورين، على أن يؤول بعد وفاته إلى فرنسا .

٢ — أما دوق اللورين « فرانسوا الأول » الذى تقرر أن يتزوج من ماريا تريزا ، فقد منح دوقية تسكانيا .

٣ — اعترف الامبراطور بدون كارلوس ملكاً على الصقليتين ، بينما توطد نفوذ الامبراطور فى ممتلكاته فى شمال إيطاليا (ميلان) ، واتفقت فرنسا على ضمان الوراثة النمساوية ؛ ولكن ملك سردينيا لم ينل ميلان التى وعد بها إنما عوض عنها ببعض الأملاك الأخرى المتاخمة لأملاكه فى شمال إيطاليا .

ولهذه المعاهدة أهميتها ؛ إذ جعلت فرعاً ثالثاً من أسرة البوربون يحكم فى مملكة الصقيلتين جنوبى إيطاليا ، كما كانت السبب فى أن تؤول اللورين نهائياً إلى فرنسا عقب موت « ستانيسلاس Stanislas » ١٧٦٦ ، وظلت فى يدها حتى عام ١٨٧١ عندما انتزعها منها بسمارك .

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة من العلاقات الدولية

(أ) حرب « جنكيز اير » ١٧٣٩ : wenkin'S Ear

سميت بذلك لأن قيامها كان بسبب اعتداء أسبانيا على ربان السفينة الانجليزى ، وكان يدعى « جنكين » وقد فقد خلال هذا العدوان إحدى أذنيه ، وكان قيامها بسبب تصادم المصالح التجارية بين الدولتين ؛ فانجلترا لم تخضع لقوانين الاحتكار التى فرضتها أسبانيا بقصد الانفراد بالأرباح الخاصة بالاتجار مع مستعمراتها والحيلولة بين تهديد الدول البحرية العظمى لسلطانها فى تلك المناطق .

فلجأت انجلترا إلى أسلوب التهريب إزاء أسبانيا ومستعمراتها ؛ أى أنها خالفت القوانين الأسبانية ، ومارس تجارها تجارة التهريب Contraband trade أو Inlerlope trade وقد أخذت أسبانيا تشعر بالخطر الذى يحدق بتجارتها بسبب ذلك فقد ربحت انجلترا من وراء ذلك كثيراً ، لذلك شددت أسبانيا الحراسة على سواحلها حتى تحد من هذه التجارة غير المشروعة المضرة بمصالحها . وقد وقعت حادثة « الكابتن جينكين » Jenkin وسط هذه الظروف فى عام ١٧٣٨ ، وكان على ظهر سفينة تتاجر فى مياه جزر الهند الغربية . واستدعى فى البرلمان لكى يعرض على النواب مظلمته ويقص عليهم ما نزل به على يد القوات الأسبانية . واشتدت ثائرة النواب عندما أطلعهم على جلية الأمر ، فطالبوا « والبول » Walpole بإعلان الحرب على أسبانيا . ولكن « والبول » كدأبه أراد أن يحل المشكلة بالطرق السلمية ؛ فاتفق مع أسبانيا فى اتفاقية « باردو » Pardo عام ١٧٣٨ على أن تدفع أسبانيا تعويضاً عما لحق بـ « جنكين » Jenkin ، من إهانات وأضرار وخسائر . على أن أسبانيا تأخرت فى دفع التعويضات مما أثار الرأى العام فى بريطانيا . واضطر « والبول »

إلى إعلان الحرب على أسبانيا برغم خوفه من ذلك ، لاحتمال اتحاد أسبانيا وفرنسا ضد انجلترا (وكان منذ تبوئه مركز الصدارة فى الوزارة فى عام ١٧٢١ يعمل على تلافى ذلك الأمر . (وقد نبهت هذه الحرب انجلترا فجعلتها تستعد للنضال المحتمل) بينها وبين فرنسا ؛ ذلك لأن فرنسا فى تلك الآونة أخذت تخطو خطوات واسعة فى الميدان الدولى والتجارى . ففى عام ١٧٣٨ أصبحت ذات نفوذ عظيم ومكانة كبيرة فى كل من السويد وبولندا وتركيا ، ولم تلبث أن جددت مع السلطان وثائق الامتيازات التى كانت تخول لها مكانة ممتازة فى الاتجار مع الأملاك العثمانية ، ورعاية مصالح الكاثوليك ، كما أصبحت متفوقة على انجلترا فى كل من ميدانى الاستعمار الشرقى فى الهند ، والغربى فى جزر الهند الغربية ؛ مما جعل بريطانيا تتنبه إلى خطورة الموقف وإلى احتمال وقوع القتال بينها وبين فرنسا فى القريب العاجل .

(ب) حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠ — ١٧٤٨ :

كان لتغيير ثلاثة حكام فى أوروبا عام ١٧٤٠ أثره العميق فى تغيير مجرى سياسة دولها ؛ مات أولا ملك بروسيا فى مايو فخلفه على العرش فردريك الثانى أو العظيم كما ماتت قيصرة الروسيا «آن» Anne فى أكتوبر وخلفها القيصر إيفان السادس ، وكان طفلا ضعيفاً ؛ وكان لتوليته معنى هام وهو ازدياد نفوذ ذوى قرباه من الألمان فى بروسيا . على أن القيصرة اليزابث لم تلبث أن خلفته على عرش الروسيا . وكان أهم تلك التغييرات ما وقع بسبب موت الامبراطور شارل السادس إذ ترك من ورائه التاج الامبراطورى ، وأملاك الهبسبورج الواسعة ، مخلفاً بذلك للسياسة الأوروبية مشكلة شغلت بها بعض الوقت .

وكانت الامبراطورية شأنها شأن البابوية لاتؤول إلى امرأة مهما كانت الظروف. لذلك حاول الامبراطور شارل السادس خلال عشرين عاماً تحقيق غرضه الخاص بتولية ابنته ووريثته الوحيدة عرش الامبراطورية ، وقد بينا تضحياته الكثيرة فى سبيل تحقيق هذا الأمر(١) ووافقت على ذلك جميع الأقاليم التابعة له بل وسائر الدول العظمى فى أوروبا عدا « بافاريا » Bavaria .

عند موت الامبراطور تسلمت ماريا تريزا زمام الحكم فى أملاكها الوراثية

(١) انظر فيما سبق ص ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

ومعها زوجها « فرانسيس » Francis حاكم تسكانيا . وكانت من أقدر الحكام فى سياستها ، وقد عارض تلك التولية من أول أمرها كثيرون من ذوى الأطماع منهم : —

١ — « شارل ألبرت » Charles Albert ملك بافاريا . وصديق فرنسا الذى بدأ يعمل ليضمن لنفسه التاج الامبراطورى مستنداً فى ذلك إلى صلة النسب التى كانت تربطه بأسرة الهبسبورج ؛ فقد كان متزوجاً من ابنة جوزيف الأول الامبراطور السابق لشارل السادس وأخوه الأكبر . وقد ادعى أن هناك اتفاقاً أبرم فى عام ١٥٤٦ ينص على أنه فى حالة خلو الذرية من الذكور تؤول إليه أملاك النمسا .

٢ — كان أغسطس صاحب سكسونيا Saxony يطمع فى الحصول على « مورافيا » Moravia اعتماداً على حق زوجه فيها ؛ وكانت كبرى بنات الامبراطور جوزيف الأول .

٣ — أغرت «اليزابث فرنيز» Elizabeth Farnese ملكة أسبانيا — هادفة إلى الحصول على الأملاك النمساوية فى شمال إيطاليا لأبنائها — زوجها فيليب الخامس بعرش الهبسبورج فى النمسا .

٤ — وادعى ملك سردينيا « شارل عما نويل » حقه فى بعض أملاك الامبراطورية مخفياً وراء ذلك مطامعه فى ميلان .

٥ — أما ملك بروسيا فكان يطمع فى الإقليم الغنى « سيليزيا » .

وإذا كانت هذه المطامع الشخصية عوامل مباشرة أدت إلى وقوع هذه الحرب ؛ فإن هناك عوامل أخرى أساسية وعميقة أدت إلى تحطيم النظام الذى كان يسود أوروبا كما كانت إلى جانب العوامل السابقة من أسباب وقوع حرب الوراثة النمسوية عوامل أخرى :

أولا : لم يكن التحالف بين فرنسا وانجلترا عام ١٧١٧ تحالفاً طبيعياً قائماً على الصداقة والود بين الدولتين ، وإنما دفعت إليه كما تبين المصالح الداخلية والخارجية الخاصة بكل منهما . كما أنه لم يكن تحالفاً قومياً أو مرغوباً فيه من الشعبين ؛ ولذلك كان من الطبيعى أن ينهار عندما فقد كل من « والبول » فى عام ١٧٤٢ و « فلبرى » فى عام ١٧٤٣ نفوذهما فى كل من انجلترا وفرنسا على التوالى . عندما فقد الأول

تأييد البرلمان بسبب عدم استطاعته تنظيم الحرب التي أكره على خوضها ضد أسبانيا (حرب جنكيز إيرJnkins Ear) ، وسقط الثاني عندما تقدمت به السن بحيث عجز عن الاحتفاظ بسلطانه . واشتدت المنافسة الاستعمارية بين فرنسا وانجلترا فى أمريكا ، وفى استغلال الشركات التجارية فى الهند ، وقامت بسبب ذلك مناوشات ومعارك خطيرة بين الدولتين . وكانت أسباب العداء بينهما قوية منذ عام ١٧٣١ . ولكن «والبول» Walpole كان مشغولا فى تدبير شئون بلاده الداخلية ، كما كان « فلبرى » يوجه الأحداث السياسية فى أوروبا ؛ وهى الأحداث التى تسببت فى قيام حرب الوراثة البولندية ، وقيام دولة البوربون فى جنوب إيطاليا . وإنجاز معاهدة فيينا الثالثة عام ١٧٣٨ . فى تلك السنوات كانت فرنسا تعمل بانتظام على توطيد علاقاتها مع أسبانيا . وعندما اشتبكت انجلترا مع أسبانيا فى نزاع ١٧٣٩ ؛ أصبح واضحاً أن فرنسا لن تلبث أن تشترك فى هذا النزاع . وإذا كانت نار الحرب لم تشعل رسمياً بين فرنسا وانجلترا قبل عام ١٧٤٤ ؛ فإنها كانت قائمة بين المستعمرين قبل هذا التاريخ.

ثانيا : نمو قوة بروسيا كدولة حربية مستعدة وقادرة على أن تنازع الامبراطور سلطته فى ألمانيا ؛ فقد أثبتت بروسيا خلال حرب الثلاثين عاماً أنها القائد الطبيعى للولايات الألمانية الشمالية ، وأنه لايمكن إهمال شأنها فى السياسة الأوروبية ، فضربت الامبراطورية ضربة قاسية فى هذا الصراع أعجزتها عن الاحتفاظ بمكانتها بعد ذلك فى ألمانيا الجنوبية .

ثالثاً : ضعف مركز الامبراطورية عقب موت شارل السادس فى أكتوبر ١٧٤٠ مما جعلها هدفاً ومركزاً للأطماع المختلفة ؛ فمنذ بداية القرن ١٨ وعرش الامبراطورية يهتز بسبب الهزائم التى نزلت بالامبراطور ، وكانت أسبانيا له بالمرصاد ؛ فهاجمت أملاكه وحاربت نفوذه فى إيطاليا كما نجحت فى بسط نفوذها على بعض هذه الأملاك . ثم إن سياسته القائمة على ضمان الامبراطورية لابنته من بعده واحترام « الضمان الوراثى » Pragmtic Sanction جعلته يقوم بأعمال يكاد يكون مصدرها عدم التروى؛ فتنازل عن شركة «أوستند» ostend الناجحة حتى تعترف انجلترا « بالضمان الوراثى » وما إلى ذلك من تضحيات أخرى . ولم تحقق هذه التضحيات للامبراطور شيئاً مما كان يريد ، فأخذ نفوذ الامبراطور فى الانهيار داخل ألمانيا . وأخذت روسيا تحتل ماكان للنمسا من نفوذ .

تنقسم الحرب إلى دورين :

الدور الأول ١٧٤٠ — ١٧٤٣ : عندما أتيح لفردريك العظيم فرصة إشعالها غير ملتفت إلى ما أخذه على نفسه من عهد لضمان العرش الامبراطورى لماريا تريزا ؛ فكان لهجومه المفاجيء على سيليزيا أثره فى تغيير الموقف الدولى ؛ ذلك لأن هذا الهجوم شجع منتخب بافاريا « شارل ألبرت » Charles Albert على المطالبة بأحقيته فى عرش الامبراطورية ، كما أدى إلى تدخل فرنسا فى وصف منتخب بافاريا .

بدأت الحرب فى ديسمبر ١٧٤٠ بهجوم الجيش البروسى على سيليزيا ، وقد انتصر فردريك انتصاراً حاسماً فى موقعة « مولويتز » Mollouitz وقررت فرنسا نتيجة لذلك أن تساعد منتخب بافاريا لاسيما وأنه لم يعد لفلبرى نفوذ يذكر ؛ بينما أخذ الحزب المناصر لسياسة الحرب يقوى تحت قيادة « بلايل » Belleisle . وحاولت انجلترا أن تقنع ماريا تريزا بأن تتنازل لفردريك عن بعض أراضيها ؛ ذلك لأن السياسة الانجليزية كانت متجهة نحو اعتبار فرنسا العدو الحقيقى ، ولكن ماريا تريزا رفضت ، ولم يكن فردريك فى الواقع راضياً عن تدخل فرنسا خشية ازدياد نفوذها فى ألمانيا الجنوبية . ولكن عندما رفضت ماريا تريزا أن تجيبه إلى ما يريد ؛ لم ير بدأ من أن يعقد اتفاقاً مع فرنسا و « شارل البرت » Chrales Albert فى « برسلاو » Breslaw عام ١٧٤١ وقد أظهرت الأخيرة استعدادها لتأييد مطالب فردريك فى سيليزيا ولكن فردريك رفض أن يؤيد مطالب منتخب بافاريا حليف فرنسا بشأن مطالبته بالتاج الامبراطورى .

وفى سبتمبر يتقدم البافاريون نحو فيينا واضطرت ماريا تريزا إلى الفرار إلى هنغاريا (المجر) . ووافقت ماريا تريزا وسط هذه الظروف مكرهة على اقتراح انجلترا ، ونتج عن ذلك انسحاب البروسيين من مواقعهم ودخول الجيش النمسوى بافاريا ، فاستولى هذا الجيش على « لينز » Linz ؛ وفى نفس اليوم الذى نودى فيه بشارل ألبرت امبراطوراً باسم شارل السابع فى فرانكفورت ، استولى النمسويون على عاصمته « ميونخ » Munich وكان ذلك فى فبراير ١٧٤٢ .

وأزعجت تلك الانتصارات التى أحرزها الجيش النمسوى فردريك العظيم ، فنقض اتفاقيته مع ماريا تريزا ، وهاجم مورافيا Moravia ، وفيها ووجه بمقاومة

عظيمة فعرج منها على بوهيميا ، وحاصر الجيش النمسوى وهزمه فى « شوتويتز » Chotuitz فى مايو ١٧٤٢ ، واضطرت الجيوش الفرنسية إلى مبارحة بافاريا ، وهذا ماكانت ترمى إليه ماريا تريزا .

كان والبول فى انجلترا : قد اعتزل السياسة وأصبحت أمورها فى يد « كارترت » Carteret وكان من مؤيدى السياسة العاملة على تشجيع معاونة أعداء فرنسا ، وتم الاتفاق بين فردريك وماريا تريزا فى برلين فى يولية ١٧٤٢ ، فتنازلت له ماريا تريزا عن سيليزيا Silesia بما فيها قلعة « جلاتز Glatz » وانسحب فردريك مرة ثانية من الحرب .

لم تكن ماريا تريزا فى موقف يمكنها من مقاومة رغبات فردريك ، نظراً لما حل بها من الهزائم فى إيطاليا ، وعلى يد الأتراك ، وكان فقدانها مملكة الصقليتين ضربة كبيرة للامبراطورية ، ومع ذلك فإن الحالة الداخلية للامبراطورية كانت أسوأ من ذلك بكثير .

الدور الثانى ١٧٤٣ — ١٧٤٨ :

فى ربيع ١٧٤٣ بدأ النمسويون بالهجوم ؛ فاستولوا على ميونخ ، واضطروا الفرنسيين ١٧٤٣ — ١٧٤٥ إلى إخلاء بافاريا . أما فى الميدان الغربى فقد تغير الموقف كذلك .

فنى انجلترا أدى ازدياد نفوذ « كارترت » Carteret إلى سلوك سياسة أكثر حزماً ؛ وآية ذلك أنها تدخلت فى الحرب تدخلا فعلياً ، فأرسلت حملة من عشرة آلاف جندى من البريطانيين والهنوفريين إلى بلجيكا ؛ بقيادة لورد « ستير » Stair ، وكان هدفها مهاجمة فرنسا فى الأراضى المنخفضة أكثر من مساعدة النمسا فى بافاريا . ولم تكن انجلترا فى حرب ضد فرنسا بعد ؛ ولذلك أصر جورج الثانى ملك انجلترا على استخدام جيشه لخدمة مصالح ماريا تريزا . وكان لانتصار هذا الجيش آثاره فى إخراج الفرنسيين من بافاريا ، وفتح الطريق أمام النمسويين لمهاجمة الألزاس ، واستطاع كارترت أن يكسب « شارل عمانويل » ملك سردينيا حليفاً جديداً فى صف ماريا تريزا واعدا إياه فى معاهدة « ورمز » Worms أن يمنحه بعض الأراضى الواقعة إلى الغرب من « منشيو » Mincio فى سهل لمبارديا فى نظير أن يقدم مساعدته فى

إخراج البوربون الأسبانيين من إيطاليا ، وفى هذه الحالة تصبح نابولى من نصيب الامبراطور ، وصقلية من نصيب شارل عمانويل . على أن هذه المعاهدة لم تتعرض لمسألة سيليزيا . وقد كان Carteret مسئولا عن ذلك ؛ لأنه لم يكن من مصلحة انجلترا أو هانوفر أن تعادى فردريك ملك بروسيا ، ومع ذلك فقد كانت ماريا تريزا مصممة على استرداد سيليزيا .

يقابل معاهدة Worms تجديد التعاقد الأسرى Famiiy Compact بين فروع أسرة البوربون فى أوروبا فى معاهدة « فونتنبلوا » Fontainbleau فى أكتوبر ١٧٤٣ ، وفيها اتفقت فرنسا على تأييد الأسبان فى إيطاليا . فتعهدت بمساعدتهم فيها حتى يصبح Don Philip دوقاً لبارما Parma ، وأن تعاون أسبانيا على استرداد جبل طارق ، وأخيراً أن تعلن الحرب على انجلترا .

غيرت معاهدتا ورمزو « فونتنبلو » الموقف ؛ فمنذ ذلك التاريخ صممت فرنسا على تركيز قواها فى النزاع ضد انجلترا فأعلنت عليها الحرب فى مايو ١٧٤٤ ولهذا الغرض كان اجتياح جيش فرنسى للأراضى المنخفضة أنجح خطة تبشر بالنجاح ، فأغار جيش فرنسى من ٤٠,٠٠٠ مقاتل على الأراضى المنخفضة . واستولى على الاستحكامات الواقعة على الحدود Barrier Towns فى سهولة ، ومع ذلك فإن وصول الجيوش النمساوية إلى الألزاس — وقد أرادت بهذا ماريا تريزا أن تعوض عن خسارتها فى سيليزيا — قد أجبر جيوش لويس ١٥ على التقهقر مشرقة من الفلندرز إلى Metz ، وهكذا نجت فرنسا من هجوم النمسا عليها إذ اضطرت الجيوش النمسوية تحت تهديد البروسيين أن تنسحب من الألزاس .

حرب سيليزيا الثانية :

كان فردريك يرقب تحركات الجيوش النمسوية عن كثب منذ عقد معاهدة « ورمز » Worms ؛ إذ كان يخشى أن تتاح لها فرصة انتزاع سيليزيا منه نتيجة لتفوقها وانتصاراتها . لذلك انتهز فرصة انشغالها فى الألزاس ، ودخل الحرب من جديد عام ١٧٤٤ . عقد محالفة فى مايو من العام نفسه مع أمراء اتحاد Frankfort لضمان حقوق الامبراطور شارل السابع . وقد وافقت فرنسا على الاتفاق ، وعبرت الجيوش البروسية حدود سكسونيا ، واستولت على « براج » Prague ؛ ولكن قدوم جيش نمسوى قوى اضطرها إلى التقهقر إلى سيليزيا .

وفى يناير ١٧٤٥ ، مات الامبراطور شارل السابع ، فبادرت ماريا تريزا بإعلان زوجها امبراطورا ، وقد كان منتخب بافاريا الجديد مستعداً للاتفاق مع النمسا ، وبذلك ترك فردريك وليس له من الحلفاء الا فرنسا ، التى لم تكن تهدف إلى كسب انتصارات فى ألمانيا وإنما كان هدفها الحصول على انتصارات فى الأراضى المنخفضة وإيطاليا . ومع ذلك فقد عمل فردريك الثانى على الاحتفاظ بسيليزيا مهما كلفه أمر ذلك من تضحيات ، فهزم الجيش النمسوى فى « سور » Sohr فى يوليه ١٧٤٤ ، ورفضت ماريا تريزا شروط الصلح المعروضة عليها من انجلترا التى كانت قد انضمت إلى فردريك ، واستمرت ماريا تريزا تحارب حتى قضى على جيوشها فى « هنرسدورف Hennersdorf و« كسلز دورف » Kesselsdorf مما جعلها ترضخ لشروط صلح « درسدن » Dresden فى ديسمبر ١٧٤٥ . وبمقتضاها تنازلت نهائياً لفردريك عن سيليزيا وقلاعها ، وفى مقابل ذلك اعترفت بروسيا بفرنسيس زوج ماريا تريزا امبراطوراً وانسحبت من الحرب .

أما ما وقع فى السنوات الأخيرة من الحرب فيمكن تلخيصه فى انتصارات جيوش لويس الخامس عشر تحت قيادة مارشال « ساكس » Saxe فى الأراضى المنخفضة ؛ وأهمها الانتصار فى واقعة « فونتنوى » Fontenoy فى مايو ١٧٤٥ ؛ وفتح بذلك الطريق أمام الجيوش الفرنسية إلى بروكسل . فاستولى القائد ساكس على « بروج» Bruges وعلى « جنت » Ghent وعلى « لييج » Liege ، واضطر القائد البريطانى دوق « كمبرلند » Cumberland أن يرضخ للأمر الواقع . وقد شجعت انتصارات الفرنسيين فى « فونتنوى » Fontenoy المدعى على عرش انجلترا جيمس الثانى أن يقوم بمحاولة جديدة فى سبيل استرداد عرش أجداده فى عام ١٧٤٥ مما أدى إلى استدعاء « كمبرلند » ومعظم جيشه إلى انجلترا .

الحرب فى إيطاليا :

وقد كانت انتصارات الفرنسيين هذه كفيلة بأن تفقد النمساويين أملهم فى النجاح فى إيطاليا ؛ وهنا عزم وزير خارجية فرنسا « دار جنسون » Dargenson على اتخاذ اجراءات فعالة فى إيطاليا هادفاً من ورائها إلى طرد النمسويين منها ، ليكون بعد ذلك اتحاداً من الولايات الإيطالية يكون اعتماده على تأييد فرنسا . وعجز « شارل عمانويل »

Emmanuel صاحب سردينيا ، وحليف ماريا تريزا منذ ١٧٤٣ عن الثبات أمام هجمات القوات الفرنسية الأسبانية ، وهزم هزيمة منكرة فى واقعة «بسينيانو» Bassignano وكان ذلك فى سبتمبر ١٧٤٥ ؛ انضمت القوات النمسوية إلى قوات سردينيا المنهزمة واستطاعت هذه القوات أن تطارد الأسبانيين إلى الساحل وأن تسترد لمبارديا . ومات فيليب الخامس ملك أسبانيا ١٧٤٦ ، فخلفه فرديناند السادس ١٧٤٦ — ١٧٥٩ ، وكان ميالا لإبرام الصلح ؛ وكانت القوات الفرنسية يومئذ تحتل الأراضى المنخفضة . وكان المتحاربون جميعاً فيما عدا ماريا تريزا يرغبون فى الصلح .

وقد تم الاتفاق عليه نهائياً فى معاهدة « إكس لا شابل » Aix-La- hapelle عام ١٧٤٨ .

١ — ضم فردريك إقليم سيليزيا الغنى ، وأصبح نتيجة لانتصاراته يتمتع بمركز ممتاز فى ألمانيا .

٢ — لم تتأثر النمسا كثيراً بهذا الصلح كما كان ينتظر ؛ فاحتفظت بسهل لمبارديا ولكنها وافقت على منح « دون فيليب » دوقية بارما ، كما أيدت مركز « دون كارلوس » Don Carlos ملكاً على الصقليتين ، وحققت ماريا تريزا أطماعها وهدفها الرئيسى عندما نجحت فى تنصيب زوجها امبراطوراً . وأفادت كثيراً من كسب محالفة كل من بافاريا وسكسونيا .

٣ — أما فى عالم الاستعمار فقد استعادت شركة الهند الشرقية الانجليزية مدراس فى الهند التى غزاها الفرنسيون عام ١٧٤٦ ، وفى مقابل ذلك استردت فرنسا لويزبرج (عاصمة كيب بريتون) التى غزاها الانجليز عام ١٧٤٥ . وكان من نتائج ذلك أن أعيدت الأراضى المنخفضة إلى النمسا .

لم تبين نتائج الصلح ، لمن تكون الغلبة فى عالم الاستعمار . وقد اشتدت المنافسة بين فرنسا وانجلترا شرقاً فى الهند وغرباً فى العالم الجديد .

ولم يحقق صلح أكس لاشابل فى عام ١٧٤٨ جميع الأغراض التى قامت بسببها حرب الوراثة النمسوية . حقيقة أنه أقر مشكلة العرش الامبراطورى ، ولكن مازالت مسألة سيليزيا وتنازل ماريا تريزا عنها لفردريك أمراً لا يرضيها بأى حال من الأحوال ،

كما أن المنافسة على إيطاليا لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الأراضى المنخفضة التى أعيدت إلى النمسا .

كما أن هذا الصلح لم يوضح تماماً الموقف الغامض بين انجلترا والبوربون على التنافس التجارى والاستعمارى .

أهم نتائج حرب الوراثة النمسوية :

١ — أصبحت بروسيا فى عداد الدول العظمى فى أوروبا . فتعهدت جميع الدول الموقعة على صلح أكس لاشابل بضمان حق بروسيا فى سيليزيا . وقد كان لاستيلائها عليها أثر كبير فى ازدياد ثروتها ، وعددها من الرجال . ومنحها موقعاً استراتيجياً عظيم الأهمية . على أن رغبة كل من النمسا والروسيا كانت قوية فى استرداد سيلزيا ، كما أن موقف بروسيا من حليفتها فرنسا أثناء الحرب قد جعل الأخيرة تفكر فى الانضمام إليها .

أصبحت سكسونيا ، وهانوفر ، والسويد من ألد أعداء بروسيا بسبب ما أصاب كلا منها بسببها من خسارة أو ما كانت تتوقعه من جانبها من خطر .

٢ — أثرت هذه الحرب فى الهولنديين فجعلتهم ينسون أيام عظمتهم عندما نجح النمسويون فى استعادة سلطانهم على الأراضى المنخفضة الجنوبية .

٣ — أما فرنسا التى كانت قد بدأت الحرب بإعلان سقوط أسرة الهبسبورج، فها هى الآن تتهيأ للاعتراف بامبراطور من الهبسبورج والضمان الوراثى . ومن ثم بدأت العلاقة بين فرنسا والنمسا تتغير ؛ فبدأ مستشارها الأعظم «كونتز » Kaunitz يخطب ود فرنسا ويرى فيها الحليف الطبيعي لبلاده . وكان قد اشترك فى مفاوضات الصلح. وأظهرت فرنسا أثناء الحرب قوتها عندما نصبت شارل السابع امبراطوراً ، وعندما ظهرت بروسيا كدولة عظمى ؛ فاستطاعت قوات فرنسا أن تتغلب على قوات انجلترا والنمسا وهولندا فى الأراضى المنخفضة ، وأن تستولى على قلاع Barrier Fortresses الحدود ، وانتصرت فى ثلاث مواقع عظمى واستولت على الأراضى المنخفضة فيما عدا لكسمبورج .

ومن العبث أن نقول أن فرنسا قد حطت من مركزها وقللت من قدرها عندما تنازلت عن انتصاراتها فى الأراضي المنخفضة كى تستعيد «كيب بريتون » Cape Breton

فقد تضافرت عدة عوامل على إضعاف مركز فرنسا ، منها ازدياد نفوذ جماعة الجزويت ، وزيادة نفوذ مدام « بمبادور» فى البلاط ، واتجاهات الفلاسفة الثورية ؛ كل ذلك كان من شأنه الحط من مركز لويس الخامس عشر ؛ وإن كان أثر ذلك كله لم يكن عميقاً يومئذ (فى عام ١٧٤٨) إذ كانت كلها عوامل حديثة . فكتاب روح القوانين « لمنتسكيو » كان معاصراً للصلح ، وقد كان من أعظم كتب ذلك العهد ؛ فكان فى تحليله الهادىء أكبر خطر أصبحت تتعرض له فرنسا ونظامها الاستبدادى .

٤ — أما بريطانيا فقد خرجت من صلح عام ١٧٤٨ دولة عظيمة ؛ فتعهدت أسبانيا بأن تستمر بريطانيا فى تمتعها بتلك المكانة التى كانت تتمتع بها من قبل فى تبادل التجارة معها ومع مستعمراتها ، كما أنها أمهلت ما يقرب من ربع قرن فيما يتعلق باستمرار سيطرتها على كل من جبل طارق ومنورقة ، ونجحت فى أن تحل محل « اليزابث فرنيز » فى أسبانيا ملكة موالية لسياسة بريطانيا . وأهم من هذا كله إن فرنسا لم تستطع حتى بعد معونة أسبانيا لها أن تنافس بريطانيا فى تجارتها عبر المحيطات .

كما أن الحرب قد أتاحت الفرصة لبريطانيا لتكون أسطولا قوياً وتدرب قواها البرية كذلك ؛ فأحرزت بذلك عدة انتصارات حربية منها انتصار لويزبرج ؛ على أنها هزمت فى « فونتنوى» Fontenoy .

وليس يفوتنا ماكان لاعتراف فرنسا وأوروبا عامة بحكم أسرة هانوفر فى انجلترا من نتائج ، ذلك أن تعهدت فرنسا بنفى المدعى على العرش البريطانى منها . واطمأنت بريطانيا إلى أمنها وسلامتها حين تنازلت فرنسا عن بعض انتصاراتها فى الأراضى المنخفضة ، ورضيت بعدم إقامة استحكامات فى دنكرك تجاه البحر .

وفى القارة الأوروبية وقعت بعض التغييرات التى كان من شأنها أن تؤثر على علاقاتها انجلترا الدولية فى المستقبل ؛ فاتضح ضعف الهولنديين ، كما ضعفت الصلة بين النمسا وانجلترا ، وأثبتت سردينا أهميتها بالنسبة لمصالح انجلترا ، وتوسعت العلاقات التجارية بين انجلترا وبروسيا .

أما التغيير الأكبر فكان فيما يتعلق بهانوفر التى بدأ يظهر اهتمام ملوك انجلترا بها نظراً لأنها كانت وطنهم الأصيل ؛ ويتضح ذلك فيما استقر فى النفوس من شائعات آيتها :

« أنه بينما جرأت بريطانيا على مواجهة فرنسا ، كان الملك يرتعد خوفاً على هانوفر » . « لقد أصبحنا مكتب أمن لهانوفر » .

واشتد بغض الشعب الانجليزى لهانوفر مما جعل الأنظار تتجه نحو عدو انجلترا ملك بروسيا ؛ فهو ملك بروتستنتى اتصف بالبطولة والشجاعة ، وله جيش على استعداد تام للحرب ، ولم تكن خدماته لفرنسا كثيرة ، كما أظهر استعداداً لتفهم المشاكل القائمة بين انجلترا وفرنسا . وهكذا كان الرأى العام البريطانى ورأى ساسة انجلترا يتجهان إلى إحداث تغيير فى علاقة انجلترا بدول أوروبا . وقد تبلورت هذه الفكرة فى يناير ١٧٥٥ .

فحرب الوراثة النمسوية لم ترق بصفة عامة للشعب الانجليزى . وكان وليم بت ، ذلك الخطيب البرلمانى المفوه ، والسياسى الأريب ، من المعارضين لسياسة انجلترا فى هذه الحرب بأسلوبها فى القارة الأوروبية بسبب تلك المعونات المالية التى كانت تنفقها انجلترا على الجيوش الألمانية من « هس » و « هانوفر » للدفاع عن إمارة هانوفر مما ترتب عليه فى نظر المعارضة نجاح فرنسا فى اجتياج الأراضى المنخفضة النمسوية ، والتمهيد لمحاولة اليعاقبة الفاشلة فى عام ١٧٤٥ ، ثم اضطرار المستعمرين الانجليز إلى التنازل عن لويزبورج (عاصمة كيب بريتون) لفرنسا لتتخلى عن الأراضى المنخفضة النمسوية لترد إلى النمسا حليفة انجلترا .

كل هذه أمور كان يجب أن تسوى ، وقد كان واضحاً أن الحرب المقبلة وحدها كفيلة بالإجابة عن هذه الأسئلة المعلقة التى أشرنا إليها وعجز عن توضيحها صلح « أكس لاشابل » .

الفصل الخامس

المرحلة الخامسة وهى حرب السنوات السبع

(١٧٥٦ – ١٧٦٣)

الانقلاب السياسى ١٧٥٦ :

سبق هذه الحرب حدث هام فى العلاقات الأوروبية يسميه المؤرخون الانقلاب السياسى لعام ١٧٥٦ .

وهو عندهم تعريف لذلك التغيير الجوهرى الذى حدث فى العلاقات الأوروبية عندما تحالفت كل من النمسا وفرنسا أى الهبسبورج والبوربون فى عام ١٧٥٦ ، بعد عداء استمر بين الدولتين ما يزيد على قرنين ونصف قرن ؛ وتمثل هذا العداء بوضوح فيما يأتى : الحروب الإيطالية وقعت بين عامى ١٤٩٤ ، ١٥٥٩ ؛ فكانت هذه هى الحلقة الأولى من سلسلة الصراع الأسرى بين أسرتى الفالوا والهبسبورج . وإذا كان هذا الصراع قد توقف بعض الوقت أثناء الحروب الدينية فى فرنسا بين عامى ١٥٦٠ – ١٥٩٨ ، فإن الامر لم يخل من محاولات لاستئناف ذلك الصراع بطريقة غير مباشرة ، فالواضح من دراسة الحروب الدينية فى فرنسا أنه كان لفيليب الثانى ملك أسبانيا أطماع فى عرش الفالوا . وكادت الحرب تقع بسبب الخلاف على عرش « كليف جوليش » فى نهاية عهد هنرى الرابع بين البوربون والهبسبورج(١) ، ولكن مصرعه فى عام ١٦١٠ حال دون ذلك ، واستؤنف الصراع بين الاسرتين فى عهد كل من ريشيليو ومزران أثناء حرب الثلاثين عاماً عاماً (من ١٦١٨ – ١٦٤٨) ، وتلك كانت مرحلة هامة من مراحل الصراع بين البيتين . وقد بدأ بطريقة غير مباشرة قبل سنة ١٦٣٥ . ويظل هذا الصراع قائماً حتى يدرك عهد لويس الرابع عشر ، ثم ينتهى بمعاهدة يوترخت ١٧١٣ .

---

(١) انظر ص ١٧٠ .

وكان من نتائج هذا الصراع أن يفوز فرع من بيت البوربون بأسبانيا كذلك . ويستمر هذا الصراع أثناء حرب الوراثة البولندية بين عامى ١٧٣٣ و ١٧٣٩ وأثناء حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ١٧٤٨) . وبعد ذلك الصراع الطويل والعداء المستحكم تنضم النمسا إلى فرنسا بينما تنضم بروسيا إلى انجلترا . فما هى العوامل التى أدت إلى ذلك الانقلاب فى العلاقات الدولية ؟

أهم العوامل التى أدت إلى الانقلاب السياسى :

١ — تهديد أسرة الهوهنزلرن لاسرة الهبسبورج :

تبين مستشار النمسا الاعظم وهو « كاونتز » Kaunitz بعد أحداث حرب الوراثة النمساوية أن علو الامبراطورية لم يعد بيت البوربون كما كان من قبل وإنما هناك علو أكبر وهو بيت الهوهنزلرن فى بروسيا فأقنع الامبراطورة « ماريا تريزا » بأن الامر يقتضيها أن تعد نفسها لمواجهة ذلك الخصم القوى العنيد الذى كان يستميت أثناء أحداث حرب الوراثة النمساوية فى سبيل الحصول على إقليم سيليزيا . وكانت انجلترا — وهى دولة تعتمد على قواها البحرية — حليفة النمسا التقليدية فيما مضى ، وكانت تستأجر القوات الألمانية من إقليم « هس كاسل » و « هانوفر » لتحقيق عملياتها العسكرية فى القارة الأوروبية .

رأى « كاونتز » أن فرنسا هى الدولة البرية الوحيدة القوية التى يمكن للنمسا الاعتماد على قواها لتقف حائلا دون استفحال الخطر البروسى على الامبراطورية ، كما لاحظ أن انجلترا لم تقدم لحليفتها النمسا المساعدة اللازمة أثناء حرب الوراثة النمساوية ولذلك عندما طلبت انجلترا من حليفتها النمسا إعداد قوات خاصة للمحافظة على إمارة هانوفر طالبت النمسا انجلترا بمبالغ ضخمة للقيام بذلك ، وكانت النمسا تعلم أن البرلمان الانجليزى الذى جهر بعدائه لسياسة المحافظة على هانوفر لن يقبل الموافقة على تلك الأموال وفعلا رفض البرلمان الإنجليزى الموافقة عليها .

وحاول « كاونتز » سنة ١٧٥٠ — عندما كان سفيرا لبلاده فى باريس — أن يعقد محالفة بين الهابسبورج والبوربون فى فرنسا ولكنه فشل فى ذلك ، فلم تكن فرنسا على استعداد لكى تلبى نداءه على الرغم من أنها قد استاءت كثيرا من تصرفات حليفها

فردريك الثانى أثناء أحداث حرب الوراثة النمساوية بسبب دخوله الحرب تارة وانقطاعه عنها تارة أخرى ثم استئنافه القتال دون أخذ رأيها ، كل ذلك لتحقيق أغراضه الشخصية دون مراعاة لحليفته .

٢ — استرداد سيليزيا :

كان هذا الأمر هاماً بالنسبة للنمسا التى كانت ترى عندئذ عدم جدوى التحالف مع انجلترا لأنها لن تمدها بالقوات اللازمة لاسترداد سيليزيا من بروسيا . وقد تبين للنمسا كذلك أثناء حرب الوراثة النمساوية أن انجلترا لم تقدم لها المساعدة اللازمة.

٣ — خوف فردريك من عدوان الروسيا :

لم تكن فرنسا هى البادئة فى قيام تلك الثورة الدبلوماسية وإنما كان فردريك الثانى أول من بدأها ، لأنه كان يرى فى الانضمام إلى انجلترا خدمة لمصالح بلاده التى كانت تخشى إتساع النفوذ الروسى ، ذلك لأن أملاك الروسيا كانت متاخمة لروسيا الشرقية . ومن السهل على القوات الروسية أن تهاجم بروسيا التى لم تكن لها حدود طبيعية تحميها . وقد نما إلى علم ملكها أن هناك معاهـــدة وقعت فى عام ١٧٥٥ بين انجلترا وروسيا ، فرأى أن ينضم إلى انجلترا حتى يفيد من هذا التحالف الروسى الإنجليزى . وكانت انجلترا على استعداد لتلبيـــة نداء فردريك الثانى فى التحالف معه بدلا من التحالف مع النمسا ، وفى العامل التالى تفسير لذلك .

٤ — الدفاع عن هانوفر :

تبين للملك انجلترا رفض برلمانه الموافقة على إمداد النمســا بالنفقات اللازمة للمحافظة على هانوفر وقلاع الأراضى المنخفضة ، فأخذ يبحث عن وسيلة أخرى لتحقيق هذا الهدف ، لقيها فى قبول الاتفاق مع فردريك الثانى ، إذ كان فى إمكان هذا الدفاع عن هانوفر دون نفقات كبيرة نظراً لوقوعها على مقربة من أملاكه .

معاهدة وستمنستر فى يناير ١٧٥٦ :

أدت العوامل السابقة جميعاً إلى عقد معاهدة « وستمنستر » بين انجلترا وبروسيا. وكانت هذه المعاهدة هى الخطوة الأولى فى أحداث الانقلاب السياسى . ولم تكد هذه المعاهدة تتم حتى رأت الروسيا فى ذلك مخرجاً من معاهدتها مع انجلترا ، لأن

الروسيا كانت تعتبر بروسيا عدوها الأكبر فانضمت إلى الفريق الآخر. وهنا تشجع « كاونتز » فعرض على فرنسا مطلبه القديم ، وهو عقد تحالف بين الهابسبورج والبوربون . ولم تجد فرنسا مفراً من قبول هذا العرض ، إذ تبين لها أن فردريك الثانى قد تعاقد مع عدوتها انجلترا ، فعقدت معاهدة فرساى الأولى فى مايو ١٧٥٦ بين فرنسا والنمسا . وفيها تعهدت فرنسا بألا تهاجم الأراضى المنخفضة الجنوبية على الرغم مما فى تعهدها هذا من خسارة . كما تعهدت أن تكون إلى جانب النمسا فى المعارك الأوروبية ، وتلك خسارة أخرى لفرنسا ، إذا كانت على وشك أن تدخل الصراع الحاسم ضد انجلترا ، وكانت أحوج ما تكون إلى تركيز جهودها وأعمالها الحربية فى المستعمرات . ولكن القدر أراد لفرنسا أن توزع جهودها فى ميدانين أحدهما فى أوروبا ويتمثل فى مساعدة النمسا والثانى فى الميادين الاستعمارية حيث كانت المنافسة على أشدها بين فرنسا وانجلترا كما خسرت خسارة أخرى تتمثل فى فقد ميدانها السهل فى الأراضى المنخفضة . وقد كان لها فيه كسب لا يعوض ، آيته حظها من الاستيلاء على بعض البقاع الهامة فى المستعمرات .

حرب السنوات السبع ١٧٥٦ – ١٧٦٣

العوامل التى أدت إلى وقوع هذه الحرب :

كان العامل الأساسى الذى تسبب فى قيام هذه الحرب هو احتدام المنافسة الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا فى ميادينها المختلفة فى المناطق الآتية : جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية فى الغرب – حيث تأزم الموقف بين المستعمرين الانجليز والفرنسيين – فبات ينذر بوقوع حرب صريحة بين الدولتين حتى يتقرر مصير هذه المستعمرات وحتى يتبين لمن تكون الزعامة ، أتكون لفرنسا أم لانجلترا .

كان العامل الاستعمارى لحرب السنوات السبع هو العامل الأساسى ، ولكن هذه الحرب لم تلبث أن تعددت أغراضها ثم تطورت بسبب عوامل مختلفة ، فلم تقتصر هذه الحرب على فرنسا وانجلترا أو على تقرير مصير المستعمرات المتنافس عليها ، وإنما أضيفت إلى ذلك عوامل أخرى ظهرت بطبيعة الحال بسبب علاقات الصداقة والعداء بين دول أوروبا المختلفة ، فالنمسا قد بادرت بالانضمام إلى فرنسا وسعت إلى ذلك سعياً حثيثاً . منذ سنة ١٧٥٠ لأنها لم تكن راضية عما قرره صلح أكس لاشابل بشأن الموافقة على استيلاء بروسيا على سيليزيا ، كما أن مصير إيطاليا لم يتحدد بعد ، فعلى الرغم من أن أسبانيا قد استطاعت أن تعدل فى بعض شروط اكس لاشابل فإن لمبارديا لاتزال تحت سيطرة النمسا .

من مظاهر التنافس الاستعمارى بين انجلترا وفرنسا فى أمريكا الشمالية :

كان موقف الاستعمار فى العالم الجديد لا يحتمل الانتظار ، ويجب أن نرجع مع بداية القرن الثامن عشر عند عقد صلح يوترخت ، وكانت فرنسا لا تزال تسيطر على كندا وعلى جزيرة كيب بريتون عند مدخل سانت لورانس وعاصمتها لويزبرج وتسيطر كذلك على إقليم لويز يانا والمنطقة المحيطة بنهر المسيسبى والممتدة جنوباً حتى خليج المكسيك وكانت فرنسا أوفر حظا من منافستها انجلترا إذ أن انجلترا

لم تكن تسيطر إلا على الشريط الضيق الممتد على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية جنوبى حوض نهر سانت لورانس حتى شبه جزيرة فلوريدا فى الجنوب (عند مدخل خليج المكسيك) . ويضم ثلاث عشرة ولاية ، وقد أضافت إليها بعض الأملاك التى كانت تابعة لفرنسا وهى المنطقة الممتدة حول خليج هدسون، وجزيرة نيوفوندلاند وشبة جزيرة أكاديا ، على أن معاهدة يوترخت قد فاتها أن تعين على وجه الدقة الحدود بين أملاك انجلترا فى شبه جزيرة أكاديا وأملاك فرنسا فى كندا . وسبب ذلك وقوع المناوشات بين الفريقين . على أن الالتحام عندما وقع بين الطرفين، وأدى إلى وقوع حرب السنوات السبع لم يكن فى هذه المنطقة وإنما كان فى منطقة أخرى فى الجنوب منها عند نهر « الأهيو » Ohio ، ذلك لأن المستعمرين الفرنسيين قد اعتمدوا فى تدعيم نفوذهم فى المستعمرات الفرنسية على إقامة بعض المواقع الاستراتيجية فى أملاكهم سواء فى كندا أم فى لويزيانا ، ومن ضمن هذه المواقع التى استطاعوا إقامتها كانت « كويبك » Quepec و « مونتريال » Monterial و « نياجرا » Niagra و « دوكين » Duquesne و « نيوأورليانز » فى لويزيانا عند مصب نهر المسيسبى فى الجنوب .

ونجحت فى أن تولى هذه المستعمرات نخبة ممتازة من القادة والحكام مثل « دوكين » الذى أقام حصنا يحمل اسمه ، ولما كان هذا الموقع عند التقاء نهر الأهيو بالمسيسبى فى نقطة حساسة ، وتقع غربى المستعمرات الانجليزية مباشرة فقدأصبحت الأخيرة مهددة من جانب المستعمرين الفرنسيين.

كما ترتب على ذلك تعويق أى تقدم لستعمارى للانجليز غربا داخل القارة الجديدة ، ولم يصبح هذا الأمر هو الذى يهدد المستعمرات الانجليزية بل أصبح من الممكن استغلال هذه النقط الدفاعية فى استبعاد المستعمرين الانجليز من مستعمراتهم على طول الساحل الشرقى الأمريكى وطردهم منها ومعنى ذلك القضاء على الاستعمار الانجليزى فى أمريكا الشمالية . لذلك تقدم القائد الانجليزى «برادوك» Braddoch على رأس فرقتين ليحطم قاعدة « دوكين » للقضاء على هذا الخطر ، ولم تكن الحرب قد أعلنت بعد بين انجلترا وفرنسا ، ولكن هذه الحملة فشلت وقتل القائد فى الموقعة وثبت الفرنسيون فى مستعمراتهم .

أرسلت فرنسا بعد ذلك أسطولها ليستولى على جزيرة مينورقة فى البحر المتوسط ، وفعلا سقطت هذه الجزيرة فى يد فرنسا وبعد ذلك وفى عام ١٧٥٦ أعلنت الحرب بين فرنسا وانجلترا. ومن هنا يتضح لنا أن الحرب عندما بدأت كانت حربا استعمارية اقتضتها الظروف التى أحاطت بكل من المستعمرات الفرنسية والإنجليزية فى العالم الجديد .

وإذا تطلعنا إلى المنطقة الثانية للمنافسة الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا نجدها تقع فى جزر الهند الغربية ونلاحظ هنا أيضا أن فرنسا كانت متفوقة تفوقا عظيما على انجلترا بسبب ما كانت تسيطر عليه من جزر ، منها جزيرة « مارتينيك » Martinique و « جرناده » ، وجزيرة « توباجو » Tobago » وسانت فانسان « Sant Vincent على حين لم يكن لانجلترا فى تلك المنطقة إلا نفوذ محدود لا يعدو أثره جزيرة « بربادوس » Barbados .

أما السبب الرئيسى الذى منع انجلترا من الوقوف فى سبيل فرنسا فى هذه المنطقة فقد كان مرجعه إلى عامل اقتصادى يخص تجار السكر فى انجلترا ، ذلك لأنها كانت تخشى أن يؤدى اتساع نفوذها فى هذه المنطقة إلى انخفاض سعر السكر فيها نتيجة لتدفق كميات وفيرة منه إلى انجلترا .

المنطقة الثالثة :

كانت الهند ميدان التنافس الثالث بين الدولتين حيث استطاعت انجلترا وفرنسا أن تمكنا لأنفسهما تجاريا بسبب المنازعات العديدة التى كانت تقع بين حكام الهند ؛ فاستطاعت فرنسا أن تسيطر على منطقة الساحل الجنوبى الشرقى للهند المعروفة بساحل « كرومندل » ومن أهم مراكز التجارة فيها « بندتشيرى » Pondicherrey وكانت « بنجال » من مراكزها الهامة حيث أسست شركة الهند الشرقية الفرنسية على أن هذه الشركة لم تصل إلى ما وصلت إليه شركة الهند الشرقية الإنجليزية الموجودة فى كلكتا. أما على الساحل الغربى للهند فكانت انجلترا تتمتع بنفوذ عظيم بسبب سيطرتها على « بومبى » ، ومن ذلك يتبين أن انجلترا كانت متفوقة على فرنسا فى الميدان الثالث وهو ميدان تجارى بحت فى الهند .

ميادين حرب السنوات السبع :

وقعت الحرب فى ميادين ثلاثة: فى ألمانيا وهو أشهر ميادينها وفى عرض البحار ثم فى الهند وأمريكا الشمالية . فميادين هذه الحرب كما نرى تختلف بعضها عن بعض وتأثرت مواقعها باختلاف تلك الميادين ، وارتبطت نتيجتها النهائية بما حدث فى كل من المناطق الثلاث . ففردريك الأكبر قد انتصر على فرنسا على نهر الإلب ،وفازت حليفته انجلترا بكندا فى العالم الجديد . ومن هنا يردد المؤرخون بأن انجلترا فازت بكندا على ضفاف الإلب ، ويقصد بذلك أن فردريك الثانى قد شغل فرنسا بالحرب فى ألمانيا وأضعفها على ضفاف الإلب فأتاح لانجلترا فرصة الفوز والانتصار فى أمريكا الشمالية . وفردريك فى الواقع قد أنزل بفرنسا هزيمة ساحقة فى موقعة « روسباخ » Rossbach سنة ١٧٥٧ . ولاشك أنه كان لهذه الموقعة أهميتها العظمى لا فى تاريخ المنافسة الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا فحسب بل فى تاريخ فرنسا وقوتها الحربية . كما أصيبت جيوش فرنسا كذلك بالعجز أثناء هذه الحرب فى أوروبا .

الحرب فى ألمانيا :

فى شتاء ١٧٥٦ — ١٧٥٧ ركز النمساويون قواهم الرئيسية فى بوهيميا فى الوقت الذى أخذت فيه بعض القوى الروسية تتدفق من الشرق . ووافق لويس الخامس عشر حليف الروسيا والنمسا على أن يجتاح ألمانيا الغربية وأن يصوب ضرباته نحو «مجدبرج» Magdburg على حدود بروسيا وهانوفر . وبادر فردريك الثانى بتوجيه ضرباته إلى النمساويين فى بوهيميا ، وكانوا ألد أعدائه وأقربهم من أملاكه قبل وصول القوات الفرنسية والروسية . فعل ذلك مبتدئا بحدود سكسونيا وسيليزيا . وقرر أن يركز هجومه على براج ، فكانت واقعة « كولن » Kollin فى ٦ مايو ١٧٥٧ ، وكان شارل دوق اللورين يقود القوات النمساوية على بعد خمسين ميلا جنوب شرق براج وكانت الموقعة فى بدايتها نصرا لبروسيا ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى هزيمة عند وصول مدد نمساوى تحت قيادة « دون » Daun وتحرج بذلك موقف فردريك لقلة عدد قواته التى لم تكن تتجاوز ٣٣٫٠٠٠ مقاتل بينما كانت القوات النمساوية تبلغ ٥٤٫٠٠٠ ، مع العلم بأن الجيش الفرنسى كان فى طريقه إلى مجد برج . ولحسن حظ فردريك أن القائد «دون» لم يحاول الاستفادة من هذا النصر بمتابعة جيوش فردريك.

وبليت قوات حلفاء فردريك كذلك بسوء الطالع ، ذلك أنه عندما وصلت القوات الفرنسية إلى هانوفر ، وهزمت « دوق كمبرلاند » Duke of Cumberland في « هستنبك » Hastenbeck في يوليو ١٧٥٧ واضطر دوق كمبرلاند أن يعقد اتفاقية « كلوستر سفن » Klostereseven معلنا فيها الموافقة على حياد هانوفر .

أصبح فردريك في مركز شديد الخطورة . فقد أغار الروس على بروسيا الشرقية بينما رابطت قوات النمسا بين سكسونيا وسيليزيا ، كما تلاقى جيشا فرنسا ، أحدهما تحت قيادة ريشيليو والآخر تحت قيادة «سوبيس» Soubise في«ثورنجيا» Thuringia وانتهى إلى فردريك أن النمساويين يقتربون من برلين .

وبعد تردد لم يطل مداه قررا فردريك أن يصوب ضرباته نحو الفرنسيين ، فهزم « سوبيس » في ٥ نوفمبر ١٧٥٧ هزيمة فادحة في «روسباخ» Rossbach وترتب على هذا الانتصار العظيم أن فردريك قد أزاح من طريقه القوات الفرنسية حتى نهاية الحرب كما كان من نتائجه أن رفضت الحكومة الانجليزية التصديق على اتفاقية « كلوستر سفن » واعتبر جيش هانوفر جيشا فعالا . كانت روسباخ أكثر من مجرد هزيمة ؛ لقد كانت مصيبة فادحة ، لم يتأثر بها الجيش الفرنسى فحسب بل كذلك مكانة فرنسا في أوروبا ؛ فلم تتعرض جيوش فرنسا لفردريك بعد ذلك . ولم يكن وصف نابليون لهذه الموقعة بعيداً عن الحق ، فقد ذكر أن هزيمة روسباخ كانت من عوامل وقوع الثورة . واستطاع فرديناند دوق « برنزويك » الذى خلف كمبرلاند في القيادة في عام ١٧٥٨ أن يطرد الفرنسيين من هانوفر وأن يهزم الأعداء في واقعة « مندن » Ninden في العام التالى في أغسطس ١٧٥٩ .

استطاع فردريك بعد ذلك الانتصار الحاسم في روسباخ أن يتقدم بجيوشه شرقا لملاقاة النمسويين ؛ حيث كان من جيوشها في سيليزيا مائة ألف مقاتل . وكانت « برسلو » Breslau في أيديهم ، وعلى الرغم من تفوق أعدادهم صمم ملك بروسيا على مهاجمتها . فأحرز نصراً عظيما في واقعة « لوثن » Ieuthen في ديسمبر ١٧٥٧ . ونجح بالتالى في السيطرة على سيليزيا ، ومن ثم أصبح الطريق مفتوحاً إلى فيينا . ولكنه لم يكن يملك قوة تساعده على القيام بهذه المغامرة ، فقرر أن يتقدم شمالا ليواجه القوات السويدية التى نزلت في بوميرانيا ، واستطاع أن يقضى الشتاء هناك .

وفى عام ١٧٥٩ هزمت القوات الروسية قوات بروسيا هزيمة فادحة فى واقعة « كنرزدورف » Kunersdorf ؛ وقد بلغ من يأس فردريك أن فكر فى الانتحار ولكنه لم يلبث أن أحرز نصراً على القوات النمساوية فى موقعة « ترجاو » Torgau سنة ١٧٦٠ ، وظل بعد ذلك عاماً كاملا (١٧٦١) يقف موقف المدافع. وكان لموت اليزابيث قيصرة الروسيا فى يناير ١٧٦٢ أثر فى تغيير التوازن الدولى ، وذلك لأن خليفتها بطرس الثالث كان من أشــد المعجبين بفردريك الثانى والمتحمسين لبطولته ، فأصدر أوامره بسحب الجيوش الروسية من ميدان الحرب . وهنا أتيحت الفرصة لفردريك ليركز جهوده ضد أعدائه النمساويين . وفى ١٥ فبراير ١٧٦٣ عقد صلح « هيوبرتزبرج » Hubertsberg بين بروسيا والنمسا والروسيا بينما أنهى صلح باريس فى عام ١٧٦٣ الحرب بين فرنسا وانجلترا وأسبانيا .

انجلترا وحرب السنوات السبع :

كان حظ انجلترا من حرب السنوات السبع سلسلة من الانتصارات بدأت عام ١٧٥٩ ، ويرجع ذلك إلى مجهودات وليم بت William Pitt العظيمة فى مطلع أيام وزارة بت ونيوكاسل Pitt-Newcastle الشهيرة عام ١٧٥٧ ، وفيها كان اهتمام نيوكاسل منصباً على المحافظة على مركزه ، بينما كان « بت » Pitt يسعى إلى السلطة وإلى تأييد مجلس العموم الذى كان يتمتع به نيوكاسل .

أصبح بت « منظم الانتصارات » ، بعد الذى نزل بانجلترا من مصائب وحل بها من خسائر فى عامى ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ — ولكن كان لانتصارات فردريك فى روسباخ Rossgach وفى لوثن Ieulhen أثرها فى انجلترا ، فعقدت اتفاقا جديدا مع فردريك ملك بروسيا ؛ ذلك أن « بت » Pitt الذى هزأ من فردريك فيما قبل تبين عظمته وقيمة انتصاراته المتتابعة فى القارة ، فاتفق على أن يعاون جيش هانوفر الذى تموله انجلترا وقد عرف الدور الذى قام به هذا الجيش تحت قيادة دوق « برنزويك » Brunsuick

ومهما يكن من أمر فإن الهدف الرئيسى لسياسة بت كان السيطرة على أمريكا ، ولذلك جعل اجراءاته كافة تتصل بتحقيق هذا الغرض . وقد أحرزت جيوشه انتصارات عظيمة فى أمريكا ، فسقطت « لويزبرج » ، وتم الاستيلاء على قلعة

« دوكين » Duquene التى أصبح يطلق عليها قلعة بتسبرج أى قلعة بت . وبلغت الانتصارات القمة فى عام ١٧٥٩ عندما سقطت « كويبك » . وتلتها « منتريال » بعد عام ، ووضعت انجلترا يدها على ممتلكات فرنسا فى جزر الهند الغربية. ولكن لم يلبث أن تغير الموقف بموت جورج الثانى فى أكتوبر ١٧٦٠ ، إذ كانت آراء جورج الثالث تختلف عن آراء « بت » من حيث أن الأول كان يرغب فى عقد صلح سريع مع فرنسا ليتفرغ لإنجاز مشاريعه فى الحكم ، وعلى ذلك نجد الملك جورج الثالث ووزيره « بيوت » Bute الذى بلغ منصب الوزارة فى ١٧٦١ يسعيان للحصول على الصلح مهما اقتضى أمر ذلك انجلترا من جهود ونفقات .

كان « بت » يرى أن عقد الصلح مع فرنسا فى هذه الآونة أمر مستحيل : فالحرب لابد أن تستمر بين الطرفين وأن تمتد بعض الوقت بسبب ذلك الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وأسبانيا ، وهو ما يعرف « بالاتفاق الأسرى الثالث » فى ١٧٦١(١) .

كان « شوازول » باستمراره فى المفاوضات إنما يعمل على إخفاء نواياه الخاصة بالاستمرار فى الحرب حتى ينال صلحاً مشرفاً ، ولكن وليم « بت » كان على علم بهذا الإتفاق ، ولذلك كان يصر على إعلان الحرب على أسبانيا حتى يقضى على مشاريع « شوازول » ، ويضع يده على الأسطول الأسبانى المشحون بالذهب والفضة فى طريق عودته إلى أسبانيا من أمريكا ، ولكنه اضطر إلى الاستقالة لأن سائر الوزراء فيما عدا « تمبل » Temple لم يوافقوا على سياسته . وقد أبى أن يستمر فى منصبه فيؤاخذ فى النهاية على نتائج السياسة التى لم يكن موافقاً عليها ، وكان فى ذلك بداية لظهور مبدأ المسئولية الوزارية التى لم تلبث أن نمت وتدعمت جنباً إلى جنب مع المسئولية الجماعية .

استمرت الحرب بعد استقالة « بت » ، وكان يتنبأ بذلك بعد أن فشلت مفاوضات الصلح فى هذه المرحلة ، واشتركت أسبانيا فى الحرب إلى جانب فرنسا كما تنبأ « بت » ، واستمرت الانتصارات التى كان قد خطط لها « بت » من قبل ، وكانت الحملة الموجهة ضد جزيرة « بل إيل » Belleisle ضربة قضت على العزة الفرنسية ، وكذلك استولت انجلترا على هفانا فى جزر الهند الغربية وعلى « مانيلا » Manila فى جزر الهند

(١) انظر الاتفاق الأسرى الأول ص ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، والثانى ص ٢٧٣ .

الشرقية من أملاك أسبانيا . كما سقطت « مارتنيك » Martinique وغيرها من الجزر الأسبانية والفرنسية فى يد انجلترا .

وانتهت المفاوضات التى بدأتها انجلترا بوساطة المبعوثين السردينيين فى كل من لندن وباريس بما يعرف بصلح باريس فى ١٠ فبراير ١٧٦٣ . وبعد ذلك مباشرة عقد صلح « هيوبرتسبرج » .

صلح باريس ١٧٦٣ (١):

انجلترا : حصلت انجلترا بمقتضاه على كندا Conada « وكيب بريتون » CapeBreton ، ولم تعد فرنسا تملك فى تلك البقاع إلا بعض الحقوق لصيد الأسماك فى مناطق معينة من سواحل نيوفوندلند، كما منحت جزيرتى « ميكولون » Miquelon و « سانت بيير » St. Pierre لايواء صيادى السمك فى موسم الصيد . وكان لهذه المصايد أهمية استراتيجية واقتصادية . فمن الناحية الإستراتيجية كانت مدرسة صالحة لتدريب رجال البحرية الإنجليزية نظرا لإشتهار تلك البقاع بانتشار الضباب وسوء الأحوال الجوية والملاحية فيها .

وأما من الناحية الإقتصادية فقد كانت تجارة الأسماك مربحة للغاية ولاسيما أن المسيحيين فى غربى أوروبا كانوا يقتصرون فى غذائهم أيام الصيام على أكل الأسماك.

احتفظت انجلترا فى منطقة جزر الهند الغربية بجزر « سانت فنسان » St. Vincent و « توباجو » Tobagu و « دومينيكا » و « جرونادين » Grenadians

كما احتفظت انجلترا بالسنغال واستردت جزيرة مينورقا . وتنازلت لها أسبانيا عن فلوريدا فى نظير استعادة الأخيرة لهافانا و « مانيلا » من أسبانيا .

أما فرنسا : فاستردت « مارتينيك » Martinique و « جواديلوب » Guadeloupe واستردت جزيرة « جوريه » Gorée ، كما استردت بعض مراكزها التجارية فى الهند .

---

(١) أنظر تفاصيل الصلح فى المؤلف التالى :
Z.E. Rashed, The Peace of Paris 1763, Liverpool 1951.

لم يلق هذا الصلح ترحيبا من الرأى العام البريطانى ، ذلك لأنه كان فى نظره لايتفق مع ما أحرزته إنجلترا من انتصارات عديدة فى ميادين الحرب المختلفة ، ولأنه أعاد إلى فرنسا كثيراً من مستعمراتها فى جزر الهند الغربية وكثيراً من أرباحها التجارية فى الهند ، مما جعلها تهدد انجلترا من جديد ، وتصبح عدواً خطيرا لها . وكان الرأى العام الإنجليزى — كما رأى « بت » — ستجها نحو حرمان فرنسا من مستعمراتها والقضاء عليها كقوة بحرية أملا فى أن يقضى عليها قضاء تاما ، فلاتقوم لها قائمة أمام انجلترا .

أسبانيا وصلح باريس :

فقدت أسبانيا الكثير بدخولها هذه الحرب فى مرحلتها الاخيرة ضد انجلترا ابرغم أنها كانت تنتهج سياسة حكيمة ، فهى قد فقدت فلوريدا وإن كانت قد عوضت عنها بجزء من لويزيانا بتنازل من فرنسا . ومع ذلك فإن جميع الأغراض التى عمل على تحقيقها ملكها شارل الثالث بدخوله تلك الحرب لم تتحقق ، فنقاط النزاع الثلاث القائمة بين أسبانيا وانجلترا سويت لصالح انجلترا دون مراعاة لمصالح أسبانيا .

ويرى بعض النقاد رغم ذلك أن انجلترا أخطأت حين ردت هافانا الغنية إلى أسبانيا ورضيت بفلوريدا القاحلة بديلا عنها ، وإن كان الواقع أن انجلترا لم تفقد بعملها هذا كثيراً فبحسبنا أن نذكر احتفاظها بالامتيازات التى حصلت عليها فى الاتجار مع أسبانيا ومستعمراتها منذ نهاية القرن ١٧ على الرغم من أن شارل الثالث ملك أسبانيا وقتئذ كان يعارض فى تجديد تلك الامتيازات بين الدولتين .

الفصل السادس

الملكية المستبدة المستنيرة فى روسيا
فى القرن الثامن عشر

عرفت فى عهد كل من بطرس الأكبر (١٦٨٢–١٧٢٥) وكاترين الثانية أو العظمى (١٧٦٢–١٧٩٦) فانها كانت ملكية استبدادية ولكنها كانت فى الوقت نفسه مستنيرة.

روسيا فى عهد بطرس الأكبر (١٦٨٢ – ١٧٢٥) :

اختلفت حياة الشعب الروسى عن حياة شعوب أوروبا الغربية فى سائر النواحى، إذ كان لروسيا أسلوبها الخاص فى الحياة وطريقتها فى التفكير وظروفها التاريخية الخاصة . فبينما كان المعاصرون للويس الرابع عشر فى كل من باريس ولندن ينعمون بمباهج المجتمع الراقى، كان الروس فى عاصمتهم تغمرهم همجية الحياة المظلمة من جميع أقطارها . فلم تعرف عندهم حرية الفكر، فتاريخ الروس منذ بداية القرن الرابع عشر حتى عهد بطرس الأكبر فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر كان عبارة عن سلسلة متصله من الحروب ضد التتر . الذين شنوا هجومهم على الروس من الشرق، وضد هجمات السويديين والبولنديين فيما بعد . كان الصراع بين البولنديين والروس يقوم على أساس دينى قوى، ذلك لأنه بينما كان البولنديون حماة للكاثوليكية فى شرق أوروبا، كان قياصرة روسيا حماة للكنيسة الأرثوذكسية. وظلت روسيا كذلك بعيدة عن الحياة الأوروبية إلى أن ولى شئونها بطرس الأكبر فأدرك أن عزلة روسيا عن سائر دول أوروبا لا يمكن أن تستمر طويلا .

لم يقبض بطرس الأكبر على زمام السلطة فعلا إلا فى عام ١٦٨٩ عند ما خلص من سلطة أخته، وتحرر من وصايتها عليه . كان يرى أن بلاده لكى تتقدم وتنهض يجب أن تقتبس عن الغرب أشياء كثيرة . كما تبين له أن روسيا فى حاجة إلى نوافذ ومخارج على غرب أوروبا والبحر الأسود لكى تحصل منها روسيا على شعاع المدنية والحضارة . على أن المنافذ المطلة على بحر البلطيق كانت تسيطر عليها السويد فى الشمال بينما كانت المنافذ الجنوبية على البحر الأسود تسيطر عليها الدولة العثمانية .

لم يسبق بطرس الأكبر فى سلوكه التقدمى وشجاعته وإقدامه واحد من أسلافه ، أغرم بركوب البحر والجراحة ومارس صناعة السفن وفنون النقش . وعرف بالشراسة فى سلوكه وتنفيذ أغراضه حتى وصفه المؤرخون بأنه كان هوائيا متقلبا ، ومن أمثلة ذلك أنه سجن شقيقته وطرد زوجه الأولى ونبش قبر عمه ومثل برفاته . ولماخشى النكسة على سياسته النزاعة إلى الاقتباس من الغرب قتل ابنه الرجعى بعد أن أنزل به ضروبا من التعذيب البشع . وكان بطرس فى واقع الأمر يمثل فى تناقضه خلاصة قومه وما عرفوا به من تناقض فى العمل ومزاج حاد ، وشهوات جامحة وألفة كريمة .

وقد وجه جهوده إلى بناء جيش قوى لا يقل فى كفايته عن الجيش النمسوى ، وأسطول مثالى كالأسطول الهولندى ، وإنشاء إدارة حكومية على طراز ما عرف فى السويد ، والواقع كان بطرس صاحب نزعة تقدمية لا يريد لشعبه أن يتخلف عن شعوب الغرب ، فدفعه إلى التقدم العلمى ، ونزع بحياته إلى الرخاء المادى الذى كان سائدا فى الغرب وإن كان قد فاته أن يخفف عن بؤس الفقراء ، وأن يحقق العدالة الاجتماعية كما ينبغى ، على أنه بعد جهود متصلة استغرقت أيام حياته قد وفق إلى رفع مستوى الحياة فى روسيا .

ومن الوسائل التى اتخذها فى تلك السبيل أنه سافر إلى غرب أوروبا فى عام ١٦٩٧ . ليرى بنفسه ويعمل بيديه ويشارك فى سائر أعمال الغربيين ، فكان ذلك حدثا فاصلا فى تاريخ الروسيا . تأثر بهذه الرحلة التى تبين فيها أن أهل الغرب على علم تام بفن الحياة الذى لم تكن تعرفه روسيا . ولا تدرك شيئا من أسراره ومزاياه . رأى أن الغربيين قادرون على بناء السفن وصناعة أدوات القتال وعتاد الحرب . كما تبين خبرتهم فى الشئون الاقتصادية ، ووجوه الحياة التى ينبغى أن ينفق فيها المال ليجعل الحياة سهلة ميسرة يتذوق الناس مافيها من حياة ولذة . ومن الوسائل الأساسية التى أعانت الغربيين على إدراك ما أدركوا من متاع الحياة معرفتهم القراءة والكتابة . وليجعل السبيل بين روسيا وبلاد الغرب سهلة ميسرة شيد عاصمته المعروفة على بحر البلطيق وأسماها « سان بطرسبورج » « لننجراد الحالية » .

وجه بطرس ضرباته القوية نحو عناصر الحياة الاجتماعية فى روسيا المتأصلة فى تقاليدها ، فأمر بحلق الذقون وارتداء الزى الغربى ، ونهى عن عزلة النساء ، ونهى

الرهبان عن جمع الأموال بل انه ذهب إلى أبعد من هذا فألغى بطريركية موسكو ، ووضع شئون الكنيسة فى يد مجلس دينى مقدس .

وبعد النجاح فى هذه الثورة (١٧٢١) سهل عليه نسبياً إنشاء المدارس وإصلاح العملة والتقويم، وإنشاء مجلس للشيوخ، ووضع نظام الوظائف العامة وبناء الأسطول على أنه لم يكن يملك المال اللازم لينظم الخدمات الاجتماعية وإنشاء المشروعات التربوية وتكوين هيئات التدريس التى كان يرنو إليها . وبالرغم من ذلك استطاع بطرس أن يقدم لشعبه كثيرا من الخدمات القيمة عندما قدم له المقومات الرئيسية الثلاثة للدولة الحديثة : الجيش والأسطول والإدارة المدنية ، وإليه يرجع الفضل فى إصدار أول جريدة روسية وإنشاء أول دار للاستشفاء فى بلاده وأول متحف روسى .

وهكذا استطاعت روسيا بفضل جهود بطرس الأكبر مؤسس روسيا الحديثة أن تدخل ضمن نظام أوروبا السياسى ، حيث أخذت تحتل مركزا لا يختلف كثيرا عن أى دولة أوروبية أخرى وإن كانت روسيا قد احتفظت فى الوقت ذاته بمصالحها الخاصة البعيدة .

بطرس والعثمانيون :

كان بطرس يطمع فى ثغر « آزوف » Azov التركى الحصين عند مصب نهر الدون الذى كان يمكن الاتصال به والوصول إليه بالطريق المائى ابتداء من موسكو . وقد ظفرت قواته أمام أسوار هذا الحصن فى عام ١٦٩٥ بأول انتصار لها على القوات التركية . فمكنها ذلك من الاستيلاء على « آزوف » فى ١٦٩٦ .

بطرس والسويديون :

أما مشاكل البحر الأسود فكانت صعبة تتطلب من بطرس البحث عن حليف وقد جاب الغرب باحثا عنه، ولكنه فشل فى العثور عليه . فآثر أن يبدأ ببحر البلطيق أولا ثم البحر الأسود ، فأسس مدينة سانت بطرسبرج . ومنذ الضربة التى وجهها إلى السويد فى بلطاوه ١٧٠٩ حتى مماته فى ١٧٢٥ ظل بطرس فى حرب تكاد تكون متصلة ضد السويد والأتراك والفرس . وقد نجح فى هزيمة السويديين هزيمة فادحة بعد مقتل مليكهم شارل الثانى عشر فى عام ١٧١٨ ، مما اضطر السويديين إلى عقد معاهدة « نيستاد » مع بطرس الأكبر فى ١٧٢١ ، تنازلت بمقتضاها السويد عن

« إنجريا » Ingria و« كاريليا » Carelia و « ليتوانيا » Lithuania و « استونيا » Estonia .

بطرس وبولنده :

لم يستطع أن ينال أى أملاك من بولندا ولكنه ساهم فى مساعدة انتخاب أغسطس الثانى السكسونى لعرش بولندا فأحبط بذلك مشاريع لويس الخامس عشر الذى كان يرغب فى تنصيب أحد ذوى قرباه على عرش بولندا (الأمير كونديه) .

وفى عام ١٧٢٥ مات بطرس الأكبر بعد أن ضم إلى روسيا أقاليم جديدة كما أنشأ عاصمة جديده فى « سان بطر سبرج » St-Petersburg وبعد أن أنجز تلك الأعمال العظيمة فى سبيل تحضير شعبه وإدخال المدنية الأوروبية فى روسيا . وقد أنشأ جيشا نمودجيا على النمط الأوروبى ، ربدأ فى إنشاء أسطول ، وأدخل إلى بلاده آ راء جديدة وملابس جديدة ، كما استعان ببعض الأجانب الذين استدعاهم لإنجاز كل تلك الأمور .

خلفاء بطرس :

لا يهمنا من خلفاء بطرس الأكبر سوى كاترين الثانية التى تعتبر بحق متممة للسياسة التى بدأها بطرس . ومع ذلك فإنا نذكر أنه فى عهد كاترين الأولى والتى حكمت من ١٧٢٥ إلى ١٧٢٧ لم يحدث ما يستحق الذكر لقصر عهدها ، ولكنها اتخذت الخطوات الأولى لتكوين التحالف بين روسيا والنمسا وذلك عندما تعهدت لشارل السادس بضمان عرش الامبراطورية لابنته ماريا تريزا من بعده .

وكانت القيصرة آن Anne ١٧٣٠ — ١٧٤٠ أول من حاولت فتح النافذة البولندية ، وقد سنحت لها الفرصة عند موت أغسطس الثانى ملك بولندا . ولم تكن سياستها تهدف إلى تقسيم بولندا كما اقترح أغسطس ملكها ، ولكنها كانت تهدف إلى فرض سيادتها تدريجيا على بولندا كلها حتى لايشارك روسيا فى نفوذها على بولندا أى دولة أخرى .

وقد كانت بولندا فى تلك الفترة فى حالة ضعف شديد لا تمكنها من الدفاع عن نفسها . كانت تفتقر إلى جانب الحدود الطبيعية الشعور الوطنى المتحمس للوحدة ، وكان يسكنها خليط من الأجناس غير البولندية ، فهناك الروس والتشيك والألمان .

وكانوا يعاملون من أسيادهم البولنديين معاملة العبيد المضطهدين . ثم إن أحوال بولندا السياسية والاجتماعية كانت تدعو إلى تفككها ، كان البولنديون منقسمين إلى طبقتين ، النبلاء والفلاحين ، وكان النبلاء يتمتعون بسلطة واسعة على الفلاحين فيتحكمون فى أرزاقهم بل وأرواحهم . وكانت بولندا ملكية انتخابية ، فالنبلاء هم الذين ينتخبون الملك مما أتاح لهم الفرص العديدة عند اعتلاء كل ملك العرش للحصول على امتيازات جديدة . كان مجلس الدايت — ويتكون من النبلاء — المجلس الوحيد الخاص بتشريع القوانين . ولكنه كان ضعيفاً إذ كان يشترط لإصدار أى قانون وإقراره أن يوافق عليه الأعضاء بالإجماع وقد أدى ذلك إلى عرقلة وفشل سائر مشاريع الإصلاح .

وعند موت أغسطس الثانى فى ١٧٣٣ عملت القيصرة « آن » على بسط سيطرتها على بولندا ؛ وكان زعيمها « بوتوكى » Potockit من المؤيدين لستانيسلاس . ولكن الجيوش الروسية اضطرت « ستانيسلاس » Stanislas إلى الفرار إلى دانزج ، كما اضطرته بعد ذلك إلى التنازل عن عرش بولندا فى عام ١٧٣٦ وقد حكم أغسطس الثالث مدة ثلاثين عاما وظلت خلالها بولندا شبه تابعة للروسيا .

كاترين العظمى أو الثانية ١٧٦٢ — ١٧٩٦ :

على الرغم من جنسيتها الألمانية أثبتت كاترين أنها أكثر حكام روسيا وطنية وغيرة عليها . لم تكن فى بادىء الأمر تشارك زوجها فى ولعه بالألمان ، ولكنها بعد مقتله لم تلبث أن تبينت حكمة التحالف مع فردريك لما كان بينهما من أهداف مشتركة فيما يتعلق بمستقبل بولندا على الأقل .

لم يهتم أغسطس الثالث كثيرا بمستقبل بولندا خلال الثلاثين عاماً فتركها يجرفها التيار . على أن حكم بولندا الفعلى كان فى يد أسرة وطنية يهمها صالح بولندا وهى أسرة « تزارتورسكيس » Czartoryskis . أرادت هذه الأسرة أن تقوم بإصلاحات فى بولندا منها إلغاء حق الفيتو المطلق ؛ على أن هذه المحاولات قد عملت على إحباطها أسرة أخرى أسرة « بوتوكى » Potockis التى أرادت أن تسيطر على الملكية عن طريق مجلس النبلاء ، وقد التمست الأسرة الأولى مساعدة الروسيا قبل موت أغسطس الثالث فى ١٧٦٣ ، على أن الروسيا لم يكن يهمها إصلاح شأن

بولندا ؛ وهنا اتفقت كل من الروسيا وبروسيا فى رغبتهما فى الإبقاء على بولندا ضعيفة ، فاتفقتا فى عام ١٧٦٤ على أن توليا « ستانيسلاس » ملكا على بولندا على ألا يقوم بأى محاولات لإصلاح شأن بولندا . على أن الحرب الأهلية لم تلبث أن وقعت بسبب الخلافات الدينية ، مما جعل فرنسا تستفيد من الموقف . وفى عام ١٧٦٨ اضطرت تركيا أن تعلن الحرب على كاترين ، وهكذا ارتبط مصير تركيا بمصير بولندا . نجحت القوات الروسية فى السيطرة على ولايتى الدانوب . « ملدافيا » و « ولاشيا » ، وقد بدا وكأن الحرب ستنتهى بهزيمة تركيا ، عندما قررت تركيا أن تلجأ إلى مساعدة جوزيف الثانى امبراطور النمسا الذى كان يشترك عندئذ فى الحكم مع أمه على امبراطورية الهبسبورج .

كان فردريك الثانى بعد صلح « هيوبرتسبرج » Hubertsburg يرى ضرورة المحافظة على السلام ، لأن الحرب بين روسيا والنمسا كانت فى رأية تؤدى إلى القضاء على مشروعاته لأنه كان يومئذ فى حاجة إلى السلام لإصلاح شئون بلاده الداخلية . وكانت روسيا ترى كذلك ضرورة الإبقاء على السلام المذلك لا نعجب إذا اتفقت سياستهما فى هذا الشأن وفيما يتعلق ببولندا مما جعلهما تعقدان اتفاقا عام ١٧٦٤ ، وتؤيدان « ستانيسلاس » .

وعندما ظهرت تركيا فى النضال رأى « كونتز » لكى يحمى النمسا من الهجوم الروسى على الدانوب أن يقترح عقد محالفة مع الترك وفردريك الثانى ، ولكنه ووجه بمعارضة ماريا تريزا التى كانت تكن لفردريك أشد البغض ، لذلك رأى « كونتز » أن يبدأ قبل كاترين وفردريك ، فأرسل القوات النمسوية فى ١٧٧٠ لاحتلال « زيبس » Zips على حدود بولندا الجنوبية . وكانت للنمسا أطماعها فيها ، وترتب على ذلك أن فردريك احتل « إلبنج » Elbing فى بروسيا البولندية . وهكذا ووجهت كاترين بالأمر الواقع وهو أن كلا حليفيها قد استوليا على أجزاء من بولندا ، فوافقت عندئذ على فكرة تقسيم بولندا ، وضمت كل من روسيا والنمسا جزءاً من بولندا . لم يلق حادث تقسيم بولندا أى معارضة أدبية ، فإنجلترا كانت مشغولة بمستعمراتها الأمريكية وبالمشاحنات الداخلية ، وفرنسا كانت تفتقر إلى المال والرجال ، بينما فقدت بولندا ٤,٠٠٠,٠٠٠ من سكانها و ٢٥,٠٠٠ ميل مربع من الأرض. ولقد لعبت بروسيا الدور الرئيسى فى هذا التقسيم . أما كاترين — وقد زالت مخاوفها من حرب أوروبية — فركزت جهودها نحو حرب الأتراك التى بدأت قبل ذلك ببضع سنوات ؛

نتيجة للاضطرابات فى بولندا . وكان هدف كاترين أن تجعل من البحر الأسود بحيرة روسية . وذلك عن طريق إثارة اليونانيين ضد الحكام العثمانيين ، وأن تستولى على سواحل بحر « قزوين » . وكانت الحرب فى صالح الروس . فحطم الأسطول الروسى الأسطول التركى فى « تشيسميه » Tchesmé ، كما استولى الروس على شبه جزيرة القرم .

لجأ السلطان إلى النمسا ، فعقدت تركيا مع النمسا معاهدة ، لم تلبث النمسا أن نقضتها فاضطرت تركيا إلى الموفقة على عقد معاهدة « كوتشوك كينارد جى » Kutchuk Kainardji ١٧٧٤ مع الروسيا ، واضطر بمقتضاها السلطان إلى التنازل عن الأراضى الواقعة على الساحل الشمالى للبحر الأسود إلى الشرق من نهر « آزوف » مما جعل حدود روسيا تصل إلى بلاد القوقاز . كما أصبح للتجار الروس حق الاتجار فى حوض البحر الأسود ، ومنحت الروسيا حق حماية الرعايا المسيحيين فى الامبراطورية العثمانية ، كما تم الاتفاق على أن يمنح تتار القرم حريتهم تمهيدا لضمها بعد ذلك إلى الروسيا . وقد تم ذلك بعد عشر سنوات أى فى عام ١٧٨٤ . ولهذه المعاهدات أهميتها العظمى بالنسبة للروسيا التى أخذت عندئذ تتطلع إلى القسطنطينية وتكوين امبراطورية يونانية تقع تحت سيطرة الروسيا .

أما أهم أعمال كاترين الثانية فى الداخل فتعتبر كاترين العظمى خليفة بطرس الأكبر بحق من حيث أنها نهجت منهجه السياسى فى الخارج والداخل . لم تلق محاولة بطرس الأكبر فى نقل مظاهر حضارة الغرب إلى الروسيا ترحيباً ولا رضى من الشعب الروسى ، فلم يكد عهده ينتهى بالموت حتى ارتد الروس إلى سابق حياتهم المعروفة . ولم يبق من آثاره فى الإصلاح إلا ما يتعلق منها بالجيش والكنيسة . وقد نهجت كاترين العظمى نهج بطرس الأكبر فيما يتعلق بتبعية الكنيسة للدولة والقضاء تماماً على البطريركية وهكذا أصبحت الكنيسة مصلحة حكومية . وقد قطعت كاترين شوطا كبيراً فى هذا المجال عندما سلبت الكنيسة الأراضى التى كانت تابعة لها فى عام ١٧٦٤ . وقد اتبعت سائر العقوبات للقضاء على كل من يخالف ذلك ومنها النفى إلى سيبيريا .

وكان تشجيع بطرس الأكبر للصناعة والتجارة واستقدام العمال المهرة من الغرب قد قوبل بمعارضة شديدة من جانب النبلاء . ولذلك أهملت كثير من هذه المحاولات والجهود بعد مماته . لقد اعتمد بطرس على النبلاء فى تنفيذ هذه السياسة ، ولكن خلفاء بطرس أساءوا فهم أغراضه المجيدة ، فاعتمدوا اعتماداً أساسياً على الأجانب .

أرادت كاترين أن تسيطر على داخل روسيا كما سيطرت على السياسة الخارجية . فقسمت روسيا إلى أربعة وأربعين قسما إدارياً بدلا من الأقسام الثمانية التى أوجدها بطرس الأكبر ، وعينت عليها نبلاء اختارتهم ومنحتهم نفوذا عظيما ، ولكنها قضت على كل محاولة للحكم الذاتى المحلى .

لم تقتصر إصلاحات كاترين على ذلك بل تعدتها إلى إصلاحات شديدة أخرى منها أنها كونت لجنة خاصة فى عام ١٧٦٦ لوضع قوانين البلاد ، إذ لم تكن هناك قوانين موحدة . على أن أعمال اللجنة توقفت بسبب الحرب التركية .

كما بذلت كاترين الثانية جهوداً كبيرة لرواج التجارة وتحسين وسائل الاتصال فى روسيا ، فقضت على الاحتكار بأنواعه ، ومنحت أنواع التجارة المختلفة الحرية.

قوبلت محاولات كاترين الثانية لإلغاء الرق بمقاومة شديدة من النبلاء ، فقد كان الفلاحون يعتبرون ملكا للنبلاء كالأرض وما عليها من حيوان . ولم يقتصر الأمر على فشلها فى هذا السبيل بل إن حالتهم قد ازدادت سوءاً فى عهدها . فعندما منحت القيصرة النبلاء المزارع والأراضى فقد الفلاحون الموجودون بها حريتهم فأصبحوا من الزراع الأرقاء وهنا لم تستطع القيصرة شيئا أمام جبروت النبلاء ونفوذهم .

وحكمت كاترين الثانية مدة ٣٤ عاماً (١٧٦٢ — ١٧٩٦) روسيا ، أثبتت خلالها عظمتها ومآثرها على روسيا . وإن سر عظمتها ونجاحها يرجع إلى وطنيتها القوية وغيرتها الشديدة على صالح بلادها روسيا . لقد احتقرت زوجها بطرس الثالث لضعفه . وإذا كانت لم تشترك فى مقتله فقد اشتركت فى أمر تنصيبها قيصرة على روسيا من بعده . كما أنها لم تثق فى ابنها بول الذى حكم روسيا بعدها من ١٧٩٦ — ١٨٠٠ ، ثم إنها لم تسمح لـكل من « جريجورى أورلوف » Gregori Orloff و « بوتمكين » Potemkin أن يؤثرا على سياستها . قامت بدور هام فى تحضير بلادها واخراجها من عزلتها وكانت ذواقة للأدب . أيدت الحركة الفلسفية ، وإذا كانت قد سلبت الكنيسة الارثوذكسية أملاكها فإنها لم تتعرض لمعتقداتها احتراما لشعور رعاياها الدينى .

الفصل السابع

الملكية المستبدة المستنيرة فى بروسيا

عند بداية القرن الثامن عشر فى عام ١٧١٥ لم يكن هنالك دولة قومية موحدة تدعى ألمانيا ، بل كانت ألمانيا تتكون عندئذ من حوالى ٣٦٥ ولاية ، تختلف بعضها عن بعض فى العقيدة الدينية ، والأهداف السياسية وأسلوب الحكم ، وأما التبعية الرسمية فكانت للامبراطورية الرومانية المقدسة . على أن ألمانيا وإن تعددت إماراتها كما ذكرنا فإنها لم تكن تشترك جميعاً فى انتخاب الامبراطور حاشا قلة منها مثل براندنبرج Brandenburg وبافاريا Bavaria ، و « سكسونيا » Saxony و « هانوفر » Hanover وإقليم البلاتين . ولم تكن الرغبة عندئذ فى الوحدة واضحة على الرغم من أن منتخبى بافاريا وسكسونيا والبلاتين كانوا ميالين للوقوف إلى جانب الإمبراطور بينما كانت هانوفر وبراندنبرج تميل إلى الاستقلال بأمورها ، بل وفى بعض الأحيان إلى معارضة الامبراطور فى سياسته , وقد أصبح للامارتين الانتخابيتين منذ عهد قريب شأن أعظم فقد غدا منتخب كل منها ملكا ، فجورج منتخب هانوفر أصبح فى عام ١٧١٤ جورج الأول ملك انجلترا ، وفردريك وليم منتخب براندنبرج أصبح ملكا على بروسيا ، وقد كان كلاهما ينشد تحقيق مكانة ممتازة لإمارته الانتخابية فى ألمانيا .

نشأة بروسيا :

كانت ولاية براندنبرج موفقة تمام التوفيق فى حكامها والظروف التى أحاطت بها . فإن هذه المقاطعة الرملية الجرداء الواقعة بين نهرى الإلب والأودر قد آلت إلى أسرة « هرهنزلرن » Hohenzollern فى عام ١٤١٧ على وجه التحديد أى عند مطلع القرن الخامس عشر . وعندما وقع الصراع الدينى فى ألمانيا ممثلا فى حرب الثلاثين عاما . وغدت النتائج التى ستترتب على هذه الحرب على جانب عظيم من الأهمية ، إذ كان بمقتضاها يتقرر القضاء على البروتستنتية أو الاعتراف بها إلى

جانب الكاثوليكية . هناك احتضنت أسرة « هرهنزلرن » القضية البروتستنتية ، وتحت زعامة المنتخب « فردريك وليم » المعروف بالمنتخب الأعظم (١٦٤٠ - ١٦٨٨) بدأت تعمل على تزعم الحركة البروتستنتية فى شمال ألمانيا . وفى مقابل خدماته حصل على بوميرانيا الشرقية ومقاطعتى « مجدبرج » Magdeburg و «هلبرشتاد» Halberstadt ولكن المنتخب الأعظم أسهم بأكثر من انقاذ البروتستنتية فى ألمانيا عندما جعل فى النهاية من مملكته دولة جديدة قوية . وكان فى حاجة ماسة إلى المال وتعمير خزائن الدولة به ، وتمكن من تحقيق ذلك عن طريق إعادة تنظيم ولاياته المختلفة ، ففرض ضريبة عامة على الأرض وأخرى على صناعة الجعة ، ضمنت له الوسيلة لانشاء قوة عسكرية لايستهان بها ، وقد وضح له منذ البداية أنه لايمكن بناء دولته دون الاستعانة بمثل هذا الجيش ؛ ونجح فى تحقيق هذا الهدف . فبلغ جيش بروسيا عند مماته ٣٠ر٠٠٠ مقاتل بعد أن كان تعداده لايعدو بضع مئات عند بداية عهده سنة ١٦٤٠ . وقد كان الجيش أهم وسيلة لتوحيد أملاكه ، وأصبح المنتخب الأعظم القائد المنظم لهذه القوة . وقد اختار الضباط من طبقة النبلاء ، وتبين له أن بروسيا يجب أن تهتم بالعسكرية والروح الحربية وأن تتأثر سائر مرافق الدولة بهذه الروح من شعور بالواجب والنظام والعمل والولاء .

ولم تقتصر إصلاحات المنتخب الأعظم على الجيش أو تنظيم الإدارة المدنية بل اهتم بكل ما يمت للصالح العام بصلة . فعنى عناية خاصة بالتجارة الداخلية والخارجية وتأجيل الممتلكات بالسكان عن طريق تشجيع الأجانب للاقامة فى البلاد ، كل هذه الأمور اضطلع بها بنفسه ، فشجع الجنسيات المختلفة على إقامة مساكن لهم على الأرض البروسية ، من سويسريين وفرنسيين وهولنديين وألمان ، كما وجه عنايته للأعمال العامة من وسائل الصرف وحفر القنوات واستصلاح الأراضى البور ، وقد بذل جهوداً جبارة للنهوض بكل هذه الأعباء ، وأقام أساس عظمته وشهرته على أساس سياسة التسامح الدينى التى اتبعها ولم يكن قد اعترف بها الحكام المعاصرون له بعد . فرحبت بروسيا بل وفتحت أبوابها للمضطهدين من الهيجونوت ممن فروا من فرنسا أو طردوا منها عقب إلغاء مرسوم نانت عام ١٦٨٥ ، واللوثريين الذين اضطهدوا فى جهات مختلفة من ألمانيا ، واليهود وغيرهم . لذلك لم يكن عبثـا ما قاله فردريك العظيم عندما زار قبره « إن هذا الرجل قد عمل أشياء عظيمة » .

أما خليفته فردريك الأول ١٦٨٨ — ١٧١٣ فأهمية عهده قاصرة على أنه نال لقب ملك مكافأة له على مساعدته للامبراطور فى الوراثة الأسبانية فى عام ١٧٠٠ . وعرف بتشجيعه للفنون والآداب وساعد على تقدم بروسيا الفكرى عن طريق تأسيس الكليات الملكيه وجامعة « هاله » Halle . وفى عهد فردريك الأول أصبحت برلين أثينا الشمال ، بينما غدت فى عهد وليم الأول اسبرطة الشمال ، إذ عمت الروح العسكرية حكومتها كلها . فازدهرت كل الصناعات التى تخدم أغراض الجيش .

أما ملك بروسيا الثانى « فردريك وليم الأول » ١٧١٣ — ١٧٤٠ فقد استطاع خلال السبعة وعشرين عاما التى حكم فيها بروسيا أن يتم ما قام به « المنتخب الأعظم» واشتدت وطأة الحرب الشمالية عند اعتلائه للعرش فى عام ١٧١٣ . وقد أحاط الأعداء بملك السويد شارل الثانى عشر من كل جانب . فانضم فردريك وليم الأول إلى بطرس الأكبر قيصر الروسيا . وقد كانت بروسيا واضحة . وإذا كانت الروسيا تطمع فى ممالك البلطيق التابعة « لليتوانيا » Lthuania ومنتخب هانوفر يطمع فى ضم ذوقية « بريمن » Bremen إلى إمارته الانتخابية ، فإن الأراضى بين « مكلنبرج » Mecklenburg « وليتوانيا » Lithuania كانت بروسيا تهدف إلى السيطرة عليها ، وقد حصل فردريك وليم بالفعل نتيجة لتدخله فى حرب الشمال على الجزء الأكبر من بوميرانيا الغربية بما فى ذلك مدينة « ستيتن »Stetin الهامة . وهكذا حقق أطماعه الخاصة بالحصول على منفذ على شاطىء بحر البلطيق .

وحاول فردريك وليم الأول الحصول على دوقيتى Julich و Berg ،وكان عليه لكى يحقق ذلك أن يستعين بالإمبراطور لأن الدوقيتين كانتا داخل حدود الاتحاد الألمانى ، وفى سبيل ذلك اعترف بالضمان الوراثى النمسوى ولكنه لم يصل إلى تحقيق ذلك لأن شارل السادس الذى وعد بذلك لم ينجز وعده ، وكذلك على الرغم من اشتراكه فى حرب الوراثة البولندية لتأييد أغسطس دوق سكسونيا ملكا على بولندا كما كان يرغب الامبراطور فإنه لم يحصل فى النهاية على الدوقيتين . وقد توقع شارل السادس أن ابن فردريك وليم الأول سينتقم لأبيه بسبب ما لحقه من خيبة أمل لموته قبل أن يحقق هذا الحلم . وقد كانت السنوات العشرين التالية سلسلة من الانتقامات التى رمى بها فردريك الثانى الامبراطورية .

وإذا كان الملك فردريك وليم لم ينل النجاح الذى كان يأمله فى سياسته الخارجية، فإن عهده شهد فترة على جانب عظيم من الأهمية فى تقوية دعائم المملكة البروسية. ويقال إنه كان أعظم ملك عرفته بروسيا فيما يتعلق بسياسته الداخلية . وقد كان الجيش أهم المرافق التى عنى بها ، شأنه فى ذلك شأن جده المنتخب الأعظم ، فازدهرت جميع الصناعات التى تخدم أغراض الجيوش ، وأقيمت فى برلين مصانع البارود ومسابك المدافع ومصانع البنادق . كما كرس للجيش جزءاً ضخما من الميزانية يبلغ خمسة أسباعها ، فاستطاع بذلك أن يزود جيشه بكثير من الرجال ، وأن ينظمه نظاما دقيقا ويدربه أحسن تدريب ، مما جعله يعوق يومئذ ما عداه من الجيوش الأوروبية . وقد بلغ عدد جنوده عند مماته ٨٠,٠٠٠ مقاتل .

وفى نظير الإبقاء على مثل هذا الجيش الضخم ، المعد أحسن اعداد فى دولة قاحلة جرداء غير خصيبة قليلة الموارد ، كان على الملك أن يتبع سياسة اقتصاد صارمة .

ولم يأل فردريك وليم جهدا فى اتباع مثل هذه السياسة . وإذا كان وليم قد أبقى على ما كان للنبلاء من امتيازات اقطاعية فيما عدا الإعفاء من الضرائب كما كان الحال فى فرنسا فإنه قد حتم عليهم العمل ، فاستخدم منهم طبقة الضباط فى جيشه ، كما حتم على أبناء النبلاء أن يتلقوا دراسة حربيه خاصة ، وأن يكرسوا جهودهم وحياتهم لخدمة الجيش .

وقد أصبحت الحاجيات العسكرية تتسلط على سياسة الدولة فى مرافقها المختلفة ، دون استثناء الإدارة المدنية . وقد تبين لملك بروسيا — كما تبين لغيره من الملوك المستنيرين — أهمية تركيز السلطة فى يد الملك . فجعل الإدارات الإقليمية جميعا تابعة له تبعية مباشرة . وقام المديرون الخمسة بتنظيم شئون المالية والأراضى ، والعدل ، والحرب والسياسة الخارجية ، كما أنشأ فى كل مقاطعة إدارتين مسئولتين عن مراقبة كل شيء فى مقاطعتهما ، وعن تعيين جباة الضرائب فيها . وكانت كل هذه الإدارات تتبع الملك تبعية مباشرة .

وعلى الرغم من استبداد ذلك الملك فإنه كان مستنيرا ، إذ تبين له أن بروسيا لا يمكنها أن تصل إلى مصاف الدول العظمى إلا إذا اهتم كذلك بالمصالح القومية للبلاد

لذلك شجع التجارة والصناعة ، فرحب بالعاملين فى صناعة الأقمشة وشجعهم على الإقامة ببروسيا . وأنشأ تجارة الأصواف ، وحسن الزراعة وأثبت أنه رجل عظيم . وفى النهاية سار كذلك على هدى المنتخب الأعظم فى تسامحه الدينى عند ما آوى البروتستنت الذين اضطهدوا فى « سالزبرج » Salsburg ، وطردوا من بلادهم عام ١٧٣١ ؛ ومات فى عام ١٧٤٠ قبل وفاة الامبراطور شارل السادس بأربعة أشهر .

فردريك الثانى

(١٧٤٠ — ١٧٨٦)

أما ابنه فردريك الثانى فإنه لم يكن شيئا يذكر عندما تولى الحكم فى بووسيا عام ١٧٤٠ ؛ ولكنه سيصبح فيما بعد شخصية عظيمة فى تاريخ أوروبا ، ويثبت مقدرة سياسية وحربية فائقة . كان أبوه شديدالقسوة عليه ،أذاقه كل ألوانها من سجن وشدة .

وقد حاول مرة أن يهرب من قصر أبيه فأعاده إليه صاغرا ،وكلفه ذلك مشاهدة إعدام صديقه الذى تآمر معه على الهرب ، ولولا تدخل السفير الإنجيزى للقى فردريك عندئذ نفس المصير وقد شابه فردريك أباه من ناحية أن العاطفة لم تؤثر كثيرا فى أعمالهما وتصرفاتهما . ومع ذلك فقد كان فردريك يحب كل مايكرهه ابوه (الكتب ،الموسيقى ، الفلسفة) . ولكن معاملة أبيه القاسية أثرت تأثيرا ملموسا فى نفسيته ؛ فجعلته يفقد فى النهاية كثيرا من إحساسه المرهف ،ومع ذلك أخذ عن والده بعض المزايا التى ستجعل منه رجلا عظيما ، كالنظام ،والإخلاص فى تأدية الواجب ،والوطنية التى لاتزعزعها الهزيمة ولا المصائب . وقد قدر أن بروسيا كانت فى حاجة ماسة إلى الوحدة التى لايمكن أن تتم إلا بتركيز كل السلطة فى يده عن طريق الاحتفاظ بجيش قوى مقدام . كان فردريك الثانى يصر على أن يكون مطاعا طاعة عمياء ؛وأن يكون مستبدا كل الاستبداد ولكن على خلاف ماكان لويس الرابع عشر ، لم يكن يعمل لخدمة أغراضه الشخصية وإنما لخدمة الدولة . فكان أول خادم للدولة كما كان البروسيون جميعا على اختلاف طبقاتهم من النبلاء إلى عبيد الأرض خداما للدولة يطيعون الملك طاعة عمياء .

وكان له فضل عظيم فى تقدم الجيش البروسى فى نظامه وخططه ،فنظم فرق المشاة تنظيما لم تر له أوروبا عندئذ نظيراً ، كما أنشأ أحسن نظام للفرسان فى العالم .

كان محبا للأدب والعلم . ومع ذلك كان ضيق الأفق فى هذا المجال بمعنى أنه أثناء وجود « فولتير » كان لا يعير غيره اهتماما ، ويعتبره الأديب الوحيد ،فلم يقدر أدب «جوته» Goethe الشاب الذى كان من أشد المعجبين به ، ونظر إليه نظرة احتقار . كما أنه لم يهتم كثيرا بتقدم العلوم والرياضيات .

أعمال فردريك الداخلية بعد الحرب :

الجيش :

لم ينصرف فردريك على الإطلاق عن الاهتمام بمرافق الدولة الداخلية ، فنجده فى أحلك ساعات الحرب يدرس الخطط لإصلاح أحوال بروسيا الداخلية ، فلم يستطع أن يصبر على القيام بتلك الإصلاحات بعد عقد الصلح ، وإنما أخذ يهتم بوضع الخطط لإصلاح حالة الجيش بينما كان المفاوضون البروسيون يقومون بمفاوضات صلح « هيوبرتسبرج » Hubertusburg ، فتخلص أولا من العناصر التى أدخلها الجيش اضطراراً أثناء الحرب ، وفى عام ١٧٦٣ عين مفتشين ومراقبين من الفرسان والمشاة فى كل الأقاليم ، وخولهم سلطات واسعة لمراقبة الضباط ، وتصرفاتهم وأعمالهم فى الأقاليم . وقد أثار ذلك فرق الجيش إثارة عظيمة ، لأنهم كانوا يتمتعون بالاستقلال التام فى نظير أن ترضى الملك نتائج أعمالهم ، وقد أحفظ هذه الفرق ورؤساءها أن تعيين هؤلاء المراقبين لم يكن قائما على تفوقهم عليهم فى المنصب أو المكانة ، وإنما كان ذلك وفق أهواء الملك ، فكان قائد الفرقة فى بعض الأحيان مرءوساً لأحد أتباعه أو من هم دونه مرتبة . وعلى الرغم من ذلك التذمر فان سلطة الملك الاستبدادية جعلته يسيطر على الموقف بسرعة ، وقد صمم على أن يبقى على جيش مكون من ١٥٠٫٠٠٠ مقاتل ، مدربين أحسن تدريب ، وأن يثقف ضباطه أعلى ثقافة ، كان يستعرض فرق هـــذا الجيش سنوياً ، كما كان يقسم الاستحقاقات ومخازن الذخيرة بينها فى خزائن الدولة بدرجة تسمح لبروسيا بالدخول فى أية لحظة فى معارك ثمان فى وقت واحد . وفى نهاية حكمه عندما كان الدخل السنوى للدولة لا يصل إلى ٢٢٫٠٠٠٫٠٠٠ « تالبرات » Thalers ترك فى خزائن الدولة ٥١٫٠٠٠٫٠٠٠ أى خمسة أمثال ما ورث عن أبيه عندما آل إليه حكم بروسيا .

إصلاح أحوال البلاد وما انتابها من مصائب من جراء الحرب :

كانت الخسارة التى نزلت بالأرواح والبلاد فى بروسيا خسارة فادحة ، وإن كان من الصعب تحديدها ، لذلك عمل فردريك على تعويض رعاياه عما نزل بهم من خسائر ، فوزع الصدقات والتبرعات على الأفراد . وقد اضطرت كثير من المدن أن تدفع ضريبة للعدو لتتجنب عمليات النهب ، فبرلين مثلا دفعت مليونين

من التالرات Thalers ، فأعيدت إليها. ولكن « هالة » Halle لم تسترد إلا حوالى سدس ما طالبت به .

وكان فردريك يرى أن على الدولة أن تبذل جهدها فى العمل على أن يستأنف النبلاء والفلاحون القيام بواجباتهم العادية ، فوزعت الخيل الزائدة عن حاجة الجيش وقد بلغ عددها ٣٥,٠٠٠ ، كما وزعت كثير من الأقوات على أشد الناس حاجة إليها ، ووزعت الحكومة على الفلاحين الأخشاب اللازمة لإعادة بناء مساكنهم ، وأمدتهم ببعض المال لإقامتها ، وأعفوا من دفع ضريبة الإيراد مدة من الزمن ، وأمدتهم الحكومة كذلك بالثيران والأبقار والأغنام والغذاء والبذور بالمجان . وقد استطاعت الدولة أن تعوض نفسها عن ذلك فيما بعد بما حصلت عليه من إيراد وضرائب لم تلبث أن أودعتها الخزائن الملكية . كما أنها جوزيت على هذه السياسة بالازدياد السريع المضطرد فى عدد السكان .

قصر بوتسدام : Potsdam

وبينما كان الملك منهمكا فى التخفيف عن الغالبية العظمى من رعاياه مما أصابهم من نكبات الحرب سمح بالقيام بعمل يدل على الإسراف والتبذير أثار الانتقاد والشائعات المتنوعة ، وذلك لأنه لم يتصف بحبه للفخفخة كالملوك الآخرين ، ولكنه عقب توقيع الصلح بثلاثة أشهر بدأ فى بناء قصر « بوتسدام » الشهير . والذين يصرون على أن فردريك كان لايقوم بأى عمل إلا وهو مدفوع بصالح الدولة يرون أن الرجل كان يقصد بذلك إيهام دول أوروبا أن الدولة التى تقدر على الكماليات فى الوقت الذى كانت فيه دول أوروبا من حولها تعانى من قلة المال اللازم للضروريات ينبغى أن تكون قادرة مهابة لاتخشى أى عدوان .

الزراعة :

كان هم فردريك فى مجال الزراعة منصبا على العمل على زيادة الأيدى العاملة تنمية للمحاصيل وتجنيب البلاد خطر المجاعات . لذلك استمر فى سياسة العمل على استخدام الأجانب للقيام بشتى الأعمال من استصلاح للأراضى ، وبناء المساكن . وزاد عددهم حتى قيل فى نهاية عهده ان حوالى خمس أو سدس السكان من رعاياه كانوا من المهاجرين أو من سلالة المهاجرين ، وقد نسبت إليهم ترقية الصناعة لما تميزوا به من معرفة وتفوق على البروسيين . وفى سبيل الحصول على ما يلزم قواته من الطعام

سلك الملك كل الطرق فى سبيل توسيع رقعة الأراضى المنزرعة ، والاستزادة من إخصابها ، كما أمر الإكثار من زراعة الغابات ، فأصدر مرسوماً يقضى بألا يترك مكان دون زرع إذا كان من الممكن زراعة شجرة واحـدة فيه . ولم يعوق من جهود الملك الجبارة فى سبيل الاستزادة من رقعة الأراضى الزراعية إلا جدب الأرض وطبيعتها غير الخصبة . ولكنه مع ذلك نجح فى تحويل كثير من أراضيها الرملية إلى مراع ناجحة . وكان يفخر بكونه الزارع الأول فى بروسيا حتى يشجع هذه الحركه . كما شجع رعاياه على الإنتاج المحلى وبمجرد ظهور النجاح فى صناعة بعض الآلات أمر بمنع استيرادها منعاً باتاً ، وجوزى فردريك على ذلك عندما استطاعت بروسيا أن تورد تلك الصناعات للخارج وتحصل فى مقابلها على الذهب والفضة .

وقد حاول فردريك أن يؤمن مركز الفلاح ، فنجح فى الحيلولة بين النبلاء وشراء الأرض ممن هم دونهم مركزا . كما أقام حوالى ثلاثمائة قرية جديدة عن طريق تقسيم بعض الضياع الواسعة النائية . كان فردريك مستنيرا يكره مبدأ الاسترقاق ومع ذلك فإنه أبقى عليه ، وحاول التخفيف من حدته بتحسين حالة رقيق الأرض من الفلاحين ، فجعل لهؤلاء الفلاحين المرابطين بالأرض أجرا معينا .

الصناعة :

أما فى ميدان الصناعة فقد جاهد كثيرا فى سبيل تشجيع الصناعات القائمة وتحسينها وإدخال أخرى جديدة ، فأمدها بالمعونات الماليـة من خزائن الدولة وعمل على حمايتها من المنافسة الخارجية بما فرضه من تعريفة مرتفعة على الصادرات المنافسة لها ، وقد اتضحت جهود فردريك فى الميدان الصناعى وخاصة فيما يتعلق بتقدم صناعة الصينى فى برلين . وقد أفادت القوات البروسية المحتلة لسكسونيا من تقدم هذه الصناعة فى « درسدن » Dresden ، فأقام فردريك صناعة مماثلة فى برلين : ولم يأل جهداً فى إمدادها بكل ما تحتاج إليه من الآلات الأوروبية ، وأخذ يشجع الإقبال على اقتناء الأوانى الصينية واستخدامها بدل الأوانى الذهبية والفضية . وشجع الصناعات الأخرى حتى يغنى بلاده عن الإستيراد من الخارج ، فتقدمت صناعات الحرير والتيل ، وصناعة السفن والتعدين والتبغ ، وقد أراد أن يجعل منه سلعة منافسة لتبغ فرجينيا المشهور .

علاقة فردريك بالدول الاوروبية بعد صلح Hubertsburg ١٧٦٣ :

خاض فردريك غمار حربين شاقتين حصل فى نهايتهما على سيليزيا ، ولكن أهم من ذلك المكانة التى وصل إليها فردريك فى عالم السياسة والحرب . ومع ذلك فقد ظل فردريك حتى نهاية حياته يعتقد أن النمسا لازالت عدوه الأكبر . فهذا جوزيف الثانى أكبر أبناء ماريا تريزا يصبح إمبراطوراً لها فى ١٧٦٥ . وكان يريد الانتقام من فردريك الثانى وكشف عن ذلك عيون رجال فردريك المنبثين فى كل مكان ، فأخذ منذ عام ١٧٦٣ يسعى إلى محالفة روسيا . ولكن أطماع الروسيا فى بولندا كانت تتعارض مع أطماعه . كما كان للنمسا أطماع فى بولندا مما يجعلها تعادى الروسيا وكانت أطماع الروسيا فى الأملاك العثمانية تزيد العداء بين الروسيا والنمسا .

أما كاترين فإنه عند ما مات جارها بطرس ملك سكسونيا فى ١٧٦٣ أخذت تبحث عن حلفاء فلم تجد من فرنسا ولا النمسا أى استعداد ، وكانت تخشى اتحاد بروسيا مع الأتراك ضدها . وفى عام ١٧٦٤ تعهد فردريك الثانى بمساعدة كاترين فى الإبقاء على الفوضى الدستورية القائمة فى كل من بولندا والسويد لو حصل فى مقابل ذلك على تأييد الروسيا فى الحصول على سيليزيا . وفى النهاية عن طريق القوة والرشوة أصبح « ستانيسلاس بونياتوفسكى » stanislas Poniatowski ملكا على بولندا فى سبتمبر ١٨٦٤ .

فى ١٧٦٩ عرض فرديك على روسيا أمر اقتسام جزء من بولندا بين للدول الثلاث بروسيا وروسيا والنمسا . ولكن الروسيا لم تكن ترحب بذلك لأنها ترفض كل اتساع بروسى نحو الشرق . كما أن النمسا كانت تخشى ازدياد قوة بروسيا إذا آلت اليها بعض الأملاك البولندية . ومع ذلك فقد تغلب فردريك فى النهاية وأقنع الروسيا فى يناير ١٧٧٢ بذلك التقسيم ، كما رضخت النمسا لذلك بعد مضى ثمانية أشهر . وفى أغسطس ١٧٧٢ وقعت معاهدة التقسيم ، وقد ساعد على تحقيق ذلك أن قوى بولندا كانت قد خارت تماماً ، بسبب تلك الفوضى التى حافظت على بقائها كل من روسيا وبروسيا فى بولندا . فضمت بروسيا الأراضى البولندية الواقعة بين نهرى « الدنيبر » Dnieper « ودفينا » Dwina . أما بروسيا فضمت بروسيا البولندية وحصلت النمسا على غاليسية « غاليسيا » Calicia وهى أغنى الأقاليم وأكثرها سكاناً .

ومرحادث تقسيم ذلك الجزء من بولندا دون أى اعتراض من سائر الدول الأوروبية ذلك لأن الضمير العالمى لم يكن قد نما بعد ، كما كانت انجلترا مشغولة بمشا كلها فى أمريكا وفى الداخل ، أما فرنسا فكانت قد فقدت شوازيل وقد أصابها الإفلاس ، وفقدت بذلك بولندا أربعة ملايين من سكانها و ٢٥,٠٠٠ ميل مربع من مساحتها . وقد قامت بروسيا بالدور الأكبر فى حركة التقسيم . وهكذا نجح فردريك الثانى فى الحصول على سيليزيا وذلك الجزء من بولندا لبروسيا . ونهض بها تلك النهضة العظيمة .

الفصل الثامن

أهم مميزات القرن الثامن عشر فى تاريخ انجلترا الداخلى

أول هذه الميزات هى اعتلاء أسرة هانوفر عرش انجلترا فى عام ١٧١٤ التى سارت فى سياستها على هدى نتائج ثورة عام ١٦٨٨ أى وفق قانون الحقوق (١) واحترام حقوق البرلمان. وقد ساعدت ظروف هذه الأسرة على تطور نظام الحكم الداخلى فى انجلترا، فتكون نظام مجلس الوزراء، وظهرت وظيفة رئيس الوزراء، وتكون ما يعرف بالمسئولية الوزارية.

بلغت أسرة هانوفر عرش انجلترا عقب موت الملكة «آن Anne» أخت مارى وزوجة وليم الثالث، وكان ذلك وفقاً للاتفاق الذى أبرم قبل توليها إذ اعتبر الوارث الشرعى لها ابن الأميرة صوفية زوجة نائب هانوفر وحفيدة جيمس الأول. وهو الذى عرف باسم جورج الأول الذى حكم من ١٧١٤ – ١٧٢٧، وخلفه ابنه جورج الثانى فحكم من ١٧٢٧ – ١٧٦٠. وقد ازداد نفوذ مجلس العموم فى عهد الملكين الأول من هذه الأسرة، وتم ذلك نتيجة لظروفهما.

نهضة الحياة البرلمانية :

بدأ أعضاء مجلس العموم حياتهم النيابية بداية متواضعة، فكان عملهم قاصراً على تقديم الالتماسات الخاصة بإحداث بعض التغييرات فى صالح الامة. ولكن فى القرن الرابع عشر بدأوا يكتسبون حق تشريع القوانين. فاستطاعوا أثناء حرب المائة عام أن يكتسبوا حق التشريع والسيطرة على الضرائب، ذلك لأن الحاجة إلى المال جعلت الملوك يعتمدون على تأييد البرلمان اياهم فى الحصول عليه. ثم توقف البرلمان عن القيام بدوره فى السياسة القومية أثناء حرب الوردتين (١٤٥٥ – ١٤٨٥). ولكن عندما وضعت الحرب أوزارها استأنف البرلمان فى عهد هنرى السابع دوره، وظلت المسائل المالية هى الغالبة فى اختصاصاته، فكانت اجتماعات البرلمان القليلة خلال عهد هنرى السابع لأغراض مالية.

---

(١) انظر قانون الحقوق Bill of Rights ص ٢٤٢ – ٢٤٣.

وإذا كان هنرى السابع قد اعتاد أن يستشير البرلمان فى مسائل الحرب ، فقد كان ذلك التماساً لموافقته على ماتقتضيه هذه الحروب من نفقات . وقع مثل ذلك فى عهد هنرى الثامن ، فاستعان بالبرلمان فى إحداث تلك التغييرات الجوهرية فى الحياة الدينية فى انجلترا . على أن البرلمان لم يقم بدوره فى السياسة الخارجية عندما كانت هناك وسائل للحصول على المال دون الالتجاء إلى البرلمان .

واستطاع البرلمان أن يعارض سياسة الملوك عندما كانت تتعارض مع مصالح الشعب ، ومن ذلك ما حدث فى عهد اليزابث عندما اعلنت سياسة الاحتكار فى بعض مرافق الدولة . وانتصر البرلمان عندما أعلنت اليزابث امتثالها لرأى أعضائه فوافقت على إلغاء سياسة الاحتكار .

وزاد نفوذ مجلس العموم بصفة خاصة والبرلمان بصفة عامة عندما انعقدت جلسات البرلمان الطويل من ١٦٤٠ — ١٦٥٣ فأكد اختصاصاته وحقوقه ، وزاد منها بفضل ظهور بعض الزعماء البرلمانيين المدافعين عن حقوقه أمثال « همبدن » Hampden « وبيم » Pym (١) . وهكذا كان الصراع بين البرلمان والملكية فى عهد شارل الأول ١٦٢٥ : ١٦٤٩ أثره فى تدعيم حقوق الشعب ومركز البرلمان فى الحكم . وإذا كان نشاط البرلمان قد توقف عندما الغاه كرمويل فى عام ١٦٥٣ ، فإنه لم يلبث حتى عاد مدعما بعودة ملكية استيوارت فى عام ١٦٦١ .

لقد صدق القول بأن عودة الملكية Restoration كان فيها استعادة للبرلمان أكثر من استعادة للملكية نفسها ؛ ومعنى ذلك أن الملكية فى الظاهر قد عادت إلى ما كانت عليه . إلا إن مركز القوة ومصدرها تغير عما كان عليه . فالحرب الأهلية قد قلبت أوضاع العلاقة بين « هوايتهول» Whitehall أو الوزارة و« وستمنستر» Westminsier أى البرلمان ، ذلك لأن البرلمان هو الذى دعا الملك شارل الثانى فى ١٦٦٠ ليتبوأ عرش انجلترا بينما جرت العادة أن الملك هو الذى كان يدعو البرلمان إلى الانعقاد . أصبح أعضاء البرلمان فى مركز القوة ، يعبرون عن آرائهم بكل صراحة ، فكثيراً ما كانوا يهاجمون أتباع الملك فى البرلمان . وقد تبين عندئذ أنه من الممكن إخضاع الملك لرغبة النواب إذا حرم من تلك القوة المسلحة التى كان يستخدمها من قبل لمقاومة رغبة البرلمان ونفوذه .

---

(١) انظر ص ص ٢١٨ — ٢١٩ .

وقد ظهر انتصار البرلمان بخاصة عند عودة الملكية إلى التمسك بعدم فرض ضريبة وتقريرها دون موافقة أعضائه . فلم تعد هناك قروض إجبارية أو محاولات للحصول على المال دون استشارة البرلمان. وكان فى تصرف البرلمان كما ذكرنا هدم للاستبداد ولكن كانت تنقصه المراقبة الفعالة على سياسة الدولة ، فتلك الخطوة لم تتم إلا فى خلال المائة وخمسين عاماً التالية .

لقد كان فى الثورة الإنجليزية ١٦٨٨ — ١٦٨٩ تدعيم للملكية وكذلك تقوية للبرلمان عندما أصبحت الملكية مدينة للبرلمان بمركزها ، ولما كانت مضطرة إلى الالتجاء إليه للحصول على المساعدات المالية وعلى قواتها الحربية زادت تبعيتها للبرلمان . . .

أظهر كل من « مارى » و « وليم » William و « آن » Anne اعتماداً زائداً على تأييد البرلمان ، ومع ذلك فلا يمكننا أن نقول أن البرلمان كان يحاسبهم أو يراقبهم فى اختيارهم للوزراء . وكل ما هنالك أنهم كانوا يراعون شعور البرلمان فى ذلك مجلس العموم . وهكذا أصبح الطريق معدا لنمو المسئولية الوزارية ، التى بدأت تظهر بعد اعتلاء جورج الأول عرش انجلترا . وقد تم نموها فى عهد الملكة فيكتوريا .

ونجح البرلمان فى القرن الثامن عشر فى الوصول إلى طريقة تجعله يفرض رقابة دائمة على السياسة ، كما نجح فى الوصول إلى طريقة تمكنه من التخلص من العناصر التى لا تروقه فى الحكومة دون الإلتجاء إلى القوة ، تلك هى طريقة المسئولية الوزارية ، وتتلخص فى أن يقوم بأعباء الحكومة وزراء يعتمدون على تأييد غالبية مجلس العموم ، ويمكن تغييرهم دون الإلتجاء إلى قلب النظام الدستورى القائم ، وكان هذا النظام يتوقف نجاحه على عدة عوامل أهمها تأييـــد مجلس العموم الذى ازداد نفوذه فى عهد الملكين الأولين من أسرة هانوفر نتيجة لظروف هذه الأسرة .

أراد مجلس العموم عندئذ أن يوجه تهمة الخيانة العظمى Impeachment «لوالبول» Walpole ، ولكن لم يلبث أن تبين للأعضاء أن الخطأ لم يكن خطأ شخصياً . وعلى أى حال . فقد نال العقاب الذى يستحقه عندما اضطر إلى الإستقالة بسبب ما ارتكبه من خطأ . وهنا يجب أن نشير إلى الحقيقة التالية وهى أنه عندما استقال « والبول» لم يستقل سائر الوزراء كما هو متبع الآن ، وذلك لأن المسئولية الجماعية للوزارة لم

تتكون دفعة واحدة خلال هذا القرن ، ولم يحدث أن تغير كل أعضاء الوزارة إلا فى حالتين عند اعتلاء جورج الأول العرش فى عام ١٧١٤ ؛ وفى عام ١٦٨٢ .

أصبح مبدأ الاعتماد على تأييد مجلس العموم ضرورياً فى بناء الوزارة وضماناً لبقائها ، اعترف به « والبول » Walpole فى بادىء الأمر ، واحتفظ به فيما بعد عندما رفض جورج الثانى أن يعين « وليم بت » Pitt وزيراً للحربية عام ١٧٤٦ ، بعد أن استقال « بلام » Pelham وزملاؤه ، فحاول الملك أن يكون وزارة جديدة ، ولما لم ينجح فى الحصول على تأييد مجلس العموم اضطر إلى استدعاء الوزارة القديمة وقد وقع حادث مماثل فى عام ١٧٥٧ عندما حاول الملك أن يتخلص من « بت » Pitt فطرده من وظيفته ، ثم اضطر إلى أن يعيده لما كان يتمتع به من تأييد مجلس العموم ولأن الشعب كله كان شديد التعلق به ، وقد ظهرت آثار ذلك فى الصحف التى أطلقت عليه لقب « المواطن الحقيقى » The True Patriot فأخذت تنادى بعودته فى إلحاح .

خدم « والبول » بلاده بما قدم لها من أعمال جليلة بناها على ما أحدث من تغييرات دستورية . فعن طريق تطهير مجلس الوزراء من جميع الزملاء الذين كانوا لايتفقون مع سياسته ، ولايخضعون لرئاسته ، وضع نظاماً جديداً سارت عليه بريطانيا منذ ذلك التاريخ أيام السلم والحرب ، فكان نظام مجلس الوزراء الوسيلة التى أهدتهم إلى هيئة تنفيذية مسئولة على الرغم من الحقيقة التالية وهى أن الهيئة التنفيذية كانت خاضعة لإرادة مجلس العموم المكون من حوالى خمسمائة أو ستمائة شخص .

ويتبين لنا مما تقدم أن مجلس الوزراء أصبح الصلة التى تربط بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية ؛ وإنها لصلة وثيقة للغاية . لقد كان الانجليز فى ذلك العهد سياسيين عمليين أكثر منهم أصحاب نظريات سياسية . وقد أخطأ الفيلسوف الفرنسى العظيم « منتسكيو » Montesquieu عندما أعلن للعالم — فى كتابه « روح القوانين » الذى نشره عام ١٧٤٨ — أن السر فى الحرية البريطانية إنما يوجد فى الفصل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ، وقد نتج عن ذلك الخطأ الذى وقع فيه منتسكيو أن وضع دستور الولايات المتحدة على أساس الفصل التام بين الهيئتين التشريعية والتنفيذية وكذلك أن مشرعى دساتير الثورة الفرنسية الأوائل قد نهجوا

هذا المنهج ، ففصلوا بين السلطتين فصلا تاماً مما ترتب عليه استمرار الصدام بين الهيئتين وحدوث الإنقلاب تلو الآخر بسبب ذلك مما جعل السنوات العشر الأولى من عهد الثورة الفرنسية تتميز بذلك التغيير المستمر فى نظم الحكم .

وتعرف المدة بين عامى ١٧١٤ — ١٧٦٠ بعهد سيطرة أقلية من حزب « الهويج » Whig على سياسة انجلترا فى عهد جورج الأول والثانى إذ استأثرت بالسلطات حوالى سبعين أسرة عظيمة من « الهويج » ، على أساس الاحتفاظ بتأييد مجلس العموم لها. فكان رؤساء هذه الأسر التى تنتمى لحزب « الهويج » يوجدون فى مجلس اللوردات بينما كان أبناؤهم وأفراد أسراتهم الحديثو السن يوجدون بين صفوف مجلس العموم — وقد استطاع اللوردات (Peers) أن يحافظوا على الثقــة بمجلس العموم لأنهم لم يعارضوه على الاطلاق معارضة جدية كما كان اللوردات ممثلين بطريقة غير رسمية ولكن فعالة فى مجلس العموم ،وكذلك لم يكن لديهم أى اعتراض على زيادة سلطات ذاك المجاس ونفوذه . ولم يتنبه اللوردات إلى خطورة ذلك الأمر ، وإلى ضرورة تأكيد سلطات مجلسهم المباشر إلا خلال القرن التاسع عشر أثناء مناقشــة قانون الإصلاح ١٨٣٢ وبعد صدوره . وجاء هذا الأمر متأخراً ، إذا اعتاد الانجليز فى العهد الأخير على أن يحكمهم مجلس العموم عندما كان هيئة أرستقراطية ولذلك لم يكن من الممكن أن يتنازل هذا المجلس عن حقوقه لاسيما وأنه قد أصبح عندئذ أكثر تمثيلا للأمة على وجه العموم ، وهنا يجب أن نذكر أن الأقلية من « الهويج » التى سيطرت على زمام الأمور فى انجلترا خلال ذلك العهد أى حوالى نصف قرن لم تستبد بشؤون انجلترا ، وإنما سارت وفق ما جاء فى قانون الحقوق عام ١٦٨٩ الذى أثبت انتصار القانون وتفوقه على الهيئة التنفيذية فى انجلترا ، فقد كان المواطن الإنجليزى يمتلك ضمانات عديدة تحميه من استبداد الحكومة ، كما كان يتمتع بقسط من الحرية كانت تغبطه عليه سائر شعوب أوروبا .

وقد تم لمجلس العموم الحصول على النصر النهائى فى المدة بين عامى ١٧٦٠ و ١٨٣٢ ، ففى عهد جورج الثالث ، حاول ذلك الملك أن يعيد نفوذ الملــكية وأن يحكم حكماً فردياً (١٧٧٠ — ١٧٨٢) Personal Rule . ولكنها كانت محاولة فاشلة كما سنرى ، فبدأ أولا بتعيين من يوافقونه من الوزراء على هــذه المبادىء ولاننسى أنهم بدورهم كانوا يعتمدون فى بقائهم على تأييد مجلس العموم ،

ومنهم مربى الملك وأقرب الناس إليه فعين زميلا « لولم بث » w.Pitt فى إدارة الشئون الخارجية لبريطانيا ، لأن انجلترا فى ذلك العهد لم يكن لها وزير واحد للخارجية كما أصبح الأمر كذلك فيما بعد ، وإنما يقوم بمهام هذا المنصب الخطير وزيران يطلق على أحدهما Secretary of Stats of the Northern Department وزير الخارجية للشمال « وكان يشغله عندئذ « إيرل بيوت » ويطلق على الآخر وزير الخارجية للجنوب Secretary of State of the Southern Department وكان يشغله « وليم بت » William Pitt

وبينما كان الأول يختص بالعلاقات بين انجلترا ودول شرق أوروبا وشمالها ، كان الثانى — وهو أعلى مركزاً — يضطلع بمراعاة العلاقات بين انجلترا والدول الغربية والجنوبية بها والمستعمرات ، وكان لذلك أعظم مركزاً وأهمية من الأول . ثم كانت استقالة « وليم بث » Pitt من الوزارة فى عام ١٧٦١ بسبب عدم تأييد بقية الوزراء له فى سياسته مما جعله يصر على الاستقالة : لأنه كما ذكر لايستطيع أن يتحمل عواقب سياسة لم يخططها أو يوافق عليها على الأقل ، وأصبح « بيوت » Bute بذلك رئيساً للوزارة . وهذه كلها أمثلة تبين كيف استغل ملك انجلترا مطلق حريته فى تعيين من يختار من الوزراء .

وفى عام ١٧٧٠ رأى « جورج الثالث » فى « لوردنورث » Lord North رئيساً للوزارة فى مقدوره القيام بواجباته كرئيس مسئول عن أعمال الملك فى البرلمان وعلى الرغم من اعتراض « نورث » North فى عام ١٧٧٨ على استمرار انجلترا فى حربها ضد المستعمرات لما فى ذلك من خراب لانجلترا والمملكة ، فإنه لم يستقل ، وبقى فى منصبه حتى قوى حزب المعارضة بعد عام ١٧٨٢ ، واضطرت الوزارة كلها إلى الإستقالة . وهذه أول مرة استطاع فيها مجلس العموم أن يضطر الوزارة بأجمعها إلى الإستقالة لأنه لم يكن راضياً عن سياستها .

وبعد عقد الصلح عام ١٧٨٣ الذى منح المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية استقلالها ، أعلن مجلس العموم سخطه على الصلح ، فاضطر الملك إلى جعل وزرائه يستقيلون من مناصبهم ، وإلى إختيار وزارة جديدة لم يحتفظ فيها بأى وزير من الوزارة المستقيلة .

وفقد الملك كل سيطرة على الوزراء عام ١٨٢٩ عندما وافق بعد صراع طويل

على قانون تحرير الكاثوليك من جميع قوانين الاضطهاد التى فرضت عليهم عندمطلع القرن السابع عشر (١٦٠٥) . ويطلق على هذا القانون قانون تحرير الكاثوليك الرومان Emancipation of Roman Catholics ، لذلك كان من شأن « قانون الإصلاح » عام ١٨٣٢ Reform Bill القضاء على جميع الاحتمالات للتأثير على الانتخابات فى صالح الملك . وهكذا تجمعت السلطة فى يد أعضاء مجلس العموم :

وكان القانون المشار إليه يرمى إلى تحقيق أغراض أربعة :

١ — توزيع المقاعد فى البرلمان وفقاً للتغييرات التى طرأت على توزيع السكان نتيجة للانقلاب الصناعى وانتقال السكان إلى المناطق الصناعية .

٢ — الزيادة فى عدد الفرسان الممثلين لكل مقاطعة .

٢ — توسيع دائرة الانتخاب بالزيادة فى عدد من لهم حق الانتخاب .

٤ — التقليل من نفقات الانتخابات .

لم يقض هذا القانون قضاء تاماً على مساوىء الانتخابات، ولكن كان له أثره فى التقليل منها . وساهمت بعد ذلك قوانين عامى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ فى إصلاح مبدأ توزيع المقاعد ، وعملية الانتخاب بوجه عام . واستمر نظام الانتخاب على تلك الحال مدة ثلث إيام القرن التالى تقريباً حتى صدر ما يعرف بقانون تمثيل الشعب The Rcpresentation People Act عام ١٩١٨ ، فألغى شرط الملكية فى حق التقدم للانتخاب . ومنح السيدات فى سن الثلاثين حق الانتخاب ، ولم يلبث قانون ١٩٢٨ أن خفض سن من لهن حق الإنتخاب من السيدات إلى ٢١ عاماً ، وصدر حديثاً فى عام ١٩٤٨ قانون الشعب People Act وبمقتضاه أعيد توزيع المقاعد البرلمانية وفقاً للتغييرات التى طرأت على توزيع السكان .

الفصل التاسع

أسبانيا

من الممكن تقسيم حكومة أسبانيا بين منتصف القرن السابع عشر وغزو نابليون لها أى خلال حوالى قرن ونصف القرن إلى ثلاثة عهود :

العهد الأول : ويقع فى عهد الملك شارل الثانى (١٦٦٥ — ١٧٠٠) . وقد أثار مرضه الطويل وتوقع موته بين لحظة وأخرى دول أوروبا المهتمة بالامبراطورية الأسبانية فى أوروبا وخارجها فيما وراء البحار ، فقامت بينها سلسلة من المفاوضات التى أظهرت حرص الدول على ألا يؤول هذا الإرث العريض إلى ملكية البوربون أو إلى أملاك الهبسبورج فى النمسا ، فيعيد إلى الأخيرة امبراطورية شارل الخامس التى بسطت نفوذها على أوروبا خلال القرن السادس عشر ؛ وبالفعل فشلت محاولات الهبسبورج فى تحقيق هذا الغرض بسبب اصطدامها بأطماع لويس الرابع عشر ، وحرص الأسبان على عدم التفريط فى أملاكهم . وأكدت حرب الوراثة الأسبانية والمعاهدات التى تلتها الأخذ بمبدأ التقسيم وجعلت من فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا وامبراطوريتها فيما وراء البحار ، ومن ثم بدأ فرع جديد لأسرة البوربون يحكم فى أسبانيا .

أما العهد الثانى : فيشتمل على عهد ملكى البوربون الأولين : فيليب الخامس (١٧٠٠ — ١٧٤٦) ، وفرديناند السادس (١٧٤٦ — ١٧٥٨) ؛ خلال هذين العهدين قامت محاولات لتطبيق نظام الملكية المستبدة المطلقة السلطان الموجودة فى فرنسا على أسبانيا وقد استعادت أسبانيا خلال هذا العهد مركزها الدولى كما توقف تدهور أحوالها الاقتصادية .

ويبدأ العهد الثالث باعتلاء شارل الثالث (١٧٥٨ — ١٧٨٨) عرش أسبانيا .

حكم شارل قبل ذلك دوقاً على بارما Parma وفى عام ١٧٣٤ ملكاً على مملكة الصقليتين . وقد تأثر بأفكار الملكيات المستبدة المستنيرة : وفى بداية الحكم استعان ببعض الإيطاليين فى مناصب الدولة العليا ، كما استعان بعد ذلك بنخبة ممتازة من

الأسبان المخلصين وبمساعدتهم أصلحت أحوال حكومة أسبانيا . على أن تلك الإصلاحات التى أدخلت على الإدارة والإقتصاد لم تكن كافية لعلاج حالة أسبانيا المضطربة ، فأثبتت الحرب بعد ذلك مدى سوء الحالة المالية مما أدى إلى انتهاء عهد الملك شارل الرابع بتنازله عن العرش عام ١٨٠٨ .

نظام الحكم :

كان اهتمام أسرة البوربون أثناء حكمها لأسبانيا خلال القرن الثامن عشر ينصب على تطبيق نظام الحكم الملكى المستبد السائد وقتئذ فى فرنسا . وإذا بدا أن هذه المحاولة قد نجحت إلا أنها فشلت فى الواقع ، فلم يكن ملوك أسبانيا البوربون بما فيهم شارل الثالث شخصيات مميزة ، فلمع اسم وزيرين ألبيرونى و Alberoni وريبيردا Ripperda فى عهد فيليب الخامس الذى لم يكن يملك شخصية قوية تمكنه من الوقوف فى وجه أطماع زوجة اليزابيث فرنيز Elizabeth Farnese . على أن ضعف أسبانيا لم يتضح إلا عندما اضطرت أن تواجه تحديات نابليون وهى تحت سيطرة حظى الملكة Godoy جودوا أمير السلام وتنازل كل من شارل الرابع ووريثه فرديناند السابع عن العرش عام ١٨٠٨ ، ذلك مع العلم بأن سقوط هذه الأسرة كان واضحا عندما تولى شارل الرابع العرش عام ١٧٨٨ .

وكانت عوامل فشل هذا الحكم عديدة : فقد طرأ على أسبانيا انحلال اقتصادى خلال القرن السابق لاعتلاء هذه الأسرة الحكم فكان الشعب يئن من البطالة المستحكمة كما أخذت سلطة الملك فى الضعف ، وأخذ النبلاء فى توسيع سلطانهم والكنيسة فى العمل على ازدياد ثروتها ، وكان لسيل الحروب الخارجية منها والداخلية أثرها فى فقدان الأراضى المنخفضة وبقية الأملاك البرجندية . وتأثرت الأحوال الثقافية والاجتماعية بتدهور الأحوال الاقتصادية . فزاد عدد النبلاء بانضمام طائفة من نبلاء الريف الجدد الذين بلغ عددهم فى عام ١٧٨٧ حوالى ٥٠٠,٠٠٠ ، وقد أصبح الجميع يتمتعون بامتيازات تفوق تلك التى كانت لنبلاء فرنسا . وكان ازدراؤهم للطبقات العاملة الكادحة واضحاً ، بينما كان غالبية الأسبان من الطبقات الفقيرة المعدمة .

أما الطبقة الوسطى الأسبانية فكانت تسيطر على الاحتكارات التجارية ، وخاصة تجارة جزر الهند ومع ذلك فقد كانت أضعف من الطبقة الوسطى فى فرنسا . وقد نقل مركز تجارة الهند من أشبلية إلى قادش Cadiz فى عام ١٧١٧ وكانت تجارة أمريكا تستخدم الثغر كذلك . وفى عام ١٧٦٤ وبعدها اتخذت بعض الإجراءات للحد من

احتكار قادش لتجارة أمريكا ، وعند موت الملك شارل الثالث أصبحت التجارة متاحة لكل الرعايا الأسبان وفى كل الثغور الأسبانية . وفى النهاية ألغى المركز التجارى فى عام ١٧٩٠ بعد أن ظل ينظم التجارة مدة ٢٨٧ عاماً ، على أن ذلك التحرير جاء متأخراً ولذلك لم يكن له تأثير كبير على أسبانيا فلم يكن ممكناً انقاذ امبراطورية أسبانيا فى أمريكا .

أما فكرياً وثقافياً فإن أسبانيا كانت أكثر الدول مقاومة لانتشار آراء عصر الاستنارة بين ربوعها أو لربما كانت صالونات مدريد أقل جاذبية من صالونات باريس فى استقبال هذه الآراء الجديدة التحررية كما أنها ارتبطت بفرنسا فهى إذن آراء أجنبية على البلاد . وقد كانت سيطرة الكنيسة على أحوال الدولة من أهم العوامل التى عوقت انتشار هذه الآراء .

الكنيسة :

لم تقف موقف المدافع عن الكاثوليكية أمام الديانات الأخرى من إسلام ، ويهودية ، وبروتستنتية : إذ حاربتها جميعاً وأخضعتها ، وعملت على نطهير شبه الجزيرة الأسبانية منها وقد كانت الملكية فى أسبانيا هى العائق الوحيد أمام استئثار الكنيسة بالسلطة المطلقة وكانت فرصة استقرار الأسرة الجديدة (أسرة البوربون) فى الحكم فى اسبانيا مرتبطة بمحاولة إبعاد الارتباط الوثيق بين التاجين الأسبانى والفرنسى . وقد عقد فيليب الخامس اتفاقاً بابوياً مع البابا فى عام ١٧٥٣ فى صالح التاج . وطرد الجزويت فى عام ١٧٥٧ . وأصبحت محاكم التفتيش خاضعة لبعض القيود ، فقلت أحكامها الخاصة بإحراق المارقين وانتهى الأمر بتحريمها تماماً . كانت هذه الإجراءات ثورية ، وعلى ذلك لم تلق ترحيباً فكان الأسبان فى أغلبيتهم يتمنون العودة إلى الأحكام القاسية القديمة . احتفظت الكنيسة بنفوذها وثروتها . وفى عام ١٧٨٧ كان عدد رجال الدين فى أسبانيا ٢٠٠,٠٠٠ نسمة منهم ٦٢,٠٠٠ من الرهبان وحوالى ٣٣,٠٠٠ من الراهبات . وقد شاهد عصر شارل الرابع هجوماً على موقف الكنيسة ورجال الدين بسبب موقفهم المعوق للتقدم وانتشار المعرفة . وقد أثبتت الأحداث التاريخية أن الكنيسة الأسبانية كانت أكثر اندماجاً فى المجتمع من الكنيسة الفرنسية . كما أنها فى أسبانيا ساهمت فى مقاومة كل تغيير فى كافة الميادين .

الجيش والأسطول :

كان الهدف الأسمى الذى تسعى إليه الملكية المستبدة فى أسبانيا القوة والسلطان لا الصالح العام . وإن أسبانيا التى قامت على الحرب وبجد السلاح كانت دولة متفوقة

فى ميدان الحرب على أن الفترة الأخيرة من حرب الثلاثين عاماً قد شاهدت نهاية هذا التفوق — ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى عدم اهتمام كافة ملوك أسبانيا خلال القرن الثامن عشر بعد فيليب الخامس بالأمور العسكرية . وقد تضاءل اهتمام فيليب الخامس بتلك الأمور بمجرد النهاية الناجحة لحرب الوراثة الأسبانية التى جعلت منه مؤسساً لحكم فرع أسرة البوربون فى أسبانيا على الرغم من أن عصره قد عاصر سلسلة من الحروب المضنية التى انتهت بحرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠—١٧٤٨ فانصرف الشعب عن المناصب العسكرية ، وفضلت الطبقات المتعلمة الانخراط فى السلك الكنسى ، أو القضائى أو المدنى . كما أن طبقة النبلاء فى أسبانيا لم تكن حريصة على الاستئثار بالمناصب العسكرية كما كان الحال بالنسبة لنبلاء فرنسا ؛ ولذلك أصبح أكثر من نصف الضباط الأسبان فى الجزء المتأخر من القرن الثامن عشر من طبقة العامة . وفى عهد فرديناند السادس استمر السلام خلال الإحدى عشرة سنة الأخيرة من حكمه . وفى عهد شارل الثالث قامت عدة اصلاحات فى الإدارة تناولت الجيش كذلك . وفى عام ١٨٠٣ قام جودوا Godoy بمحاولة أخيرة لصبغ الجيش الأسبانى بالصبغة الفرنسية ولكنه لم يكن يملك القوة ولا الإصرار اللذين يمكناه من فرض مثل هذه الإصلاحات على أمة تقف حائلا دون احداث أى تغيير .

كانت فرقة المشاة أهم فرق الجيش وأميزها ، وقد زودت مستودعات الأسلحة بأحدث الأسلحة وأحسنها وكانت هذه التحسينات التى استحدثت فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر مستقاة من النماذج الفرنسية ومهما يكن من إصلاحات فى هذا الصدد فإنه لايمكننا أن نعتبر أسبانيا من الدول العظمى ذات الجيوش المتفوقة . وقد كان ضعف هذه القوى النتيجة الحتمية لمسايرة جودوا لنابليون وعدم مقاومته .

أما بحراً فكان الأمر مختلفاً تماماً ذلك لأن أسبانيا لم تكن لتستطيع البقاء دون وجود قوة بحرية . على أن هذه القوة قد تلاشت تقريباً فى نهاية القرن السابع عشر . وعندما تولى فيليب الخامس حكمه فى أسبانيا بدأ فى العمل على إحياء قوة أسبانيا البحرية . فبدأت فى عهد وزيره ألبرونى Alberoni حركة احياء قوة أسبانيا البحرية ، ولكن فشل الحملة البحرية التى أرسلها إلى صقلية وهزيمة الأسطول الأسبانى فى موقعة كيب بسارو Cape Passaro فى عام ١٧١٨ حطمت تقريباً كل الجهود التى بذلت لإحياء البحرية الأسبانية .

ولكن فى الأربعينيات من القرن الثامن عشر اتضح تفوق الأسطول الأسباق وبراعته فى الحرب ضد انجلترا ، ذلك لأن المشكلة بالنسبة لأسبانيا لم تكن فى بناء السفن إذ كانت مزودة بعدد كبير منها وإنما كانت فى تدريب الرجال على ارتياد البحار وقد بدأ بالفعل ذلك التدريب فى عام ١٧٢٦ . ونجحت المحاولة فى عام ١٧٣٧ رغم المعارضة الشديدة التى واجهت هذه التجربة .

وفى الخمسينيات من القرن ١٨ ضعف الأسطول ؛ فشاهدت حرب السنوات السبع خسائر جمة فى عرض البحار . وبذلت جهود جديدة لتقوية الأسطول ظهرت آثارها عند تدخل أسبانيا فى حرب الاستقلال الأمريكية على الرغم من الخسائر التى نزلت بها . وفى نهاية عهد شارل الثالث نجحت أسبانيا فى تقوية أسطولها مما مكنه من مواجهة الحرب ضد فرنسا فى عهد الثورة . وأخذت الدولة فى بناء السفن بسرعة تفوق تكوين الرجال الصالحين لقيادتها وتدريبهم على خوض غمار المواقع البحرية مما أدى إلى الخسائر الفادحة التى نزلت بالأسطول الأسبانى . أثناء مساندتها لفرنسا ضد انجلترا بين عامى ١٧٩٦ ـ ١٨٠٢ ثم بعد ذلك فى موقعة الطرف الأغر **Trafalgar** فى عام ١٨٠٥ .

الضرائب :

كان عبء الضرائب ثقيلا على جميع الطبقات ، فلم يكن مبعث ذلك أنه قام على أسس غير عادلة إذ لم يعف النبلاء ولا رجال الدين من الضرائب كما كانت الضرائب ثقيلة بوجه خاص على أدوات الترف ووسائله . وبسبب صعوبة فرض ضريبة مباشرة على المجتمعات الزراعية فقد تم فرض بضع ضرائب غير مباشرة لسد احتياجات الدولة ، وزيد من عددها عندما ساءت أحوال أسبانيا الاقتصادية . وقد كان ملوك أسبانيا وبعض وزرائهم المخلصين يدركون عدم صلاحية ذلك النظام الضريبى ، فاقترح فى عهد الملك فرديناند السادس إلغاء جميع هذه الضرائب الداخلية ، وفرض ضريبة واحدة على الغلال عند طحنها . وقد تحمس كل من « إنسنادا » **Ensenada** « وباتينو » **Batino** للمشروع لأن كليهما ينتمى إلى الطبقة البرجوازية ، واستطاعا الحصول على موافقة البابا «بندكت الرابع عشر» **Benebictx IV** على مساواة رجال الدين بالعلمانيين فى تأدية الضريبة المقترحة حديثاً . وبدأ الاستعداد على قدم وساق لتنفيذ المشروع ؛ فاجتهد القائمون على تنظيم هذه الضريبة فى جميع الإحصائيات المساعدة، فبلغ عدد ما جمع منها مائة وخمسين مجلداً كما صدر أمر ملكى بتاريخ ١٧٤٩ بإلغاء كافة

الضرائب والاستعاضة عنها بضريبة واحدة . ولكن الأمر لم ينفذ ، كما صدر مرسوم مماثل بضريبة واحدة فى قشتاله فى عام ١٧٧٠ فى عهد شارل الثالث ولكن عناصر المقاومة كانت قوية ففشل المرسوم مرة ثانية . وهكذا كانت مشروعات اصلاح تنظيم الضرائب تلقى مقاومة شديدة من الطبقات التى ستضار بهذا التغيير وكذلك من أفراد الطبقة الوسطى التى كانت تجد فى تعدد المهام المالية القائمة وقتئذ مصدراً رحباً لإيجاد وظائف لأبنائهم .

كانت الضرائب متعددة ؛ تفرض على اللحوم والنبيذ والخل والزيت والصابون والشمع وغيرها من سلع الكماليات . وفى عام ١٧٨٥ اتجه التفكير نحو فرض ضريبة جديدة على الدخول وعلى الإيجارات ، وعلى الإنتاج الصناعى ، ولكن صعوبة التنفيذ أدت إلى صرف النظر عنها فى عام ١٧٩٤ فى نظير استحداث ضريبة مباشرة بغرض تسديد ديون الدولة .

وعممت المكوس والضرائب على الأصواف على سائر أنحاء المملكة فيما عدا نفار Navarre « وباسك » Basqoe وكانت الأخيرة تعتبر ولاياتها خارج نطاق الضرائب الأسبانية .

وكانت احتكارات الدولة الرئيسية هى الدخان والملح وقد كان الملح مرتفع الثمن . ولكنه كان أخف وطأة من ضريبة الملح فى فرنسا «لاجابل» La Gabelle إذ لم يكن هناك تحديد لكمية الملح التى يستهلكها الفرد ، كما أنه لم تكن هناك أى إعفاءات من الضريبة وقد بدت للحكومة الأسبانية فكرة احتكار كافة أوراق الكتابة المستعملة فى الإجراءات القانونية بما فيها أعمال المجالس الكنسية، ومحاكم التفتيش ، فبدأ تطبيقها منذ عام ١٦٣٦ ، كما احتكرت الملكية بطاقات الميسر (كروت الميسر) على أن ذلك النظام الضرائبى لم يطبق بدرجة واحدة فى كافة الولايات الأسبانية فلم تكن أرغونة Aragon تخضع له كما كانت قشتالة Caetille ، وفى كتالونيا Catalonia حيث اشتهرت صناعة الأقمشة فرضت ضريبة على كل قطعة قماش فختمت كل منها بخاتم جابى الضريبة .

وقد ألغاها شارل الثالث مقابل فرض ضريبة عامة مباشرة على الأقمشة . أما مقاطعتا « نفارا » Navarre « وباسك » Basque فقد كانتا تنفردان بنظام ضريبى خاص مختلف تماماً عن سائر أنحاء أسبانيا .

ونختم هذا المختصر بالإشارة إلى أن مصدر ضعف الحكومة الأسبانية المركزية والمحلية على حد سواء كان يكمن فى توزيع قواها فى مسائل شتى وتشتيت جهودها فى مختلف الميادين ؛ إذ كانت أطماعها تفوق بكثير الوسائل التى كانت لديها .

أما فيما يتعلق باقتصاد الدولة فالصورة واضحة ، لم تكن أسبانيا دولة فقيرة . ولكن ثروتها لم تكن كافية لتحقيق أغراضها العديدة ، ولذلك يلاحظ افلاسها حتى فى عهدها الذهبي والتفسير واضح إذا طالعنا الدخل والمنصرف فى الأعوام ١٧٦٣ ، ١٧٨٧ ، ١٧٩٧ حيث يظهر التفاوت الكبير فيها وعجز الدخل عن سد احتياجات الدولة المتزايدة .

الفصل العاشر

البرتغال

سار تاريخ البرتغال منذ حصولها على استقلالها فى عام ١٦٤٠ إلى وقوع أحداث الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ على نسق تاريخ أسبانيا جارتها وان كانت فرنسا هى الدولة الملهمة فى تقديم نوع الحكم الاستبدادى للبرتغال . وإذا كانت البرتغال قد ثارت على أسبانيا فى عام ١٦٤٠ بعد حكم الأخيرة لها مدة ستين عاماً فإن البرتغال لم تنل استقلالها التام تحت حكم أسرة «برجانزا» Braganza إلا عام١٦٦٨بسبب الموقف الأوروبى ؛ آيته نجاح أسبانيا فى انهاء الارتباط بين فرنسا والبرتغال ، والضعف الذى اعترى أسبانيا فى نهاية حكم فيليب الرابع (١٦٢١ — ١٦٦٥) . وعقد الصلح النهائى بين الطرفين فى ١٣ فبراير عام ١٦٦٨ . فتم الاتفاق على إعادة العلاقات التجارية بين الدولتين إلى ماكانت عليه فى عهد الملك سباستيان Sebastian ، وعلى استرداد كافة المواقع التى استولت عليها أسبانيا فيما عدا سبته Ceuta التى ظلت فى يد أسبانيا .

أحوال البرتغال الاقتصادية :

ولم يكن فى استطاعة البرتغال أن تتمتع بمفردها باستقلال تام . ففى عام ١٦٤١ كانت حدودها مفتوحة فى وجه التجارة الخارجية . وفى عام ١٦٥٤ تنبه أولفركرمويل إلى أهمية التحالف مع البرتغال اقتصادياً وعسكرياً ، فعقد معها معاهدة أصبحت أساس سيطرة انجلترا على شئون البرتغال الاقتصادية . عندما نالت البرتغال استقلالها كانت أحوالها الزراعية متدهورة بسبب عدم وفرة الأيدى العاملةفحاول « ايريسيرا » Ericeira الوزير المسيطرعلى شئون البرتغال منذ عام ١٦٧٥ فىعهد الوصاية على «بدرو» Pedro الذى أصبح زفيما بعد بدرو الثانى — أن يعالج الحالة متبعاً فى ذلك المثل الذى اتبعه كولبير Colbert فى فرنسا . ولكن لم يلبث أن توقف تطبيق هذا النظام بعد موت ايريسرا فى عام ١٦٩٠ . وبمقتضى معاهدة مثوين Methuen التجارية

مع انجلترا فى عام ١٧٠٣ ضحت البرتغال بصناعة المنسوجات الصوفية فى سبيل رواج تجارة النبيذ ، وظلت أسواق البرتغال والبرازيل أسواقاً رائجة للسلع الانجليزية إلى نهاية القرن الثامن عشر كما ازدهرت تجارة البرتغال خلال ذلك القرن نتيجة لتدفق ذهب البرازيل .

ولا يفوتنا أن نذكر أن امبراطورية البرتغال الاستعمارية قد عانت كثيراً أثناء خضوعها لأسبانيا وحاولت هولندا غزو البرازيل ولكن أحبطت المحاولة فى عام ١٦٥٤ ومن ثم أصبحت البرازيل والمستعمرات الإفريقية مركز اهتمام البرتغال .

ولم تتحقق آمال البرتغال فى أن تصبح البرازيل مورداً أساسياً للثروة المعدنية مدة طويلة على الرغم من اكتشاف بعض المناجم بها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، ولكنها فى النصف الثانى من القرن السابع عشر بدأت تبشر بخير كثير عندما أخذت تمد البرتغال بمحصول وافر من الذهب .

استعانت البرتغال بمجلس الكورتيز Cortes فى عهد الأسرة الجديدة . فوافق فى عهد الملك جون الرابع John IV على الضرائب الجديدة . ولم يلبث أن فقد مجلس الكورتيز أهميته فى عهد الملك بدرو الثانى ، فلم يدع للاجتماع إلا ثلاث مرات فقط لتنظيم بعض الأمور التى تتعلق بمشاكل الوراثة . ولم يلبث المجلس أن اختفى تماماً بعد عام ١٦٩٧ . ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٢٠ غدت البرتغال مثالا من أمثلة الملكيات المستبدة الوراثية .

وأخذ ملك البرتغال جون الخامس (١٧٠٦ — ١٧٥٠) يستخدم أموال الدولة بسخاء فى أغراض البناء متشبهاً بلويس الرابع عشر أيام عظمته وسطوته .

وحذا حذوه خلفاؤه . لا يمكننا إذن أن نعزو الصعوبات المالية التى واجهته وواجهت خلفاءه إلى أسباب زيادة الإنفاق العسكرى ، فقد حافظت البرتغال على السلام إثر انتهاء حرب الوراثة الأسبانية كما لم تبذل أى جهود وقتئذ لكى تجعل من جيشها جيشاً فعالا ، لا عجب إذن أن أوضحت ظروف الحرب ضد أسبانيا فى عامى ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ أثناء حرب السنوات السبع ، وضد فرنسا الثائرة فى عام ١٧٩٣ قصور استعداد البرتغال العسكرى .

وترجع الأسباب الرئيسية للصعوبات المالية التى واجهت الملكية فى البرتغال إلى

جانب بما اتصف به ملوكها من اسراف إلى اختلال إدارتها المالية وما سادها من فساد ؛ لم تلبث أن انتعشت الأحوال الاقتصادية بعض الشيء بعد عقد الصلح مع أسبانيا عام ١٧١٥ ، ويرجع ذلك إلى ازدياد ايرادات الملك من البرازيل فأصبح يتقاضى حوالى خمس ايراداتها ، كما يرجع إلى تدفق الثروات الخاصة من البرازيل مما أدى إلى ازدياد المقدرة على دفع الضرائب المتزايدة دون حاجة إلى استحداث ضرائب جديدة ، مما كان له أثره فى الاستغناء عن مجلس الكورتيز . وفى عام ١٧٣٠ استقرت الأوضاع الاقتصادية بعض الشيء . ومع ذلك فإن حالة البرتغال الاقتصادية لم تكن خلال السنوات الأخيرة من حكم جون الخامس مزدهرة .

واستعادت البرتغال بعض نشاطها فى المجال الاقتصادى فى العهد التالى عهد الملك جوزيف الأول (١٧٥٠ — ١٧٧٧) بفضل جهود وزيره المخلص بومبال **Pombal** وهو ينتمى لأسرة من صغار النبلاء فى الريف ، المصدر الطبيعى لمد الملكية المستبدة بمعاونيها . استطاع أن يحتل مكانه فى بلاط الملك مع سائر النبلاء وكانوا يسيطرون وقتئذ على مهام الدولة . وكثيراً ما يقترن اسم هذا الوزير بحركة الاستنارة ، على الرغم من أن محاكم التفتيش التى حد من نشاطها قد ظلت قائمة وأن بومبال لم يتأثر بحركة الاقتصاديين (الطبيعين) فى أوروبا ممن نادوا بتحرير التجارة ورفع الحواجز الجمركية ، وتأثرت بمبادئهم بعض دول أوروبا . ورغماً عن محاولاته البحث عن عوامل ضعف البرتغال أثناء دراسته لأحوال انجلترا عندما كان سفيراً لبلاده فى لندن بين عامى ١٧٤٠ ، ١٧٤٤ فإن سياسته الاقتصادية لم تكن إلا محاولة جديدة لتطبيق وسائل كولبير .

على أن بومبال قام بإصلاحات عديدة منها أنه أعاد تنظيم مناجم البرازيل ، وتجارة الدخان والسكر ، وفى عام ١٧٧١ أخذ على عاتقه الاهتمام بتجارة الماس فى بلاده . وفى عام ١٧٥٦ منح المجلس الجديد للتجارة سلطات واسعة لتنظيم التجارة الخارجية والعمل على الحد من امتيازات انجلترا التجارية ، وفشلت محاولاته فى الحد من تصدير المعادن النفيسة نظراً لشدة حاجة البرتغال إلى استيراد الحبوب ، وكان لافتقار المجتمع البرتغالى إلى طبقة متوسطة مثقفه أثره فى تعويق الكفاح فى سبيل إيجاد اقتصاد قومى ، فلم تنجح فى هذا السبيل فى جذب اهتمامات النبلاء ، وعوقت الخطط الطموحة لزيادة فرص التعليم . وزاد الموقف الاقتصادى سوءاً أن الدولة لم تكن

لتستطيع الاهتمام بمصانع الدولة ومصالحها التجارية التى أخذت فى الزيادة فى ظل هذا النظام . ومهما قيل عن حكمة بومبال وبعد نظره فيما قدمه من مشروعات اصلاحية ، فإن وسائله فى سبيل ذلك كانت عنيفة وتعسفية بحيث أثارت ضده بعض الأسر العريقة . وعلى الرغم من الجهود التى بذلها فى سبيل اصلاح ما دمره زلزال لشبونه فى عام ١٧٥٥ لم ينجح بومبال فى أن يكتسب شعبية ، فكان عليه أن يصارع من أجل الاحتفاظ بمركزه الذى كان يتوقف على رضى الملك ، وكان الأخير يجتاز محنة التشاؤم من كل شىء بعد أحداث لشبونة المفجعة ، كما كان واقعاً تحت سيطرة الجزويت ، وكانوا من ألد أعداء بومبال وخاصة بسبب كفاحه المرير ضد المكانة التى اكتسبها الجزويت داخل بعض أجزاء البرازيل حيث كانوا ، كما حدث بالقرب من براجوى Paraguay ، يمارسون حكماً سياسياً على مجموعات كبيرة من الهنود الخارجين على سلطان البرتغال .

وأدى اكتشاف المؤامرة التى دبرت لاغتيال الملك وتورطت فيها عدة أسر من الأرستقراطية إلى اشتداد بومبال فى معاقبة أعدائه من العلمانيين والدينيين ، فطرد الجزويت من البلاد فى عام ١٧٥٩ ، وبعد اجراءات مماثلة اتهم فيها الجزويت فى فرنسا بعدائهم للسلطة الملكية ألغى نظامهم فى عام ١٧٦٤ ، ولاقوا نفس المصير فى أسبانيا عام ١٧٦٧ . وكان بومبال وإلى جانبه أسبانيا وفرنسا أول من اقترح على البابا إلغاء نظام الجزويت . وإذا كان البابا كلمنت الثالث عشر Clement XIII قد قاوم الفكرة فإن خليفته كلمنت الرابع عشر قد حل هذا النظام بصفة نهائية فى عام ١٧٧٣ .

قام بومبال بعد ذلك بسلسلة من الإجراءات لتحسين الأحوال الاقتصادية واستعادة البلاد لمركزها المالى . وفى عام ١٧٧٨ اقترح سن قانون جديد فى هذا الصدد ، كما انشئت فى عام ١٧٧٩ أكاديمية العلوم وبدا وقتئذ أى فى القرن الثامن عشر تأثر البرتغال بالحركة الإنسانية .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الوزير بومبال لتحسين أحوال البرتغال فإنه لم ينجح فى تحقيق أغراضه جميعاً . بل ظلت مالية الدولة مضطربة . فلم تسدد المرتبات ولا المعاشات لفترة طويلة كما لم تعد المستعمرات تمد البلاد بأى دخل بل كانت أحياناً على العكس من ذلك تستهلك بعض مصادر دخل الدولة . وهكذا لم تكن البرتغال مستعدة لمواجهة المشاكل السياسية التى واجهتها أثناء الثورة الفرنسية التى لم تلق ترحيباً من شعب البرتغال .

طرد الجزويت :

ومما يجدر الإشارة إليه أنه من العوامل التى أدت إلى تحسين العلاقات بين لشبونه ، ومدريد ، وباريس الجبهة الموحدة التى كونتها الدول الثلاث فى مواجهة نظام الجزويت ففى أسبانيا اتهم الجزويت بتحريض شعب مدريد على معارضة الإصلاحات التى أدخلها وزراء شارل الثالث . كما أقنعت الشائعات الملك بأن جماعة الجزويت كانوا وراء المخطط الذى انتشر بين أفراد المجتمع وكان يهدف إلى اثبات عدم أحقيته فى عرش أسبانيا بحجة أنه ابن طبيعى تمهيداً لتولية أخيه لويس على العرش ، فتم طرد عدد كبير من الجزويت فنقلتهم السفن إلى إيطاليا كما حدث فى البرتغال . فهنأ بومبال الملك شارل الثالث على ذلك النجاح الذى مكنه من النجاة من خطر محقق .

كانت كل من البرتغال وأسبانيا وفرنسا فى موقف مماثل بالنسبة لجماعة الجزويت فقد كان لويس الخامس عشر فى عام ١٧٦٤ مقتنعاً بأن الجزويت كانوا يتآمرون على حياته وأنهم مدبرو حادثة داميان Damins لاغتياله مما أدى إلى طردهم من فرنسا فى نوفمبر من نفس العام . وفى أسبانيا أثبتت التحقيقات مع الجزويت بأنهم كانوا يمولون بعض الثوار مما أدى إلى طردهم بمقتضى مرسوم فى أبريل عام ١٧٦٧ . وترتب على ذلك أن بومبال الوزير البرتغالى اقترح على الدول الثلاث أن تطلب من البابا تطهير المجتمع منهم . وقد رفض البابا كلمنت الثالث عشر ولكن استجاب خليفته لهذه الرغبة فتم وقف هذا النظام فى عام ١٧٧٣ وكان لإذاعة هذا الخبر فى البرتغال فى العام التالى أثره فى إقامة الاحتفالات ومظاهر الابتهاج .

أملاك البرتغال فيما وراء البحار فى القرن السابع عشر :

تلاشت كل مصالح البرتغال التجارية فى الشرق خلال سيطرة أسبانيا عليها مدة الستين عاماً (١٥٨٠ — ١٦٤٠) بسبب هجمات الهولنديين عليها عندما أغلقت البرتغال لشبونة فى وجه تجارتهم مما دفعهم إلى المبادرة بالاتصال بمصادر هذه التجارة فى آسيا وإفريقيا والبرازيل وقد كانت سيادة البرتغال التجارية تتوقف على احتكارها لتجارة التوابل وخاصة جوزة الطيب والقرنفل ولم يكن ذلك ممكناً دون حماية مصادر هذا الإنتاج من الدخلاء ، ودون أن تقضى على منافسة العرب التجارية فى الخليج العربى .

ونجحت هولندا خلال الربع الأول من القرن السابع عشر فى اضعاف قوة

البرتغال البحرية فنجحوا فى الوصول إلى جاوه ثلاث سنوات بعد طردهم من لشبونه، واستولوا على بعض الجزر الهامة فى المنطقة وأهمها جزر ملقا Mallaca فى عام ١٦٠٧ كما فقدت البرتغال ثغر هورمز Ormuz . وكان مركزاً هاماً اتخذت منه البرتغال ركيزة للقضاء على قوى المسلمين فى المنطقة ، سقط هذا الثغر الهام فى يد الشاه عباس بمساعدة سفن انجلترا كما أخذت قوات عمان فى طرد البرتغاليين من معاقلهم فى هذه المنطقة حتى سقط آخرها مسقط Muscat فى عام ١٦٥٠ .

وحاول الهولنديون دون جدوى الاستيلاء على جزيرة موزمبيق فى شرق أفريقيا فى أعوام ١٦٠٤ ، ١٦٠٧ ، ١٦٠٨ . وكان لفشل هذه المحاولات أن نعمت هذه المستعمرة بالسلام النسبي حتى نهاية ذلك القرن .

أما البرازيل فقد هاجمها قراصنة فرنسا وانجلترا ومغامرو البحار فى البلدين بعد استيلاء البرتغال عليها . وبدأ الهجوم عليها من جانب الهولنديين فى عام ١٥٩٨ . ولكن هذه المحاولات المبكرة لم يكن لها نتائج ذات بال . ولكن بعد تكوينهم لشركة الهند الغربية فى عام ١٦١٢ بثلاث سنوات أرسل الهولنديون أسطولا لمهاجمة البرازيل ، ونجحوا فى طرد البرتغاليين منها ، وظلوا بها عاماً أرسلت على أثره لشبونه قوة جديدة فاستسلموا . ولكنهم هاجموها مرة أخرى عام ١٦٢٧ واستولوا على بعض المواقع . ونصبوا عليها الأمير موريس ناسو Maurice of Nassau ومن ثم أصبحت مستعمرة هولندية ، ولكن الجزء الجنوبى من البرازيل ظل فى أيدى البرتغاليين ، ومنه أعيدت سيطرة البرتغال على الجزء الشمالى وهكذا أعيدت البرازيل كلها فى عام ١٦٥٤ إلى أيدى البرتغاليين .

فهرس الموضوعات

* مقدمة الكتاب ٥ — ٧
* الباب الأول : أوروبا فى القرن السادس عشر
الفصل الأول : أوروبا الجديدة وأهم مميزاتها ١١ — ٢٨
— الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى خلال القرن السادس عشر ٢٩ — ٤٤
الفصل الثانى : الكشوف الجغرافية وحركة الاستعمار ٤٥ — ٥١
— الكشوف الجغرافية البرتغالية ٥٢ — ٥٦
— الكشوف الإسبانية ٥٦ — ٦٢
— تكوين الإمبراطورية الإسبانية ٦٢ — ٦٥
— أهم النتائج التى ترتبت على حركة الكشوف الجغرافية العظيمة ٦٥ — ٧١
الفصل الثالث : عصر النهضة ٧٤ — ٩٧
الفصل الرابع : الحروب الإيطالية (١٤٩٤ — ١٥٥٩) ٩٩ — ١٠٦
الفصل الخامس : حركة الإصلاح الدينى ١٠٧ — ١٠٩
— حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا (مارتن لوثر) ١١٠ — ١٢٠
الفصل السادس : انجلترا فى القرن السادس عشر تحت حكم أسرة التيودور (١٤٨٥ — ١٦٠٣) ٢١ — ١٢٢
— حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا ١٢٢ — ١٣١
الفصل السابع : عهد الملكة اليزابيث (١٥٥٨ — ١٦٠٣) ١٣٣ — ١٤٠
الفصل الثامن : ثورة الأراضى المنخفضة ١٤١ — ١٥٣
* الباب الثانى : أوروبا فى القرن السابع عشر ١٥٥ — ١٥٨
الفصل الأول : هنرى الرابع مؤسس أسرة البوربون (١٥٩٤ — ١٦١٠) ١٥٩ — ١٧٠
الفصل الثانى : عهد الوزراء العظام ١٧١ — ١٨٨
الفصل الثالث : عصر لويس الرابع عشر (١٦٦١ — ١٧١٥) ١٨٩ — ٢٠٧
الفصل الرابع : إنجلترا فى القرن السابع عشر فى عهد أسرة إستيوارت (١٦٠٣ — ١٧١٤) ٢٠٩ — ٢٢٢

الفصل الخامس : عهد الجمهورية (١٦٤٩ — ١٦٥٣)
والديكتاتورية (١٦٥٣ — ١٦٥٨) ٢٢٣ — ٢٢٨
الفصل السادس : عودة الملكية إلى انجلترا (١٦٦٠ —
١٦٨٨ (والثورة العظمى (١٦٨٨ — ١٦٨٩) ٢٢٩ — ٢٤٣
الباب الثالث : القرن الثامن عشر فى أوروبا القرن الثامن عشر
فى أوروبا ٢٤٥ — ٢٥٠
الفصل الأول : استعراض أحداث المرحلة الأولى(١٧١٣
— ١٧٢٠) ٢٥١ — ٢٥٦
الفصل الثانى : المرحلة الثانية من العلاقات الدولية بين
عامى ١٧٢١ — ١٧٣٢ ٢٥٧ — ٢٦١
الفصل الثالث : المرحلة الثالثة من العلاقات الدولية حرب
الوراثة البولندية ١٧٣٣ — ١٧٣٩ ٢٦٣ — ٢٦٥
الفصل الرابع : المرحلة الرابعة من العلاقات الدولية ٢٦٧ — ٢٧٨
الفصل الخامس : المرحلة الخامسة وهى حرب السنوات
السبع ٢٧٩ — ٢٩٢
(١٧٥٦ — ١٧٦٣)
الفصل السادس : الملكية المستبدة المستنيرة فى روسيا فى
القرن الثامن عشر ٢٩٣ — ٣٠٠
الفصل السابع : الملكية المستبدة المستنيرة فى بروسيا ٣٠١ — ٣١٢
الفصل الثامن : أهم مميزات القرن الثامن عشر فى تاريخ
انجلترا الداخلى ٣١٣ — ٣١٩
الفصل التاسع : أسبانيا ٣٢٠ — ٣٢٦
الفصل العاشر : البرتغال ٣٢٧ — ٣٣٢
فهرس الكتاب ٣٣٣ —

رقم الايداع ٥٧٧٧ لسنة ١٩٨٦
الرقم الدولى ٢ — ٠٢٣٩ — ١٠ — ٩٧٧

مطابع الدجوى — عابدين — القاهرة